

المختار السني

في أدب الكاتبة والشاعر
أبي سيار الدين بن الأشير

قدمه وعلق عليه

دكتور أحمد السحروني و دكتور بدوي طبانة

القسم الأول



منشأة
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - ١٩٧٢

المثلث السائر

في أدب الكاتب والشاعر
فضياء الدين بن الأشير

قدمه وعلق عليه

دكتور احمد المحمدي و دكتور بدوي طبانة

القسم الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا كتاب « المثل السائر » الذى ألفه ضياء الدين بن الأثير فى أدب الكاتب والشاعر ، تقدمه اليوم إلى الباحثين عن الفكرة العربية فى مظانها التى يعد « المثل السائر » فى طليعة تلك المظان الأصيلة ، بما حوى من الآراء والفكر التى تدور حول فن الأدب ، والتى تتعمق إلى أصوله فى عصر ابن الأثير ، وفى العصور التى سبقتة ، وهى التى زخرت بكثير من أصول تلك الصناعة التى اهتمدى إليها العلماء وكبار الأدباء والنقاد الذين يعرفهم تاريخ الأدب والنقد عند هذه الأمة العربية التى تعمل اليوم فى جد ودأب لبناء قوميتها ، وتبحث فى إصرار عن المقومات الأصيلة لهذه القومية فى السياسة والعلم والتفكير والأخلاق والفنون ، لتبعتها من جديد بحارية ركب التقدم ، ولتعيد إليها سالف مجدها فى بناء الحضارة الإنسانية .

وعلى الرغم مما يمتاز به هذا الكتاب من الآراء المستنيرة التى أثرت عن أعلام التفكير الفنى ، والتى يعد هذا الكتاب سجلا حافلا لها ، فإن فيه من معالم الأصالة وآثار الشخصية التى تميز صاحبها من غيره من الباحثين شيئا كثيراً .

وقد كان لنا من إخراج هذا الأثر وإعادة نشره غايات ثلاث :

أولها : تقديم نسخة صحيحة من هذا الكتاب يستطيع الباحثون والدارسون الاعتماد عليها ، بعد أن عز على كثير من الطالين اقتناء نسخة منه ، بسبب تقادم العهد بينهم وبين عهود نشره ، ونفاد هذا السفر الجليل من المكتبات العربية ، مع الإحساس بالحاجة إليها ، ليقوم بدوره بجانب ما بعث من آثار التراث العربى فى الناحية التى يتصدى لها هذا الكتاب .

والثانية : إحياء ناحية لها أهميتها من نواحي التفكير الفنى عند العرب فى هذا العهد الذى يمتاز بعث نفائس التراث العربى ، وإحياء مصادر الثقافة العربية ونشرها ، تمهيداً لدرسها ، واستخراج كل صالح مفيد من الأفكار التى اشتملت عليها .

والثالثة : وصل تلك الآراء التى اشتمل عليها المثل السائر بغيرها من الآراء التى توافقها أو تخالفها . والغاية من ذلك الوقوف على أصالة مباحث هذا الكتاب ومدى ما فيها عرضت له من الدراسات . وكذلك معرفة حظ ابن الأثير من تلك الأصالة . وهذه الغاية الأخيرة وحدها جديدة بأن يفرد لها بحث . بل بحوث مستقلة . ولذلك اكتفينا بالإشارة فى هامش هذه الطبعة إلى الآراء التى توارد عليها ابن الأثير وغيره من الذين بحثوا فى مثل ما بحث . والآراء التى نقلها عن غيره ناسباً إياها إلى صاحبها الأصلي . أو التى ادعاها لنفسه . مما وجدنا ثمرة الإفادة منه واضحة . وأثر الاقتفاء بارزاً . ولم يخرج ذلك عن طبيعة ما وضع الهامش من أجله بما لا يخرج عن حد الإشارة أو اللمحة الدالة .

أما ضروب الأصالة . ومنابع العقلية التى استقى منها هذا الكتاب . فإننا ذاكروها فى هذه المقدمة . بما لا يخرج أيضاً عن طبيعة المقدمات .

• • •

وإذا كان لكل مؤلف فى فن من فنون التأليف لون خاص من ألوان المعرفة يمتاز به عما سواه . وناحية يظهر تفوقه فيها . ويظهر تقصيره فى غيرها . فإن ابن الأثير قد خلق فى آفاق كثيرة من آفاق المعرفة . نجد صداها واضحاً فى هذا السفر النفيس . فأنت ترى فيه الكثير من الإشارات التاريخية التى لا يعرفها إلا الواقفون على أحداث الزمان . والعارفون بتقلباته وسير أبطاله وأعلامه .

وتقرأ فيه آثار معرفة واسعة بعلوم العربية التى لا يعرفها إلا المختصون بدراسة أصولها . والمتبحرون فى فقه لغتها . والعاكفون على معرفة نحوها وصرفها . وأساليب التعبير بها . وتطالع فى المثل السائر آثار معرفة بكتاب الله . وحفظ آياته . وقدرة عجيبة على استحضارها . والتثقل بها فى كل موضع يريد أن يتمثل فيه بما يوافق آراءه فى وسائل الإفادة . وأسباب الإتيان . وتجد فيه كثيراً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وفقه سنته . والوقوف على سيرته وأخبار صحابته .

كل ذلك إلى جانب ما وشيت به صفحات المثل السائر من حكم العرب وأمثالها . ومن مآثر منظومها . وجيد مثورها . مما يروك الاطلاع عليه ويأخذ بلبك ما ترى من القدرة على استحضاره . وإجادة التثقل به .

بهذه الألوان الكثيرة من المعرفة . وبهذه الثقافات المتنوعة كمل ابن الأثير نفسه . حتى يحسن إعداد نفسه لما عرض له من علاج الأدب الذى كانوا يعرفون أنه الأخذ من كل فن بطرف .

ولقد كان ابن الأثير أديباً من كبار أدباء العرب . وكاتباً من كتابهم المعدودين والكاتب - كما يرى ابن الأثير - ينبغي أن يتعلق بكل علم . وفي رأيه أن كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ، فيقال . فلان النحوى وفلان الفقيه . وفلان المتكلم . ولا يسوغ له أن ينسب إلى الكتابة ، فيقال : فلان الكاتب . وذلك لما يفترق إليه الكاتب من الخوض في كل فن . .

وبمثل هذه النظرة إلى الأديب الكاتب وما ينبغي له . نظر ابن الأثير إلى البلاغى أو صاحب البيان . وذهب إلى أنه لا ينبغي له أن يقدم على هذا العلم إلا إذا اكتملت لديه ألوان ثمانية من المعارف . وهى :

- ١ - معرفة علم العربية من النحو والتصريف .
 - ٢ - معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، وهو المتداول المؤلف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشى الغريب . ولا المستكره المعيب .
 - ٣ - معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التى جاءت فى حوادث خاصة بأقوام . فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .
 - ٤ - الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور . فإن فى ذلك فوائد جمعة . لأنه يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم . ويعرف به مقاصد كل فريق منهم . وإلى أين ترامت به صناعته فى ذلك . فإن هذه الأشياء مما تشحذ الفريضة . وتذكى الفطنة . وإذا كان صاحب الصناعة عارفاً بها تصير المعانى التى ذكرت . وتعب فى استخراجها . كالشئ الملقى بين يديه « يأخذ منه ما أراد . ويترك ما أراد . وإذا كان مطلعاً على المعانى المسبوق إليها فإنه قد يتبهاً له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه .
 - ٥ - معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك .
- لما يحتاج إليه الكاتب فى تقليدات الملوك والأمراء . وغيرهم ممن يجرى مجراهم . وإذا لم يكن الكاتب عارفاً بالحكم فى الحوادث واختلاف أقوال العلماء فيها . وما هو رخصة فى ذلك . وما ليس برخصة . فإنه لا يستطيع أن يكتب كتاباً يتنفع به .
- ٦ - حفظ القرآن الكريم . فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفاً به لأن فيه فوائد كثيرة منها أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها . واستعمالها فى مواضعها المناسبة لها . ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرواق

وإذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذته بحسراً
يستخرج منه الدرر والجواهر ، ويودعها مطاوى كلامه .

٧ - حفظ الأخبار النبوية ، مما يحتاج إلى استعماله ، فإن الأمر في ذلك يجري
بجري القرآن الكريم .

٨ - ما يختص بالناظم دون النثر ، وذلك معرفة العروض ، وما يجوز فيه من
الزحاف ، وما لا يجوز ، فإن الشاعر محتاج إليه ، وإن كان النظم مبنياً على الذوق ،
ولكن الذوق قد ينبوع بعض الزحافات ، ويكون ذلك جائزاً في العروض ، وقد ورد
للعرب مثله ، فإذا كان الشاعر غير عالم به ، لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز

وكذلك يحتاج الشاعر أيضاً إلى معرفة علم القوافي ، ليعلم الروي والردف ، وما
يصح من ذلك وما لا يصح .

وقد اشترط ابن الأثير قبل تحصيل تلك المعارف جميعها أن يكون الله تعالى قد
ركب في الأديب طبعاً قابلاً لهذا الفن ، ورأى أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى
التشبيث بكل فن من الفنون ، حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما يقوله الناذبة بين النساء ،
والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المتأدي على السلعة في السوق ، والسبب في
ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل واحد ، فيحتاج أن يتعلق بكل فن ، لأن الحكمة ضالة
المؤمن ، وقد يستفيد منها أهلها من غير أهلها .

وهكذا يغالى ابن الأثير في ثقافة الأديب ، ويرى أنها لا حصر لمواردها ، ويذهب
إلى أن البيان كالجال ، لا نهاية لكل منها .

• • •

ولقد كان ضياء الدين على حظ عظيم من تلك الثقافات ، كما يشهد لذلك هذا
الكتاب . وما أودع فيه من فنونها الكثيرة التي حصلها بحده ، والطبع الأصيل الذي
منحه الله إياه . وكل ركن من الأركان التي ذكرها ، وكل آلة من الآلات التي أوجب
أن تكون طوع يمين الكاتب ، فقد عني نفسه في البحث عنها في مظانها .

والواقع أن أكثر ما ذكر ضياء الدين من أصول فن الأدب ، وما يسموه وما ينحط

لم يكن من أثر النظر وضروب التخيل لمثل الفن الأدبي . كما كان ذلك شأن أكثر الآراء التي أثرت عن الذين قننوا لهذا الفن ، ووضعوا قواعده . وقد كان جهد أكثرهم أهمية ، وأجدرهم بالاعتبار ، الموازنة بين الأعمال الأدبية ، واستخلاص مظاهر القوة والجمال التي تمتاز بها بعض تلك الأعمال على بعض . وكان أكثر تلك الأعمال من صنع غيرهم ، على حين أن ابن الأثير كانت صفته الأساسية البارزة اشتغاله بالأدب ، واحترافه فن الكتابة الذي عدّ علماً من أعلامه ، وارتقى به هذا الفن حتى وصل به إلى مرتبة الوزارة ، وتصريف شئون المملكة . بصرف النظر عن مدى توفيقه في ذلك المنصب الخطير ، وسوء تدبيره للأمور ، مما كانت عاقبته نكالا عليه وعلى من ولاه . لذلك كانت آراؤه في الأدب والنقد صادرة عن الفن الذي أعد نفسه له . وعن التجربة التي عاش فيها حياته . ولذلك قرأ ضياء الدين آثار الكتاب الذين ذاع صيتهم وحلق نجمهم . في سماء صناعة الكتابة ، ليقف على مناهجهم فيها . وينقد منها ما لا يراه جارياً وفق مقاييسه التي يرتضيها وهي المقاييس التي رأى أنها أكثر دلالة على إتقان الصناعة ، ولم يقف في سبيل ذلك عند آثار القدماء من فحول هذه الصناعة . بل إنه نقد معاصريه منهم . وهم الذين كان يشار إليهم في عصره في هذه الصناعة بالبنان .

وكان ابن الأثير لا يفتن بما يوجهه إلى أولئك الأعلام من النقد لآثارهم . ولكنه كان يتبع هذا النقد بنماذج من آثاره ، ويوقف على الفرق بين أسلوبه وأسلوب غيره . حتى يستدرج قارئه إلى الإذعان لنبوغه . والتسليم بتفوقه . ثم يثنى على نفسه وفنه بما استطاع . والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ - نقده للقاضي الفاضل في قوله ^(١) : « وعرض على كتاب كتبه عبد الرحيم بن علي البيهقي - رحمه الله - عن الملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب - رحمه الله - إلى ديوان الخلافة ببغداد في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وضمنه ما أبلاه في خدمة الدولة من فتح الديار المصرية ، ومحو الدولة العلوية ، وإقامة الدعوة العباسية ، وشرح فيه ما قاساه في الفتح من الأهوال » .

(١) انظر صفحة ٥٤ وما بعدها من هذه الطبعة .

قال : ولما تأملته وجدته كتاباً حسناً قد وفى فيه الخطابة حقها ، إلا أنه أخل بشيء واحد ، وهو أن مصر لم تفتح إلا بعد أن قصدت من الشام ثلاث مرات ، وكان الفتح فى المرة الثالثة ، وهذا له نظير فى فتح النبى صلى الله عليه وسلم ، مكة فإنه قصدها عام الحديبية ، ثم سار إليها فى عمرة القضاء ، ثم سار إليها عام الفتح ، ففتحها .

ثم يقول : وقد سألتى بعض الإخوان أن أنشئ فى ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذى أنشأه عبد الرحيم بن على - رحمه الله - فأجبت إلى سؤاله ، وعددت مسامى صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله - فقلت . . إلخ إلى أن يقول : وعجبت من عبد الرحيم بن على اليبسافى ، مع تقدمه فى فن الكتابة ، كيف فاتته أن يأتى به فى الكتاب الذى كتبه ؟ !

٢ - قوله فى ابن زياد الكاتب البغدادى : « وجدت لابن زياد البغدادى كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف المقدم ذكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وضمنه فصولاً تشتمل على أمور أنكرت عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرت عليه أنه تلقب بالملك الناصر ، وذلك اللقب هو لأمر المؤمنين خاصة ، فإنه الإمام الناصر لدين الله . فلما وقفت على ذلك الكتاب وجدته كتاباً حسناً ، قد أجاد فيه كل الإجابة ، ولم أجد فيه مغزاً إلا فى هذا الفصل الذى يتضمن حديث اللقب ، فإنه لم يأت بكلام يناسب باقى الفصول المذكورة ، بل أتى بكلام فيه غثاثة كقوله : « ما يستصلحه المولى فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النسق . وكان الألبق والأحسن أن يمتحج بحجة فيها روح ، ويذكر كلاماً فيه دلالة ورشاقة .

قال : وحضر عندى فى بعض الأيام بعض إخوانى ، وجرى حديث ذلك ، فسألتى عما كان ينبغي أن يكتب فى هذا الفصل ، فذكرت ما عندى ، وهو : . . إلخ .

إلى أن يقول منها القارئ إلى ما وفق إليه ، وموازناتى بنفسه وابن زياد : « فانظر أيها المتأمل كيف جئت بالخبر النبوى ، وجعلته شاهداً على هذا الموضع ، ولا يمكن أن يحتاج فى مثل ذلك إلا بمثل هذا الاحتجاج ، وما أعلم كيف شد عن ابن زياد أن

يأتى به ، مع أنه كان كاتباً مفلحاً أرتضى كتابته . ولم أجد فى متأخرى العراقيين من
يعاثره فى هذا الفن ^(١) .

٣ - وقد نقد أبا إسحاق الصابى فى كثير من المواضع ، وأورد له الرسائل الطويلة ،
والتنف السيرة ، وأتبعها بكتابه ، ليرى الفرق بين الكتابتين ، فمن ذلك ما أورده من قول
الصابى فى صفة النبی ﷺ « لم ير للكفر أثراً إلا طمسه وعماه . ولا رسماً إلا أزاله وعفاه » ،
وقد عابه ابن الأثير بأنه لافرق بين مرور العصور وكرور الدهور ، وكذلك لافرق بين محو
الأثر وعفاء الرسم .

وأورد للصابى أيضاً قوله فى بعض كتبه « وقد علمت أن الدولة العباسية لم تزل على
سالف الأيام ، ومتعاقب الأعوام ، تحتل تارة ، وتصح أطواراً ، وتلتث مره ، وتستقل
مراراً ، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنياتها ثابت لا يتضعضع » وعابه ابن الأثير بأن
هذه الأسجاع كلها متساوية المعانى فان الاعتلال والالتاث ، والطور والمرة ، والرسوم
والثبات ، كل ذلك سواء . وساق على هذا النحو من النثر الصابى أمثله أخرى .

٤ - وعابه على صاحب بن عباد ما كتبه فى وصف مهزومين « طاروا وايقن
بظهورهم صدورهم ، وبأصلاهم نحورهم » بقوله : إن كلا المعنيين سواء . .
وكذلك نقد قول صاحب فى وصف ضيق مجال الحرب « مكان ضنك على
الفارس والراجل ، ضيق على الرامح والنايل » وقوله فى كتاب « لا تتوجه همته إلى
أعظم مرقوب إلا طاع ودان ، ولا تمتد عزيمته إلى أفخم مطلوب إلا كان واستكان » ،
فإن كل هذا الذى ذكره صاحب فى نظر ابن الأثير شيء واحد . لأنها ألفاظ متعددة
تؤدى معانى واحدة .

وقول صاحب من كتاب « وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً
وأتمها للحمد استغراقاً ، وتعرفت من إحسان الله فيها وفر من سلامته ، وهناه من
كرامته ، أنفس موهوب ومطلوب ، وأحمد مرقيب ومخطوب » نقده ابن الأثير بأن
هذا كله مماثل المعانى متشابه الألفاظ ^(٢) .

(١) انظر صفحة ٥٧ وما بعدها من هذه الطبعة . (٢) انظر صفحة ٢١٤ وما بعدها من هذه الطبعة

وقد أراد ابن الأثير أن ينفي عن نفسه مظنة التحامل على هذين الكائنين الكبيرين والتعصب عليهما ، فبدأ قدمه من الأمثلة المسجوعة للصائى والصاحب ابن عباد ، فقد يذهب بعض الناس إلى أن المآخذ فيها يسيرة لأنها جمل قصيرة ، قد يقال إنه التقطها التقاطاً من جملة رسائلها الطويلة .

وقد حاول أن يخرج نفسه من هذه التهمة ، بأنه وجد للصائى تقليداً بنقابة الأشراف العلويين ببغداد ، وكان ابن الأثير قد أنشأ تقليداً بنقابة الأشراف العلويين بالموصل ، وقد أورد التقليديين في كتابه (١) ، ليتأملها الناظر ، ويحكم بينهما إن كان عارفاً ، أو يسأل عنها العارف إن كان مقلداً .

وعلى الرغم من أن كلام ابن الأثير هنا غاية الوضوح ، إذ أنه يحاول أن يقود القارئ إلى الحكم الذى يريد ، وهو الحكم بتفوقه ، أو تفوق كتابته على الصائى أو كتابته ، فإنه يحاول أن يستر ما أظهر من انتقاصه ، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك إلا أن يورد تقليد الصائى أولاً ، لأنه كما يقول «المقدم زماناً وفضلاً !» .

ومعنى ذلك أنه يريد أن يقول إنه إذا كان قد بذل المقدم زماناً وفضلاً في نظر الناس فهو أحق بالفضل والتقدمة ، وإن تأخر به زمانه !

وحين يرى وضوح الغاية من كلامه ، يحاول أن يسترها بأنه لم يقصد بما أورد من كتابة الصائى وكتابته الوضع من منزلة الرجل : أو التهوين من خطر فنه .

وقد يكون ذلك حقاً ، وقد يكون الوضع من شأن الصائى في حد ذاته لم يكن هدف ابن الأثير من هذه الكلمات وتلك الموازنات . وإنما كان القصد الحقيقى هو إثبات تفوقه عليه ، وتمكنه من صناعة الكتابة على درجة لم يستطع أن يصل إليها الصائى ، أو غيره من أعلام الكتاب ، الذين اعترف لهم الناس بالإجادة والسبق . ولذلك تراه يعترف بمنزلة الصائى ، وبأن علم الكتابة قد رفعه ، وأنه إمام هذا الفن ، والواحد فيه ، وأنه أجادى السلطانيات كل الإجادة ، وأحسن كل الإحسان ، ولكنه في الإخوانيات مقصر ، وكذلك في كتب التعازى . مع أن

(١) تقليد الصائى في صفحة ٢٨٧ - ٢٥٩ وتقليد ابن الأثير في صفحة ٢٩٥ - ٣٠١

التقليدين الذين سجلها ابن الأثير ، ووازنها بتقليديه ، إنما يدخلان في باب السلطانيات ، ولا علاقة لهما بالرسائل الإخوانية أو بكتب التعازي ! وهذا من أهم مظاهر اضطراب ابن الأثير ، في تقدير الصابي بين الغاية والوسيلة ، ففي هذا الكلام مدح جارى به المشهور الذي لا ينكره أحد ، وذم أشيع به ما في نفسه من الزهو والغرور . فوصف الرجل بأن عقله في كتابته زائد على فصاحته وبلاغته ، وزيادة العلم على المنطق هجته ، وزيادة المنطق على العلم خدعة !

وقد يكون ابن الأثير على حق في كل مقال ، أو في أكثر مقال مما نقد به أولئك الكتاب من الناحية الفنية ، وقد لا يكون كذلك ، وإنما الغاية من سوق هذه الشواهد أن ابن الأثير قد عاش في جو الكتابة والكتاب كاتباً يقرأ كثيراً ، ويتعمق فيما يقرأ ، ويبحث عن أسباب القوة وأسباب الضعف ، ثم يعرض ذلك على ذهنه وبصيرته الفنية الواعية ، ثم يكتب ما شاء ان يكتب مجرداً كتابته من أسباب الضعف ، ومضيفاً إليها من أسباب القوة ماراًه يزيد في قدره ، ويرفع من شأن كتابته ، وتحقيقاً للمثل التي تصورها لفن الكتابة .

وكذلك كان ابن الأثير شاعراً ، وإن غلبت صناعة الكتابة على فنه الأدبي ، ولذلك كان مازى له من الشعر قليلاً ؛ وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن ابن الأثير كان يعبر عن تجربته شعراً ، كما عبر عنها نثراً ، وأنه فيما كتب في المثل السائر كان يستوحى طبيعته الفنية ، قبل أن يتخيل الرسوم والقواعد التي تخيلها من قبله علماء البلاغة والنقد .

• • •

وقد أقدم ابن الأثير على صناعة الأدب بعامه ، وصناعة الكتابة بخاصة ، بعد أن زود نفسه بالآلات ، وثقفها بألوان الثقافات التي عددها ، و: أحس بالحاجة إليها كلما أوغل فيها ، وأحس أن خطورة هذا الفن ، وبعد أثره لاتقل عن خطورة المناصب الرفيعة التي يتولاها صاحبه في قربه من الحكام ، وفي تصرفه لأموار الدولة .

وما رأيك في رجل كان يحفظ القرآن ، والحديث النبوي ، ودواوين الشعراء ، ويعرف من اللغة شاربها وواردها . ومن النحو أصوله وفروعه ، ومن الصرف دقائقه ، ومن الأخبار والأمثال مايعيا بوعيه المختصون في كل لون من تلك الألوان ، وهذه صورة من تلك الجهود المضنية التي بلها في تكميل نفسه : يقول عن نفسه : وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخاطري مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظاً لايشذعني منه شيء .. (ص ١٥٠) .

ويقول في موضع آخر : واعلم أن المتصدي لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس ، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل . وهذا شيء جربته وخبرته ، فإني كنت آخذ سورة من السور ، وأتلوها ، وكلما مر بي معنى أثبتته في ورقة مفردة ، حتى أنهي إلى آخرها ، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبتتها واحداً بعد واحد ، ولا أقنع بذلك حتى أعاد تلاوة تلك السورة ، وأفعل ما فعلته أولاً ، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في التي قبلها .. (ص ١٣٥) .

وأما معرفة ابن الأثير بالشعراء وحفظه الشعر فحدث عنها ماشئت ، ولقد برزت آثار تلك المعرفة وذلك الحفظ واضحة في المثل السائر وغيره من آثار ضياء الدين ، يقول في المثل « إني وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت شعره على الحك إلا وعرضته على نظري » ويقول : « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في الحفظ منه والمسموع ، فألقيته بجرأ لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحصى أسماء قائله » .. ثم يقول : « ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير . ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل ، وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام » .

وبعد أن حصل ضياء الدين هذه الثروة الضخمة من فن المنظوم ، اقتصر منها على ما تكثر فوائده ، وتشعب مقاصده ، ويقول عن نفسه : « لم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منها للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبى عباد ، ولا أنقى ديباجة ، ولا أبهج سبكا ، فاخترت حينئذ دواوينهم ، لاشتغالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها ، مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

ثم يؤكد هذا القول ، وبفصل أسباب إثاره لإشعر أولئك الثلاثة الفحول ، فيقول : « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ؛ إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، ففى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت فى هذا شعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عباد الوليد ، وأبى الطيب المتنبى . وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاء ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء :

أما أبو تمام فإن رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برز فيه على الأضراب .

وأما أبو عباد البحرى فإنه أحسن فى سبك الألفاظ على المعنى ، وأراد أن يشعر ففى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما هو فى شطف نجد ، إذ تشبث بريف العراق . وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه ، فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحرى » ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعزب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عباد أتى فى شعره بالمعنى المقتدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام . وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاقه العالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى في شعره بالحكم والأمثال ، واخصن بالإبداع في وصف مواقف القتال . وأنا أقول قولاً لست فيه متأنثاً ، ولأمنه مثلثاً . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا . والسلاحين قد تواملا ، فطريقه في ذلك تفضل بسالكة ، وتقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه .

ولاشك في أن ضياء الدين كان صادقاً في كل وصف من تلك الأوصاف ، التي أثر بها كل شاعر من أولئك الفحول ، ولا يكاد يشك ناقد من النقاد في صحة ما ذكر من نعوت الشعر عند كل واحد منهم ، ولكن مجال القول إنما هو في سعة اطلاع ابن الأثير على الشعر العربي قديمه ومحدثه ، وإيثاره دواوين أولئك الثلاثة بالحفظ والاستظهار .

ولقد كان اطلاع ابن الأثير على هذا الشعر الكثير ، وحفظه ما استطاع من نصوصه سبباً من أهم الأسباب في توسيع مجال دراسته البيانية ، وكثرة ما اهتدى إليه من أحكام ، أكثرها شديد مصيب . تظهر فيه شخصية الواثق بعلمه ، المطمئن إلى حسن رأيه .

وتطالعنا في ثنايا المثل السائر أسماء كثير من الكتب التي قرأها ابن الأثير ، وفقه ما فيها ، فأعانتة على متاعرض له من دراسة الأدب في فنونه المشهورة وفي كل جزئية من جزئيات العمل الأدبي .

فأنت تقرأ في هذا الكتاب كلاماً في النحو العربي ، وفي علم التصريف وفي فقه اللغة ، فلا يسعك إلا أن تستجيد ما تقرأ ، وإلا أن تعترف بأنك أمام عالم من صفوة العلماء الثقات المختصين في كل فن من تلك الفنون .

وتقرأ كلاماً في التأويل وفي التفسير وفي الحديث النبوي ، فيأخذك ما ترى من كثرة الإطلاع وسعة الباع في الفهم والتحصيل ، وكأنك أمام علم من أعلاء المفكرين والمحدثين .

وتقرأ أمثالا وأخباراً وشعراً ونثراً ، فتعجب من هذا المحصول الذى عنى ابن الأثير نفسه فى تحصيله ، وتعترف أنك أمام ثقافة لاتكاد تقف عند حد ، أو تتوقف عند غاية من الغايات .

وقد اعتمد ابن الأثير نفسه على كثير من أمهات الكتب فى كل فن من الفنون التى تعرض لها ، وقد أشار إلى هذه المراجع فى أثناء دراسته .

١ - فقد ذكر أن مما قرأ فى التفسير تفسير البلاذرى ، وتفسير النقاش المسمى « شفاء الصدور » .

٢ - وقرأ فى الحديث النبوى كتاب « الشهاب » ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، والموطأ ، والترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث .

٣ - وقرأ فى الدين وأصوله « إحياء علوم الدين » وكتاب « الأربعين » للإمام أبى حامد الغزالى .

٤ - وقرأ فى اللغة والتصريف كتاب « الخصائص » لأبى الفتح بن جنى ، وكتاب « التصريف » لأبى عثمان المازنى ، وكتاب « الفصيح » للإمام ثعلب . وكتاب « إصلاح ماغلط فيه العامة » لأبى منصور الجوالقى ، و « مجمع الأمثال » للميدانى .

٥ - وكان مما قرأ من كتب الأدب وموسوعاته ودواوين الشعراء وشروحها : كتاب « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهاني ، وكتاب « الروضة » لمحمد بن يزيد المبرد ، الذى وصفه بأنه كتاب جمعه ، واختار فيه أشعار شعراء ، بدأ فيه بأبى نواس ، ثم بمن كان فى زمانه ، وانسحب على ذيله .

كما قرأ كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « ديوان الحماسة » لأبى تمام ، و « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ ، وقرأ « مقامات الحريري » ورسائل

أبى إسحاق الصباني ، ورسائل الصاحب بن عباد ، وشرح ديوان المتنبي لأبى الفتح ابن جنى ، و « لزوم مالا يلزم » لأبى العلاء المعرى ، ومعجز أحمد له ، وكما قرأ كتاب « النقائض » ، وديوان الفرزدق ، وأبى تمام ، والمتنبي ، وأبى نواس ،

والبحترى ، وابن الرومى ، وكشاجم ، وديك الجن ، وأبى العتاهية ، والعباس بن الأحنف ... الخ

٦- أما كتب البلاغة والبيان فقد قرأ أمهاتها ، وأفاد منها ، ونقدها ، قال فى خطبة المثل السائر : وقد ألف الناس فيه - علم البيان - كتباً ، وجلبوا ذهباً ، وحطبوها حطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب « الموازنة » لأبى القاسم الحسن بن بشر الأمدى ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ^(١) . وقال فى خطبة « الجامع الكبير » بعد كلامه فى أهميته علم البيان ، وصعوبة مراده : « فشرعت عند ذلك فى تطلبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك فى تحصيله سبيلاً إلا نهجت ، ولا غادرت فى إدراكه باباً إلا ولجته ، حتى اتضح عندى بادية وخافية ، وانكشفت لى أقوال الأئمة المشهورين فيه ، كآبى الحسن على بن عيسى الرمانى ، وأبى القاسم بن بشر الأمدى وأبى عثمان الجاحظ ، وقدامة ابن جعفر الكاتب ، وأبى هلال العسكري ، وأبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغامى ، وأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، وغيرهم ممن له كتاب يشار إليه ، وقول تنقذ الخناصر عليه ^(٢) .

وأشهر كتب هؤلاء الأعلام التى تتصل بهذا الفن هى النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ، والموازنة بين أبى تمام والبحترى للأمدى والبيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وكتاب جواهر الألفاظ ، ثلاثها لقدامة بن جعفر ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري ، وكتاب صناعة الشعر للغامى ، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .

كما قرأ وأفاد من كتاب البديع الذى ألفه عبد الله بن المعتز ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني ، وكتاب حلية المجاهرة للماتمى ، وكتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني .

(١) انظر صفحة (٣٢) من هذه الطبعة .

(٢) الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمثور تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل

سعيد : ص ٧ - مطبعة المجمع العلمى العراق : بغداد ١٣٧٥ هـ .

ومقدمة ابن أفلح البغدادي التي ذكر ابن الأثير أنه قصرها على تفصيل أقسام علم
الفصاحة والبلاغة .

بهذه الثقافة بل بتلك الثقافات التي حصلها ، والعقول التي سبر أغوارها ، اقتحم
ابن الأثير ميدان البحث البلاغي ، فكان كتابه مجموعة من الأفكار الماثورة عن
أولئك العلماء الأعلام مزجها بأفكاره ، وبدت شخصيته واضحة مستقلة بين سمات
تلك الشخصيات ، ولم يكتف بأن يكون جامعاً أو ناقلاً ، بل أراد أن يكون مؤلفاً في
البلاغة ، ورائداً من رواد علم البيان ، بما أضاف وصحح ، وعاب ونقد .
ومن هنا كان المثل السائر لونا متميزاً من ألوان التأليف في البيان العربي ،
واستطاع على الرغم من كثرة الآثار فيه ، ووفرة الدراسات المتباعدة في هذا الكتاب
أن يكون مرجعاً من مراجع البلاغة العربية ، لا يستغنى عنه باحث من الباحثين
فيها .

* * *

وقد تأثر ابن الأثير في تلك الدراسة الخصبية التي نجدها في المثل السائر بعاملين
مهمين هما العصر الذي عاش فيه ، والفن الذي اشتغل به ، ووصل به ما كان
يشتهي من المنصب والجاه .

١ - فقد وصل ابن الأثير إلى قمة مجده وذروة نضجه أخريات القرن السادس
الهجري شطراً كبيراً من القرن السابع ، فجاء بعد ازدهار البحوث البيانية ونضجها ،
واختلاف مناهج البحث ، وتعدد الآراء في البيان ، من رأى ينادى بتحكيم
الذوق ، إلى آخر يدعو إلى التقليد في النظر^١ الأدب والحكم عليه إلى رأى ينادى
بالموضوعية والمنهج العلمي ، ويعنى بالتعريف والتنظيم وحصر الأقسام ، إلى ذلك
الأسلوب النقدي التحليل النفسي الذي نراه في كتابي عبد القاهر : دلائل
الإعجاز : وأسرار البلاغة ، وماتميزا به من فكرة النظم التي تبناها عبد القاهر ،
وأرسي قواعدها في النقد والنظر إلى البيان وما نادى به من النظرة الكلية للأدب
والانتصار للمعنى .

بل رأينا ما هو أكثر من ذلك : رأينا الصورة النهائية للبلاغة العربية قد تم وضعها

على يد السكاكي في كتابه المشهور ، مفتاح العلوم ، الذى نظم دراسة البلاغة .
وقتن لها ، وقسمها إلى علومها ، وحدد مباحث كل فن منها .

٢ - وكذلك كان ابن الأثير كاتباً من كتاب الدواوين . كتب للقاضى
الفاضل في دولة صلاح الدين ، كما كتب لأولاد صلاح الدين من بعده ، والذى
يعرف أساليب الكتابة في ذلك العصر الذى عمل فيه ابن الأثير يعرف أنها كانت
تمتاز امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع واستخدام
معانى الشعر والأغظاظ في كتابة الرسائل ، بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى
كادت الرسائل تكون شعراً مثوراً ، والاقبتاس من كلام البلغاء ، وتضمين الأغذاذ
من أبيات الشعراء . ولما نبه شأن القاضى الفاضل أراد أن يحاكي كتاب المشاركة في
البديع ، فزاد عليهم وأرى ، وجاراهم في التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد
عليهم أن استعمل في رساله كل أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ في الشعر ،
كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها ، وأكثر من حل المنظوم ، والاقبتاس من
الآيات ، وتضمين الأمثال ومشهور الأقوال ، وأمعن في التشبيه والاستعارة حتى
جاءت معانى رسائله مقادة لألفاظها وأساليبها .

وقد كانت هاتان الناحيتان عظيمى الأثر في ابن الأثير ، وفي إدراكه لمعنى
البيان ، كما تصوره في المثل السائر .

• • •

تكلم ابن الأثير في خطبة كتابه عن أهمية علم البيان ، وذكر أن منزلته في تأليف
النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام .

ويبدو من أول كلامه أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه ، والتباهى بعلمه ، وكثيراً ما
جره هذا الاعتداد إلى انتقاص غيره من الباحثين فيما بحث فيه فقد ذكر أن الذين ألفوا في
البيان من قبله ألفوا كتباً ، وجلبوا ذهباً ، وحطبوا خطباً ، وما من تأليف إلا وقد
تصفحه ، وعلم غشه وسمينه ، ثم لم يجد ما يستفيع به في ذلك إلا كتاب « الموازنة »
للأمدى وكتاب « سر الفصاحة » للخفاجى ، والكتاب الأول هو الذى حظى
بإعجابه ، لأنه - كما يقول - أجمع أصولاً وأجدى محسولاً ، مع أن المناسبة بين

الكتابين بعيدة ، لأن كتاب الأمدى يعرض للشاعرين أبى تمام والبحترى ، ويعرض شعرهما ، ويوازن بينهما ، ويعرض أقوال الأنصار والخصوم فيها .

أما كتاب الحفاجى فإنه يبحث بحثاً عاماً فى أصول الفصاحة والبلاغة والبيان بما بحث عن أسرارها ودرس من فنونها .

وقد عاب ابن الأثير كتاب سر الفصاحة بأن صاحبه أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المقررة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره .

ولا يقع من ذلك إلا بأن يعود فيعيب الكتاتين معاً ، فيصفهما بأنها قد أهملتا من علم البيان أبواباً ، وربما ذكرنا فى بعض المواضع قشوراً أو تركنا لباباً !

وشبه بهذا الانتقاص وصفه لمقدمة ابن أفلح البغدادى فى قوله : ووقعت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح البغدادى » قد قصرها على تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللراقيين بها عناية ، وهم واصفون لها ، ومكبون عليها ، ولما تأملتها وجدتها قشوراً لا لب تحتها ، لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فإنيها كقول النابتة مثلاً ؛ أو كقول الأعشى ، أو غيرها ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا نعرف حقيقة الفصاحة ، حتى إذا وردت فى كلام عرفنا أنه فصيح ، بما عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه ، وكذلك يقول فى غير الفصاحة .

ويذكر فى موضع آخر أنه عثر على ضروب كثيرة من البيان فى القرآن الكريم ، وأنه لم يجد أحداً تقدمه تعرض لذكر شئ منها ، وهى إن عدت كانت فى علم البيان بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وأن الله هداه لابتنادع أشياء لم تكن من قبله مبتدعة ، ومنحه درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة ، وإنما هى متبعة .

وأمثال هذا كثير فى ثنايا المثل السائر الذى زيف فيه كثيراً من آراء العلماء والبلاغيين والنقاد ، وقد سبقت إشارات إلى حملاته على الأدباء والكتاب لىبى على هذا الانتقاص إعجابه بنفسه ، وزهوه بفنه ، وإن كان فى هذا الزهوشى ومن الصديق ، إلا أن أخلاق العلماء وما اختصوا به من فضيلة التواضع يأبى إقراره على كل ما ذهب إليه فى هذا الموضوع وغيره .

ولقد عرف كتاب « المثل السائر » في بيئات الثقافة العربية على أنه كتاب أدب ، وعرف كذلك على أنه كتاب في أصول البلاغة العربية أحياناً ، وعلى أنه كتاب في النقد الأدبي أيضاً .

وكان الذين عدوا المثل السائر كتاب أدب على حق ، لأنهم وجدوا أنفسهم أمام دراسة خصبة في صناعة الأدب ، وفي أشهر فنونه ، وهى فن الشعر وفن الكتابة ، ووجدوا فيه أصولاً للأدب تجمع صفاته ، وتعرف بأركانه ، وإشارات إلى عدد كبير من الأدباء الذين عرفهم تاريخ الأمة العربية ، ونصوصاً من المنظوم والمثنون تمثل عصوره المختلفة ، واتجاهاته المتباينة .

وكان الذين عدوا هذا الكتاب من كتب النقد على حق أيضاً ، لأنهم رأوه يفيض بكثير من الفكر والآراء الحرة في الأدب والأدباء ، ولم يسلم من نقد ابن الأثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربى بالإجلال والإكبار ، كامرئ القيس ، وتأبط شرا ، والفرزدق ، وأبى نواس وأبى تمام ، وأبى الطيب المتنبي ، وغيرهم من كبار شعراء العربية .

وفي كثير من الأحيان نجد نقداً موضوعياً ، وفي كثير من الأحيان أيضاً نرى ابن الأثير لا يكتفى في النقد الأدبي بحكم المعرفة المستترة ، بل يكبر من حكم الذوق السليم الذى يرى أنه أكبر من حكم القاعدة الموضوعية والمعرفة المحدودة ؛ ويشجع على تربية هذا الذوق بكثرة القراءة ومداومة الاطلاع ، فتراه يقول بالرغم من اعتداده بنفسه ، والزهو بتأليفه . اعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب إن كان فيما يلقى إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ! فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعا ، وهما يربانك الخبر عياناً ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، ومماثل فيا مهده لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفاً ، ووضع في عيئك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال !

ثم إن هذا الكتاب معدود من أمهات الكتب في البلاغة العربية ، ومرجعاً من أهم

مراجعتها ، بما حوى من فنونها الكثيرة المنثورة فى بطون الكتب المختلفة فى موضوعاتها .
المتباينة فى مناهجها .

ويمتاز كتاب ابن الأثير من بين أكثر كتب البلاغة بأنه درس تلك الفنون دراستين :
إحداهما : دراسة قاعدية ، عنى فيها بالحدود والتعاريف وحصر الأقسام ، وجمع
فيها كل ما استطاع جمعه من معالمها التى اهتدى إليها الذين سبقوه إلى البحث
البلاغى ، وهو فى كثير من المواضع يصحح أخطاءهم ، ويضيف إلى تحديداتهم ما
جعلها جامعة مانعة على الوجه الذى يهتدى إليه ، وبالنظر الذى يهتدى به .
والأخرى : دراسة نقدية ، وفيها ألم بكثير من العيوب التى يقع فيها مستعملو تلك
الفنون فى أشعارهم أو خطبهم أو كتاباتهم .

ولذلك كان من الممكن أن يقال إن ابن الأثير قد جمع فى المثل السائر كثيراً من
أصوله البلاغة العربية والنقد الأدبى ، وأنه وحد هذين الفنين الجالين ، ومزجها ،
وأعادها إلى طبيعتها التى تنفر من الأسلوب القاعدى الجاف ، وخلطها بنصوص من
الأدب وآراء فيه أكثرها جيد مصيب .

* * *

ومن جيد ما وفق إليه من النظرات الصائبة فى هذا الكتاب محاولته التفريق بين
مهمة البيانى ، ومهمة كل من النحوى واللغوى ، ويقول فى ذلك إن موضوع علم البيان
هو الفصاحة والبلاغة ، ويسأل صاحب هذا العلم عن أحوالها اللفظية والمعنوية ،
وبشرك هو والنحوى أو اللغوى فى أن الثانى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة
الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة .

أما صاحب البيان فإن له نظرة فوق هذه النظرة ، لأنه ينظر فى فضيلة تلك
الدلالة ، التى هى دلالة خاصة ، والمراد بها أن يكون الكلام على هيئة مخصوصة من
الحسن ، وذلك أمر وراء اللغة والنحو والإعراب ، ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام
المنظور والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من أسرار
الفصاحة والبلاغة ؟ وهذا هو السرفى خطأ مفسرى الأشعار ، لأنهم اقتصرُوا على شرح

معناها ، وما فيها من الكلمات اللغوية ، وتبين مواضع الإعراب منها ، دون العناية بشرح ماتضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

وهذا كلام جيد ، لأن ابن الأثير يفرق فيه بين أمرين هامين ، ينبغي أن يكون التفريق بينهما أساساً لفهم مهمة اللغوى أو النحوى ، ومهمة الناقد أو صاحب البيان . ذلك أن هناك علوماً تتخصص في البحث عن صحة العبارة ، من حيث صحة مفرداتها ، وصحة دلالتها على معانيها ، وصحة التركيب الذى توضع فيه وضعاً صحيحاً على حسب ما يقتضى المعنى وفقاً لقواعد النحو والإعراب ، وتلك مهمة علماء اللغة الذين يبحثون في بنية الكلمة ، وفي دلالتها على معناها ، طبقاً للوضع اللغوى ، وفهم أصحاب اللغة لتلك الدلالة ، وهى مهمة علماء النحو والإعراب الذين يبحثون في صحة ضبط كل لفظ في الجملة على حسب موقعه من العبارة ضبطاً يوافق ما جرى عليه العرب في ذلك الضبط ، وما بنيت عليه قواعد النحو والإعراب التى استنبطها أولئك العلماء بالقياس على نهج العرب في كلامهم .

ثم إن هنالك علوماً أخرى لاتقف عند تلك المسائل التقليدية المعروفة ولكنها تعالج النواحي الجمالية في الأعمال الأدبية على حسب التقاليد الفنية المعروفة التى استنها كبار الأدباء ، والقواعد المستقاة من مظاهر الحسن التى توافرت للفن الأدبى الماثور عن أولئك الأدباء ، نتيجة لطول المداولة والموازنة بين نص ونص ، وبين أديب وأديب . وتلك مهمة النقاد ، أو البلاغيين ، أو علماء البيان .

والنظرة الأولى من هاتين النظرتين عامة ، تتناول العبارة المقولة ، والعبارة المكتوبة بكل أنواعها ، سواء أكانت تلك العبارة عبارة علمية تخاطب العقل ، أم كانت عبارة أدبية تخاطب المشاعر ، وتثير العاطفة والوجدان . وسواء أكانت في أعلى درجات السمو ، أم كانت هابطة إلى مستوى لغة التفاهم التى تجرى بين الناس ، ولاتسمو عن العامية إلا بصحة كلماتها ، وسلامة تركيبها .

أما النظرة الأولى فإنها تختص بالعبارة الأدبية ، أو الأسلوب الفنى ، الذى يعتمد عليه الشعر والخطابة ، وسائر أساليب الكتابة الفنية .

ومن تلك المسائل أيضاً ، مما انفرد به ابن الأثير برأى ، أنه في سبيل بحثه عن فصاحة اللفظة المفردة عرض للوحشى من الألفاظ الذى أنكره النقاد ، وأجمعوا على إخلاله بالفصاحة ، ولكن ضياء الدين يرى أن هذا الوحشى خفى على جماعة من المتتبعين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنوه المستقيح من الألفاظ ، وليس كذلك ، وذلك أن الوحشى منسوب إلى اسم الوحش الذى يسكن القفار ، وليس بأنيس . وكذلك الألفاظ التى لم تكن مأنوسة الاستعمال . وليس من شرط الوحش أن يكون مستقيحاً ، بل أن يكون نافرأ ، فتارة يكون حسناً ، وتارة يكون قبيحاً .

ويبنى على هذا أن الوحشى ينقسم إلى قسمين : أحدهما الوحشى الذى جاءت إليه هذه الصفة من غرابته ، وهو يختلف باختلاف النسب والإضافات .

وأما القسم الآخر من الوحشى فقبيح ، والناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عرى باد ، ولا قروى متحضر .

وعلى هذا يكون اللفظ عند ابن الأثير أنواعاً :

١ - ماتداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ، ولا ينبغ بالوحشية أو الحوشية ، وهذا هو الحسن من الألفاظ .

٢ - وماتداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن ، وأهله ، وهذا هو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ، لأنه لم يكن عندهم وحشياً ، وهو عندنا وحشى .

٣ - الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضاً المتوعر ، وليس وراءه في القبح درجة أخرى ، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ، ممن لم يحظر بياله شئ ومن معرفة هذا الفن . وإذا ورد كرهه السمع ، وثقل على اللسان النطق به .

وإذا كان معنى الحوشى عند ابن الأثير هو الغريب ، فإن العرب لاتلام على استعمال الغريب الحسن ، وإنما تلام على استعمال الغريب القبيح .

وأما الحضرى فإنه يلام على استعمال القسمين معاً ، وهو في أحدهما أحق بالملاءمة من الآخر .

• • •

وفي هذا الكتاب أدل ابن الأثير بكثير من الآراء النقدية التي لها اعتبارها في موازين النقد الأدبي ، وتراه في كثير من الأحيان لا يرضى بآراء الغير بل يسطر الرأي الذي يراه ، والذي يتمشى مع ذوقه ، والذي يساير - في أكثر الأحيان - الفكرة النقدية السليمة ، التي لا يسع القارئ إلا الإقرار بها والإذعان لها ، والشهادة لابن الأثير بالذوق السليم ، ومن ذلك هذا العيب الذي سباه أبو هلال العسكري (التضمين) وسباه قدامة بن جعفر (المبتور) وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه في بيت واحد ، فيقطعه بالقافية ، ويتممه في البيت الثاني . وعند أبي هلال العسكري أن التضمين هو أن يكون الفصل الأول مفتقراً إلى الفصل الثاني ، والبيت الأول محتاجاً إلى الأخير .

ومرجع هذا العيب في نظرهم أن نقاد الشعر العربي قد درجوا على أن وحدة الشعر هي البيت لا القصيدة ، ولهذا عدوا احتياج البيت إلى ما بعده ليتمم معناه عيباً من العيوب التي يجب على الشاعر المجيد أن يتجنبها . وهم لا يقصرون هذا العيب على الشعر ، بل يجعلونه على النثر أيضاً ، إذا كانت الفقرة التي تليها .

وهذا الاعتبار لا ينفى فساد ، لأن القصيدة ينبغي أن تكون وحدة متأسكة ، والحكم على الشعر أو الشاعر ببيت واحد لا يخلو من ظلم وتعسف ، واحتجاجهم بأن خير الشعر ما كان البيت فيه قائماً بنفسه . مستقلاً عما قبله وعما بعده ، حتى يكون كالمثل يصلح للاقتباس ، ويصلح للاستشهاد ، فيه خروج عن طبيعة الشعر الذي لا يتحرى الحكمة وإن جاءت فيه ، وإنما القصيدة من الشعر أو الفصل من النثر يحدث تأثيره بمجموعه الكلي ، حين يحس القارئ أو السامع بالنشوة أو الطرب أو الانفعال ، حين يتم قراءة القصيدة من الشعر ، أو الفصل من النثر ، وإلا فقد جوزنا للشاعر - حين نقصر النظر على البيت الواحد - أن يرضينا في بيت ، وأن يسخطنا في تاليه ، ويكون الأول في غاية الجودة ، ويكون الثاني كذلك ، من غير نظر إلى تنابع الأفكار وتناسق الصور ، ولا بأس حينئذ بالتعارض أو التناقض على رأيهم .

نعم ! قد يكون ذلك عيباً إذا لم تتم الكلمة في البيت . وأتمها الشاعر في البيت الثاني ، كتلك الأبيات التي نقلها الخفاجي في سر الفصاحة ، ووصفها بأنها قبيحة ظاهرة التكلف ، أما احتياج بعض الكلام إلى بعض فلا عيب فيه ، بل هو دليل

تناسك والترباط بين أجزاء النص الأدبي ، وهذا هو المحمود الذي يكون به بعض
جزء الكلام آخذاً برقاب بعض .

ولا يقر ابن الأثير أولئك النقاد فيما ذهبوا إليه ، فيقول إن المعبى عند قوم
(تضمين الإسناد) وذلك يقع فى بيتين من الشعر أو فصلين من الكلام المنشور ، على
أن يكون الأول منها مسنداً إلى الثانى ، فلا يقوم الأول ولا يتم معناه إلا بالثانى ،
وهذا هو المعبود من عيوب الشعر ، وهو عندى غير معيب ، لأنه إن كان سبب عيبه
أن يعلق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً ، إذ لا فرق بين
البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر ، وبين الفقرتين من الكلام المنشور فى تعلق
إحدهما بالآخرى ، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مقفى دل على معنى .

والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى ، فالفرق بينها يقع فى الوزن
لاغير ، والفقر المسجوعة التى يرتبط بعضها ببعض قد وردت فى القرآن الكريم فى
مواضع منه . فن ذلك قوله عز وجل فى سورة الصافات : « فأقبل بعضهم على
بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لى قرين . يقول أنك لمن المصدقين ، إذا
متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدبنون » . فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبطة بعضها
ببعض ، فلا تفهم كل واحد منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى
ارتباط بعضها ببعض ، ولو كان ذلك عيباً لما ورد فى كتاب الله عز وجل . وكذلك
ورد قوله تعالى فى سورة الصافات أيضاً . فإنكم وماتعبدون . ماأنتم عليه بقانتين .
إلا من هو صال الجحيم ، فالأيتان الأوليان لاتفهم إحدهما إلا بالآخرى . وهكذا
ورد قوله عز وجل فى سورة الشعراء : « أفرأيت إن متعاهم سنين . ثم جاءهم
ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » .

فهذه ثلاث آيات لاتفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة . ألا ترى أن الأولى
والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة وقد استعملته
العرب كثيراً ، وورد فى شعر فحول شعرائهم ، فن ذلك قول الشاعر :
وَمِنَْ الْبُلُوىِ التى لَيْسَ لها فى الناس كُنْهُ
أَنْ من يعرف شيئاً يدعى أكثر مِنْهُ

ألا ترى أن البيت الأول لم يقيم بنفسه ، ولا تم معناه إلا بالبيت الثاني ؟ ومنه أيضاً قول امرئ القيس :

فقلت له لا تغطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وكذلك ورد قول الفرزدق :

وما أحدٌ من الأقسام عدواً عروف الأكرمين إلى التراب
بمحتفظين إن فصلتمونا عليهم في القديم ولا غضاب
وكذلك قول الشاعر :

لعمري لرهط الموء خير نقيّة عليه وإن عالوا به كل مركب
من الجانب الأخصى وإن كان ذاغى جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

وبهذه الحافظة الواعية يؤيد ابن الأثير قوله ، جاعلاً إمامه الكتاب الكريم ، وهو المثل الأعلى للبيان والبلاغة ، وشعر الفحول من السابقين « وكلامه يوافق الرأي الذى يجب أن يحتذى ، وإن لم يذكر له من أسباب التأيد والتعليل سوى ورود أمثاله فى غرر الكلام ، وأما العلة الأدبية فتلتبس فى مثل ما قدمناه .

ويعد ابن الأثير من أعظم نقاد العرب الذين درسوا السرقات الشعرية وفصلوا القول فى ضروبها ، ويعد المثل السائر من أعظم الكتب التى درس فيها هذا الموضوع دراسة خصبة مجدية ، يرجع إليها الباحثون فى هذا الموضوع الذى يشتمل فى كثير من أصول النقد عند العرب .

تلك بعض لمحات مما اشتمل عليه هذا الأثر النفيس الذى احتل منزله بحق بين أصول البلاغة والنقد الفنى عند العرب ، .

ترجمة ابن الأثير *

هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجرجسي ، الملقب بضياء الدين .

كان مولده بمجزيرة ابن عمر ونشأ بها ، وانتقل مع والده إلى الموصل ، وبها اشتغل ، وحصل العلوم ، وحفظ كتاب الله الكريم ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان ، وشيئاً كثيراً من الأشعار .

ولما كملت لضياء الدين المذكور الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ، تفعمده الله برحمته ، في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من تلك السنة ، وأقام عنده إلى شوال من السنة .

ثم طلبه والده الملك الأفضل نور الدين من والده ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته ، والانتقال إلى ولده ، ويبقى المعلوم الذي قرره له باقياً عليه ، فأختار ولده ، ففضى إليه ، وكان يومئذ شاباً ، فاستوزره ولده الملك الأفضل نور الدين على المقدم ذكره ، رحمه الله تعالى ، وحسنت حاله عنده .

ولما توفي السلطان صلاح الدين ، واستقل ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق ، استقل ضياء الدين المذكور بالوزارة ، وردت أمور الناس إليه ، وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه .

ولما أخذت دمشق من الملك الأفضل ، وانتقل إلى صرخد ، وكان ضياء الدين قد أساء العشرة من أهلها ، فهموا بقتله ، فأخرجوه الحاجب محاسن بن عجم

(*) مختصرة من وفیات الأعيان لابن خلكان ٢٠٨/٢

مستخفياً في صندوق مقفل عليه ، ثم سار إليه ، وصحبه إلى مصر لما استدعى لنيابة
أبن أخيه الملك المنصور .

ولما قصد الملك العادل الديار المصرية ، وأخذها من ابن أخيه ، وتعرض الملك
الأفضل البلاد الشرقية ، وخرج من مصر ، لم يخرج ضياء الدين في خدمته ، لأنه
خاف على نفسه من جاعة كانوا يقصدونه ، فخرج منها مستتراً .

وغاب عن مخدومه الملك الأفضل مديدة ولما استقر الأفضل في سمسط عا د إلى
خدمته ، وأقام عنده مدة ، ثم فارقه في ذى القعدة سنة ٦٠٧ هـ واتصل بخدمة أخيه
الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج
مغاضباً ، وعاد إلى الموصل ، فلم يستقم حاله ، فورد إربل ، فلم يستقم حاله فسافر
إلى سنجار ، ثم عاد إلى الموصل ، واتخذها دار إقامته ، واستقر وكتب الإنشاء
لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان
شاه ، وأتاك بك يومئذ بدر الدين أبو الفضائل النوري ، وذلك في سنة ٦١٨ هـ .

قال ابن خلكان : ولقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات وهو
مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لأخذ عنه شيئاً ، ولما كان بينه وبين الوالد رحمه
الله تعالى من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق ، وانتقلت إلى
الشام ، وأقيمت به مقدار عشر سنين ، ثم انتقلت إلى الديار المصرية ، وهو في قيد
الحياة ، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة .

ولضياء الدين من التصانيف ، الدالة على غزارة فضله ، وتحقيق نبلة كتابه الذي
سماه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم
يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ،
فوصل إلى بغداد منه نسخة .

وله كتاب « الواشي المرقوم في حل المنظوم » وهو مع وجازته في غاية الحسن
والإفادة .

وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ، وهو أيضاً نهاية في بابه .

وله مجموع اختار فيه شعر أبى تمام ، والبحترى ودبك الجن والمنتهى ، وهو فى مجلد واحد كبير ، وحفظه مفيد .

وله أيضاً ديوان ترسل فى عدة مجلدات ، والمختار منه فى مجلد واحد .
وذكر أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل ، وبالغ فى الثناء عليه وقال ورد إربل فى شهر ربيع الأول سنة ٦١١ هـ وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر فى يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ هـ وتوفى فى إحدى الحاديين سنة ٦٣٧ هـ .
بعدد وقد توجه إليها رسولا من جهة صاحب الموصل . وصلى عليه من الغد بمجامع القصر ، ودفن بمقابر قریش فى الجانب الغربى بمشهد موسى بن جعفر رضى الله عنها .

قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادى فى تاريخ بغداد توفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو أخير ، لأنه صاحب هذا الفن ، وقد مات عندهم .

ولضياء الدين أخوان ناهان مجد الدين أبو السعادات المبارك ، وأبو الحسن على الملقب عز الدين . وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء ، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى .

وكان لضياء الدين المذكور ولد نبيه له النظم والنثر الحسن ، وصنف عدة تصانيف نافعة ، من مجاميع وغيرها ، ورأيت له مجموعاً جمعه الملك الأشرف ابن الملك العادل بن أيوب ، وأحسن فيه ، وذكر فيه جملة من نظمته ونثره ورسائل أبيه ، ومولده بالموصل فى شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، وتوفى بكرة نهار الاثنين ثانى جادى سنة ٦٢٢ واسمه محمد ، ولقبه الشرف . رحمه الله تعالى .

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر
يحيى الدين بن الأثير

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّنَا أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا مِنَ الْحَمْدِ مَا هُوَ أَهْلُهُ . وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مِنَ الْبَيَانِ مَا تَقْصُرُ عَنْهُ مَرِيَّةُ الْفَضْلِ وَأَصْلُهُ ، وَحِكْمَةُ الْخُطَابِ وَقُصْلُهُ ، وَرَغْبَ إِلَيْهِ أَنْ يُوقِفَنَا لِلصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ ، وَنَسَخَ هَدْيَهُ شَرِيعَةً كُلِّ هَادٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ سَبَقَ وَبَدَّرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَابَرَ وَصَبَرَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ آوَى وَنَصَرَ .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنْ عِلْمُ الْبَيَانِ لِتَأْلِيفِ النِّظْمِ وَالتَّرْتِيلِ بِمِثْلَةِ أَصُولِ الْفَقْهِ ^(١) لِلْأَحْكَامِ وَأَدِلَّةِ الْأَحْكَامِ . وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِيهِ كِتَابًا ، وَجَلَبُوا ذَهَبًا وَحَطَّبُوا حَطْبًا ، وَمَا مِنْ تَأْلِيفٍ إِلَّا وَقَدْ تَصَفَّحْتُ شَيْئَهُ وَسَيِّئَهُ ^(٢) ، وَعَلِمْتُ غَنَّهُ ^(٣) وَسَمِينَهُ ، فَلَمْ أَجِدْ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي ذَلِكَ إِلَّا كِتَابَ « الْمَوَازِنَةِ » لِأَبِي الْقَاسِمِ الْحَسَنِ بْنِ يَشْرِ الْآمِدِيِّ ^(٤) وَكِتَابَ « سِرِّ الْفَصَاحَةِ » لِأَبِي

(١) أَصُولُ الْفَقْهِ هِيَ الْقَوَاعِدُ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا الْمَجْتَهِدُ إِلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْفَرَعِيَّةِ مِنَ الْأَدْلَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ .

(٢) يُرِيدُ أَنَّهُ تَصَفَّحَهُ كُلَّهُ حَالِيهِ وَعَاطِلِهِ وَمَمْجُوهٍ وَمَهْمَلِهِ .

(٣) الْغَثُ : الْمَهْزُولُ .

(٤) أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ يَشْرِ الْآمِدِيُّ ، صَاحِبُ كِتَابِ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ الطَّالِبِينَ ، كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ جِيدَ الدَّرَايَةِ وَالرُّوَايَةِ ، سَرِيعَ الْإِدْرَاكِ ، وَهُوَ مَعْدُودٌ مِنْ أَعْمَةِ الْبَيَانِ وَالتَّقْدِ الْأَدْبِيِّ . وَصَفَهُ صَاحِبُ الْفَهْرَسْتِ بِأَنَّهُ مَلِيحُ التَّصْنِيفِ جِيدُ التَّأْلِيفِ يَتَعَاطَى مَذْهَبَ الْجَاخِظِ فِيَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْكُتُبِ . وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ : كِتَابُ الْمُخْتَلَفِ وَالْمُؤْتَلَفِ فِي أَسْمَاءِ الشُّعْرَاءِ ، وَكِتَابُ مَعَانِي شُعْرِ الْبَحْتَرِيِّ ، وَكِتَابُ نَثْرِ الْمَنْظُومِ ، وَكِتَابُ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ عَارِفِيَا خَطَأً فِيهَا أَبَا تَمَامٍ ، وَكِتَابُ فِي أَنَّ الشَّاعِرِينَ لَا تَنْتَفِقُ خَوَاطِرُهُمَا ، وَكِتَابُ مَا فِي مَعْيَارِ الشُّعْرِ لِابْنِ طِبَاطَبَا مِنْ الْخَطَأِ ، وَكِتَابُ فَرْقِ مَا بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْمَشْرُوكِ مِنْ مَعَانِي الشُّعْرِ ، وَكِتَابُ تَفْضِيلِ شُعْرِ امْرِئِ الْقَيْسِ عَلَى الْجَاهِلِيِّينَ ، وَكِتَابُ فِي شِدَّةِ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ ، وَكِتَابُ تَبْيِينَ غُلْطِ قِدَامَةِ بَنِ جَعْفَرٍ فِي كِتَابِ نَقْدِ الشُّعْرِ ، وَكِتَابُ فَعْلَتْ وَأَفْعَلَتْ ، وَكِتَابُ الْحُرُوفِ ، وَدِيَوَانُ شُعْرِهِ .

وَنَقْلُ بَاقِيَتِ عَنْ الْقَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ التَّنُوخِيِّ أَنَّ مَوْلِدَ أَبِي الْقَاسِمِ الْحَسَنِ بْنِ يَشْرِ الْآمِدِيِّ بِالْبَصْرَةِ . وَأَنَّهُ قَدِمَ بَغْدَادَ يَحْمِلُ عَنِ الْأَخْفَشِ وَالْجَلْفَاجِيِّ وَالزَّجَّاجِ وَابْنِ دُرَيْدِ الْوَلِيِّ السَّرَاجِ وَغَيْرِهِمُ الْفُصْلَةَ وَالنَّحْوَ . وَرَوَى الْأَخْبَارُ فِي آخِرِ عَمَرِهِ بِالْبَصْرَةِ . وَكَانَ يَكْتُبُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ لِأَبِي جَعْفَرِ هَارُونَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفُصْلِيِّ وَلِغَيْرِهِ . وَكُتِبَ بِالْبَصْرَةِ لَأَكْلِ عَبْدِ الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِمْ . . . وَكَانَ كَثِيرَ الشُّعْرِ حَسَنَ الطَّبْعِ ، جِيدَ الصَّنْعَةِ ، مُشْتَبَرًا بِالتَّشْبِيهَاتِ ، قَالَ : وَلَأَبَى الْقَاسِمِ تَصَانِيفُ كَثِيرَةٌ جَيِّدَةٌ مَرْغُوبٌ فِيهَا ، مِنْهَا كِتَابُ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ الْبَحْتَرِيِّ وَأَبَى

محمد عبد الله بن سنان الخفاجي^(٥). غير أن كتاب «الموازنة» أجمع أصولاً، وأجدى محصولاً، وكتاب «سر الفصاحة» وإن ثبت فيه على نكت منيرة، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المفردة، وصفاتها، مما لا حاجة إلى أكثره^(٦)، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها، وسيرد بيان ذلك كله في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. على أن كلا الكتائين قد أهملّا من هذا العلم أبواباً، وربما ذكراً في بعض المواضع قشوراً، وتركاً لباباً. وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه^(٧) في غصون القرآن الكريم، ولم أجد أحداً ممن تقدمني تعرض للذكر شيء منها، وهي إذا عُدَّتْ كانت في هذا العلم بمقدار شطره، وإذا نُظِرَ إلى فوائدها وُجِدَتْ محتوية عليه بأسره، وقد أوردتها هاهنا، وشققتها بضروب أخرى مدونة في الكتب المتقدمة، بعد أن حذفْتُ منها ما حذفته، وأضفت إليها ما أضفته. وهذان الله لا ابتداع أشياء لم تكن من قبل مبتدعة، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة، وإنما هي متبعية. وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابي هذا، وعلى غيره من الكتب، وقد بنيت على مقدمة ومقالتين:

تمام. وهو كتاب حسن، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب إلى الميل مع البحرى فيها أوردته. والتعصب على أبي تمام فيها ذكره. توفي الأمدى سنة ٣٧٠ هـ. وقد طبع كتب الموازنة عدة طبعات كلها ناقصة. وبين أيدينا نسخة كاملة من هذا الكتاب نسأل الله أن يعين على نشرها وتحقيقها إن لم يقم بهذا الواجب غيرنا.

(٥) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب، وكان أبوه من أشرفها، وقد أخذ العلم والأدب عن علماء عصره، ثم اتصل بأبي العلاء أحمد بن سليمان المري فأخذ عنه العلم والأدب، وكان يرى رأى الشيعة، وتولى بعض أعمال الدولة، حتى ثار على ولاته. ومات مسجوماً سنة ٤٦٦ هـ، وكتابه «سر الفصاحة» من أنفس كتب البلاغة، سار فيه بالبلاغة والتقد سيراً مزدوجاً فيه التعريف والتعديد، وإلى جانبه النص والمثال، وإلى جانبها الرأي في الإصابة أو سوء الاستعمال، مما يدل على تمرسه بفن الأدب، وتمتعه باللوق المستنير، وقد طبع في مصر طبعين جيدتين.

(٦) لا عبرة بهذا النقد لأن الخفاجي في كلامه على الأصوات وعلى الحروف ذكر منها ما يؤلف وما يؤلف. ولذلك من بعد الأثر في وقع الكلام على السمع واللوق وتقديره عند أهل صناعة البيان مالا يخفى. وكلام الخفاجي على اللفظة المفردة من أمتع الدراسات النقدية وهو أصل لما كتب البلاغيين في فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام في مقدمات كتب البلاغة بل إن ابن الأثير نفسه قد درس الكلمة المفردة وصفاتها في هذا الكتاب، وأفاد كما أفاد غيره من تلك الدراسة المنظمة التي مهد سبيلها الخفاجي.

(٧) المضمير في «منه» عائد إلى «علم البيان» الذي ذكر من قبل.

فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان، والمقالتان تشتملان على فروعه،
فالأولى: في الصناعة اللفظية، والثانية: في الصناعة المعنوية.

ولا أدعى فيما ألفت من ذلك فضيلة الإحسان، ولا السلامة من سبِّ (٨)
اللسان، فإن الفاضل من تعدُّ سقاطاته، وتخصى غلطاته، ويسىء بالإحسان ظناً،
لا كمن هو بانيه وبشعره مقتون. وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتاب بديع في
إغرابه، وليس له صاحب في الكتب فيقال: إنه مفرد بين أصحابه، من
أخذانه. أو من أتراه (٩).

ومع هذا فإنّي أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه، وحثت حول جهاء ولم أقم
فيه، إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التي بها تنظم العقود وترصع.
وتخلّب العقول فتخدع. وذلك شيء تحيل عليه الخواطر، لا تنطق به الدفاتر.
واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي
هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً، وإذا
سألت عما ينفع به في فنه قيل لك هذا! فإن الدربة والإدمان أجدي عليك نفعا،
وأهدى بصراً وسمعا، وهما يريانك الخبر عياناً، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً،
وكلّ جارحة منك قلباً ولساناً. فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك
ما أخطاك. وما مثلي فيما مهّدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع (١٠) سيفاً،
ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال غير
مباشرة القتال.

وإنما يبلغ الإنسان غايته ما كل ماشية بالرجل شمالاً (٨)
في الأصل «ساق» باللام، وهو تحريف.

(٩) في الأصل «يقال إنه من أخذانه أو من أتراه مفرد بين أصحابه» وهي عبارة مضطربة ولذلك
قدمنا العبارة الأخيرة: ليستقيم المعنى. (١٠) يقال: طبع السيف والدرهم والجرة عملها.

(١١) البيت لأبي الطيب المتن: الديوان ٢٨٧/٣ وروايته هكذا

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ماشية بالرجل شمالاً

والشمال: الناقة القوية السريعة. يقول: كل أحد يجري في السيادة على قدر طاقته وليس كل من
يمشي على رجله شمالاً. يقدر على السرعة. والمعنى: ليس كل كريم يبلغ غاية الكرم. ولا كل شريف
يبلغ غاية الشرف. وليس كل من سعى من الرؤساء يبلغ مبلغ ممدوحه الذي لا يعادل في فضله. ولا
يمثل في جلالة قدره.

مقدمة الكتاب

ولنرجع إلى ما نحن بصددّه فنقول : أما مقدمة الكتاب فإنها تشتمل على عشرة فصول :

الفصل الأول

فى موضوع علم البيان

موضوع كل علم هو الشيء الذى يُسأل فيه عن أحواله التى تعرّض لذاته .
فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين ، والفقيه يُسأل عن أحوالها التى تعرّض لها من
القرض والنفل ، والحلال والحرام ، والتدب والمباح ، وغير ذلك .
وموضوع الطب هو بدن الإنسان ، والطبيب يُسأل عن أحواله التى تعرّض له من
صحته وسقمه .

وموضوع الحساب هو الأعداد ، والحاسب يُسأل عن أحوالها التى تعرض لها من
الضرب والقسمة والنسبة وغير ذلك .
وموضوع النحو هو الألفاظ والمعانى ، والنحوى يُسأل عن أحوالها فى الدلالة من
جهة الأوضاع اللغوية .

وكذلك يجرى الحكم فى كل علم من العلوم . وبهذا الضابط انفرد كل علم برأيه
ولم يختلط بغيره .

وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة . وصاحبه يُسأل عن أحوالها
اللفظية والمعنوية . وهو النحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على
المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة . وصاحب علم البيان ينظر فى
فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة . والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من
الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب . ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام
المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة
والبلاغة .

ومن هاهنا غلطٌ مُفسِّرُ الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى ، وما فيها ^(١) من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب منها ، دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة .

الفصل الثاني

في آلات علم البيان وأدواته

اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة . وقد قيل : ينبغي للكاتب أن يتعلّق بكلّ علم ، حتى قيل : كلّ ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه ، فيقال ^(٢) : فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة ، فيقال ^(٣) : فلان الكاتب . وذلك لما يقتضيه إليه من الخوض في كل فن . وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع فإنه لا تُغنى تلك الآلات شيئا . ومثال ذلك كمثّل النار الكامنة في الزناد . والحديدة التي يُقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئا ؟ وكثيراً ما رأينا ومعنا من غرائب الطباع في تعلّم العلوم . حتى إن بعض الناس يكون له نفاذ في تعلّم علم مُشكِك المسلك ، صعب المأخذ ، فإذا كُلف تعلّم ماهو دونه من سهّل العلوم نكص على عقبيه ^(٤) . ولم يكن له فيه نفاذ . وأغرب من ذلك أن صاحب الطبع في المنظوم يجيد في المديح دون الهجاء ، أو في الهجاء دون المديح . أو يجيد في المراثي دون التهاني ، أو في التهاني دون المراثي . وكذلك صاحب الطبع في المنثور . هذا ابن الحريري ^(٥) صاحب المقامات قد كان على ماظهر عنه من تنميق

(١) الغمير عائد على الأشعار .

(٢) في الأصل « فيقول » والصواب عن الفلك الدائر ٧ .

(٣) يقال : نكص عن الأمر نكصا ونكصا أحجم عنه . ونكص على عقبيه رجع عما كان عليه .

والعقبان مثنى العقب - ككتف - مؤخر القدم .

(٤) هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري . كان أحد أئمة عصره رزق الحظوة التامة في عمله المقامات . وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها . ومن عرفها حق معرفتها استدلت بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وللحريري تأليف حسان منها درة الفواص في أوهام الخواص . ومنها ملحّة الإعراب المنظومة في النحو . وله أيضا شرحها . وله =

المقامات واحداً في فنه ؛ فلما حضر بغداداً ووقفَ على مقاماته ، قيل : هذا يُستصَلحُ
 لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ، وَيَحْسُنُ أثره فيه . فَأَحْضِرْ وَكَلِّفْ كتابة كتاب
 فَأَفْجِمَ ، ولم يَجِرْ لسانه في طويلة ولا قصيرة . فقال فيه بعضهم ^(٥) :
 شيخٌ لنا من ربيعةِ القُرَيْسِ ^(٦) يَنْتِفِ عَشُونَهُ ^(٧) من الهَوَيسِ
 أنطقه الله بِالْمَشَانِ ^(٨) وقد أَلْجَمَهُ في بَغْدَادَ بِالْحَرِيسِ

وهذا مما يُعْجَبُ منه . وَسَيَلْتُ عن ذلك فقلت : لا عَجَبَ ، لأن المقامات
 مدارها جميعها على حكاية تُخْرِجُ إلى مَخْلَصٍ .

وأما المكاتبات فإنها بحر لا ساحل له ، لأن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث
 الأيام ، وهي متحددة على عَدَدِ الأنفاس . ألا ترى أنه إذا خَطَبَ الكاتبُ
 الْمُفْلِقُ ^(٩) عن دولة من الدول الواسعة التي يكون لسلطانها سيف مشهور ، وسعى
 مذكور ، ومكث على ذلك بُرْهَةً يسيرة لا تبلغ عَشْرَ سنين فإنه يُدَوِّنُ عنه من
 المكاتبات ما يزيد على عشرة أجزاء ، كل جزء منها أكبر من مقامات الحريري حجماً
 لأنه إذا كَتَبَ في كل يوم كتاباً واحداً اجتمع من كتبه أكثر من هذه العِدَّةِ الْمَشَاوِ
 إليها ، وإذا نُخِلَتْ وَغَرِبَتْ واختير الأجود منها ، إذ تكون كلها جيدة - فَيُخَلِّصُ

== ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات ، وكانت ولادة الحريري سنة ٤٤٦ هـ وتوفى سنة عشر
 قيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة .

(٥) قيل إن الذي عمل هذين البيتين هو أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر .

(٦) ربيعة القريس : هو ابن نزار بن معد بن عدنان ، أبو قبيلة ، سمى بذلك لأنه أعطى الخيل من
 ميراث ابنه ، على حين أن أخاه مضر أعطى الذهب ، فقيل مضر الحمراء ، وأعطى أخوه أنمار الشاة ، فقيل
 أنمار الشاة وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة القريس .

(٧) نخوت : اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين ، أو ما نبت على الذقن وتحت سفلا ، وكان الحريري
 مولماً بمتن لحيته عند الفكرة .

(٨) المشان يفتح الميم والشين وبعد الألف نون : بليدة بعد البصرة كثيرة النخل موصوفة بشدة الوشم ،
 وكان أهل الحريري منها ، ويقال إنه كان له بها ثمانية عشر ألف نخلة وأنه كان من ذوى اليسار ، ويروى
 البيت الثاني هكذا :

أنطقه الله بِالْمَشَانِ كما رماه وسط الديوان بالحرس

(٩) يقال : أفلق الشاعر إذا أتى بالمعجب .

منها النصف، وهو خمسة أجزاء. والله يعلم ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب، وما حصلَ في ضمِّها من المعاني المبتدعة.

على أن الحريري قد كتب في أثناء مقاماته رقاعاً في مواضع عدَّة، فجاء بها منحة عن كلامه في حكاية المقامات، لابل جاء بالغث البارد الذي لانسبة له إلى باقي كلامه فيها. وله أيضاً كتابة أشياء خارجة عن المقامات، وإذا وقف عليها أقسم أن قائل هذه ليس قائل هذه، لما بينها من التفاوت البعيد.

وبلغني عن الشيخ أبي محمد [عبد الله بن^(١١)] أحمد بن الخشاب النحوي^(١٢) - رحمه الله - أنه كان يقول: ابن الحريري رجلٌ مقامات، أي أنه لم يُحسن من الكلام المنشور سواها، وإن أتى بغيرها لا يقول شيئاً.

فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنشور. ومن أجل ذلك قيل: شيثان لا نهاية لهما: البيان والجمال. وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات.

النوع الأول: معرفة علم العربية من النحو والتصريف.

النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، ولا المستكره المعيب.

النوع الثالث: معرفة أمثال العرب وأيامهم. ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً.

النوع الرابع: الاطلاع على تأليفات من تقدّمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة، والتحقّق للكثير منه.

النوع الخامس: معرفة الأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة^(١٣) وغير ذلك.

(١٠) زيادة ليست في الأصل صحيحاً بها الاسم.

(١١) هو الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشاب كان أعلم أهل زمانه بالنحو، حتى يقال إنه كان في درجة الفارسي. وكانت له معرفة بالتفسير والحديث واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والمنمنمة. وما من علم من العلوم إلا كانت له فيه يد حسنة. وله كتب كثيرة منها رسالة كتبها في الرد على الحريري في مقاماته. توفي سنة ٥٦٧ هـ ووقف كتبه على أهل العلم.

(١٢) الحسبة بالكسر الأجر. واسم من الاحتساب. وهو حسن الحسبة حسن التدبير.

النوع السادس : حِفْظُ القرآن الكريم . والتدربُ باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه .

النوع السابع : حِفْظُ ما يَحْتَاجُ إليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ ، والسلوكُ بها مَسَلِّكَ القرآن الكريم في الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون النثر ، وذلك عِلْمُ العروض والقوافي الذي يُقَامُ به ميزان الشعر .

ولنذكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع لِيَعْلَمَ أن معرفته مما تمس الحاجة إليه فنقول :

[النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف]

أما عِلْمُ النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أَيْدٍ في تعلِيمِ الخط ، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ، ليَأْمَنَ مَعَرَّةَ اللحن ، ومع هذا فإنه وإن احتيج إليه في بعض الكلام دون بعض لضرورة الإِفْهَام ، فإن الواضع لم يَخْصُ منه شيئاً بالوضع ، بل جعل الوضع عامّاً ، وإلا فإذا نظرنا إلى ضرورته وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غَيْرَ محتاج إليه في إِفْهَامِ المعاني . ألا ترى أنك لو أمرت رجلاً بالقيام فقلت له : « قوم » بإثبات الواو ولم تجزم لما اختلَّ من فَهْمٍ ذلك شيء؟ وكذلك الشرط لو قلت : « إِنْ تَقُومُ أَقُومُ » ولم تجزم لكان المعنى مفهوماً . والفضلات كلها تجري هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء ، فإذا قلت : « جاء زيد راکباً » ، و « ما في السماء قدر راحة سحاب » ، و « قام القوم إلا زيد » ، فلزمت السكون في ذلك كله ، ولم تَبَيِّنْ إعراباً لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد ، وهكذا يقال في المجرورات وفي المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه وفي المبتدأ والخبر ، وغير ذلك من أقسام آخر لا حاجة إلى ذكرها .

لكن قد خرج عَن هذه الأمثلة ما لا يُفْهَمُ إلا بقيود تُقَيِّدُهُ ، وإنما يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة ، ولنضرب لذلك مثلاً يوضحه فنقول : اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول ما لا يُفْهَمُ إلا بعلامة ، كتقديم المفعول على الفاعل ، فإنه إذا لم يكن ثمَّ علامة تُبَيِّنُ أحدهما من الآخر ، وإلا أشكل الأمر ^(١٣)

(١٣) هكذا في الأصل ، والظاهر يقتضيه حذف « إلا » أو تقدير جواب للشرط .

كقولك « ضرب زيد عمرو » [بالوقف عليها ^(١٤)] ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تنصب زيدا وترفع عمرا وإلا لا يفهم ما أردت ^(١٣) ، وعلى هذا ورد قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ^(١٥) وكذلك لو قال قائل : ما أَحْسَنَ زَيْدٌ . ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمنا غرضه منه . إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه . أو يريد به الاستفهام عن أى شيء منه أحسن . ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفى الإحسان عنه . ولو بين الإعراب في ذلك . فقال : ما أَحْسَنَ زَيْدًا . وما أَحْسَنَ زَيْدًا ؟ وما أَحْسَنَ زَيْدٌ ^(١٦) . علمنا غرضه . وفهمنا مغزى كلامه . لا نفرد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يُعرف به من الإعراب . فوجب حينئذٍ بذلك معرفة النحو . إذ كان ضابطاً لمعانى الكلام . حافظاً لها من الاختلاف .

وأول من تكلم في النحو أبو الأسود الدؤلى ^(١٧) ، وسبب ذلك أنه دخل على ابنة له بالبصرة فقالت له : « يا أبت ، ما أشد الحر » متعجبة ، ورفعت « أشد » ، فظنّها مستفهمة ؛ فقال : شهرٌ ناجِرٌ ^(١٨) فقالت : يا أبت إنما أخبرتك ، ولم أسألك ، فأنى علىَّ بنُ أبى طالب - رضى الله عنه - فقال : « يا أمير المؤمنين ، ذهبت لفة العرب ، ويوشك أن تطاول عليها زمان أن تَصْمَحِلَّ » فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره

(١٤) زيادة عن الفلك الدائر ٨

(١٥) سورة فاطر ، آية ٢٨

(١٦) ما في المثال الأول للتعجب ، وفي الثاني للاستفهام ، وفي الثالث للنفي .

(١٧) قال ابن سلام الجمحي : أول من أسس العربية وفتح بابها وأنبج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى ، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل . . . وكان رجل أهل البصرة ، وكان علوى الرأى . وقيل لأبى الأسود : من أين لك هذا العلم ؟ - يعنون النحو - قال : لقتت حدوده من حل بن أبى طالب - عليه السلام - وكان أبو الأسود أحد سادات التابعين والمحدثين والفقهاء والشعراء والفرسان والأمراء والأشراف والدهاة والخاصرى الجواب والصلح الأشراف والبحر الأشراف ومن مشاهير البخلاء ، وهو من القراء ، قرأ على أمير المؤمنين على عليه السلام وشهد معه صفين . وقدم على معاوية فأكرمه وأعظم جازته . وولى قضاء البصرة وهو أول من نقط المصحف ، وله شعر كثير . مات أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ ، وهو ابن خمس وعشرين سنة .

(١٨) ناجر : قال في القاموس « ناجر رجب أو صفر وكل شهر من شهور الصيف » : إن شهرى رجب وصفر وكل الشهور القمرية يتغير موقعها سنة بعد سنة ، ولا يد أن يكون شهراً بعينه من شهور الصيف . وفي وضع أبى الأسود النحو أقوال كثيرة غير ما رواه ابن الأثير . انظر إنباه الرواة على أبناء النحاة

خبر ابنته ، فقال : هَلَمْ صَحِيفَةً ، ثُمَّ أَمْلَى عَلَيْهِ : « الْكَلَامُ لَا يَخْرُجُ عَنْ اسْمِ وَفَعْلٍ وَحَرْفٍ جَاءَ لِمَعْنَى » ، ثُمَّ رَسَمَ لَهُ رِسُومًا ، فَتَقَلَّهَا النَّحْوِيُّونَ فِي كَتَبِهِمْ . وَقِيلَ : إِنْ أَبَا الْأَسَدِ دَخَلَ عَلَى زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ ^(١٩) بِالْبَصْرَةِ فَقَالَ : إِنْى أَرَى الْعَرَبَ قَدْ خَالَطَتِ الْعَجَمَ ، وَتَغَيَّرَتْ أَلْسِنَتُهَا ، أَفَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَصْنَعَ مَا يَقْبَلُونَ بِهِ كَلَامَهُمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، فِقَامَ مِنْ عِنْدِهِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَا تَأْبَانَا وَخَلْفَ بَنُونَ » . فَقَالَ زِيَادُ : مَاتَ أَبَانَا وَخَلْفَ بَنُونَ ! ؟ مَهْ ، رُدُّوْا عَلَيَّ أَبَا الْأَسَدِ ، فَرُدُّوْهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَصْنَعُ مَا كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ ، فَوَضَعَ شَيْئًا ^(٢٠) ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ مَيْمُونُ الْأَقْرَنُ ^(٢١) فَزَادَ عَلَيْهِ . ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ عُبَيْسَةُ بْنُ مَعْدَانَ الْمُهْرَبِيُّ ^(٢٢) فَزَادَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ الْخَضْرَمِيُّ ^(٢٣) وَأَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ ^(٢٤) فَزَادَا

(١٩) هُوَ زِيَادُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، اسْتَلْحَفَهُ مَعَاوِيَةُ بِأَبِيهِ ، وَأُمُّهُ سَمِيَّةُ جَارِيَةُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَلَدَ عَامَ الْهَجْرَةِ وَقِيلَ يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعْلَمَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الْبَصْرَةِ . وَاسْتَعْلَمَهُ عَلَى بَعْضِ بِلَادِ فَارَسَ وَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ وَسَلِمَ الْحَسَنُ الْأَمْرَ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَاسْتَلْحَفَهُ بِأَبِيهِ . وَجَعَلَهُ أَخَاهُ لَهُ . وَاسْتَعْلَمَهُ عَلَى الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ الْكُوفَةَ ، وَبَقِيَ حَلِيبًا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ ٥٣ هـ .

(٢٠) قَالَ أَبُو حَرْبٍ بْنُ أَبِي الْأَسَدِ : أَوَّلُ بَابٍ رَسَمَ إِلَى مِنَ النَّحْوِ بَابُ التَّعَجُّبِ . وَقِيلَ : أَوَّلُ بَابٍ رَسَمَ بَابُ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ، وَالْمُضَافِ ، وَحُرُوفُ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْجَرِّ وَالْجَزْمِ .

(٢١) هُوَ الْإِمَامُ الْمَقْدُمُ فِي الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ أَبِي الْأَسَدِ وَعَنْهُ أَخَذَ . وَأَخَذَ عَنْهُ عُبَيْسَةُ بْنُ مَعْدَانَ الْفَيْلِي فِي أَصْحَاحِ الرُّوَايَةِ . وَزَادَ عَلَى أَبِي الْأَسَدِ فِي حُدُودِ الْعَرَبِيَّةِ .

(٢٢) هُوَ عُبَيْسَةُ بْنُ مَعْدَانَ الْفَيْلِي الْمِيسَاقِيُّ أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ أَبِي الْأَسَدِ . قَالُوا : وَلَمْ يَكُنْ فِيمَنْ أَخَذَ عَنْهُ النَّحْوَ أَرْبَعُ مَنَ . وَرَوَى الْأَشْعَارَ وَظَرْفَ وَفَصَحَ . وَرَوَى شِعْرَ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ .

(٢٣) هُوَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ الْخَضْرَمِيُّ . كَانَ قَبْلَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْقِرَاءَةِ إِمَامًا فِيهَا . وَكَانَ شَدِيدَ التَّجَرُّدِ لِلْقِيَاسِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ يَطْعَنُ عَلَى الْعَرَبِ . وَكَانَ يَرُدُّ كَثِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَيَكْلِمُهُ فِي شِعْرِهِ فَقَالَ فِيهِ الْفَرَزْدَقُ :

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجْرَتِهِ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوْلَانَا

وَتَوَفَّى بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةِ وَمِائَةٍ فِي أَيَّامِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .

(٢٤) هُوَ الْعَلَمُ الْمَشْهُورُ فِي عِلْمِ الْقِرَاءَةِ وَاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَاسْمُهُ كُنْيَتُهُ . وَقِيلَ إِنَّ اسْمَهُ زِيَادُ . أَخَذَ النَّحْوَ مِنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمِ اللَّيْثِيِّ . وَأَخَذَ عَنْهُ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ الْبَصْرِيُّ وَالْحَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَعَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ . وَكَانَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ يَقُولُ : لَوْ كَانَ أَحَدٌ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ بِقَوْلِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ بِقَوْلِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ كُلَّهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَأَنْتَ أَخَذْتَ مِنْ قَوْلِهِ وَتَارَكَ إِلَّا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَتَوَفَّى أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ فِي سَنَةِ ١٥٤ هـ فِي خِلَافَةِ الْمَنْصُورِ .

عليه ، ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزدي^(٢٥) وتتابع الناس . واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك . فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه . وكذلك العلوم كلها يوضع منها في مبادئ أمرها شيء يسير ، ثم يزداد بالتدريج إلى أن يستكمل آخرها .

فإن قيل : أما علم النحو فمُسَلَّم إليك أنه تجب معرفته ، لكن التصريف لا حاجة إليه ، لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها ، وهذا لا يضر جهله ؛ ولا تنفع معرفته . ولنضرب لذلك مثالا كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : « رأيت سِرْدَاحًا »^(٢٦) لا يلزمه أن يعرف الألف في هذه الكلمة زائدة هي أم أصلية ، لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك ، ولو قالت « سِرْدَاحًا » بغير الألف لما جاز لأحد أن يزيد الألف فيها من عنده ، فيقول : « سِرْدَاحًا » ، فعلم بهذا أنه إنما يُنطَقُ بالألفاظ كما سُمِعَتْ عن العرب من غير زيادة فيها ولا نقص . وليس يلزم بعد ذلك أن يَعْلَمَ أصلها ولا زيادتها ، لأن ذلك أمر خارج [لا^(٢٧)] تقتضيه صناعة تأليف الكلام .

فالجواب عن ذلك أنا نقول : اعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف كمعرفة النحو ، لأن الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفاً بالمعاني ، مختاراً لها ، قادراً على الألفاظ ، مجيداً فيها ، ولم يكن عارفاً بعلم النحو ، فإنه يَفْسُدُ ما يصوغه من الكلام . وَيَحْتَلُّ عليه ما يقصده من المعاني ، كما أريناك في ذلك المثال المتقدم .

وأما التصريف فإنه إذا لم يكن عارفاً به لم تَفْسُدْ عليه معاني كلامه ، وإنما تَفْسُدْ عليه الأوضاع ، وإن كانت المعاني صحيحة ، وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب ، فنقول : أما قولك إن التصريف لا حاجة إليه ، واستدلالك بما ذكرته من المثال

(٢٥) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد البصري الفرهودي الأزدي ، سيد أهل الأدب قاطبة في علمه وزهده ، والغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليه ، وأخذ عنه سيبويه ، وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل ، وكل ما قال سيبويه سألته أو قال أو قال . من غير أن يذكر قائله فهو الخليل ، وأخذ عنه أيضاً النضر بن شميل ، ومؤرج السدوسي ، وعلى بن نصر الجهضمي وغيرهم . وهو أول من استخرج علم العروض وضبط اللغة ، وأمل كتاب العين على الليث بن المظفر ، وكان أول من حصر أشعار العرب . توفي سنة ستين ومائة .

(٢٦) السرداح : الناقة الطويلة أو الكرمة أو العظيمة أو السمينة أو القوية الشديدة التامة .

(٢٧) زيادة يقتضيا السياق .

المضروب ، فإن ذلك لا يستمر لك الكلام فيه . ألا ترى أنك مثلت كلامك في لفظة « سِرْدَاح » ، وقلت إنه لا يُحْتَاجُ إلى معرفة الألف زائدة هي أم أصلية ، لأنها إنما نُقِلَتْ عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقص ، وهذا لا يَطْرُقُ إلا فيما هذا سبيله من نقل الألفاظ على هيئتها من غير تصرف فيها بحال ، فأما إذا أريد تصغيرها أو جمعها والنسبة إليها فإنه إذا لم يَعْرِفِ الأصل في حروف الكلمة وزياتها وحذفها وإبدالها يَصِلُ حينئذ عن السبيل ، وينشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن . ألا ترى أنه إذا قيل للنحوى - وكان جاهلا بعلم التصريف - كيف تُصَغَّرُ لفظة « اضطراب » ؟ فإنه يقول : « ضُطِّيرَب » ولا يلام على جهله بذلك ، لأن الذى تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته ، نحو قَوْطَمِ في « منطلق » « مُطَيَّق » وفي « جَحْمَرِش »^(٢٨) « جُحَيْرِش » . فلفظة « منطلق » على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان ، هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ، فلذلك لم تُحذف ، وحذفت النون . وأما لفظة « جَحْمَرِش » فخاسية لا زيادة فيها ، وحذف منها حرف أيضا . ولم يعلم النحوى أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مُهْمَلًا اتكالا منهم على تحقيقه من علم الصرف ، لأنه لا يلزمهم أن يقولوا في كتب النحو أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا في باب من أبواب النحو شيئاً من التصريف ، لأن كلا من النحو والتصريف عِلْمٌ منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ، ومحتاج إليه ، وإنما قلت : إن النحوى إذا سئل عن تصغير لفظة « اضطراب » يقول : « ضُطِّيرَب » لأنه لا يخلو إما أن يُحذف من لفظة « اضطراب » الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء . وهذه الحروف المذكورة - غير الألف - ليست من حروف الزيادة فلا تحذف ، بل الأولى أن يُحذفَ الحرف الزائد ، ويترك الحرف الذى ليس بزائد . فلذلك قلنا : إن النحوى يصغر لفظة « اضطراب » على « ضُطِّيرَب » فيحذف الألف التى هي حرف زائد دون غيرها مما ليس من حروف الزيادة . وإما أن يَعْلَمَ أن الطاء في « اضطراب » مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه وهو التاء فيقال : « ضُتِيرَب » فإن هذا لا يعلمه إلا

(٢٨) الجحمرش : العجوز الكبيرة والمرأة السمجة والأرنب الموضع والقتناء من الأفاعى .

التصريف، وتكليف النحوي الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه علم مالا يعلمه، فثبت بما ذكرناه أنه يحتاج إلى علم التصريف، لئلا يغلط في مثل هذا. ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف. ألم تعلم أن نافع بن أبي نعيم^(٢٩) - وهو من أكبر القراء السبعة قدراً^١، وأفخمهم شأنًا - قال في «معاش^(٣٠)» «معاش؟ بالهمز؟ ولم يعلم الأصل في ذلك فأوخذ عليه، وعيب من أجله. ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني^(٣١) فقال في كتابه في التصريف: إن نافعاً لم يدر ما العربية. وكثيراً ما يقع أولو العلم في مثل هذه المواضع، فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها، ولا اطلاع لهم عليها؟ وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يغلط فيما يوجب قدحاً ولا طعناً. وهذه لفظة «معاش» لا يجوز همزها بإجماع من علماء العربية، لأن الياء فيها ليست مبدلة من همزة، وإنما الياء التي تبدل من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف، ويكون بعدها حرف واحد، ولا تكون عينا نحو «سفائن» وفي هذا الموضع غلط نافع، رحمة الله عليه، لأنه لاشك اعتقد أن «معيشة» بوزن فعيلة، وجمع فعيلة هو على فعائل. ولم ينظر إلى أن الأصل في «معيشة» «مَعِيشَة» على وزن مَفْعِلَة، وذلك لأن أصل هذه الكلمة من «عاش» التي أصلها «عَيْش» على وزن فَعَلَ، وتلزم مضارع فعل المعتل العين «يفعل» لتصح الياء نحو «يعيش»، ثم تنقل حركة العين إلى الفاء فتصير «يعيش» ثم يبنى من «يعيش» مفعول فيقال «مَعْيُوش» به كما يقال «مَسْجُور» به ثم يخفف ذلك بحذف الواو، فيقال «مَعِيش» به كما يقال «مَسِير» به ثم تَوْنَتْ هذه اللفظة، فتصير «مَعِيشَة».

(٢٩) نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة، وهو نافع بن عبد الرحمن، وهو مولى جمونة بن شعوب الشجعي، كان أسود شديد السواد، وأصله من أصبهان، توفي سنة ١٦٩ هـ بالمدينة.

(٣٠) في سورة الأعراف «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون» آية ١٠ وفي سورة الحجر «وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين» آية ٢٠.

(٣١) أبو عثمان المازني هو بكر بن محمد بن بنية، قيل ابن حنبل بن حبيب، نزل في بني مازن فنسب إليهم. وهو بصري. روى عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد. وعنه البرد والفضل بن محمد الزبيدي وغيرهم. وكان إماماً في العربية متساعاً في الرواية. وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرة على الكلام. وقال البرد: لم يكن بعد سيويه أعلم بالنحو من أبي عثمان وله تصانيف كثيرة في النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي. توفي سنة ٢٤٧ هـ.

ومع هذا فلا ينبغي لصاحب هذه الصناعة من النظم والنثر أن يُهمل من علم العربية ما يخفى عليه بإمهاله اللحن الخفي ، فإنَّ اللحن الظاهر قد كثرت مُفاوضات الناس فيه ، حتى صار يعلمه غير النحوي . ولا شك أن قلة المبالاة بالأمر ، واستشعار القدرة عليه ، تُوقِع صاحبه فيما لا يشعر أنه وقع فيه ، فيجهل بما يكون عالماً به . ألا ترى أن أبا نواس (٣٢) كان معدوداً في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء ، وقد غلِطَ فيما لا يغلط مثله فيه ، فقال في صفة الخمر :

كَانَ صَغْرَى وَكَبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ (٣٣)

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس ، فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه في شيء ، لأنه أمر نقل يحيل ناقله فيه على النقل من غير تصرف . وقول أبي نواس « صَغْرَى » و « كَبْرَى » غير جائز ، فإنَّ فُعْلَى أَفْعَل لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفها من فُعْلَى التي لا أَفْعَل لها ، نحو « حَبْلَى » إلا أن تكون فُعْلَى أَفْعَل مضافة ، وهاهنا قد عرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع ، مع قربهِ وسهولته .
وقد غلط أبو تمام (٣٤) في قوله :

(٣٢) أبو نواس هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح الحنكي ، ولد سنة ٢٤١ هـ في كورة خوزستان ، واشتغل في صباه عند عطار حتى تعرف إلى والية بن الحباب فأعجب به وصحبه إلى الكوفة ثم بغداد . وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً ، وطار ذكره في الآفاق ، واتصل بالرشيد الأمين ومدحها ونال منها الجوائز السنية . وتوفي أبو نواس في الثامنة والخمسين من عمره سنة ١٩٩ هـ

(٣٣) ديوان أبي نواس : ص ٢٤٣ (فواقها) بالواو كما هنا . وأكثر الرواة على أنها (فقاقها) بالالف . وهي التفاحات التي تطلو الماء أو الخمر . وهل الخطأ قوله « صغرى وكبرى » حيث جاء بأفعل التفضيل مؤنثاً ، مع كونه مجرداً من أل ومن الإضافة . وكان حقّه أن يأتي به مفرداً مذكراً . فيقول « أصغر وأكبر » . وقد اعتذر بعض العلماء عنه بأنه لم يرد التفضيل ، وإنما أراد معنى الوصف المجرد عن الزيادة . (٣٤) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، قال الأمدى في الموازنة : والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام أن أباه كان . - من أهل جاسم - قرية من قرى دمشق - يقال له تدوس المطار فجعلوه أوساً ، ولقيت له نسبة إلى طي . وكان واحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة الذي دل على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن الاختيار ، وله مجموع آخر سماه « فحول الشعراء » جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والمختصرين والإسلاميين ، وله كتاب « الاختيارات من شعر الشعراء » وكان له من المحفوظات ما يلاحقه فيه غيره . وقيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب =

بالقائم الثامن المستخلف أطادت^(٣٥) قواعد الملك ممتدا لها الطول
 ألا ترى أنه قال « أطادت » والصواب « اتطدت » لأن التاء تبدل من الواو في
 موضعين : أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع ، لأنك إذا بنيت افتعل من الوعد قلت
 « اتعد » ، ومثله ماورد في هذا البيت ، فإنه من وطد يطد كما يقال وعد يعد . فإذا
 بني افتعل قيل « اتطد » ، ولا يقال « أطاد » . وأما غير المقيس فقولهم في وجاه
 « تجاه » وقالوا « تكلان »^(٣٦) وأصله الواو لأنه من وكل يكل ، فأبدلت الواو تاء
 للاستحسان . فهذه الأمثلة قد أشرت إليها ، ليعلم مكان الفائدة في أمثالها ،
 وتوثق . على أني لم أجد أحدا من الشعراء المقلقين سلم من مثل ذلك ، فلما أن
 يكون لحن لحنًا يدل على جهله مواقع الإعراب ، وإما أن يكون أخطأ في تصريف
 الكلمة . ولا أعني بالشعراء من هو قريب عهد بزماننا ، بل أعني بالشعراء من تقدم
 زمانه ، كالمتنبي^(٣٧) ومن كان قبله ، كالبحرئى^(٣٨) ، ومن تقدمه كأبي تمام ، ومن
 سبقه كأبي نواس والمعصوم من عصمه الله تعالى .

على أن الخطئ في التصريف أندر وقوعًا من الخطئ في النحو ، لأنه قلما يقع له
 كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال والنقل في حروفها ، وأما النحو فإنه يقع الخطأ
 فيه كثيرا ، حتى إنه ليس في ظاهره في بعض الأحوال ، فكيف خافيه ، كقول أبي
 نواس في الأمين محمد رحمه الله :

غير القصائد والمقاطيع . ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم ، وجاب البلاد . وتوفي بالموصل سنة ٢٣١ هـ .
 (٣٥) فعله المجرد وطد يقال وطد الشيء يطده بالتخفيف كوعد يعد ، فهو وعيد وموطود أثبتته ونقله
 كوطده فتوطد بالتشديد ورواية الديوان « اعتدت » موضع « أطادت » ص ٢٢٧ .
 (٣٦) تجاه ووجه مثلثين تلقاه الوجه . أراد أن كلمة تجاه فيها تاء ليست في الأصل والتكلان : الاسم
 من التوكل .

(٣٧) المتنبي هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور . من أهل الكوفة . وقدم الشام في صباه
 وجال في أقطاره واشتغل بفتون الأدب ومهر فيها . وكان من الكثرين من نقل اللغة والمطالعين على غريبها
 وحوشها ، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب ، وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية
 السادة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأمره وتفرق
 أصحابه ، وحجبه ، طويلا ثم استأبته وأطلقه ثم التحق بسيف الدولة بن حمدان في سنة ٣٣٧ هـ . ثم فارقه
 إلى مصر سنة ٣٤٦ هـ ، ومدح كافورا الإخشيدى ، ولما لم يرضه هجاه ، وفارقه ليلة النحر سنة ٣٥٥ هـ .
 ومات مقتولا سنة ٣٥٤ هـ .

(٣٨) البحرئى هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي ولد بناحية منبج سنة ٢٠٦ هـ ، وتنفق في قبائل طي
 وغيرها من البدو الضارين في شواطئ الفرات فغلبت عليه فصاحة العرب ، واتصل بالمتوكل والفتح بن
 ٤٨

ياخيرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ إِلَّا النُّبَى الطَّاهِرُ المِيعُونُ (٣٩)
 فرغ في الاستثناء من الموجِب . وهذا من ظواهر النحو ، وليس من خافية في
 شئ .

وكذلك قال أبو الطيب المتنبي (٤٠)

أَرَأَيْتَ هِمَّةً نَاقِيَةً فِي نَاقَةٍ نَقَلْتُ يَدًا سَرَحًا وَخَفًا مُجَمَّرًا (٤١)
 تَرَكْتُ دُخَانَ الرُّمِّ فِي أَوْطَانِهَا طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعُتْبَرَا (٤٢)
 وَتَكَرَّمَتْ رُكْبَاتُهَا عَنْ مَسْبَرِكِ تَقَعَانٍ فِيهِ وَكَيْسٌ مِسْكَ أَذْفَرَا (٤٣)
 فجمع في حال التثنية ، لأن الناقاة ليس لها إلا ركبتان ، فقال « رُكْبَات » وهذا
 من أظهر ظواهر النحو ، وقد خفي على مثل المتنبي .

ومع هذا فينبغي لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لا يَقْدَحُ في فصاحة ولا بلاغة
 ولكنه يقْدَحُ في الجاهل به نَفْسِهِ . لأنه رُسُومُ قَوْمٍ تواضعوا عليه ، وهم الناطقون
 باللغة ، فوجب اتباعهم .

والدليل على ذلك أن الشاعر لم يَنْظِمْ شعره وغرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ
 المفعولِ أو ماجرى مجراها . وإنما غرضه إيْرَادُ المعنى الحَسَنِ في اللفظ الحسن
 الْمُتَصَفِّينَ بِصِفَةِ الفصاحة والبلاغة ، ولهذا لم يكن اللحن قادحاً في حسن الكلام .

=حقاقان حتى قتلا . ويمتاز شعره بركة الأسلوب وحسن الخيال وإجادة الوصف والثناء والعتاب والنزل
 والمديح . توفي البحتری سنة ٢٨٤ هـ .

(٣٩) ديوان أبي نواس ص ١١٧ . وقد أبقينا لفظ « النُبَى » مرفوعاً لأن مبنى النقد على ذلك . ويمكن
 أن يكون منصوباً ولا خطأ فيه . ويرفع ما بعده على أنه نعت مقطوع .

(٤٠) من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد . ومطلعها :

ياد هواك صيرت أم لم تصيرا وهكالك إن لم يحرم دمك أو جرى

(٤١) الديوان : ١٦٨/٢ السرح : السهلة السير . والخف المجمر : الشديد الصلب . أو هو الخفيف السريع
 من قوهم « أجمرت الناقاة » إذا أسرع . يخبر عن علوهته ، لأنه يحمل ناقته على السير .

(٤٢) الرم : نبت يوقد به . وهو من مراعى الإبل . يقول تركت الأعراب ووقودهم هذا الرمش . وأتيت
 قوماً وقودهم من العنبر .

(٤٣) ركباتها : جمع ركبة . وإنما عني الاثنين . وهو كقولهم جل وعلا « فقد صفت قلوبكما » وذلك أن
 أقل الجمع اثنان . فجاز أن يعبر عنها بالجمع . ودل على أنه أراد التثنية أنه أخبر عنها بالتثنية فقال « تقعان » .
 والأذفر : الشديد الرائحة . يقول : تكمرت ناقتي عن البروك إلا على المسك الأذفر . لأن العنبر يوقد بمحضرة
 الممدوح . والمسك عتَمَن عنده . بحيث تبرك عليه ناقتي .

لأنه إذا قيل « جاء زيد راكباً » إن لم يكن حسناً إلا بأن يقال « جاء راكباً » بالنصب لكان النحو شرطاً في حسن الكلام ، وليس كذلك ، فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته ، وإنما الغرض أمر وراء ذلك ، وهكذا يجرى الحكم في الخطب والرسائل من الكلام المتثور .
وأما الإدغام فلا حاجة إياه لكاتب ، لكن الشاعر ربما احتاج إليه لأنه قد يضطر في بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فك إدغام ، من أجل إقامة الميزان الشعري .

[النوع الثاني : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة]

النوع الثاني ^(٤٤) وهو قولنا إنه يحتاج إلى معرفة اللغة بما تداول استعماله ، فبرز ببياننا عند ذكر اللفظة الواحدة ، والكلام على جيدها ورديتها في المقالة المختصة بالصناعة اللفظية .

ويقتر أيضاً مؤلف الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر ، ليجد - إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ فيه - العُدول عنه إلى غيره . وما هو في معناه ، وهذه الأسماء تسمى « المترادفة » وهي اتحاد المسمى واختلاف أسماه ، كقولنا الخمر ، والراح ، والمُدَام ، فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد ، وأسماءه كثيرة .

وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء « المشتركة » ليستعين بها على استعمال « التجنيس » في كلامه ، وهي اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالعين فإنها نطلق على العين الناضرة ، وعلى ينبوع الماء ، وعلى المطر ، وغيره ، إلا أن المشتركة تفتقر في الاستعمال إلى قرينة تخصصها ، كي لا تكون مبهمة ، لأننا إذا قلنا « عين » ثم سكتنا وقع ذلك على محتملات كثيرة من العين الناضرة ، والعين النابعة ، والمطر ، وغيره ، مما هو موضوع بإزاء هذا الاسم ، وإذا قرئنا إليه قرينة تخصه زال ذلك الإبهام بأن نقول : عين حسناء أو عين نضاجة ^(٤٥) أو مِلَّة ^(٤٦) أو غير ذلك .

(٤٤) ذكر من قبل في صفحة ١٠ . أن البليغ يحتاج إلى معرفة ثمانية أنواع . الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف . وهذا هو النوع الثاني .

(٤٥) عين نضاجة : يبتق منها الماء في قوة . (٤٦) ملّة : دائمة المطر .

وهذا موضع للعلماء فيه مجاذباتٌ جدليّةٌ ، فمنهم من ينكر أن يكون اللفظ المشترك حقيقة في المعنيين جميعاً ، ويقول إن ذلك يُخلُّ بفائدة وُضِعَ اللغة ، لأن اللغة إنما هي وُضِعَ الألفاظ في دلالتها على المعاني ، أى وُضِعَ الأسماء على المسميات ، لتكون مُنبِةً عنها عند إطلاق اللفظ ، والاشتراك لا بيان فيه ، وإنما هو ضدُّ البيان . لكن طريقَ البيان أن يُجعلَ أحدُ المعنيين في اللفظ المشترك حقيقةً ، والآخرُ مجازاً .

فإذا قلنا « هذه كلمة » وأطلقنا القول فهمَ منه اللفظة الواحدة ، وإذا قيّدنا اللفظَ قلنا : هذه كلمة شاعرة ، فهم منه القصيدة المقصّدة من الشعر ، وهى مجموع كلمات كثيرة ، ولو أطلقنا من غير تقييد وأردنا القصيدة من الشعر لما فهم مرادنا البتّة .

هذا خلاصة مذهب إليه من ينكر وقوع اللفظ المشترك في المعنيين حقيقةً ، وفي ذلك ما فيه ، وسأبين ما يدخله من الخلل ، فأقولُ في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكرى ، ولم يكن لأحدٍ فيه قولٌ من قبلى ، وهو : أما قولك : إن فائدة وُضِعَ اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ ، واللفظُ المُشترك يُخلُّ بهذه الفائدة ، فهذا غير مُستلزم ، بل فائدة وُضِعَ اللغة هو البيان والتحسين .

ألمّا البيان فقد وفى به الأسماء المتباينة التى هى كلُّ اسمٍ واحدٍ دلٌّ على مُسمّى واحد ، فإذا أطلق اللفظُ في هذه الأسماء كان بيناً مفهوماً ، لا يحتاجُ إلى قرينة . ولو لم يَضَعِ الواضعُ من الأسماء شيئاً غيرَها ، لكان كافياً في البيان .

وأما التحسينُ فإنَّ الواضعَ لهذه اللغة العربية ، التى هى أحسنُ اللغات ، نظرَ إلى ما يحتاجُ إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظمٍ ونثرٍ ، ورأى أنَّ من مُهِمَّاتِ ذلك (التجنيس) ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة ، التى هى كل اسم واحد دل على مُسمَّيين فصاعداً ، فوضَّعها من أجل ذلك . وهذا الموضع يتجاذبه جانبان ، يترجَّحُ أحدهما على الآخر .

وبيناكه أنَّ التحسينَ يَفْضَى بوضع الأسماء المشتركة ، ووضَّعها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ ، وعلى هذا فإنَّ وضَّعها الواضع ذهب بفائدة البيان ، وإن لم يَضَعِ ذهب بفائدة التحسين ، لكنّه إنَّ وضَّعَ استَدْرَكَ ماذهب من فائدة البيان بالقرينة ، وإن لم يَضَعِ لم يَسْتَدْرِكْ ماذهب من فائدة التحسين ، فترجع حينئذ جانب الوضَّع فَوْضَحَ .

فإن قيل : فلم لا تنسب الأسماء المشتركة إلى اختلاف القبائل ، لا إلى واضع واحد ؟

قلت في الجواب : هذا تعسف لا حاجة إليه ، وهو مدفوع من وجهين : أحدهما : ما قدمت القول فيه من الترجيح الذي سوغ للواضع أن يضع . الآخر : أنا نرى أنه قد ورد من المجموع ما يقع على مُسمَّين اثنين كقولهم : « كِعَاب » جمع « كَعَب » الذي هو كعب الرجل ، وجمع « كَعَبَة » وهي البَيْتَة ^(٤٧) المعروفة . وإذا أطلقنا اللفظ فقلنا « كِعَاب » من غير قرينة لا يُدْرَى ما المراد بذلك : أكعب الرجل أم البَيْتَة المعروفة ؟ وكذلك ورد واحد وجمع على وزن واحد كقولهم « راح » اسم للخمر ، و « راح » جمع راحة ، وهي الكف ، وقولهم « عِقَاب » وهو الجزاء على الذنب ، وجمع « عَقَبَة » أيضا .

وفي اللغة من هذا شيء كثير ، وهو بالإجماع من علماء العربية أنه لم يجز فيه خلاف بين القبائل ، فاتفق بهذا أن الأسماء المشتركة من وضع واحد .
فإن قلت : إن الواضع إنما وضع المفرد من الألفاظ ، والجمع وضعه غيره . قلت في الجواب : إن الذي وضع المفرد هو الذي وضع الجمع ، لأن من قواعد وضع اللغة أن يوضع المفرد والجمع والمذكر والمؤنث والمصغر والمكبر والمصادر وأسماء الفاعلين ، وما جرى هذا المجرى ، وإذا أدخل بشيء من ذلك كان قد أدخل بقاعدة من قواعد وضع اللغة .

ثم لو سلمت إليك أن واضع الجمع غير واضع المفرد لكان ذلك قدحاً في الواضع الثاني ، إذ جاء بالإبهام عند إطلاق اللفظ ، لأنه جمع كعبة - التي هي البَيْتَة ، وكعب الرجل - على « كِعَاب » ، وهذا لفظ مشترك مبهم عند الإطلاق ، ولا فرق بين أن يضعه الواضع الأول أو واضع ثانٍ ، فإن الإبهام حاصل منه . وكان فإوضى بعض الفقهاء في قوله تعالى في سورة البقرة : « صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظَائِرِينَ ^(٤٨) » . وقال إن لون البقرة كان أسود ، والأصفر هو الأسود ،

(٤٧) قال صاحب القاموس : والبينة كناية الكعبة لشرفها .

(٤٨) سورة البقرة : آية ٦٩ .

فأنكرت عليه هذا القول ، فأخذ يجادل مجادلةً غير عارفٍ ، ويعزو ذلك إلى تفسير النقاش^(٤٩) وتفسير البلاذري^(٥٠) .

فقلت له : اعلم أن هذا الاسم الذي هو « الأصفر » لا يخلو في دلالة على الأسود من وجهين : إما أنه من الأسماء المتباينة ، التي يدل كل اسم منها على مُسمى واحد ، كالإنسان والأسد والفرس وغير ذلك ، وإما أنه من الأسماء المشتركة ، التي يدل الاسم منها على مُسميين فصاعداً .

ولا يجوز أن يكون من الأسماء المتباينة ، لأننا نراه متجاذباً بين لونين : أحدهما : هذا اللون الزعفراني الشكل ، والآخر : اللون المظلم الشكل . وعلى هذا فإنه يكون من الأسماء المشتركة ، وإذا كان من الأسماء المشتركة فلا بُدَّ له من قرينة تُخصِّصه باللون الزعفراني دون اللون المظلم ، لأن الله تعالى قال : « صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا » والفاقع من صفات اللون الزعفراني خاصة ، لأنه قد ورد للألوان صفات متعددة ، لكل لون منها صفة ، فقليل أبيض يَقْقُ^(٥١) وأسود حالك ، وأحمر قاني ، وأصفر فاقع ، ولم يُقل : أسود فاقع ، ولا أصفر حالك ، فعلم حينئذ أن لون البقرة لم يكن أسوداً ، وإنما كان أصفر .

فلما تحقق عند ذلك الفقيه ما أشرت إليه أذهن بالتسليم .

[النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم]

وأما النوع الثالث فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام .

(٤٩) النقاش : هو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون المقرئ النقاش الموصلی بغدادی المولد والمنشأ . كان عالماً بحروف القرآن حافظاً للتفسير . صنف فيه كتاباً سماه « شفاء الصدور » وله تصانيف في القراءة وغيرها من العلوم . ذكره طلحة بن محمد بن جعفر فقال : كان يكذب في الحديث والغالب عليه القصص . وسئل أبو بكر البرقاني عنه فقال : كان حديثه منكراً . وقال البرقاني - وذكر تفسير النقاش - فقال : ليس فيه حديث صحيح . ولد النقاش سنة ٢٦٦ هـ وكانت وفاته سنة ٣٤١ هـ .

(٥٠) البلاذري : أبو الحسن وقيل أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة . ونشأ ببغداد . وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز . وقد عهد إليه المعتز بتثقيف ابنه عبد الله . ومن ثم خرج إلى البلدان . والقرابة وتاريخ الأشراف . وكان يجيد الفارسية وقد ترجم عنها عهد أردشير . وقد جن في آخر أيامه . وتوفي سنة ٢٧٩ هـ . (٥١) أبيض يقق بفتحين وكشف شديد البياض .

وقول هذا لا يقتضى كل الأمثال الواردة عنهم : فإن منها ما لا يحسن استعماله .
كما أنَّ من ألفاظهم أيضاً ما لا يحسن استعماله .
وَكُنْتُ جَرَّدْتُ مِنْ كِتَابِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِي (٥٢) أَوْ رَاقاً خَفِيفَةً تَشْتَمِلُ عَلَى
الْحَسَنِ مِنَ الْأَمْثَالِ الَّتِي يَدْخُلُ فِي بَابِ الِاسْتِعْمَالِ . وَسَبِيلُ الْمُتَصَدِّ لِهَذَا الْفَنِّ أَنْ
يَسْلُكَ مَا سَلَكَهُ . وَلِيَعْلَمْ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا شَدِيدَةٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَصْعَ الْأَمْثَالَ
إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا ، وَحَوَادِثَ اقْتَضَتْهَا ، فَصَارَ الْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ
عِنْدَهُمْ كَالْعَلَامَةِ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا الشَّيْءَ ، وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَرٌ مِنْهَا ، وَلَا أَشَدُّ
اِخْتِصَاراً .

وسبب ذلك ما أذكره لك ، لتكون من معرفته على يقين ، فأقول : قد جاء عن
العرب من جملة أمثالهم « إِنْ يَبْتَغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْتَغِ عَلَيْكَ الْقَمَرُ (٥٣) » وهو مثل
يضرب للأمر الظاهر المشهور ، والأصل فيه - كما قال المفضل بن محمد - أنه بلغنا
أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهُنَا عَلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ
عَشْرَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ يَغِيبُ
الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ . فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا (٥٤) ، فَقَالَ وَاحِدٌ (٥٥)
مِنْهُمْ : إِنْ قَوْمِي يَبْتَغُونَ عَلَيَّ ، فَقَالَ الْحَكَمُ (٥٦) : « إِنْ يَبْتَغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْتَغِ
عَلَيْكَ الْقَمَرُ » فَذَهَبَتْ مَثَلًا .

ومن المعلوم أن قول القائل « إِنْ يَبْتَغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْتَغِ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » إِذَا أُخِذَ
عَلَى حَقِيقَتِهِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْقَرَائِنِ الْمُنَوَّلَةِ بِهِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي قَبِلَ مِنْ أَجْلِهَا . لَا
يُعْطَى مِنَ الْمَعْنَى مَا قَدْ أُعْطَاهُ الْمَثَلُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَثَلَ : مُقَدِّمَاتُ وَأَسْبَابُ قَدْ عُرِفَتْ ، وَصَارَتْ
مَشْهُورَةً بَيْنَ النَّاسِ ، مَعْلُومَةٌ عِنْدَهُمْ ، وَحَيْثُ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ جَارٍ إِبْرَادُ
هَذِهِ اللَّفْظَاتِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ .

(٥٢) الميداني : هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري . كان أديباً
فاضلاً . عارفاً باللغة . اختص بصحبة أبي الحسن الواحدي صاحب التفسير . ثم قرأ على غيره وأتقن فن العربية
خصوصاً اللغة وأمثال العرب . وله فيها التصنيف المفيدة . منها كتاب مجمع الأمثال . ولم يعلم مثله في بابه .
وكتاب السامى في الأسماء . . . ٥١٠ هـ بنيسابور . والميداني نسبة إلى « ميدان » وهي محلة في نيسابور .
(٥٣) مجمع الأمثال للميداني ٣٠/١ . (٥٤) رواية مجمع الأمثال « فتراضوا برجل جعلوه حكامهم » .
(٥٥) رواية مجمع الأمثال « فقال رجل منهم » . (٥٦) رواية مجمع الأمثال « فقال العدل » .

ولولا تلك المقدمات المعلومة والأسباب المعروفة لما فهم من قول القائل «إن يَبْغِرَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِرَ عَلَيْكَ الْقَمَرُ» ما ذكرناه من المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد ، لأن البَغْيَ هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يَظْلِمَ أحداً ، فكانَ بصيرُ معنى المثل : إن كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ الْقَمَرُ ، وهذا الكلام محتمل المعنى ، ليس بمستقيم .

فلما كانت الأمثال كالمُرمُوز والإشارات التي يُلَوِّحُ بها على المعاني تلويحاً صارت من أَوْجَزِ الكلام وأكثره اختصاراً .

ومن أجل ذلك قيل في حدِّ المثل : إنه القول الوجيز المرسلُ ليعمَلَ عليه ، وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلالُ بمعرفتها .

وأما أيامُ العربِ فإنها تتنوعُ وتنشعبُ ، فمنها أيامُ فَخَّارٍ ، ومنها أيامُ مُحَارِبَةٍ ، ومنها أيامُ مُنَافَرَةٍ ، ومنها غيرُ ذلك .

ولا يخلو الناظم والنائر من الانتصاب لوصف يومٍ يَمُرُّ به في بعض الأحوال شيئاً بيومٍ من تلك الأيام ، ومماثلاً له ، فإذا جاءَ بذكر بعض تلك الأيام المناسبة لمُرادِهِ ، الموافقة له ، وقاسَ عليه يَوْمَهُ ، فإنه يكونُ في غايَةِ الحسن والرؤنَى . هذا لاختفاء به .
وأما الوقائع التي وَرَدَتْ في حوادثٍ خاصَّةٍ بأقوامٍ ، فإنها كالأمثالِ في الاستشهاد بها ، وسأبين لك نُبذةً منها حتى تعلمَ مقدارَ الفائدةِ بها . فن ذلك أنه ورد عن النبي ﷺ حديثُ بَيْعَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ (٥٧) تحت الشجرة وكان أرسل عثمان - رضي الله عنه - إلى مكة في حاجة عَرَضَتْ له ولم يَحْضُرِ الْبَيْعَةَ ، فضربَ رسولُ الله ﷺ بيده الشَّالِ على الجبين ، وقال : هذه عن عثمان ، وشألي خيرٌ من يمينه .

(٥٧) خرج النبي ﷺ في آخر سنة ست معتمراً لا يريد حرباً واستنفر العرب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت . وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن القريشون حربه . لكن قريشاً لما علمت بمقدمه خرجت للقاتل . وبعث مندوبين عنها ليخبرهم الرسول بأنه قد قدم زائراً للبيت . وعاد المندوبون إلى قريش فاتهمهم وسفهمهم . فأراد النبي أن يبعث عمر بن الخطاب مولداً عنه إلى قريش ليؤكد لهم أن المهاجرين والأنصار إنما قلدوا زواراً لأعماريين ، فاعتذر عمر - لأنه خشي على نفسه من عدوان قريش عليه - إذ ليس بمكة من بني عدى أحد يحميه . وأشار على النبي أن يرسل عثمان بن عفان . فأرسله النبي - فاحبسته قريش عندها . وعلم النبي بذلك فقال : لا نبرح حتى تناجز القوم . ودعا الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت - وعلى ألا يفروا ثم جاء الخبر إلى النبي أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وقد استعملتُ أنا هذا في جُملة كتاب ، فقلت : ولا يُعَدُّ البرِّيراً حتى يُلْحَقَ
النَّيْثُ بِالْحَصُورِ (٥٨) ، وَيَصِلَ مَنْ لَمْ يَصِلْهُ يَجْزَاءُ وَلَا شُكُور ، فَرَنَةُ الْغَائِبِ بِالشَّاهِدِ
مِنْ كَرَمِ الْإِحْسَانِ ، ولهذا نَابَتْ شَالُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ يَمِينِ عُثْمَانَ . ومن ذلك
أنه ورد عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ اسْتَدْعَى أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ
وَمَنْ بِلَيْهِ مِنَ الْعَمَالِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْحَارِثِيُّ ، فَضَى إِلَى يَزْفَا مَوْلَى
عُمَرَ ، وَسَأَلَهُ عَمَّا يَرُوجُ عَنْهُ وَيَنْفَقُ عَلَيْهِ ، فَأَشَارَ إِلَى خُشُونَةِ الْعَيْشِ ، فَضَى وَلَبَسَ
جُبَّةً صُوفَ وَعِمَامَةً دَسَمَاءَ (٥٩) وَخُفًّا مُطَابِقًا ، وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي جُمْلَةِ الْعَمَالِ ،
فَصَوَّبَ عُمَرُ نَظْرَهُ وَصَعَّدَهُ ، فَلَمْ يَقَعْ إِلَّا عَلَيْهِ ، فَأَدْنَاهُ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ . ثُمَّ أَوْصَى أَبَا
مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ بِهِ .

وقد استعملتُ أنا هذا في جملة تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت :
وَإِذَا اسْتَعْنَتْ بِأَحَدٍ عَلَى عَمَلِكَ ، فَاضْرِبْ عَلَيْهِ بِالْأَرْصَادِ ، وَلَا تَرْضَ بِمَا عَرَفْتَهُ عَنْ
مَبْدَأِ حَالِهِ ، فَإِنَّ الْأَحْوَالَ تَتَقَلَّبُ تَقَلُّبَ الْأَجْسَادِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُخْدَعَ بِصَلَاحِ الظَّاهِرِ ،
كَمَا خَدَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ .

فانظر كيف فعلت في هاتين القصتين ؟ وكيف أوردتهما في الغرض الذي
قصده ؟ وأمن أنت على هذا النهج ، فإنه من محاسن هذه الصنعة .

وَعُرِضَ عَلَى كِتَابِ كُتُبِهِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنُ عَلِيٍّ الْبِيسَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الْمَلِكِ
صَلَّاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ بِبَغْدَادَ فِي سَنَةِ
إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَضَمَّنَهُ مَا أَبْلَاهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ ، مِنْ فَتْحِ الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ ، وَمَحْوِ الدَّوْلَةِ الْعُلُويَّةِ (٦٠) ، وَإِقَامَةِ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَشَرَحَ فِيهِ مَا قَاسَاهُ
فِي الْفَتْحِ مِنَ الْأَهْوَالِ .

ولما تأملته وجدته كتاباً حسناً قد وُفِيَ فِيهِ الْخُطَابَةُ حَقَّهَا . إِلَّا أَنَّهُ أَخْلَلَ بِشْيَءٍ
وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنَّ مِصْرَ لَمْ تُفْتَحْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَصِدَتْ مِنَ الشَّامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَكَانَ
الْفَتْحُ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ ، وَهَذَا لَهُ نَظِيرٌ فِي فَتْحِ النَّبِيِّ ﷺ مَكَّةَ - فَإِنَّهُ قَصِدَهَا عَامَ

(٥٨) الحصور من معانيه المريب المحجم عن التهم . والمراد أن هذا الممدوح يشمل بعبائيه من لم يطلبوا منه

شيئاً . (٥٩) ملونة بالنسم .

(٦٠) الدولة العلوية هي الفاطمية ، النسبة الأولى إلى الإمام علي بن أبي طالب ، والنسبة الثانية إلى السيدة
فاطمة ابنته .

الحدبية. ثم سار إليها في عمرة القضاء، ثم سار إليها عام الفتح. ففتحها. وقد سألتني بعض الإخوان أن أنسى في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله، فأجبت به إلى سؤاله وعددت مساعي صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فقلت: «ومن جمعتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية، وقد قام بها منير وسري، وقالت: منّا أمير ومنكم أمير، فردّ الدعوة العباسية إلى معادها، وأذكر المنابر مانسيته بها من زهو أعوادها، وكانت أخرجت منها إخراج النبي ﷺ من قرينته، وقذف الشيطان على حلقها بباطلها، وعلى صديقها بغوايته، ثم طوّنها الليالي طي السجل» (٦١) للكتاب، وكثر عليها مرور الدهر، حتى نسي لها عدد السنين والحساب. ولم يعدّها إلى وطنها، حتى تغرّبت لها الأزواح عن أوطانها، وسهرت لها أحفان» (٦٢) السيوف سهر العيون عن أحفانها» (٦٣)، وتظاردت الآراء في تسهيل أمرها قبل مظاردة أقرانها، وحتى تقدمتها غربات» (٦٤) ثلاث كلها ذوات غروب» (٦٥)، وكل خطب من خطوبها ذو خطوب، إلى أن تمخّض ليها عن صبحه، وأصبحت في الإسلام كعام حديبته، وعمرة قضائه، وعام فتحه، وفي ذكر أخبارها ما يطبع الأسمّة في رؤوس الأعلام» (٦٥)، ويذهب سابعها، ولم ينله شيء من مكروها سوى الكلام، ويومها للدولة هو اليوم الذي أرخ فيه معاد نصرها وميعاد بشرها، فإذا عدت لياليها السالفة كانت كسائر الليالي، وهذه ليلة قدرها».

فهذا فصل من فصول الكتاب، فانظر كيف ماثلت بين الفتح المصري وفتح مكة، وذكرت أيضاً حديث الحباب بن المُنذر الأنصاري حيث قال بعد وفاة النبي ﷺ: منّا أمير ومنكم أمير، وذلك لما حصر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنهم - في سقيفة بني ساعدة، والقصة مشهورة، فقال الحباب بن

(٦١) السجل: الكتاب.

(٦٢) أحفان السيوف: أغادها. والأحفان: أعطيت العيون من أعلى وأسفل.

(٦٣) غربات ثلاث: ثلاث سفرات ورحلات.

(٦٤) غروب: جمع غرب والمراد هنا حد السيف، أي أن المرات الثلاث، فيها قتال.

(٦٥) المراد من طبع الأسمّة في رؤوس الأعلام أن الأعلام التي تذكر أخبار هذا الفتح تصور معارك رهيبة.

تكان في رؤوس الأعلام أسمة رماح.

المنذر: منا أميرٌ ومنكم أمير، فقال أبو بكر رضى الله عنه: «بل نَحْنُ الأمراءُ . وأنتم الوزراءُ» . وهذا الذى ذكرته هو نكتة هذا الفتح التى عليها المَعُولُ ، ومَرَكْزُهُ الذى عليه يَدُورُ .

وعجبتُ من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدُّمِهِ فى فنِّ الكتابة ، كيف فاتَهُ أنْ يأتى به فى الكتابِ الذى كتبه ؟

وكذلك وجدتُ لابن زيادَ البَغْدادى كتاباً كتبه إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسفَ المَقْدَمِ ذِكره فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وضمَّنه فُصُولاً تشتملُ على أمورٍ أنكرتُ عليه من ديوان الخلافة ، فمن تلك الأمور التى أنكرتُ عليه أنه تَلَقَّبَ بالملك الناصر ، وذلك اللَّقبُ هو لأَمير المؤمنين خاصَّة ، فإنه الإمامُ الناصرُ لدين الله . فلما وقَّفتُ على ذلك الكتابُ وجدته كتاباً حسناً قد أجاد فيه كلُّ الإِجادة ، ولم أجد فيه مَعَمَراً إلا فى هذا الفصلِ الذى يتضمَّنُ حديثَ اللَّقب ، فإنه لم يأتِ بكلامٍ يناسبُ باقى الفصولِ المذكورة . بل أتى فيه بكلامٍ فيه غثائهُ ، كقوله : « ما يَسْتَصْلِحُهُ المَوْتُ فهو على عبده حرام » وشيئاً من هذا النسق ، وكان الأليقُ والأحسنُ أنْ يَحْتَجَّ بحجَّةٍ فيها رُوحٌ ، ويدكرُ كلاماً فيه ذِلاقةٌ ورِشاقةٌ .

وحَصَرَ عندى فى بعض الأيام بعضُ إخوانى ، وجَرى حديثُ ذلك ، فسألنى عما كان يبنى أنْ يُكْتَبَ فى هذا الفصل ، فذكرتُ ما عندى ، وهو : « قد عُلِمَ أنْ للأنبياءِ والخلفاءِ خصائصَ يختصُّون بها على حُكْمِ الانفراد وليس لأحدٍ من الناس أنْ يشاركهم فيها مشاركة الأنداد وقد أجرى رسولُ الله ﷺ ذلك فى أشياء نصَّ عليها بحُكْمِهِ ، ومن جملتها أَنَّهُ نَهَى غَيْرَهُ أنْ يجمع بين كُتْبِهِ وبين اسمه ، وهذا مُسَرَّعٌ لأَمير المؤمنين أنْ يَحْتَصَّ بِأَمْرِ يَكُونُ به مشهوراً ، وعلى غيره محظوراً ، وقد وَسَمَ نفسه بسمَةِ نزلتْ عليه من السماء ، وتميزتْ به من بين المُسمَّياتِ والأسماء ، ثم استمرتْ عليها الأيامُ حتى خُوطِبَ بها من الحاضرِ والبادِ ، ورقَّعها الخطباءُ على المنابرِ فى أيامِ الجُمُعِ ومواسمِ الأعياد ، وقد شارَكته أنت فى غيرِ مراقبِ لَمَزِيَّةِ التعظيم ، ولا فارَقَ بين مُسْحَةِ التحليلِ وحَرَجِ التحريم ، والشرعُ والأدبُ يحكمان عليك بأنْ تَلْقَى ما قَطَّ منك بالمتاب ، ولا تَخُوجَ فيه إلى التَّقْرِيعِ الذى هو أشدُّ العتابِ ، ومثلُكَ مَنْ عَرَفَ الحقَّ فأَمْسَكَه بيده ، ونَسَخَ إِغْفَالَ أَمْسِيهِ باستئنافِ »

التيقُّظ في غَدِهِ ، والله قد رَفَعَ المُواخِذَةَ عَمَّنْ أَتَى الشَّيْءَ خَطَاً لَا عَمَدًا ، وَقَبْلَ التَّوْبَةِ
مَمَّنْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِخْلَاصِ عَهْدًا .

فانظرُ أيُّهَا المتأملُ كَيْفَ جِئْتُ بالخبرِ النبويِّ ، وجعلتهُ شاهدًا على هذا الموضعِ ،
ولا يمكنُ أن يُحتجَّ في مثل ذلك إلا بمثلِ هذا الاحتجاجِ . وما أعلمُ كيفَ شَدَّ عن
ابن زيادٍ أن يأتِيَ به ، مع أنه كان كاتبًا مغلَقًا أرَضِيَ كتابتهُ ، ولم أجِدْ في متأخري
العراقيين مَنْ يُأثِّلُهُ في هذا الفنِّ ؟ .

[النوع الرابع : الاطلاع على المنظوم والمثثور]

وأما النوع الرابع ، وهو الاطلاعُ على كلام المتقدمين من المنظوم والمثثور ، فإنَّ في
ذلك فوائدَ جَمَّةً ، لأنَّهُ يَعْلَمُ منه أغراضُ الناسِ ونتائجُ أفكارهم ويُعرَفُ به مقاصدُ
كلِّ فريقٍ منهم ، وإلى أين تَرامَتْ به صَنعَتُهُ في ذلك ، فإنَّ هذه الأشياءَ مما تَشَحَّدُ
القَرِيحَةُ ، وتُذَكِّي الفِطْنَةَ ، وإذا كانَ صاحبُ هذه الصَّنَاعَةِ عارِفًا بما تَصِيرُ المعاني التي
ذِكِرَتْ ، وَتَعَبَ في استخراجها ، كَالشَّيْءِ المُلَقَّى بين يَدَيْهِ ، يأخُذُ منه ما أراد ، وَيُترِكَ
ما أراد .

وأيضًا ، فإنه إذا كان مُطْلِعًا على المعاني المَسْبُوقِ إليها قد يُنْقَلِحُ له من بينها
معنى غريبٌ لم يُسَبِّقْ إليه .

ومن المعلوم أن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة . فإنَّ بعضها
لا يكونُ عاليًا على بعض ، أو منَحَطًا عنه إلا بشيءٍ يَسِيرٍ ، وكثيرًا ما تتساوى القرائح
والأفكارُ في الإتيانِ بالمعاني ، حتى إنَّ بعضَ الناسِ قد يأتِي بمعنى موضوعٍ بلفظٍ ، ثم
يأتِي الآخرُ بعده بذلك المعنى . واللفظُ بَعَيْنُهَا من غيرِ عِلْمٍ منه بما جاء به الأول .
وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصَّنَاعَةِ « وقوع الحافر على الحافر » وسيأتِي لذلك
بابٌ مفرَّدٌ في آخرِ كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

[النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية]

وأما النوع الخامس : وهو معرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء
والحسبة وغير ذلك ، فإنما أَوْجَبْنَا معرفتها والإحاطةَ بها ، لما يحتاجُ إليه الكاتبُ في
تقليداتِ الملوكِ والأمراءِ والقضاةِ والمحسِّنين ، ومن يَجْرِي مجراهم . وأيضًا فإنه قد

يَحْدُثُ فِي الْإِمَامَةِ حَدَثٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بِأَنْ يَمُوتَ الْإِمَامُ الْقَائِمُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِهِ مَنْ لَمْ تَكْمَلْ فِيهِ شُرَاطُ الْإِمَامَةِ ، أَوْ يَكُونُ كَامِلَ الشَّرَاطِ غَيْرَ أَنَّ الْإِمَامَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ عَهْدَ بِهَا إِلَى آخِرِ غَيْرِهِ ، وَهُوَ نَاقِضُ الشَّرَاطِ . أَوْ يَكُونُ قَدْ تَنَازَعَ الْإِمَامَةُ اثْنَانِ أَوْ يَكُونُ أَرْبَابُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ قَدْ اخْتَارُوا إِمَاماً وَهُمْ غَيْرُ كَامِلِي الشَّرَاطِ الَّتِي تَجِبُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِمْ . أَوْ يَكُونُ أَمْرٌ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، فَتَخْتَلِفُ الْأَطْرَافُ فِي ذَلِكَ ، وَيَنْتَصِبُ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ لَهُ عَنَابَةٌ بِالْإِمَامِ الَّذِي قَدْ قَامَ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَيَأْمُرُ كَاتِبَهُ أَنْ يَكْتُبَ كِتَاباً فِي أَمْرِهِ إِلَى الْأَطْرَافِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ عِنْدَ ذَلِكَ عَارِفاً بِالْحُكْمِ فِي هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَاخْتِلَافِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا ، وَمَا هُوَ رُخْصَةٌ فِي ذَلِكَ ، وَمَا لَيْسَ بِرُخْصَةٍ ، لَا يَكْتُبُ كِتَاباً يُنْتَفَعُ بِهِ .

وَلَسْنَا نَعْنِي بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ يَكُونُ الْكِتَابُ مَقْصُوراً عَلَى فَقْهِ مَحْضٍ فَقَطْ ، لِأَنَّا لَوْ أَرَدْنَا ذَلِكَ لَمَا كُنَّا نَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كِتَابِ كِتَابٍ بِلَاغِيٍّ ، بَلْ كُنَّا نَقْتَصِرُ عَلَى إِسْرَالِ مُصَنَّفٍ مِنْ مَصْنُفَاتِ الْفَقْهِ عَوِضاً عَنِ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا قَصَدْنَا أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الَّذِي يُكْتُبُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُشْتَمِلاً عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ ، وَالْمُسَامَحَةِ فِي مَوْضِعٍ ، وَالْمَحَاقِقَةِ فِي مَوْضِعٍ ، مَشْعُوناً ذَلِكَ بِالنَّكْتِ الشَّرْعِيَّةِ ، الْمُبَرِّزَةِ فِي قَوَالِبِ الْبِلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، كَمَا فَعَلَ الْكَاتِبُ الصَّابِيُّ (٦٦) ، فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ عَنْ عَزِّ الدَّوْلَةِ بِخِتْيَارِ بْنِ مُعَزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، إِلَى الْإِمَامِ الطَّائِعِ لِمَا خَلَعَ الْمُطِيعَ ، فَإِنَّهُ مِنْ مُحَاسِنِ الْكِتَابِ الَّتِي تَكْتُبُ فِي هَذَا الْفَنِّ .

[النوع السادس : حفظ القرآن الكريم]

وَأَمَّا النَّوعُ السَّادِسُ : وَهُوَ حِفْظُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ

(٦٦) هُوَ أَبُو إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَلَالِ الصَّابِيِّ صَاحِبَ الرِّسَالِ الْمَشْهُورَةِ وَالنَّظْمِ الْبَدِيعِ كَانَ كَاتِبَ الْإِنشَاءِ عَنِ الْخَلِيفَةِ بِيغْدَادَ وَعَنْ عَزِّ الدَّوْلَةِ بِخِتْيَارِ الدَّيْلَمِيِّ ، وَتَقَلَّدَ دِيْوَانَ الرِّسَالِ سَنَةَ ٣٤٩ هـ . وَكَانَ مُتَشَدِّداً فِي دِينِهِ ، وَجَهْدَ عَلَيْهِ عَزِّ الدَّوْلَةِ أَنْ يَسْلِمَ فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَكَانَ يَصُومُ شَهْرَ رَمَضَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَحْفَظُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَحْسَنَ حِفْظٍ وَكَانَ يَسْتَمْلِكُهُ فِي رِسَالَتِهِ تَوْفَى الصَّابِيُّ سَنَةَ ٣٨٤ هـ بِيغْدَادَ ، وَرَوَاهُ الشَّرِيفُ الرَّضَى بِقَصِيدَةٍ مَشْهُورَةٍ وَعَنَابِهِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ لَكُونَهُ شَرِيفاً يَرَى صَابِئاً ، فَقَالَ : إِنَّمَا رَأَيْتُ فَضْلَهُ .

يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ فِيهِ فَوَائِدَ كَثِيرَةً ، مِنْهَا أَنَّهُ يُضْمَنُ كَلَامُهُ
بِالْآيَاتِ فِي أَمَاكِنِهَا اللَّافِقَةِ بِهَا وَمَوَاضِعِهَا الْمُنَاسِبَةِ لَهَا . وَلَا شُبْهَةَ فِيهَا بِصِيرٍ لِلْكَلامِ
بِذَلِكَ مِنَ الْفَحَامَةِ وَالْجَزَالَةِ وَالرُّونُقِ .

وَمِنْهَا أَنَّهُ إِذَا عَرَفَ مَوَاقِعَ الْبَلَاغَةِ وَأَسْرَارَ الْفَصَاحَةِ الْمُودَعَةَ فِي تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ
اتَّخَذَهُ بَحْرًا يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الدَّرَرَ وَالْجَوَاهِرَ ، وَيُودِعُهَا مَطَاوِي كَلَامِهِ ، كَمَا فَعَلْتُهُ أَنَا فِيهَا
أَنْشَأْتُهُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ ، وَكَفَى بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحْدَهُ آلَةً وَأَدَاةً فِي اسْتِمَالِ أَفَاضِلِ
الْكَلَامِ .

فَعَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُرْتَشِعُ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ بِحِفْظِهِ ، وَالْفَحْصُ عَنْ سِرِّهِ وَغَامِضِ رَمُوزِهِ
وَإِشَارَاتِهِ ، فَإِنَّهُ تِجَارَةٌ لِنِ تَبُورٍ ، وَمَنْبُغٌ لَا يَغُورُ ، وَكَثْرٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ ، وَذُخْرٌ يُعُولُ
عَلَيْهِ .

[النوع السابع : حفظ الأخبار النبوية]

وَأَمَّا النَّوعُ السَّابِعُ : وَهُوَ حِفْظُ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِمَالِهِ فَإِنَّ
الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ يَجْرِي بِجَرَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ غَاغِرُهُ .

[النوع الثامن : معرفة علمي العروض والقوافي]

وَأَمَّا النَّوعُ الثَّامِنُ : وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِالنَّاظِمِ دُونَ النَّائِرِ ، وَذَلِكَ مَعْرِفَةُ الْعُرُوضِ ،
وَمَا يَجُوزُ فِيهِ مِنَ الزُّحَافِ (٦٧) وَمَا لَا يَجُوزُ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ .
وَلَسْنَا نُوجِبُ عَلَيْهِ الْمَعْرِفَةَ بِذَلِكَ لِيَنْظِمَ بِعِلْمِهِ ، فَإِنَّ النَّظْمَ مَبْنِيٌّ عَلَى الذَّوْقِ ، وَلَوْ
نَظَّمَ بِتَقْطِيعِ الْأَفَاعِيلِ (٦٨) لَجَاءَ شِعْرُهُ مُتَكَلِّفًا غَيْرَ مَرْضِيٍّ ، وَإِنَّمَا أُرِيدُ لِلشَّاعِرِ مَعْرِفَةُ
الْعُرُوضِ . لِأَنَّ الذَّوْقَ قَدْ يَنْبُو عَنْ بَعْضِ الزُّحَافَاتِ وَيَكُونُ ذَلِكَ جَائِزًا فِي الْعُرُوضِ ،
وَقَدْ وَرَدَ لِلْعَرَبِ مِثْلُهُ .
فَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ غَيْرَ عَالِمٍ بِهِ ، لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مَا يَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ وَمَا لَا يَجُوزُ .

(٦٧) الزحاف على وزن كتاب في الشعر أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر ، وهو
تغيير مختص بثواني الأسباب ، جمع سبب ، وهو عند العروضيين متحرك بعده ساكن ، ويسمونه السبب
الخفيف نحو قد ، ومتحركان نحو بك ، ويسمونه السبب الثقيل .
(٦٨) المعروف أنها « تفاعيل » بالتاء جمع لتفعيل ، وهي الألفاظ التي يوزن بها أي يجرى من مجرى الشعر .

وكذلك أيضاً يحتاجُ الشاعرُ إلى العلم بالقوافي والحركات ، ليعلم الرُّوي^(٦٩) والردف^(٧٠) ، وما يصحُّ من ذلك ، وما لا يصحُّ .

فإذا أكملَ صاحبُ هذه الصَّناعةِ معرفةَ هذه الآلات ، وكان ذا طبعٍ مجيبٍ وقرحةٍ مُواتيةٍ ، فعليه بالنظر في كتابنا هذا ، والتَّصَفُّحُ لما أودعناه من حقائق علم البيان ، ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه . على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثمان هو كالأصل لما يحتاجُ إليه الخطيبُ والشاعر ومعرفة ضروريَّة لأبدٍ منها . وهما هنا أشياء أخرى كالنواحيب والروادف ، وبالجملة فإن صاحبَ هذه الصَّناعة يحتاجُ إلى التشبُّثِ بكل فنٍّ من الفنون ، حتَّى إنه يحتاجُ إلى معرفة ما نقوله النَّادبة بين النساء ، والماشيطة عند جَلْوَةِ العُروس ، وإلى ما يقوله المتأدِّي في السوق على السلعة ، فما ظنُّكَ بما فوق هذا ؟

والسببُ في ذلك أنه مؤهَّلٌ لأنَّ يهيمَ في كلِّ واحدٍ ، فيحتاجُ أن يتعلَّقَ بكل فنٍّ .

الفصل الثالث

في الحكم على المعاني

وفائدة هذا الفصل الإحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها . وصاحبُ هذه الصناعة مفتقرٌ إلى هذا الفصل والذي يليه بخلافٍ غيرهما من هذه الفصول المذكورة ، لاسيما مُفسِّرُ الأشعار ، فإنهم به أعنى .

واعلم أنَّ الأصلَ في المعنى أن يُحمَلَ على ظاهر لفظه ، ومنْ يذهب إلى التأويل يفتقر إلى دليل كقوله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ^(١) » فالظاهر من لفظ « الثياب » هو ما يُلبَس ، ومنْ تأوَّل ذهب إلى أنَّ المراد هو القلب : لا الملبوس ، وهذا لأبدٍ له من دليل . لأنه عدُولٌ عن ظاهر اللَّفْظِ .

(٦٩) الروي من حروف القافية ، وهو الحرف الذي تنبئ عليه القصيدة .

(٧٠) الردف من حروف القافية ، وهو حرف مد قبل حرف الروي .

وكذلك وَرَدَ عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَصَلِيَ فادْخُلْ بَيْتَكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ » فالظاهر من هذا هو البيت والباب . وَمَنْ تَأَوَّلَ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ تَجْمَعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ ، وتَمْنَعُ أَنْ يَخْطُرَ بِهِ سَوَى أَمْرِ الصَّلَاةِ ، فَعَبَّرَ عَنِ الْقَلْبِ بِالْبَيْتِ ، وَعَنِ مَنَعَ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَخْطُرُ لَهُ بِإِغْلَاقِ الْبَابِ . وهذا يحتاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ .

فالْمَعْنَى الْمَحْمُولُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا يَقَعُ فِي تَفْسِيرِهِ خِلَافٌ ، وَالْمَعْنَى الْمَعْدُولُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ يَقَعُ فِيهِ الْخِلَافُ . إِذْ بَابُ التَّأْوِيلِ غَيْرُ مَحْصُورٍ ، وَالْعُلَمَاءُ مُتَّفَاوِتُونَ فِي هَذَا ، فَإِنَّهُ قَدْ يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وَجْهًا ضَعِيفًا مِنَ التَّأْوِيلِ ، فَيَكْسُوهُ بِعِبَارَتِهِ قُوَّةً تُمَيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الرُّجُوهِ الْقَوِيَّةِ ، فَإِنَّ السَّيْفَ بِضَارِبِهِ :

إِنَّ السَّيْفَ مَعَ الَّذِينَ قَلَبُوهُمْ كَقُلُوبِهِمْ إِذَا اتَّقَى الْجَمْعَانِ
تَلَقَّى الْحُسَامَ عَلَى جِرَاعَةٍ حَسَّهْ مِثْلَ الْجَبَانِ يَكْفُ كُلَّ جَبَانٍ^(٢)

وذهب بعضهم في الفرق بين « التفسير » و « التأويل » إلى شيء غير مرضي ، فقال : التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة ، كتفسير الصراط بالطريق . والتأويل إظهار باطن اللفظ كقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ^(٣) » فتفسيره من الرصد ، يقال : رَصَدْتُهُ ، إِذَا رَقَبْتُهُ ، وتأويله تحذير العباد من تعدّي حدود الله ومخالفة أوامره . والذي عندي في ذلك أنه أصاب في الآخر ، ولم يُصِيبْ في الأول . لأن قولهُ :

« التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة » لا مُسْتَنَدَ لِحِوَاظِهِ ، بَلْ (التفسير) يطلق على بيان وَضْعِ اللَّفْظِ حَقِيقَةً وَجَازًا ، لِأَنَّهُ مِنْ « الْفَسْرِ » وَهُوَ الْكَشْفُ ، كَتَفْسِيرِ الرَّصِدِ فِي الْآيَةِ الْمَشَارِإِهَا بِالرُّقْبَةِ ، وَتَفْسِيرُهُ بِالْتَّحْذِيرِ مِنْ تَعْدِي حُدُودِ اللَّهِ وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ . وَأَمَّا (التَّأْوِيلُ) فَإِنَّهُ أَحَدُ قِسْمَيْ التَّفْسِيرِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رُجُوعٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ الرُّجُوعُ ، يُقَالُ : آلَ ، يَقُولُ إِذَا رَجَعَ .

وعلى هذا فَإِنَّ التَّأْوِيلَ خَاصٌّ ، وَالتَّفْسِيرَ عَامٌّ ، فَكُلُّ تَأْوِيلٍ تَفْسِيرٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ تَفْسِيرٍ تَأْوِيلًا . وَلِهَذَا يُقَالُ : تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ ، وَمِنْ تَفْسِيرِهِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ .

(٢) البيت للمتنبي ، الديوان ١٨٤/٤ والملحق : إنما ينفي السيف إذا كان مع الشجاع .

(٣) سورة الفجر ، آية ١٤ .

وهذا الفصل الذي نحن بصدد شرحه هاهنا يرجع أكثره إلى التأويل . لأنه أدق .

ولا يخلو تأويل المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يُفهم منه شيء واحد لا يُحتمل غيره . وإما أن يُفهم منه الشيء وغيره ، وتلك الغيرية إما أن تكون ضيذاً ، أو لا تكون ضيذاً . وليس لنا قسم رابع .

فالأول : يقع عليه أكثر الأشعار ، ويَجْرى في الدقة واللطافة مجرى القسمين الآخرين .

وأما القسم الثاني : فإنه قليل الوقوع جداً ، وهو من أطرف التأويلات المعنوية . لأن دلالة اللفظ على المعنى وضده أعرب من دلالاته على المعنى وغيره مما ليس بضده . فما جاء منه قول النبي ﷺ « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام » فهذا الحديث يُستخرج منه معنيان ضيذان : أحدهما أن المسجد الحرام أفضل من مسجد رسول الله ﷺ ، والآخر أن مسجد رسول الله ﷺ أفضل من المسجد الحرام . أى أن صلاة واحدة فيه لا تُفضل ألف صلاة في المسجد الحرام ، بل تُفضل ما دونها بخلاف المساجد الباقية ، فإن ألف صلاة فيها تُفصر عن صلاة واحدة فيه .

وكذلك جاء قول النبي ﷺ أيضاً من كلام النبوة « إذا لم تستح فاضنع ما شئت » وهذا يشتمل على معنيين ضيذين ، أحدهما : أن المراد به إذا لم تفعل فعلاً تستحى منه فافعل ما شئت . والآخر : أن المراد به إذا لم يكن لك حياء يزعلك عن فعل ما يستحى منه فافعل ما شئت . وهذان معنيان ضيذان ، أحدهما مدح ، والآخر ذم .

ومثله ورد في الحديث النبوي أيضاً ، وذلك أنه ذكر شريح الحضرمي عند النبي ﷺ فقال : « لا يتوسد القرآن » وهذا يحتمل مدحاً وذماً . أما المدح فالمراد به أنه لا يتألم الليل عن القرآن ، فيكون القرآن متوسداً معه ، لم يتنهج به ، وأما الذم فالمراد به أنه لا يحفظ من القرآن شيئاً ، فإذا نام لم يتوسد معه القرآن . وهذان التأويلان من الأضداد . وكثيراً ما يرد أمثال ذلك في الأحاديث النبوية .

ومجرى على هذا النهج من الشعر قول أبي الطيب في قصيدة يمدح بها كافورا :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً ومن بات في نغائيه يتقلب^(١)
وهذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان ، أحدهما : أن المنعم عليه يحسد
المنعم . والآخر : أن المنعم يحسد المنعم عليه . وكذلك ورد قوله أيضاً من قصيدة
يمدحه :

فإن نلت ما أملت منك قريباً شربت بماء يعجز الطير ورده^(٢)
فإن هذا البيت يحتمل مدحاً وذماً . وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله فإنه
يكون بالذم أولى منه بالمدح ؛ لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ . وصدر
البيت مفتتح بأن الشريطة ، وقد أجيب بلفظة « رب » التي معناها التقليل ، أي
لست من نوالك على يقين ، فإن نلته فربما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير
ليبعده . وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة ، لارتباطه بالمعنى
الذي قبله . وكثيراً ما كان يقصد المتنبي هذا القسم في شعره ، كقوله من قصيدة
أولها :

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران
ولله سر في علاك وإنما كلام العبد ضرب من الهديان^(٣)
ثم قال :

فمالك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سين^(٤)
فإن هذا بالذم أشبه منه بالمدح ؛ لأنه يقول لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك بل
بجد وسعادة ، وهذا لا فضل فيه ؛ لأن السعادة تنال الخامل والجاهد ومن لا
يستحقها . وأكثر ما كان المتنبي يستعمل هذا القسم في قصائده « الكافوريات » .
وحكى أبو الفتح ابن جني ، قال : قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت
إلى قصيدته التي أولها :

(٤) ديوان المتنبي ١/١٨٥

(٥) ديوان المتنبي ٢/٢٨ (٦) ديوان المتنبي ٤/٢٤٢

(٧) ديوان المتنبي ٤/٢٤٧ والرواية فيه « ومالك تعنى . . . البيت » وقبل هذا البيت :

لما لك تخار القسي وإنما عن السعد يرمى دونك الثقلان

• أَغَالِبُ فِيكَ الشُّوقَ وَالشُّوقُ أَغْلَبُ^(٨) •

فَاتَيْتُ مِنْهَا عَلَى هَذَا الْبَيْتِ وَهُوَ:
وَمَا طَرَفِي لِمَا رَأَيْتُكَ بَدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَكَ فَاطْرَبُ^(٩)
فقلت له: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ لِمَ تَرُدُّ عَلَى أَنْ جَعَلْتَهُ أَبَا زَيْنَةَ^(١٠)، فضحكك لِقَوْلِي
وهذا القسمُ مِنَ الْكَلَامِ يُسَمَّى (الْمُوجَّهَ) أَي لَه وَجْهَانِ^(١١)، وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى
بِرَاعَةِ الشَّاعِرِ وَحُسْنِ ثَنَائِهِ.

وأما القسم الثالث : فإنه يكون أكثر وقوعاً من القسم الثاني ، وهو واسطة بين طرفين ، لأن القسم الأول كثير الوقوع ، والقسم الثاني قليل الوقوع ، وهذا القسم الثالث وسط بينهما .

فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » (١٢) ، فَإِنَّ هَذَا لَهُ وَجْهَانِ مِنْ التَّنَازُلِ ، أَحَدُهُمَا : الْقَتْلُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ ، وَالْآخَرُ : هُوَ الْقَتْلُ الْمَجَازِيُّ ، وَهُوَ الْإِكْبَابُ عَلَى الْمَعَاصِي ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْبَبَ عَلَى الْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَذَبْحِ وَلَدِهِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ » رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنُّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

(٨) ديوان المتنبي ١٧٦/١ وشطره الآخر. وأعجب من ذا المهجر والوصل أعجب •

(٩) ديوان المتني ١٨٦/١ .

(١٠) الأصل : أبارنة ، بالراء ، وهو تصحيف ، وأبو زنة كنية القرد .

(١١) التوجيه عند البلاغيين أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره ، واستشهدوا على التوجيه بقول الشاعر في الحسن بن سهل عندما زوج ابنته . بوران بالخليفة :

بَارَكَ اللهُ لِلْحَمَنِ وَلِبُورَانِ فِي الْخَيْسَتَيْنِ
بَا إِمَامِ الْهَدَى ظَفَرْتِ وَلَكِنْ يَنْتِ مِنْ؟

فلم يعلم ما أراد بقوله « بينت من » في الرضة أو في الحفارة .

(١٢) سورة النساء : آية ٢٩ .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ • وَقَدْ بَنَاهُ بِذَنْبِ عَظِيمٍ •
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ • سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ • كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّهُ
مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ • وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ • (١٣) فِقُولُهُ تَعَالَى :
« وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » قَدْ يَكُونُ بَشَارَةٌ بِنَبِيِّهِ بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِإِبْرَاهِيمَ .
وَقَدْ يَكُونُ اسْتِثْنَاءً بِذِكْرِهِ بَعْدَ ذِكْرِ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَذَبْحِهِ ، وَالتَّأْوِيلُ
مُتَجَادِزٌ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ بِأَحَدِهِمَا ، وَلَمْ يَرَدْ فِي
الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ وَلَا إِسْحَاقُ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَرَدْ فِي
الْأَخْبَارِ الَّتِي صَحَّحَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : وَأَمَّا مَا يَرَوْنَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « أَنَا ابْنُ
الذَّبِيحِينَ » فَخَارِجٌ عَنِ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ وَفِي التَّوَرَاةِ أَنَّ إِسْحَاقَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
هُوَ الذَّبِيحُ .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ : « أَطُولُكُمْ يَدًا ، أَسْرَعُكُمْ لِحْوَاقِي » فَلَمَّا
مَاتَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ جَعَلْنَ يُطَاوِلْنَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ ، حَتَّى يَنْظُرْنَ أَيَّتَهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا ، ثُمَّ
كَانَتْ زَيْنَبُ أَسْرَعَهُنَّ لِحْوَاقًا بِهِ ، وَكَانَتْ كَثِيرَةَ الصَّدَقَةِ ، فَعَلِمْنَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يُرَدْ
الْجَارِحَةُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الصَّدَقَةَ ، فَهَذَا الْقَوْلُ يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَشَارِ إِلَيْهَا .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهُ قَالَ خَدِمْتُ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سَنِينَ ، فَلَمْ يَقُلْ لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ : لِمَ فَعَلْتُهُ ؟ وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ : لِمَ لَا
فَعَلْتُهُ ؟ وَهَذَا الْقَوْلُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ مِنَ التَّأْوِيلِ : أَحَدُهُمَا وَصَفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
بِالصَّبْرِ عَلَى خُلُقٍ مَنْ يَصْحَبُهُ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ فَمَا يَفْصِدُهُ
مِنْ الْأَعْمَالِ كَأَنَّهُ مُتَفَطِّنٌ لِمَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيَفْعَلُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى
اسْتِثْنَائِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَدَّ فِي الْأُدْعِيَةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَإِنَّهُ ﷺ دَعَا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،
فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اقْطَعْ أُنْثَاهُ » وَهَذَا يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ مِنَ التَّأْوِيلِ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ دَعَا
عَلَيْهِ بِالزَّمَانَةِ (١٤) ، لِأَنَّهُ إِذَا زَمَنَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَيَنْقَطِعُ حِينَئِذٍ
أَثَرُهُ . الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بِالْأَلِّ يَكُونُ لَهُ نَسْلٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا عَقِبَ . الْوَجْهُ

(١٣) سُورَةُ الصَّافَّاتِ : الْآيَاتُ مِنْ ٩٩ إِلَى ١١٢ .

(١٤) مِنْ مَعَانِي الزَّمَانَةِ : الْعَامَةُ ، وَالرُّضْ يَدْرُمُ طَوِيلًا .

الثالث : أَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بِالْأَلَّا يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ مِنَ الْآثَارِ مُطْلَقًا ، وَهُوَ أَلَّا يَفْعَلَ فِعْلًا يَبْقَى أَثَرُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَأَنَّمَا كَانَ مِنْ عَقَبٍ أَوْ بِنَاءٍ ، أَوْ غِرَاسٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .
وَفُطِّرَتِ الْحُرُورِيَُّةُ (١٥) بِرَجُلٍ ، فَقَالُوا لَهُ : أَبْرَأُ مِنْ عَلَى وَعُمَانَ ، فَقَالَ أَنَا مِنْ عَلَى وَمِنْ عُمَانَ أَبْرَأُ ! فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ بَرِئٌ مِنْ عُمَانَ وَحْدَهُ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ بَرِئٌ مِنْهَا جَمِيعًا . وَالرَّجُلُ لَمْ يَرُدْ إِلَّا الْوَجْهَ الْأَوَّلَ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيلَةَ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْحِجْرَةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيلَةَ (١٦) ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ : أَيْعَمُ صَبَاحًا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : قَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ عَنْ نَحْنِكَ هَذِهِ بِـ « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » ثُمَّ قَالَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْصَى أَتَيْتَكَ ، قَالَ : مِنْ ظَهْرِ أَيْى ! قَالَ : فَمَنْ أَيْنَ خَرَجْتَ ؟ قَالَ : مِنْ بَطْنِ أُمَى ! قَالَ : فَعَلَّامَ أَنْتَ ؟ قَالَ : عَلَى الْأَرْضِ ! قَالَ : فَعِمَ أَنْتَ ؟ قَالَ : فِي ثِيَابِي ! قَالَ : ابْنُ كَمْ أَنْتَ ؟ قَالَ : ابْنُ رَجُلٍ وَاحِدٍ ! قَالَ خَالِدٌ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ ، أَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ ، وَهُوَ يَنْحُو فِي غَيْرِهِ وَهَذَا مِنْ تَوْجِيهِ الْكَلَامِ عَلَى نَطْقِ حَسَنِ ، وَهُوَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لَخَالِدٍ عَمَا سَأَلَ ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لِغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ بَقِيلَةَ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّوْرَةِ أَلَّا يُؤْكَلَ الْجَدْيُ بَلْبَنِ أُمِّهِ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيمَ فِي وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَادَلٌّ عَلَيْهِ ظَاهَرُ لَفْظِهِ ، وَهُوَ تَحْرِيمُ لَحْمِ الْجَدْيِ بَلْبَنِ أُمِّهِ خَاصَّةً ، وَإِذَا أَكَلَ بَلْبَنُ غَيْرِ بَلْبَنِ أُمِّهِ جَازَ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ حَرَامًا ، وَهَذَا لَا يَأْخُذُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ . وَالْوَجْهَ الْآخَرُ ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ عِنْدَ الْيَهُودِ جَمِيعِهِمْ ، أَنَّ أَكْلَ اللَّحْمِ بِالْبَلْبَنِ حَرَامٌ ، كَأَنَّمَا مَا كَانَ مِنَ اللَّحْمِ ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَسْمُونَهُ « الْقَرَاتَيْنِ » فَإِنَّهُمْ تَأَوَّلُوا ، فَأَكَلُوا لَحْمَ الطَّيْرِ بِالْبَلْبَنِ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا حُرِّمَ اللَّحْمُ بِالْبَلْبَنِ مِنَ اللَّحْمِ ذَوَاتِ الْأَبْنَانِ ، وَالطَّيْرِ مِنْ ذَوَاتِ الْبَيْضِ ، لَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَلْبَانِ .

(١٥) الْحُرُورِيَُّةُ ؛ وَقَدْ يَسْمُونُ « الْوَعِيدِيَّةَ » وَأَصْلُهُمْ أَنَّهُمْ تَسَلَّقُوا جِبَالَ حُرُورَاءَ بِقَتَالِ عَلَى ؛ وَلِذَلِكَ يُوضَعُونَ ضَمْنَ الْحَوَارِجِ فِي بَعْضِ التَّقَاسِمِ ؛ يَتَنَالُونَ فِي إِبْهَاتِ الْوَعِيدِ وَالْخَوَافِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِإِبْهَاتِ الْخَلُودِ فِي النَّارِ مَعَ الْإِيمَانِ ؛ فَتَقَرَّبُوا الْكِبَارَ مُشْرِكُونَ ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ الْحَوَارِجَ .

(١٦) هُوَ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ صَمُورَ بْنِ قَيْسِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ بَقِيلَةَ الْغَسَّانِي ؛ وَهُوَ مِنَ الْمَعْرِينِ ، وَقَدْ أوردَ الْجَلَّاحُظُ الْحَدِيثَ كُلَّهُ فِي الْبَيَانِ وَالتَّيْسِينِ ١٤٧/٢ .

ومما يجرى على هذا النهج ما يُحكى عن «أفلاطون» أنه قال : ترك الدواء دواءً ، فذهب بعض الأطباء أنه أراد أن لُطِفَ المزاج انتهى^(١٧) إلى غاية لا يحتل الدواء ، فتركه حينئذ والإضراب عنه دواءً . وذهب آخرون إلى أنه أراد بالتَّركِ الوَضْع ، أى وَضَعَ الدواء على الداءِ دواءً ، يشير بذلك إلى جذو الطيب في أوقاتِ علاجه .

ومثله في الشعر قولُ الفرزدق :

إذا جَعَفَ مَرْتُ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى فَقَدْ أَخْزَتِ الْأَحْيَاءَ مِنْهَا قُبُورُهَا^(١٨)

وهذا يدلُّ على مَعْنَيْنِ : أحدهما ذمُّ الأحياء ، والآخر : ذمُّ الأموات ، أما ذمُّ الأحياء فهو أنهم خَذَلُوا الأموات ، يريد أنهم تلاقوا في قتالهم وقوما آخرين فَفَرَّ الأحياء عنهم وأسَلَمُوهم ، أو أنهم اسْتَنْجَدُوهم فلم يُبْجِدُوهم ، وأما ذمُّ الأموات فهو أن لهم مخازيَ وفضائحَ ، توجبُ عاراً وشناراً ، فهم يعدُّون بها الأحياء ، ويلصِقونها بهم . وعلى هذا وَرَدَ قولُ أبى تمام :

بالشَّعْرِ طُولُ إِذَا اضْطَلَّكَ قِصَائِدُهُ فِي مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ^(١٩)
فهذا البيت يحتملُ تأويلين : أحدهما أَنَّ الشعرَ يَتَسَّعُ بمجاليه بمدحك ، ويضيقُ بمدح غيرك يريد بذلك أَنَّ مآثره كثيرةٌ ، ومآثر غيره قليلةٌ ، والآخر : أَنَّ الشعرَ يكونُ ذا فخرٍ ونباهةٍ بمدحك ، وذا حُمُولٍ بمدح غيرك . فلفظة « الطول » يُفْهَمُ منها ضِدُّ الْقِصَرِ ، ويفهم منها الفَخْرُ ، من قولنا : طال فلان على فلان ، أى فخرَ عليه . ومما ينتظمُ بهذا السِّلْكُ قولُ أبى كبير الهذلي :

عَجِبْتُ لِسَعَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
وهذا يحتملُ وجهين مِنَ التَّأْوِيلِ : أحدهما : أنه أراد يَسْعَى الدهرُ سرعةً تَقْضِي الأوقاتَ مدَّةَ الإِصْالِ ، فَلَمَّا انْقَضَى الوَصِيلُ عادَ الدَّهْرُ إلى حالته في السُّكُونِ

(١٧) في الأصل « وانتهى » .

(١٨) في الأصل « أُنطت » وهو تحريف ، ورواية الديوان (ص ٤٦١) :

إذا جعفر مَرَّتْ عَلَى هَضْبَةِ الْحِمَى تَقْنَعُ إِذْ صَاحَتْ إِلَيْهَا قُبُورُهَا
والبيت من قصيدة للفرزدق يهجو بها بنى جعفر بن كلاب بن ربيعة بن صمصمة .

(١٩) ديوان أبى تمام ١٥١

والبُطء. الآخر: أنه أراد يسعى الدهر سعى أهل الدهر بالنائم والشايات، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكّتا وتركوا السعاية، وهذا من باب وَضَعَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَكَانَ الْمُضَافِ، كقوله تعالى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ (٢٠)» أي أهل القرية. ومن الدقيق المعنى في هذا الباب قول أبي الطيب المنشي في عَصْدِ الدَّوْلَةِ من جُمْلَةِ قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلَهَا:

• أَوْهَ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا (٢١) •

فقال:

لَوْ فَطِنْتَ خَيْلَهُ لَنَاتِلَهُ لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا (٢٢)
وهذا يُسْتَنْبَطُ مِنْهُ مَعْنَيَانِ غِيَرَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ مَقْدَارَ عَطَايَاهِ النَّفِيسَةِ لَمْا رَضِيَتْ لَهُ بِأَنْ تَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهِ، لِأَنَّ عَطَايَاهُ أَنْفُسُ مِنْهَا، الْآخَرُ: أَنَّ خَيْلَهُ لَوْ عَلِمَتْ أَنَّهُ يَبْهَأُ مِنْ جُمْلَةِ عَطَايَاهِ لَمْا رَضِيَتْ ذَلِكَ، إِذْ تَكْرَهُ خُرُوجَهَا عَنْ مُلْكِهِ. وهذان الوجهان أنا ذكرتهما، وإنما المذكورُ مِنْهَا أَحَدُهُمَا. وهذا الذي أَشْرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الْمَعَانِي وَتَأْوِيلَاتِهَا كَافٍ لِمَنْ عِنْدَهُ ذَوْقٌ، وَلَهُ قُوَّةٌ عَلَى حَمْلِهَا عَلَى أَشْبَاهِهَا وَنظَائِرِهَا.

الفصل الرابع

في الترجيح بين المعاني

وهذا الفصل هو ميزانُ الخواطرِ الذي يوزَنُ بِهِ نَقْدُ دِرْهَمِهَا وَدِينَارِهَا، بِلِ الْمَحْكُ الَّذِي يُعَلَّمُ مِنْهُ مَقْدَارُ عِيَارِهَا، وَلَا يَزَنُ بِهِ إِلَّا ذُو فِكْرَةٍ مُتَقَدِّدَةٍ وَلَمْحَةٍ مُتَتَقَدِّدَةٍ. فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ مِيزَانًا سُمِيَ صَرَّافًا، وَلَا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِيَ عَرَّافًا.

(٢٠) سورة يوسف: آية ٨٢.

(٢١) ديوان المتنبي ٢٦٩/٤ وعجز البيت • لَمْ نَأْتِ وَالبَدِيلُ ذَكَرَها •

(٢٢) ديوان المتنبي ٢٧٦/٤.

والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهي أَنَّ هُنَاكَ يُرْجَعُ بين دليلى
الْخَصْمَيْنِ فى حُكْمٍ شَرْعِيٍّ ، وَهَاهُنَا يُرْجَعُ بين جَانِبَيْ قَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فى أَلْفَاظٍ
وَمَعَانٍ خَطَأِيَّةٍ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ التَّرْجِيحِ الْفَقْهِيَّ يُرْجَعُ بين خَبَرِ التَّوَاتُرِ مِثْلًا وَبَيْنَ خَبَرِ
الْأَحَادِ . أَوْ بَيْنَ الْمُسْتَدْلِ (١) وَالْمُرْسَلِ (٢) . أَوْ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى ، وَهَذَا لَا يَعْزِضُ
إِلَيْهِ صَاحِبُ عِلْمِ الْبَيَانِ : لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُرْجَعَ
بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ ، أَوْ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ ، أَوْ بَيْنَ مَجَازَيْنِ . وَيَكُونُ نَاطِقًا فى ذَلِكَ كُلِّهِ
إِلَى الصَّنَاعَةِ الْخَطَأِيَّةِ ، وَلَرُبَّمَا اتَّفَقَ هُوَ وَصَاحِبُ التَّرْجِيحِ الْفَقْهِيَّ فى بَعْضِ
الْمَوَاضِعِ ، كَالْتَّرْجِيحِ بَيْنَ عَامٍّ وَخَاصٍّ ، أَوْ مَا شَابَهُ ذَلِكَ .

وَكُنَّا قَدْ قَدَمْنَا الْقَوْلَ فى الْحُكْمِ عَلَى الْمَعَانِي وَانْقِسَامَهَا ، وَلَنُبَيِّنَ فى هَذَا الْفَصْلِ
مَوَاضِعَ التَّرْجِيحِ بَيْنَ وُجُودِ تَأْوِيلَاتِهَا . فَنَقُولُ :

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَعَانِي فَلَا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجِيحِ بِهِ إِذَا مَا دُلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفْظِهِ ،
وَلَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فى شَيْءٍ .

وَالْتَّرْجِيحُ إِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِمَا لَفْظٌ وَاحِدٌ ، وَلَا يَخْلُو التَّرْجِيحُ بَيْنَهُمَا
مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ حَقِيقَةً فى أَحَدِهِمَا مَجَازًا فى الْآخَرِ ، أَوْ حَقِيقَةً
فِيهِمَا جَمِيعًا ، أَوْ مَجَازًا فِيهِمَا جَمِيعًا ، وَلَيْسَ لَنَا قِسْمٌ رَابِعٌ .

وَالْتَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَتَيْنِ أَوْ بَيْنَ الْمَجَازَيْنِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ ، وَأَمَّا التَّرْجِيحُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ
وَالْمَجَازِ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَدِيهَةِ النَّظَرِ ، لِمَكَانِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا ، وَالشَّيْئَانِ الْمُخْتَلِفَانِ يَظْهَرُ
الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ، بِخِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ الْمَشْبَهَيْنِ فَثَالُ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(١) الْحَدِيثُ الْمُسْتَدْلُ مَا ذَكَرَ سَنَدَهُ ، وَهُوَ سُلْسَلَةُ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَوَوْهُ الْحَدِيثَ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَخْصُ هَذَا
الْإِسْمَ بِالْحَدِيثِ الْمُتَّصِلِ الْمَرْفُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ . فَإِذَا سَقَطَ وَاحِدٌ مِنَ الرِّوَاةِ ، أَوَّلُ مَا يَرْفَعُ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا يَقَالُ لَهُ مُسْتَدَلٌّ .

(٢) الْحَدِيثُ الْمُرْسَلُ مَا حَذَفَ مِنْ سَنَدِهِ مَنْ يَكُونُ فَرْقُ التَّابِعِيٍّ ، وَهُوَ الصَّاحِبِيُّ ، وَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَحَدُ
التَّابِعِينَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَا ، أَوْ فَعَلَ كَذَا أَوْ فَعَلَ بِمَضْرُوتِهِ كَذَا .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » حتى إذا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣) » فالجلود هَاهُنَا تُفَسِّرُ حَقِيقَةً وَجَازًا. أَمَّا الْحَقِيقَةُ فَيُرَادُ بِهَا الْجُلُودُ مُطْلَقًا. وَأَمَّا الْمَجَازُ فَيُرَادُ بِهَا الْفُرُوجُ خَاصَّةً. وَهَذَا هُوَ الْمَانِعُ الْبَلَاغِيُّ الَّذِي يُرْجِعُ جَانِبَ الْمَجَازِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لِمَا فِيهِ مِنْ لُطْفِ الْكِتَابَةِ عَنِ الْمَكْنَى عَنْهُ. وَقَدْ يُسْأَلُ هَاهُنَا فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ عَنْ غَيْرِ الْجَانِبِ الْبَلَاغِيِّ، وَيَقَالُ: مَا بَيَّنَّ هَذَا التَّرْجِيحُ؟ فَيُقَالُ: طَرِيقَةُ لَفْظِ الْجُلُودِ عَامٌ، فَلَا يَخْلُو إِذَا مَا يُرَادُ بِهِ الْجُلُودُ مُطْلَقًا، أَوْ يُرَادُ بِهِ الْجَوَارِحُ الَّتِي هِيَ أَدَوَاتُ الْأَعْمَالِ خَاصَّةً، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْجُلُودُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّ شَهَادَةَ غَيْرِ الْجَوَارِحِ الَّتِي هِيَ الْفَاعِلَةُ شَهَادَةٌ بَاطِلَةٌ، إِذْ هِيَ شَهَادَةٌ غَيْرُ شَاهِدٍ، وَالشَّهَادَةُ هُنَا يُرَادُ بِهَا الْإِقْرَارُ، فنَقُولُ الْيَدُ: أَنَا فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَنَقُولُ الرَّجُلُ: أَنَا مَشَيْتُ إِلَى كَذَا وَكَذَا وَكَذَلِكَ الْجَوَارِحُ الْبَاقِيَةُ تَنْطِقُ مُقَرَّةً بِأَعْمَالِهَا، فَتَرْجِعُ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ. وَإِذَا أُريدَ بِهِ الْجَوَارِحُ، فَلَا يَخْلُو إِذَا مَا يُرَادُ بِهِ الْكُلُّ أَوْ الْبَعْضُ، فَإِنْ أُريدَ بِهِ الْكُلُّ دَخَلَ تَحْتَهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَلَمْ يَكُنْ لِنَخْصِصِهَا بِالذِّكْرِ فَائِدَةٌ، وَإِنْ أُريدَ بِهِ الْبَعْضُ فَهُوَ بِالْفَرَجِ أَحْصَى مِنْهُ بَغْيَرَهُ مِنَ الْجَوَارِحِ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ الْجَوَارِحَ كُلَّهَا قَدْ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، شَاهِدَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا بِالْمَعْصِيَةِ، مَاعِدًا الْفَرَجَ. فَكَانَ حَمْلُ الْجُلْدِ عَلَيْهِ أَوْلَى، لَيْسْتَ تَكْمَلُ ذِكْرُ الْجَمِيعِ. الْآخَرُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوَارِحِ مَا يُكْرَهُ التَّنْصِيحُ بِذِكْرِهِ إِلَّا الْفَرَجَ، فَكُنِيَ عَنْهُ بِالْجُلْدِ، لِأَنَّهُ مَوْضِعٌ يُكْرَهُ التَّنْصِيحُ فِيهِ بِالْمُسَمَّى عَلَى حَقِيقَتِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنْ تَخْصِيصُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَابِ التَّفْصِيلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « فَآكَلَهُمْ وَتَنَخَّلَ وَرَمَانًا » ^(٤) وَالنَّخْلُ وَالرَّمَانُ مِنَ الْفَاكِهَةِ..

قُلْتُ فِي الْجَوَابِ: هَذَا الْقَوْلُ عَلَيْكَ لَالِكٌ، لِأَنَّ النَّخْلَ وَالرَّمَانَ إِنَّمَا ذُكِرَا لَتَفْصِيلِ لَهَا فِي الشَّكْلِ أَوْ فِي الطَّعْمِ، وَالْفَضِيلَةُ هَاهُنَا فِي ذِكْرِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا هِيَ تَعْظِيمُ لِأَمْرِ الْمَعْصِيَةِ، وَغَيْرُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ أَعْظَمُ فِي الْمَعْصِيَةِ، لِأَنَّ مَعْصِيَةَ السَّمْعِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي سَمَاعِ عَيْبَةٍ، أَوْ فِي سَمَاعِ صَوْتِ يَزْمَارٍ أَوْ وَتَرٍ، أَوْ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى.

(٣) سورة فصلت: الآيتان ١٩ و ٢٠

(٤) سورة الرحمن: آية ٦٨

ومعصية البَصَرِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي النَّظَرِ إِلَى مُحَرَّمٍ . وكلتا المعصيتين لا حلاً فيها . وأما المعاصي التي توجبُ من غير السَّمْعِ والبصرِ فأعظمُ : لأنَّ معصيةَ اليَدِ توجبُ القطعَ ، ومعصيةَ الفَرْجِ توجبُ جَلْدَ مائةٍ أو الرَّجْمَ ، وهذا أعظمُ ، فكان ينبغي أن تُخَصَّ بالذكرِ دونَ السَّمْعِ . والبصرِ وإذا ثبتَ فسادُ ما ذهبتَ إليه فلم يكنِ المرادُ بالجلودِ إلا الفروجَ خاصّةً .

وأما مثالُ المعنيين إذا كانا حَقِيقَتَيْنِ فقولُ النبي ﷺ : « التَّمِسُوا الرِّزْقَ فِي خُبَايَا الْأَرْضِ » والخبايا جمعُ خَبِيَّةٍ . وهو كُلُّ ما يُخْبَأُ كائناً ما كانَ . وهذا يدلُّ على معنيين حَقِيقَتَيْنِ : أحدهما الكنوزُ المخبوءةُ في بطونِ الأرضِ ، والآخَرُ : الحَثَرُ والغِرَاسُ ، وجانبِ الحرثِ والغِرَاسِ أرجعُ ، لأنَّ مواضعَ الكنوزِ لا تُعْلَمُ حتى تُلتَمَسَ ، والنبي ﷺ لا يأمرُ بذلكَ ، لأنَّه شيءٌ مجهولٌ غيرُ معلومٍ ، فبقى المرادُ بخبايا الأرضِ ما يحَثَرُ ويُغْرَسُ .

وكذلك وَرَدَ قوله ﷺ : « إِذَا ابْتَلَّتِ النَّعَالُ فَالصَّلَاةُ فِي الرَّحَالِ » وهذا الحديثُ مُرَخَّصٌ فِي تَرْكِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ بسببِ المَطَرِ ، ولهُ تأويلان : أحدهما أَنَّهُ أَرَادَ نِجَالِ الْأَرْضِ ، وهو ما غُلِظَ منها ، والآخَرُ : أَنَّهُ أَرَادَ الْأَحْذِيَّةَ : والوجهُ هو الثَّانِي ، لظهوره في الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى ، وأكثرُ العلماءِ عليه . ولو كَانَ المرادُ به ما غُلِظَ مِنَ الْأَرْضِ لَخَرَجَ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ كُلُّ بَلَدٍ تَكُونُ أَرْضُهُ سَهْلَةً لَا غِلْظَ فِيهَا .
وأما مثالُ المعنيين المجازيين فقولُ أَبِي تَمَّامٍ (٥) :

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَيَلُونَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمًا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحِلًا وَقَلْبِيًّا وَرَعَيْنَاهُ بَارِضًا وَجِيمًا (٦)
فَعَلِمْنَا أَنَّ لَيْسَ إِلَّا بِشِقِ النَّفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمًا (٧)

فالساحلُ والقلبُ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا تَأْوِيلَانِ : أحدهما أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا الْكَثِيرَ وَالْقَلِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّاحِلِ وَالْقَلْبِ . والآخَرُ : أَنَّهُ أَرَادَ بِهِمَا السَّبَبَ ، وَغَيْرَ السَّبَبِ ،

(٥) ديوان أبي تمام ٢٩٢ من قصيدته التي مطلعها :

إِنْ عَهْدًا لَوْ تَعْلَمَانِ ذِمِّي أَنْ تَتَامَا عَنْ لِقَائِي أَوْتَمَا

(٦) رواية الديوان « ووردناه ساحلاً وقلبياً » والسائح الماء الجاري . والقلب البئر ، والبارض أول النبات ، والجسم النبات الطويل المنتشر : وهو في الأصل « حمياً » بالهاء المهملة وهو تصحيف .

(٧) في الأصل « إلا بشق الأنفس » وفيه اختلال في الوزن . والصواب عن الديوان ٢٩٢

فَإِنَّ السَّاحِلَ لَا يَحْتَاجُ فِي وَرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ ، وَالْقَلْبُ يَحْتَاجُ فِي وَرْدِهِ إِلَى سَبَبٍ ، وَكَلاَ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ حَاجَزٌ . فَإِنَّ حَقِيقَةَ السَّاحِلِ وَالْقَلْبِ غَيْرُهُمَا . وَالْوَجْهُ هُوَ الثَّانِي ، لِأَنَّهُ أَذَلُّ عَلَى بِلَاغَةِ الْقَائِلِ وَمَدَحِ الْمَقُولِ فِيهِ .

أَمَّا بِلَاغَةُ الْقَائِلِ فَالْسَّلَامَةُ مِنْ هُجْنَةِ التَّكْرِيرِ بِالْمُخَالَفَةِ بَيْنَ صَدْرِ الْبَيْتِ وَعَجْزِهِ . فَإِنَّ عَجْزَهُ يَدُلُّ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ ، لِأَنَّ الْبَارِضَ هُوَ أَوَّلُ الثَّبَتِ حِينَ يَبْدُو ، فَإِذَا كَثُرَ وَتَكَاثَفَ سُمِيَ جَمِيعاً ^(٨) ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَخَذْنَا مِنْهُ تَبَرُّعاً ، وَمَسْأَلَةً ، وَقَلِيلًا ، وَكَثِيرًا .

وَأَمَّا مَدْحُ الْمَقُولِ فِيهِ ، فَلْتَعَدَادُ حَالَاتِهِ الْأَرْبَعِ فِي تَبَرُّعِهِ وَسُؤَالِهِ وَإِكْتَارِهِ وَإِقْلَالِهِ ، وَمَا فِي مُعَانَاةِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْمَشَاقِّ . فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالترْجِيحِ الْبِلَاغِيِّ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ ، وَبَيْنَ الْجَازِ وَالْجَازِ ، وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْجَازِ .

وَهَاهُنَا تَرْجِيحُ آخَرٍ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ ، إِذْ هُوَ خَارِجٌ عَمَّا تَقْتَضِيهِ الْمَعَانِي الْخَطَأِيَّةُ مِنْ جِهَةِ الْفَصَاحَةِ أَوِ الْبِلَاغَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ يَرْجِعُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ ، أَحَدُهُمَا تَامٌّ ، وَالْآخَرُ مُقَدَّرٌ . أَوْ يَكُونُ أَحَدُهُمَا مُنَاسِبًا لِمَعْنَى تَقَدُّمِهِ أَوْ تَأَخُّرِ عَنْهُ ، وَالْآخَرُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ . أَوْ بِأَنَّهُ يُنْظَرُ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَهُمَا إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنِ اللَّفْظِ .

فَنَثَلُ الْمَعْنَيْنِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا أَنَّ الْمَعْنَى التَّامُّ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ وَأَمَّا الْمُقَدَّرُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهُ ، بَلْ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِقَرِينَةٍ أُخْرَى ، وَتِلْكَ الْقَرِينَةُ قَدْ تَكُونُ مِنْ تَوَابِعِهِ ، وَقَدْ لَا تَكُونُ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ « فِي سَائِمَةِ الْغَنَمِ زَكَاةٌ » فَهَذَا اللَّفْظُ يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ مَعْنِيَانِ : أَحَدُهُمَا تَامٌّ ، وَالْآخَرُ مُقَدَّرٌ . فَالتَّامُّ دَلَالَتُهُ عَلَى وَجُوبِ الزَّكَاةِ فِي السَّائِمَةِ لَا غَيْرَ ، وَالْمُقَدَّرُ دَلَالَتُهُ عَلَى سُقُوطِ الزَّكَاةِ عَنِ الْمَعْلُوفَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مَفْهُومًا مِنْ نَفْسِ اللَّفْظِ ، بَلْ مِنْ قَرِينَةٍ أُخْرَى هِيَ كَالْتَّابِعَةِ لَهُ ، وَهِيَ أَنَّهُ لَمْ يَخْصُصْ السَّائِمَةُ بِالذِّكْرِ دُونَ الْمَعْلُوفَةِ عِلْمٌ مِنْ مَفْهُومِ ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْلُوفَةَ لَا زَكَاةَ فِيهَا . وَلِلْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ مُجَادِزَاتٌ جِدَلِيَّةٌ ، يَطُولُ الْكَلَامُ فِيهَا ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهَا . وَالَّذِي يَتَرَجَّعُ عِنْدِي هُوَ الْقَوْلُ بِفَحْوَى الْمَعْنَى الْمُقَدَّرِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْفُقَهَاءُ « مَفْهُومَ الْخِطَابِ » وَلَهُ فِي الشُّعْرِ أَشْبَاهٌ وَنَظَائِرٌ ، فَمِمَّا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ شِعْرٌ قَوْلُ

(٨) فِي الْأَصْلِ « حَمِيًّا » بِالْحَامِ الْمُهْمَلَةِ ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

جَزءُ بنِ كَلْبِ الفَقْعَسِيِّ^(٩) ، من شَعراءِ الحِمْيَرةِ ، وقد خطبَ إليه ابنُ كُوزِ ابنته
فَرَدَّهُ :

تَبَيُّ ابنُ كُوزٍ والسَّقَاهَةُ كاسِهَا لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ سَنَوْنَا لِكَيْلَا^(١٠)
فَلَا تَطْلُبْنَهَا يَا بَنَ كُوزٍ فَإِنَّهُ غَدَا النَّاسُ مُدْقَامُ شَيْئِ الْجَوَارِيَا^(١١)
وهذا البيت الثاني يَشْتَمِلُ على المعنيين التامَّ والمقدَّر.

أَمَّا التامُّ فَإِنَّ ابنَ كُوزٍ سَأَلَ أَبَا هذه الجارية لَنْ يُزَوِّجَهُ إِيَّاهَا فِي سَنَةٍ ، والسَّنةُ :
الجَدْبُ ، فَرَدَّهُ . وقال : قد غَدَا النَّاسُ الْبَنَاتِ مُدْقَامُ النَّبِيِّ ﷺ ، وأنا أَيْضاً أَغْدُو
هذه ، ولولا ذلك لَوَأَدْتُهَا ، كما كانت الجاهلية تفعل وفيه وجهٌ آخر : وهو أَنَّهُمْ كانوا
يُثِدُّونَ الْبَنَاتِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فلما جاء النَّبِيُّ ﷺ نَهَى عن ذلك ، فقولُه : « غَدَا
النَّاسُ مُدْقَامُ النَّبِيِّ الْجَوَارِيَا » أى فى النساءِ كَثْرَةٌ ، فَتَزَوِّجُ بَعْضُهُنَّ وَخَلَّ ابْنِي .
وهذان المعنيان هما اللذان دلَّ عليهما ظاهرُ اللفظ .

وأما المعنى المقدَّر الذى يُعْلَمُ من مفهوم الكلام فإنه يقول : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ
بِإِحْيَاءِ الْبَنَاتِ ، ونَهَى عن الْوَأْدِ ، ولو أَنْكَحْتَكُنَّاهَا لَكُنْتُ قَدْ وَأَدْتُهَا ، إِذْ لا فرقَ بين
إِنْكَاحِك إِيَّاهَا وبين وَأَدِهَا . وهذا ذمٌّ للمخاطَبِ . وهو معْنَى دقيق .

ومعْنَى المعانى المستخرجة من المفهومة قليلٌ فى الشعر .
وأما ما يُسْتَدَلُّ عليه بقريته لَيْسَتْ من توابعه . فَإِنَّ ذلكَ أدقُّ من الأول ،
وَالطَّفُّ مأخذاً .

فَمَا وَرَدَ مِنْهُ قولُ النَّبِيِّ ﷺ : « من جُعِلَ قاضياً بينَ الناسِ فَقَدْ دُبِحَ بِغَيْرِ
سِكِّينٍ » فهذا يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ المعنيان المشارُ إليهما ، فالتامُّ مِنْهَا يدلُّ على أَنَّهُ من جُعِلَ

(٩) فى الأصل « جرى بن كلب » والتصويب عن ديوان الحماسة ٨٨/١ ، وقال التبريزي : قال ابن
الأعرابي : هو جرير لاجزء . ولم أقف لها على ترجمة .

(١٠) رواية الحماسة « شتونا » بالشين والتاء . ومعنى « يستاد منا » أى يتزوج فى ساداتنا ، وقوله « وأن
شتونا » أى دخلنا فى الشتاء والجذب . والمعنى طلب منا الزواج فى هذا الوقت ، ولو كنا فى غيره لما أمكنه أن
يجترئ علينا بذلك .

(١١) غداه قام بفدائه ، وهذا كناية عن إبطال وأد البنات من الفقر أو خشيته ، والجوارى جمع جارية
وهى البنت . والمعنى : لا تطلب التزوج بالمرأة التى خطبتها فلك فى سائر النساء مندوحة عنها . فإن النساء
كثرن منذ منع الإسلام وأد البنات .

قاضياً فقد عَرَّضَ نفسه لخطر عظيم كالذَّبْحِ بغير سِكِّين. وأما المقدّر فإنه يدلُّ على أنه من جعل قاضياً فقد أَمَرَ بمفارقة هَواه. وهذا لا يدلُّ عليه اللفظ بنفسه، بل يُسْتَدَلُّ عليه بقرينة أخرى، ولكنها ليست من توابعه. ووجه ذلك أن لفظ الحديث عامٌ، يشمل القضاة على الإطلاق، ولا يخلو إما أن يُراد به عذاب الآخرة، أو عذاب الدنيا ولا يجوز أن يكون المراد به عذاب الآخرة، لأنه ليس كلُّ قاضٍ معذَّباً في الآخرة، بل المعذبُ منهم قضاةُ السُّوء. فوضَّح بهذا أن المراد بالحديث عذاب الدنيا. وعلى هذا فلا يخلو إما أن يكون العذاب صورةً أو معنى، ولا يجوز أن يكون صورةً لأننا نرى الإنسان إذا جعل قاضياً لا يُذبح، ولا يناله شيء من ذلك. فبقى أن يكون المراد به عذاباً معنوياً، وهو الذبح المجازي غير الحقيقي. وفَتَحَى ذلك أن نفسَ الإنسان مُركَّبة على حُبِّ هواها، فإذا جعل قاضياً فقد أَمَرَ بترك ما جُبِلَ على حُبِّه من الامتناع عن الرُّشوة، والحُكْم لصديقه على عدوه، ورفع المحجَّاب بينه وبين الناس، والجلوس للحُكْم في أوقات راحته، وغير ذلك من الأشياء المكروهة التي تَشُقُّ على النفس، وتُعَدُّ لها ألماً مبرِّحاً، والذَّبْح هو قطع الحلقوم، والألم حاصلٌ به، وهو كالذبح الحقيقي، بل أشدُّ منه. لأنَّ ألمَ الذبح الحقيقي يكون لحظةً واحدة، ثم ينقضي ويَزول وألمُ قطع النفس عن هواها يدوم ولا ينقضي، وهو أشدُّ العذاب. قال الله تعالى في عذابِ أهلِ النارِ «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» (١٢) وقال في نعيم أهل الجنة «وفيها ما تَشْتَهُيهِ الأنفُسُ وتَلذُّ الأَعْيُنُ» (١٣) «وكثيراً ما رأينا وسمِعنا مَنْ حَمَلَهُ حُبُّ الشَّيْءِ على إتلافِ نفسه في طلبه، وركوبِ الأهوالِ من أجلِّه، فإذا امتنع عنه مع حُبِّه إياه فقد ذَبَحَ نفسه، أى قطعها عنه، كما يَقْطَعُ الذَّابِحُ حلقُ الذَّبيحة، ولهذا قال النبي ﷺ: «انتقلنا عن الجهاد الأصغرِ إلى الجهاد الأكبر» فسمى جهادَ الكُفَّارِ «الجهادَ الأصغرَ». وجهادَ النفسِ «الجهادَ الأكبر».

فكما أن مجاهدة النفس عن هواها قتالٌ بغير سَيْف، فكذلك قطعها عن هواها ذبح بغير سِكِّين. وهذا موضع غامضٌ، والترجيحُ فيه مختصٌّ بالوجه الآخر، لاشتراكه على المعنى المقصود، وهو المراد من القضاة على الإطلاق.

وأما مثالُ المعنَيْنِ إذا كَانَ أَحَدُهُمَا مُعْنَى تَقَدَّمَهُ ، أَوْ مُعْنَى تَأَخَّرَ عَنْهُ .
والْآخَرُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ :

فَالْأَوَّلُ : وَهُوَ مَا كَانَ مُنَاسِباً مُعْنَى تَقَدَّمَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ^(١٤) » فَالدُّعَاءُ هَاهُنَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا : النَّهْيُ أَنْ يُدْعَى الرَّسُولُ بِاسْمِهِ ، فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، كَمَا يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِأَسْمَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ . الْآخَرُ : النَّهْيُ أَنْ يَجْعَلُوا حُضُورَهُمْ عِنْدَهُ إِذَا دَعَاهُمْ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ كَحُضُورِ بَعْضِهِمْ عِنْدَ بَعْضٍ ، بَلِ يَتَادَّبُونَ مَعَهُ ، بِالْأَوَّلِ يُفَارِقُوا مَجْلِسَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ . وَهَذَا الْوَجْهَ هُوَ الْمُرَادُ . لِمُنَاسَبَةِ مَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ^(١٥) »

وَأَمَّا الثَّانِي : وَهُوَ مَا كَانَ مُنَاسِباً مُعْنَى تَأَخَّرَ عَنْهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ » وَطُورِ سَيْنِينَ ^(١٦) » فَالتَّيْنُ وَالزَّيْتُونُ هُمَا هَذَا الشَّجَرُ الْمَعْرُوفُ ، وَهُمَا اسْمَانِ جَبَلَيْنِ أَيْضاً . وَتَأْوِيلُهُمَا بِالْجَبَلَيْنِ أَوَّلَى ، لِلْمُنَاسَبَةِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ مَا أَتَى بَعْدَهُمَا مِنْ ذِكْرِ الْجَبَلِ الَّذِي هُوَ الطُّورُ .

وَعَلَى هَذَا وَرَدَ قَوْلُ الشَّاعِرِ ^(١٧) فِي أَيْيَاتِ الْحَاسَةِ :

وَلَوْ كُنْتُ مَوْتَى قَيْسَ عِيلَانَ لَمْ تَجِدْ عَلَيَّ لِإِنْسَانٍ مِنَ النَّاسِ دِرْهَمًا
وَلَكِنِّي مَوْتَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا فَلَسْتُ أَبَالِي أَنْ أَدِينَ وَتَغْرَمًا ^(١٨)

هَذَا نَظَرْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَجَدْنَاهُ يَحْتَمِلُ مَدْحًا وَذَمًّا ، أَيْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُغْنُونَهُ بَعْضَاهُمْ أَنْ يَلْبِسَ ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَخَافُ الدَّيْنَ حَذَرَ الْأَلَّا يَقُومُوا عَنْهُ بِوَفَائِهِ ، لَكِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي حَقَّقَ أَنَّ الْأَوَّلَ ذَمٌّ وَلَيْسَ بِمَدْحٍ ، فَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَتَحَقَّقُ فَهَمُّهُ إِلَّا بِآخِرِهِ .

(١٤) سورة النور : آية ٦٣ (١٥) سورة النور : آية ٦٢ (١٦) سورة التين : الآية ٢١ وبنى (١٧) هو شقران مولى بنى سلمان بن سعد هذلي ، وهو شاعر إسلامي من شعراء الدولتين أمية وبنى

العباس .

(١٨) البيتان في ديوان الحامسة ٢/٢٦٠ . ومعنى البيتين لو كان . لأن في قيس عيلان لم أقترض درهما من أحد لأنفقه في سبيل الخير خلافة ألا يؤدبه عني . ولكن ولاني في قضاعة فلا أبالي أن أقترض ما أنفقه في وجوه البر ، لأنهم يؤدونه عني . والمراد من هذا الكلام تفضيل قضاعة لجودهم وكرمهم على قيس عيلان لبخلهم وإسآكهم .

وأما الذي يكون الترجيح فيه بسبب شيء خارج عن مفهوم اللفظ فقوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » (١٩) « فهذا مُسْتَبْطٌ منه معنيان : أحدهما أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وفي ذلك تقديم وتأخير ، أى يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ . الآخر : أنه في السموات وأنه يعلم السِّرَّ وَالْجَهْرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ ، لِأَنَّ الْوَقْفَ يَكُونُ عَلَى السَّمَوَاتِ ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْكَلَامَ ، فيقول : يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي الْأَرْضِ . إلا أَنَّ هذا يَمْنَعُ مِنْهُ اعْتِقَادُ التَّجَسُّمِ . وذلك شيء خارجٌ عن مفهوم اللفظ .

الفصل الخامس

فى جوامع الكلم

قال النبی ﷺ : « أُنِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » فالكلم جمع كلمة ، والجوامع جمع جامعة ، والجامعة اسم فاعلة ، من جمعت ، فهي جامعة ، كما يقال في المذكر « جَمَعَ » فهو « جامع » . والمراد بذلك أنه ﷺ أُنِيتُ الجوامع للمعاني . وهو عندي ينقسم قسمين .

القسم الأول منها : هو ما استخرجته ، ونبهت عليه ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أَنَّ لَنَا أَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ الْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ أَخَوَاتُهَا ، مما يجوز أن يُستعمل في مكانها . فن ذلك ما يأتي على حكم المجاز ، ومنه ما يأتي على حكم الحقيقة .

أما ما يأتي على حكم المجاز فقوله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ : « الْآنَ حَمِيَ الْوُطَيْسُ » وهذا لم يُسمع من أحد قبل رسول الله ﷺ . ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه ، فقلنا « اسْتَعْرَتِ الْحَرْبُ » لَمَا كَانَ مُؤَدِّيًا مِنَ الْمَعْنَى مَا يُؤَدِّيهِ « حَمِيَ الْوُطَيْسُ » والفرق بينهما أَنَّ الْوُطَيْسَ هُوَ التَّنُورُ . وَهُوَ مَوْطِنُ الْوُقُودِ وَمُجْتَمِعُ النَّارِ . وَذَلِكَ بِحَيْثُ إِلَى السَّامِعِ أَنَّ هُنَاكَ صُورَةَ شَبِيهَةٍ بِصُورَتِهِ فِي حَمِيهَا وَتَوَقُّدِهَا ، وهذا لا يوجد في قولنا

« استعرت الجرب » أو ماجرى مجراه . وكذلك قال عليه السلام « بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ »
 فقولهُ : « نفس الساعة » من العبارة العجيبة ، التي لا يقومُ غيرها مقامها ، لأنَّ المرادَ
 بذلك أنه بُعِثَ والساعة قريبةٌ منه ، لكنَّ قَرَبَها منه لا يدلُّ على مادلٍّ عليه النَّفْسُ ،
 وذلك أنَّ النفسَ يدلُّ على أنَّ السَّاعَةَ منه بحيثُ يُحسُّ بها ، كما يحسُّ الإنسانُ بنفسِ
 مَنْ هو إلى جانبه . وقد قالَ عليه السلام في موضعٍ آخر « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ »
 وجمع بين أَصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوَسْطَى ، ولو قال : بُعِثْتُ عَلَى قُرْبٍ مِنَ السَّاعَةِ ، أو
 وَالسَّاعَةُ قَرِيبَةٌ مِنِّي ، لَمَّا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مادلٍّ عليه نفسُ الساعة ، وهذا لا يحتاجُ إلى
 الإطالة في بيانه ، لأنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ .

وقد وردَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي أَقْوَالِ الشُّعْرَاءِ الْمُفْلِحِينَ . ولقد تصفحتُ الأشعارَ
 قديمها وحديثها . وحفظتُ ما حفظتُ منها . وكنتُ إذا مرَّرتُ بنظري في ديوانٍ من
 الدَّوَاوِين ، ويلوحُ لي فيه مِثْلُ هذه الألفاظِ أحدها نَشْوَةُ كُنْشَوَةِ الْخَمْرِ ، وطرباً
 كطربِ الأُلْحَانِ ، وكثير من الناطمين والنائرين يمرُّ على ذلك . ولا يتفطنُ له سِوَى أَنَّهُ
 يَسْتَحْسِنُهُ ، من عبرَ نظرٍ فيها نظرتُ أنا فيه ، وبظنِّه كثيره من الألفاظِ المستحسنة .
 فما جاء من ذلك قول أبي تمام ^(١) :

كَمْ صَارِمٍ عَصَبَ أَنْافٍ عَلَى قَفَا مِنْهُمْ لِأَعْبَاءِ الْوَعَى حَمَالٍ
 سَبَقَ الْمَشِيبَ إِلَيْهِ حَتَّى ابْتَرَاهُ وَطَنُ النَّهْيِ مِنْ مَقَرِّهِ وَقَدَّالٍ ^(٢)

فقولهُ : « وَطَنُ النَّهْيِ » من الكلمات الجامعة ، وهى عبارة عن الرأس ، ولا يُجَاءُ
 بمثلها في معناها مما يسدُّ مَسَدَّهَا . وكذلك . وَرَدَ قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ :
 قَلْبٌ يَطْلُ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدُّ تُنْمِضِي الْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوَهَا النَّعْبُ ^(٣)
 فقولهُ : « قَلْبٌ يَطْلُ عَلَى أَفْكَارِهِ » من الكلمات الجوامع ، ومرادهُ بذلك أنَّ قَلْبَهُ
 لا تملؤه الأفكارُ ، ولا تحيطُ به ، وإنما هو عالٍ عليها . يصفُ بذلك عدمَ احتفاله
 بالفرداح ، وقَلَّةَ مبالاته بالخطوبِ ، التي تحدثُ أفكاراً تستغرقُ القلوبَ . وهذه
 عبارةٌ عجيبةٌ ، لا يُوقَى بمثلها مما يسدُّ مَسَدَّهَا .

(١) ديوان أبي تمام ٧٦٣

(٢) ابتراه : سلبه ، وطن النهى : الرأس ، المرقق : وسط الرأس ، القذال : مؤخره .

(٣) ديوان البحتري ٧٠٤ ، ورواية الديوان « يطل على أقطاره » .

وَمَا مَا بَأْتَى عَلَى حُكْمِ الْحَقِيقَةِ فَكَقَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ (٤) :

سَلَّمَ اللَّهُ أَوَّاراً لَنَا وَمَارِياً تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَبَاهَا مَا تَقَطَّعَا
لِيَالٍ تَنْسِيَنَّ اللَّيَالِي حِسَابَهَا بُلْهَنِيَّةُ أَقْصَى بِهَا الْحَوْلُ أَجْمَعَا
سَوَى عِرَّةٍ لَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِأَسْمِهِ وَأَعْمَلُ فِيهِ اللَّهُ مَرَأَى وَمَسْمَعَا
فَقَوْلُهُ : « لَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِأَسْمِهِ » مِنَ الْكَلِمَاتِ الْجَامِعَةِ ، أَيْ أَنَّنِي قَدْ شَغِلْتُ
بِاللَّذَاتِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ . وَلَوْ وَصَفَ اشْتِغَالَهُ بِاللَّذَاتِ مَعَهَا وَصَفَ لَمْ يَأْتِ
بِمَثَلِي قَوْلُهُ : « لَا أَعْرِفُ الْيَوْمَ بِأَسْمِهِ » .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ ، فَلَمَرَادُ بِهِ الْإِيحَازُ ، الَّذِي يُدْكَ بِهَ بِالْأَلْفَاظِ
الْقَلِيلَةِ عَلَى الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ ، أَيْ أَنَّ الْفَاطَةَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - جَامِعَةٌ لِلْمَعَانِي
الْمَقْصُودَةِ عَلَى إِيحَازِهَا وَاخْتِصَارِهَا . وَجَلُّ كَلَامِهِ جَارِ هَذَا الْمَجْرَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى
ضَرْبِ الْأَمْثَلَةِ بِهِ ، وَسَيَأْتِي فِي بَابِ الْإِيحَازِ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَمُقْنِعٌ .

فَإِنْ قِيلَ : فَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْتَهُمَا ، فَإِنَّهُمَا فِي النَّظَرِ سَوَاءٌ ؟
قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ الْإِيحَازَ هُوَ أَنْ يُؤْتَى بِالْأَلْفَاظِ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنَى ، مِنْ غَيْرِ أَنْ
تَزِيدَ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ أَنَّهَا لَانْظِيرَ لَهَا ، فَإِنَّهَا تَكُونُ قَدْ
اتَّصَفَتْ بِوَصْفٍ آخَرَ خَارِجٍ عَنْ وَصْفِ الْإِيحَازِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِيحَازاً وَزِيَادَةً ، وَأَمَّا
هَذَا الْقِسْمُ الْآخَرُ ، فَإِنَّهُ الْفَاطَةُ أَفْرَادٌ فِي حُسْنِهَا لَانْظِيرَ لَهَا ، فَتَارَةٌ تَكُونُ مَوْجَزَةً .
وَتَارَةٌ لَا تَكُونُ مَوْجَزَةً ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهَا الْإِيحَازُ ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ الْحُسْنِ
الَّذِي لَانْظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِي أَيْ تَامَ : « وَطَنُ النَّهْيِ » ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ
عَنِ الرَّأْسِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّأْسَ أَوْجَزُ . لِأَنَّ الرَّأْسَ لَفْظَةً وَاحِدَةً . وَ « وَطَنُ النَّهْيِ »
لَفْظَتَانِ ، إِلَّا أَنَّ « وَطَنُ النَّهْيِ » أَحْسَنُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الرَّأْسِ مِنَ الرَّأْسِ . فَإِنَّ هَذَا
أَنْ أَحَدَ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ غَيْرُ الْآخَرِ .

(٤) ديوان ابن الرومي ٢٩٩ وروى صدر البيت الثالث في الديوان هكذا « سدى غرة لأعرف اليوم

الفصل السادس فى الحكمة التى هى ضالة المؤمن

قال النبىُّ ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فهو أحقُّ بها إذا وجدها » والمرادُ بذلك أن الحكمة قد يستفيدُها أهلُها من غير أهلها ، كما يُقال : « رَبِّ رَمِيَّةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ » وهذا لا يَنْصَحُ علماً واحداً من العلوم . بل يقعُ فى كلِّ علم ، والمطلوبُ منه هاهنا هو ما يَنْصَحُ علماً البيان من الفصاحة والبلاغة دون غيره .

ومدَّ سمعتُ هذا الخبر النبوى جعلتُ كَدِّى فى تتبعِ أقوالِ الناس فى مُفاوضاتهم ومعاوراتهم ، فإنه قد تَصَدَّرَ الأقوالُ البليغة والحكمُ والأمثالُ ممَّن لا يعلم مقدار ما يقوله . فاستفدتُ بذلك فوائدَ كثيرة ، لا أحصرُها عدداً . وأنا أذكرُ منها طرفاً ، يُسْتَدَلُّ به على أشباهه ونظائره .

فمن ذلك أنى سِرْتُ فى بعض الطُرُق ، وفى صُحْبَتى رجلٌ بدوى من الأَنْبِاطِ (٥) لا يُعْتَدُّ بقوله ، فكان يقولُ : « غداً ندخلُ البلد ، وتشتغلُ عني » . وكان الأمرُ كما قال ، فدخلتُ مدينةَ حَلَبَ ، وشَغِلْتُ عنه أياماً ، ثم لَقِيتُ ، فقال لى : « مَن تَرَوِى فَرَّتْ عِظَامُهُ » ، وهذا القولُ من الأقوالِ البليغة . وهى من الحِكْمَةِ التى هى الضالةُ المطلوبة عندَ مُؤْمِنِي الفصاحة والبلاغة .

ثم إنى سمعتُ منه بعد ذلك شيئاً يناسبُ قوله الأول ، فإنى سَقَرْتُ لَهُ إلى صاحب فى حَلَبَ فى شىءٍ أخذته منه فاستقلَّه ، وقال : « الماءُ أَرَوِى لَشَدُوقِ النَّيْبِ » . وهذا أيضاً من الحِكْمَةِ فى بابها .

وسافرتُ مرَّةً أخرى على طريقِ المناظير وكان فى صُحْبَتى رجلٌ بدوى ، فسألته عن مسافةٍ ما بين تدمرُ (٦) وأَرَاك (٧) ، فقال : إذا « خرج سَرَحَاهما تلاقياً » فعبر عن قُربِ المسافةِ بينهما بأَوْجَزِ عبارة وأبلغها .

(٥) البُط والنبط والأنباط جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين (القاموس ٢/٣٨٧) .

(٦) تدمر مدينة مشهورة فى بركة الشام ، بينها وبين حلب خمسة أيام . وهى قرية من حمص .

(٧) أَرَاك ، وادى الأَرَاك قرب مكة .

ثم سأله ليلة من الليالي عن الصبح لترنخل عن موضعنا ، فقال : « قد ظهر الصبح إلا أنه لم يملك الإنسان بصره » ، وهذا القول من الحكمة أيضاً .
 وكان تزوج غلاماً من غلامى بدمشق ، فوقعت المرأة منه بموقع ، وشغف بها ثم سافرت عن دمشق لهم عرّض لى ، وسافر ذلك الغلام فى صحبتي ، فلما عدنا من السفر شغل بامرأته ، والمقام عندها ، فسألته عن حاله ، فقال : إنها قد طالت وحسنت ، وهى كذا وكذا ، وأخذ يصفها ، فقال أخ له كان حاضراً : يامولائى هى تلك لم تزد شيئاً ، وإنما هى فى عينه جبار من الجبارة !

وهذا القول قد ورد فى بعض أبيات الحماسة ، وهو معدود من أبيات المعانى :
 أهائلك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها^(٨)
 فكثيراً ما يصدّر مثل هذه الأقوال عن ألسنة الجهال .

وسمعت ما يجرى هذا المجرى من بعض العبيد الأحابيش الذين لا يستطيعون تقوم صبيغ الألفاظ ، فضلاً عما وراء ذلك . وذاك أنه رأى صبيّاً فى يده طاقة ربحان . فقال : « هذه طاقة آس تحمل طاقة ربحان » . فلما سمعت ذلك منه أخذتني هزة التعجب ، وذكرت شعر أوى نوايس الذى توصفه الناس فى هذا المعنى ، وهو قوله :

وَوَزِدَةٍ جَاءَ بِهَا شَادِنٌ فى كفه اليمنى فحيانا
 سَبَّحْتُ رَبِّيَ حِينَ أَبْصَرْتُهَا رِيحَانَةٌ تَحْمِلُ رِيحَانًا

وحضر عندي فى بعض الأيام رجل نصرانى موسوم بالطب ، وكان لا يُحسِن أن يقول كلمة واحدة ، وهو أقلقُ اللسان ، يسئ العبارة ، فسألته عن زيارة شخص ، وهل يتردد إليه أم لا ؟ فقال : « ظلام الليل يهدينى إلى باب من أودّه ، وضوء النهار يسلّى عن باب من لا أودّه » وهذا من أطفئ المعانى وأحسنها ، وهو من الحكمة المطلوبة .

وكنت قصدت زيارة بعض الإخوان من الأجناد وهو من الأغنام^(٩) الأعجم ، فسألته عن حاله ، وكان توالى عليه نكبات طالت أيامها ، وعظمت

(٨) ديوان الحماسة ١٣١/٢

(٩) جمع أغم ، وهو من لا يفتح شيئاً .

آلأُمها ، فقالَ لى فى الجوابِ ما معناه : إنه لم يبقَ عندى أرْتِباعٌ لوقوعِ نائبةٍ من التَّوائبِ . وهذا معنى لو أتى به شاعرٌ مُفْلِقٌ ، أو كاتبٌ بليغٌ ، لاسْتَحْسِنَ منه غاية الاستحسان .

وكنْتُ فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بأرضِ فِلَسْطينَ ، فى الجيشِ الذى كان قُبالةَ العدوِّ الكافرِ من الفرنجِ ، لعنهم الله ، وتقابلَ الفريقانِ على مَدينَةِ « يافا » وكان إلى جانبى ثلاثةُ فرسانٍ من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملةِ إلى نحوِ العدوِّ ، فلما حَمَلُوا صَدَقَ منهمُ اثنانِ ، وتلكأَ واحدٌ ، فقليلٌ له فى ذلك ، فقال : « الموتُ طعامٌ لائحِشِه »^(١١) . فلما سمعتُ هذه الكلمةَ اسْتَحْسِنْتُها وإذا هى صادرةٌ عن رَجُلٍ من أهلِ « بَصْرَى » قدمٍ^(١٢) من الأقدامِ .

ولو أخذتُ فى ذِكْرِ ما سمعته من هذا لأطَلْتُ ، وإِنِّا دَلَلْتُ يسيرما ذِكرُهُ على المرادِ ، وهو أَنَّهُ يَجِبُ على المتصدِّى للشَّعْرِ والخطابةِ أَنْ يَتَّبِعَ أقوالَ الناسِ فى محاوراتهمُ ، فَإِنَّه لا يَعدُمُ ممَّا يَسمَعُه منهم حَكَمًا كثيرة ، ولو أرادَ استخراجَ ذلك بفكرِهِ لأَعْجزَهُ .

ويُحَكِّى عن أبى تَمَّامٍ أَنَّهُ لما نَظَّمَ قصيدَتَه البائِئَةَ التى أَوَّلها :

• على مِثْلِها من أَرْبَعٍ ومَلابِغٍ^(١٣) •

انتهى منها إلى قوله :

يَرى أَقْبَحَ الأشياءِ أَوْبَهُ آمَلُ كَسَتُهُ يَدُ المأمُولِ حلَّةَ خَائِبِ

ثم قال : • وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرِ يُفْتَحُهُ الصَّبَا •

ووقفَ عِنْدَ صَدْرِ هذا البيتِ يَرُدُّهُ ، وإذا سائِلُ يسألُ على البابِ ، وهو يَقولُ :

« مِنْ بياضِ عَطَايَا كَمْ فى سَوَادِ مَطَالِيتِنَا » ، فقالَ أبو تَمَّامٍ :

• بياضُ العَطَايَا فى سَوَادِ المَطالِبِ •

فأتمَّ صَدْرَ البيتِ الَّذى كانَ يَرُدُّهُ من كلامِ السائلِ .

(١٠) يقال : جَشِهْ أى دَقِه وكسَرِه .

(١١) القدمُ التى عن الكلامِ فى ثَقُلٍ ورِخاوةٍ وقِلَّةِ فِهمٍ ، والغليظُ الأحمقُ الجانى .

(١٢) ديوانه ٤٠ ، وعجز البيت • أذيلتُ مصنوعاتُ الدموعِ السواكِبِ • وهو مطلعُ قصيدةٍ بمدحِ بَها أبا

دَلِيفِ القاسمِ بنِ عيسى العَجَلِ ، وهى من عيونِ قصائدهِ .

وسمعتُ امرأةً قد تُوفِّي لها ولد . وهو بِكْرُها الذى هو أَوَّلُ أولادها ، فقالت : كيف لا أَحَزَنُ لذهابه . وهو أَوَّلُ دِرْهمٍ وقعَ فى الكيس ؟ فأخذتُ أنا هذا المعنى . وأودَعْتُهُ كتاباً من كتبى فى التَّعازَى ، وهو كتابُ كَتَبْتُهُ إلى بعضِ الإخوانِ ، وقد تُوفِّي بِكْرُهُ مِنَ الأولادِ ، فقلتُ : « وهو أَوَّلُ دِرْهمٍ ادَّخَرْتُهُ فى كيسِ الادِّخارِ ، وأَعَدَدْتُهُ لحوادثِ الليلِ والنَّهارِ » .

وبلَّغْنِي عن الشيخِ أبى محمد [عبد الله بن (١٣)] أحمد بن أحمدَ المعروفِ بابن الخشابِ البَغْدادى ، وكانَ إماماً فى عِلْمِ العَرَبِيَّةِ وغيره ، فقليلٌ إنَّه كانَ كثيراً ما يَوقِفُ على حِلَّتِي القِصَاصِ والمُشْعَبِذِينَ ، فإذا أَنَاهُ طَلَبَةُ العِلْمِ ، لا يَجِدُونَهُ فى أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ إِلَّا هُنَاكَ ، فليَمِّمْ على ذلك ، وقيلَ له : أنتَ إمامُ الناسِ فى العِلْمِ ، وما الَّذى يَبْعَثُكَ على الوقوفِ بهذه المواقِفِ الرَّذِيلَةِ ؟ فقال : « لو علمتم ما أعلمُ لما لُمْتُم ! ولَطَلَّما اسْتَفَدْتُ من هؤلاءِ الجُهَّالِ فوائدَ كثيرةً ، تَجَرى فى ضِمَنِ هَدْيَانِهِم مَعانٍ غريبةٍ لطيفةٍ ، ولو أردتُ أَنَا أَوْ غَيْرِى أَن نَأْتِيَ بِمِثْلِها لما اسْتَطَعْنَا ذلك » . ولا شكَّ أَنَّ هذا الرجلَ رَأَى ما رَأَيْتُ ، ونظَرَ إلى ما نظَرْتُ إِلَيْهِ .

الفصل السابع

فى الحقيقةِ والجازِ

وهذا الفصلُ مهمٌ كبيرٌ من مَهاتِ علمِ البيانِ ، لا بل هو علمُ البيانِ بأجمعه ، فإنَّ فى تصرِيفِ المَباراتِ على الأسلوبِ الجَازِ فوائدَ كثيرةً ، وسيردُ بيانُها فى مواضعٍ منها من هذا الكتابِ إن شاء اللهُ تعالى . وقد تَبَهَّنَا فى هذا الموضعِ على جَمَلِها دونَ تفصيلِها .

فأَمَّا (الحَقِيقَةُ) فهى اللفظُ الدَّالُّ على مَوْضُوعِهِ الأَصْلَى .
وأَمَّا (الجَاز) فهو ما أَرِيدَ بِهِ غَيْرُ المعنى المَوْضُوعِ لَهُ فى أَصْلِ اللُّغَةِ ، وهو ما يُخَوِّذُ من جَازٍ من هذا المَوْضِعِ إلى هذا المَوْضِعِ ، إذا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ .
فالجَازُ إِذَا اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِى يُجَازُ فِيهِ ، كالمَعالِجِ والمَزارِ وأشباهِها . وحَقِيقَتُهُ

(١٣) زيادةٌ ليست فى الأصلِ صححتُها بها الاسمُ ، وقد سبقتُ ترجمته فى صفحة ٤٠

هى الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ ، فُجِعِلَ ذَلِكَ لنقل الألفاظ من محلٍّ إلى محلٍّ .
كقولنا زيدٌ أسدٌ . فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ . والأسد هو هذا الحيوانُ المعروفُ . وقد جُزِّئًا من
الإنسانيةِ إلى الأسدِيَّةِ ، أى عَبَرْنَا من هذه إلى هذه لوصلةِ بينهما ، وتلك الوصلةُ هى
صفةُ الشجاعةِ .

وقد يكونُ العبورُ لغيرِ وُصلةٍ ، وذلك هو (الاتِّسَاعُ) كقولهم فى كتابٍ « كَلِيلةٌ
وَدِمْنَةٌ » قالَ الأسدُ ، وقالَ الثعلبُ : فَإِنَّ القَوْلَ لا وُصلةَ بينه وبين هذين بحال من
الأحوال ، وإنَّما أُجْرِى عليها اتِّسَاعًا مَحْضًا لا غَيْرُ .

ولهذا مثالٌ فى المجاز الحقيقى الذى هو المكان المجازى فيه ، فَإِنَّه لا يَجْلُو إِثْمًا أَنْ يَجَازَ
من سَهْلٍ إلى سَهْلٍ ، أو من وَغْرٍ إلى وَغْرٍ ، أو مِنْ سَهْلٍ إلى وَغْرٍ ، فالجوازُ من سَهْلٍ
إلى سَهْلٍ أو من وَغْرٍ إلى وَغْرٍ ، هو كقولنا زيدٌ أسدٌ ، فالمشابهةُ حاصلةٌ فى ذاتِ بينهما
كالمشابهةِ الحاصلةِ فى المكانِ . والجوازُ من سهلٍ إلى وَغْرٍ كقولهم : قال الأسدُ ، وقال
الثعلبُ . فكما أَنَّهُ لا مشابهةَ بين القول وبين هَؤُلَاءِ ، فكذلك لا مُشابهةَ بين السَّهْلِ
وَالوَغْرِ . وسيأتى كشفُ الغطاءِ عن ذلك ؛ وإشباعُ القولِ فى تحقيقه فى باب
(الاستعارة) فليُؤَخَذَ من هناك .

وقد ذهب قومٌ إلى أن الكلامَ كُلَّهُ حقيقة لا مجازٍ فيه ، وذهب آخرونَ إلى أَنَّهُ كُلُّهُ
مجازٌ ، لا حقيقةَ فيه . وكلا هَؤُلَاءِ المذهبينِ فاسدٌ عندى ، وسأجيبُ الخصمَ عما
ادَّعاهُ فيها ، فأقول : محلُّ النزاعِ هو أَنَّ اللغةَ كُلَّها حقيقةٌ . أو أَنَّها كُلُّها مجازٌ ، ولا
فرقَ عندى بين قولك إِنَّا كُلُّها حقيقةٌ ، أو إِنَّا كُلُّها مجازٌ ، فَإِنَّ كِلَا الطَرَفَيْنِ عندى
سواءٌ ، لأنَّ مُنْكَرَهما غيرُ مُسَلَّمٍ لهما . وأنا بصِدَدٍ أَنْ أُبينَ أَنَّ فى اللغةِ حقيقةً ومجازاً .
و (الحقيقةُ اللُّغويةُ) ، هى حقيقةُ الألفاظِ فى دلالتها على المعانى ، وليستْ
بالحقيقةِ التى هى ذاتُ الشئِ ، أى نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فالحقيقةُ اللفظيةُ إِذَا هى دِلَالَةٌ
اللفظِ على المعنى الموضوعِ له فى أَصْلِ اللغةِ . والمجازُ هو نقلُ المعنى عن اللفظِ
الموضوعِ له إلى لفظٍ آخرَ غيرِهِ .

وتقرِّرُ ذلكَ بأنَّ أقولَ : المخلوقاتُ كُلُّها تفتقرُ إلى أسماءٍ يُسْتَدَلُّ بها عليها ، لِيُعْرَفَ
كلُّ منها باسمه ، من أَجلِ التفاهُمِ بين الناسِ ، وهذا يَقَعُ ضرورةً لأبَدٍ منها ، فالاسمُ
الموضوعُ بإزاءِ المسمى هو حقيقةٌ له ، فَإِذَا نُقِلَ إلى غيره صار مجازاً .

ومثال ذلك أننا إذا قلنا « شمس » أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء . وهذا الاسم له حقيقة ، لأنه وضع بإزائه . وكذلك إذا قلنا « بحر » أردنا به هذا الماء العظيم المجتمع الذي طعمه ملح . وهذا الاسم له حقيقة ، لأنه وضع بإزائه . فإذا قلنا « الشمس » إلى « الوجه المليح » استعارة كان ذلك له مجازاً لا حقيقة . وكذلك إذا قلنا « البحر » إلى « الرجل الجواد » استعارة كان ذلك له مجازاً لا حقيقة .

فإن قيل : إن « الوجه المليح » يقال له « شمس » وهو حقيقة فيه ، وكذلك « البحر » يقال للرجل الجواد ، وهو حقيقة فيه . فالجواب عن ذلك من وجهين أحدهما نظري . والآخر وضحي .

أما النظري فهو أن الألفاظ إنما جعلت أدلة على إفهام المعاني ، ولو كان ما ذهبت إليه صحيحاً لكان « البحر » يطلق على هذا الماء العظيم المليح ، وعلى الرجل الجواد بالاشتراك . وكذلك الشمس أيضاً ، فإنها كانت تطلق على هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء ، وعلى الوجه المليح بالاشتراك ، وحينئذٍ فإذا ورد أحد هذين اللفظين مطلقاً بغير قرينة تخصّصه ، فلا يفهم المراد به ما هو من أحد المعنيين المشتركين المتدرجين تحته ، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك ، فإننا إذا قلنا « شمس » أو « بحر » وأطلقنا القول لا يفهم من ذلك وجه مليح ، ولا رجل جواد ، وإنما يفهم منه ذلك الكوكب المعلوم ، وذلك المساء المعلوم لا غير . فبطل إذا ما ذهبت إليه بما بيناه وأوضحناه .

فإن قلت : إن العرف يخالف ما ذهبت إليه ، فإن من الألفاظ ما إذا أُطلق لم يذهب الفهم منه إلا إلى الجواز دون الحقيقة ، كقولهم : « الغائط » فإن العرف خصّص ذلك بقضاء الحاجة دون غيره من المطمئن من الأرض .

قلت في الجواب : هذا شيء ذهب إليه الفقهاء ، وليس الأمر كما ذهبوا إليه ، لأنه إن كان إطلاق اللفظ فيه بين عامة الناس من إسكاف ، وحداد ونجار ، وخباز ، ومن جرى معجراهم ، فهؤلاء لا يفهمون من « الغائط » إلا قضاء الحاجة ، لأنهم لم يعلموا أصل وضع هذه الكلمة ، وإنما مطمئن من الأرض . وأما خاصة الناس ، الذين يعلمون أصل الوضع ، فإنهم لا يفهمون عند إطلاق اللفظ إلا

الحقيقة لا غير، ألا ترى أن هذه اللفظة لما وَرَدَتْ في القرآن الكريم، وأريد بها قضاء الحاجة قُرِنتْ بِالْفَاطِطِ تدلُّ على ذلك، كقوله تعالى: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ»^(١) فإن قوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» دليل على أنه أراد قضاء الحاجة، دون المطمئن من الأرض، فالكلام في هذا وأمثاله إنما هو مع علم أصل الوُضْعِ حقيقةً والنقل عنه مجازاً، وأما الجهال فلا اعتبار بهم، ولا اعتداد بأقوالهم، والعجب عندي من الفقهاء الذين دُونُوا ذلك على ما دُونُوهُ، وذهبوا إلى ما ذهبوا إليه.

وأما الوجه الوُضْعِيُّ فهو أن المرجع في هذا وما يجرى مجراه إلى أصل اللغة، التي هي وَضْعُ الْأَسْمَاءِ عَلَى الْمَسْمِيَّاتِ، ولم يوجد فيها أن الوجه المليح يسمَّى شمساً، ولا أن الرجل الجواد يسمَّى بجرأ، وإنما أهل الخطابة والشعر توسّعوا في الأساليب المعنوية، فنقلوا الحقيقة إلى المجاز. ولم يكن ذلك من واضع اللغة في أصل الوُضْعِ. ولهذا اختص كل منهم بشيء اخترعه في التوسعات المجازية.

هذا امرؤ القيس قد اخترع شيئاً لم يكن قبله، فن ذلك أنه أول من عبر عن الفرس بقوله: «قَيْدُ الْأَوَايدِ»^(٢) ولم يُسمع ذلك لأحد من قبله.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال يوم حُتَيْن: «الآن حَمَى الْوُطَيْسُ» وأراد بذلك شدة الحرب، فإن الوطيس في أصل الوضع هو التنوير، فنقل إلى الحرب استعارة، ولم يُسمع هذا اللفظ على هذا الوجه من غير النبي ﷺ، وواضع اللغة ما ذكر شيئاً من ذلك.

فعلماً حينئذ أن من اللغة حقيقةً بوضعه، ومجازاً بتوسعات أهل الخطابة والشعر. وفي زماننا هذا قد يجترعون أشياء من المجاز على حُكْمِ الاستعارة لم تكن من قبل، ولو كان هذا موقوفاً من جهة واضع اللغة لما اخترعه أحد من بعده، ولا زيد فيه، ولا نقص منه.

(١) سورة المائدة. آية ٦ (٢) من بيته المشهور في معلقته:

وقد أخذني والطيني وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلاً =

وأما الفرق بينه وبين الحقيقة ، فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائرها . ألا ترى أننا إذا قلنا : « فلان عالم » صدق على كل ذي علم ، بخلاف « واسأل القرية »^(٣) لأنه لا يصح إلا في بعض الجادات دون بعض ، إذ المراد أهل القرية ، لأنهم ممن يصح السؤال لهم ، ولا يجوز أن يقال : واسأل الحجر والتراب ، وقد يحسن أن يقال : واسأل الربيع والطلل .

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة ، لأنه لم يصح أن يطلق عليه اسم المجاز إلا لنقله عن حقيقة موضوع له ، إذ المجاز هو اسم للموضع الذي ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة إلى غيرها .

وإذا كان كل مجاز لابد له من حقيقة نُقِلَ عنها إلى حالته المجازية ، فكذلك ليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز ، فإن من الأسماء مالا مجاز له ، كأسماء الأعلام ، لأنها وُضِعَتْ للفرق بين الذوات ، لا للفرق بين الصفات .

وكذلك فاعلم أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة^(٤) ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التي هي الأصل أولى منه ، حيث هو فرع عليها ، وليس الأمر كذلك ، لأنه قد ثبت وتحقيق أن فائدة الكلام الخطائي هو إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير ، حتى يكاد يُنظر إليه عيناً .

ألا ترى أن حقيقة قولنا : « زيد أسد » هي قولنا : « زيد شجاع » لكن الفرق بين القولين في التصوير والتخييل ، وإثبات الغرض المقصود في نفس السامع ، لأن

والأوابد جمع أبدة الوحش ، قال أبو هلال : والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ ، لأن القيد من أعلى مراتب تمتنع عن التصرف ، لأنك تشاهد ما في القيد من المنع ، فلست تشك فيه .

(٣) سورة يوسف : آية ٨٢

(٤) هذا رأى من الآراء الشائعة ، وليس على إطلاقه . لأنه إذا كانت البلاغة مطابقة للكلام لمقتضى الحال . كانت البلاغة في المجاز كما تكون في الحقيقة ، والتحقيق أنه لو لم يؤد المجاز غرضاً من الأغراض البلاغية لا تؤديه الحقيقة لكانت الحقيقة أولى منه بالاستعمال . وقد ذكر المؤلف نفسه فيما يلي بعض الأغراض التي يفضل بها المجاز الحقيقة ، وعاد إلى الرأي الذي قلناه .

قولنا : « زيد شجاع » لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجلٌ جرىءٌ مقدامٌ ، فإذا قلنا « زيد أسد » يتخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة ودقِّ الفرائس ، وهذا لا نزاع فيه . وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنها ليسمحُ بها البخیلُ ، ويشجعُ بها الجبان ، ويحكمُ بها الطائشُ المتسرعُ ، ويجد المخاطبُ بها عند سماعها نشوةً كشوة الخمر ، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق ونديم على ما كان منه من بذلٍ مالٍ ، أو ترك عُقوبة ، أو إقدام على أمر مهولٍ . وهذا هو محوى السحر الحلال ، المستغنى عن إلقاء العصا والجلال .

واعلم أنه إذا وردَ عليك كلامٌ يجوز أن يُحملَ معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه ، فانظر ، فإن كانَ لا مزيةَ لمعناه في حمله على طريق المجاز ، فلا ينبغي أن يُحملَ إلا على طريق الحقيقة ، لأنها هي الأصلُ ، والمجاز هو الفرع ، ولا يُعدَّلُ عن الأصلِ إلى الفرع إلا لفائدةٍ مثال ذلك قولُ البُخترى :
 مهيبٌ كحدِّ السيفِ لو ضربتُ به ذراً أجلاً ظلت وأعلامها وهذا^(٥)
 و يروى أيضاً « لو ضربتُ به طلي أجاً » جمع طليّة . وهى العنق . فهذا البيت لا يجوزُ حمله على المجاز . لأن الحقيقة أولى به ألا ترى أن « الذرّاً » جمع « ذرّة » وهو أعلى الشئ ، يقال : ذرّة الجبل أعلاه . والطلّي جمع طليّة وهى العنق ، والعنق أعلى الجسد ، ولا فرق بينهما في صفة العلوّ هنا ، فلا يُعدَّلُ إذّاً إلى المجاز ، إذ لا مزيةَ له على الحقيقة .

وهكذا كل ما يجيء من الكلام الجارى هذا المجرى ، فإنه إن لم يكن في المجاز زيادةٌ فائدة على الحقيقة لا يُعدَّلُ إليه . . .

(٥) ديوان البحرى ١١٠/١ وأجأ أحد جبل طي . أجأ وسلمى ، والوهد والرمدة الأرض المنخفضة والمهدة في الأرض ، والبيت من قصيدته التى يصف فيها الذئب حين لقيه ، ورواية الديوان :
 مهيباً كتحصل السيف لو ضربت به ذراً أجاً ضلت وأعلامها وهذا
 وقيل :

بنى ناهل مهلا فإن نأحتكم له عزومات هزل آرائها جد
 من هجمته لاتهجوا سوى الردى وإن كان خرقاً مايجل له عقد

الفصل الثامن

فى الفصاحة والبلاغة

اعلم أن هذا بابٌ متعذرٌ على الواجِعِ ، ومسلِكٌ متوعرٌ على الناهِجِ ، ولم يَزَلْ العلماءُ من قديمِ الوقتِ وحديثه يكثرُونَ القولَ فيه ، والبحثَ عنه ، ولمْ أَجدْ من ذلك ما يعوِّلُ عليه إلا القليلَ .

وغاية ما يقالُ فى هذا البابِ أن « الفصاحة » هى الظهورُ والبيانُ فى أصلِ الوضعِ اللغوى ، يقال « أَفْصَحَ الصُّبْحُ » إذا ظهر ، ثم إنهم يقفونَ عند ذلك ، ولا يكشفون عن السرِّ فيه .

وبهذا القولِ لا تتبينُ حقيقةُ الفصاحةِ ، لأنَّه يُعَرَّضُ عليه بوجوهٍ من الاعتراضاتِ :

أحدهما : أنَّه إذا لم يكن اللفظُ ظاهراً بينا لم يكن فصيحاً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً .

الوجهُ الآخرُ : أنَّه إذا كان اللفظُ الفصيحُ هو الظاهرُ البينُ ، فقد صارَ ذلك بالنسبِ والإضافاتِ إلى الأشخاصِ ، فإنَّ اللفظَ قد يكونُ ظاهراً لزيدٍ ، ولا يكونُ ظاهراً لعمرو . فهو إذاً فصيحٌ عند هذا ، وغيرُ فصيحٍ عند هذا . وليسَ كذلك ، بل الفصيحُ هو فصيحٌ عند الجميعِ ، لا خلافَ فيه مجالٍ من الأحوالِ ، لأنَّه إذا تحقَّقَ حدُّ الفصاحةِ ، وعُرفَ ما هى ، لم يَبْقَ فى اللفظِ الذى يختصُّ به خلاف .

الوجه الثالثُ : أنَّه إذا جرى بلفظٍ قبيحٍ يَنبُو عنه السمعُ ، وهو معَ ذلك ظاهرٌ بينٌ ، ينبغى أن يكونَ فصيحاً ، وليسَ كذلك . لأنَّ الفصاحةَ وَصَفُ حُسْنِ اللفظِ لا وَصَفُ قبح .

فهذه الاعتراضاتُ الثلاثةُ واردةٌ على قولِ القائلِ : إن اللفظَ الفصيحَ هو الظاهرُ البين ، من غيرِ تفصيل .

ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتنى الحيوة فيها ، ولم يثبت
عندى منها ما أُعول عليه ، ولكثرة ملاسيتى هذا الفن ، ومعاركتى إياه ، انكشف لى
السُّرُّ فيه ، وسأوضحه فى كتابى هذا ، وأحققُ القول فيه ، فأقول :
إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البينُ ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه
مفهومة ، لا يحتاجُ فى فهمها إلى استخراجٍ من كتاب لغةٍ . وإنما كانت بهذه
الصفة ، لأنها تكونُ مألوفةً الاستعمالِ بينَ أربابِ النظم والنثر ، دائرةً فى كلامهم .
وإنما كانتُ مألوفةً الاستعمالِ دائرةً فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنِها .
وذلك أنَّ أربابَ النظم والنثر غرَّبُوا اللغةَ باعتبار ألفاظها ، وسبَّروا وقَسَّموا ،
فاختاروا الحَسَنَ من الألفاظِ فاستعملوه . ونفوا القبيحَ منها فلم يستعملوه فحَسُنُ
الألفاظُ ^(١) سببُ استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سببُ ظهورها وبيانها ،
فالفصيحُ إذاً من الألفاظِ هو الحَسَنُ .

فإن قيل : من أى وجهٍ عِلِمَ أربابُ النظم والنثر الحَسَنَ من الألفاظِ حتى
استعملوه ، وعِلِمُوا القبيحَ منها حتى نفَوْه ولم يستعملوه ؟
قلتُ فى الجواب : إنَّ هذا من الأمور المحسوسة ، التى شاهدها من نفسها ، لأنَّ
الألفاظَ داخلةً فى حيزِ الأصواتِ ؛ فالذى يستلذه السمعُ منها ، ويميلُ إليه هو
الحَسَنُ ، والذي يكرهه وينفِرُ عنه هو القبيحُ .

ألا ترى أن السمعَ يستلذُّ صوتَ البَلْبَلِ مِنَ الطَّيْرِ ، وصوتَ الشَّحُورِ ، ويميلُ
إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغَرَابِ وينفِرُ عنه ، وكذلك يكرهُ نقيقَ الجِمارِ ولا يجِدُ
ذلك فى صهيلِ الفرسِ ؟ والألفاظُ جاريةٌ هذا الجرى ، فإنَّه لا خلافٌ فى أنَّ لفظةَ
« المَرْئَةِ » و « الدُّمَيْة » حسنةٌ يستلذُّها السمعُ ، وأنَّ لفظةَ « البُعاق » قبيحةٌ يكرهها
السمعُ . وهذه اللَّفْظَاتُ الثلاثة من صفةِ المطر ، وهى تدلُّ على معنى واحدٍ ، ومع
هذا فإنَّك ترى لفظتى « المَرْئَةِ » و « الدُّمَيْة » وما جرى مَجْرَاهَا مألوفةً الاستعمالِ ،
وترى لفظَ « البُعاق » وما جرى مَجْرَاهُ متروكاً لا يُستعملُ وإن استُعمل ، فإنَّما

(١) فى الأصل « وحسن الاستعمال » وهو تكرار يخل به المعنى .

يستعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو من ذوقه غير سليمٍ لا جرم أنه دُمَّ وقُدَحَ فيه . ولم يلتفت إليه ، وإن كان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين . فإن حقيقة الشيء إذا عَلِمْتَ وَجَبَ الوقوفُ عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما خَرَجَ عنها .

وإذن ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين . وإنما كان ظاهراً بيناً ، لأنه مألوف الاستعمال . وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع . والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف لما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح . والحسن هو الموصوفُ بالفصاحة ، والقبيح غير موصوفٍ بفصاحة ، لأنه ضدها لمكان قبحه . وقد مثلت ذلك في المثالي المتقدم بلفظة « المزنة » و « الديمة » ولفظة « البعاقو » .

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء ، ليس منها حسن ومنها قبيح . ولما لم يكن كذلك علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى .

وليس لقائل ما هنا أن يقول : لا لفظ إلا بمعنى ، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فإن لم أفصل بينها ، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى يبيء فيه ضمناً وتبعاً .

الوجه الثاني أن وزن « فَعِيل » هو اسم فاعل من « فَعَلَ » بفتح الفاء وضم العين ، نحو كَرَّمَ فهو كَرِيم . وشَرَفَ فهو شَرِيف ، ولَطَفَ فهو لَطِيف ، وهذا مطرد في بابه وعلى هذا فإن اللفظ الفصيح هو اسم فاعلٍ من فَصَحَ فهو فَصِيح ، واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة محتصة به .

فإن قيل : إنك قلت : إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البين ، أى المفهوم ، وترى أن من آيات القرآن ما لا يفهم ما تضمنه من المعنى إلا باستنباط وتفسير ، وتلك الآيات فصيحة لا محالة ، وهذا بخلاف ما ذكرته .

قلت : لأن الآيات التي تستنبط ، وتحتاج إلى تفسير ، ليس شيء منها إلا

ومفردات ألفاظها ظاهرة واضحة. وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب، لا من جهة ألفاظه المفردة، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب. وبصير له هيئة تخصه وهذا ليس قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ، لأنها إذا اعتبرت لفظة لفظة، وجدت كلها فصيحة، أي ظاهرة واضحة، وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها، وإذا نظرت إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير. وهذا لا يختص به القرآن وحده، بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير ذلك، وسأورد هاهنا منه شيئاً، فأقول: قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «صومكم يوم تصومون، وفطركم يوم تفطرون، وأضحاكم يوم تضحون» وهذا الكلام مفهوم مفردات ألفاظه، لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله. وإذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل: علمنا أن صومنا يوم نصوم، وفطرنا يوم نفطر، وأضحانا يوم نضحى، فالذي أعلمنا به مما لم نعلمه؟

وإذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج إلى استنباط. والمراد به أنه إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا، ولم يكن ذلك اليوم أوله فإن الصوم صحيح، وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس عليه. وكذا يقال في يوم الفطر ويوم الأضحى. ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة، تفهم معاني ألفاظها المفردة، وإذا تركبت محتاج في فهمها إلى استنباط. وأما ما ورد من ذلك شعراً فقول أبي تمام (٢):

وَلَهْتَ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا وَأَضَاءَ (٣) مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلَمٌ
فإن الولة والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت بجملة يحتاج في فهمه إلى استنباط. والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها، لما نالني من الجزع لولها، كما يقول الجازع: أظلمت الأرض على، أي أني صيرت كالأعمى

(٢) ديوان أبي تمام ٣١٢ وهو من قصيدة في مدح أبي الحسين محمد بن الميثم ومطلعها:

نورث فريد مدامع لم تنظم والجمع يحمل بعض شجر الغرم

الذى لا يُبصر. وأما قوله « وأضاء منها كلُّ شيءٍ مظلم » أى وَصَح لى منها ما كان مُستتراً عني من حبِّها إياى.

وكذلك ورد قول أبى عُبَّادة البَحرى^(٤) فى منهزم :

إذا سارَ سَهْباً عادَ ظهراً عَدُوٌّ وكانَ الصِّديقَ بكرةً ذلكَ السَّهْبُ
فإنَّ السَّيرَ ، والسَّهْبَ والظَّهْرَ ، والعَدُوَّ ، والصِّديقَ ، كلُّ ذلكَ مفهومُ المعنى. لكنَّ
النيبَ بمجموعه يحتاجُ معناه إلى استنباطٍ. والمرادُ أنَّ هذا المنهزم يرى ما بين يديه
محبوباً إليه ، وما خلفه مكروهاً عنده . لأنَّه يطلبُ النجاةَ فيؤثرُ البُعدُ مما خلفه ،
والقربُ ممَّا أمامه ، فإذا قطعَ سَهْباً ، وخلفه ورآه صارَ عنده كالعَدُوِّ . وقبل أن
يقطعه كان له صديقاً ، أى يطلبُ لقاءَهُ ، ويحبُّ الدُّنُوَّ منه .

فانظرَ أيها المتأملُ إلى ما ذكرته من هذه الأمثلةِ ، حتى يثبتَ عندك ما أردتَ
بيانه .

وأما البلاغةُ : فإنَّ أصلها فى وضع اللغة من الوُصولِ والانتهاء ، يقال : بَلَغْتَ
المكانَ ، إذا انتهيت إليه ، ومبلغُ الشيءِ منتهاهُ . وسُمِّيَ الكلامُ بليغاً من ذلك ، أى
أنَّه قد بلغ الأوصافَ اللفظيَّةَ والمعنوية .

والبلاغة شاملةٌ للألفاظ والمعانى ، وهى أخصُّ من الفصاحة ، كالإنسان من
الحيوان . فكلُّ إنسانٍ حيوانٌ ، وليس كلُّ حيوانٍ إنساناً . وكذلك يقالُ : كلُّ كلامٍ
بليغٍ فصيحٌ . وليس كلُّ كلامٍ فصيحٍ بليغاً .

ويُفرَّقُ بينها وبين الفصاحة من وجهٍ آخرٍ غيرِ الخاصِّ والعامِّ ، وهو أنَّها لا
تكونُ إلا فى اللفظِ والمعنى ، بشرطِ التركيب ، فإنَّ اللفظةَ الواحدة لا يطلَقُ عليها
اسمُ البلاغةِ ، ويطلَقُ عليها اسمُ الفصاحةِ ، إذ يوجد فيها الوصفُ المختصُّ
بالفصاحةِ ، وهو الحسن . وأما وصفُ البلاغةِ فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيدِ
الذى ينتظم كلاماً .

(٤) ديوان البَحرى ٧٨/٢ ، ومعنى السهب هنا الغلاة .

مسألة تتعلق بهذا الفصل

هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب .
أم بالنظر وقضية العقل ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : لم يؤخذ علم البيان بالاستقراء ، فإن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب لا يخلو أمرهم من حالين ، إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم . فإن كانوا ابتدعوه عند وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديها ، وحسنها من قبيحها . فذلك هو الذي أذهب إليه وإن كانوا أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم فهذا يتسلسل إلى أول من ابتدعه ولم يستقره ، فإن كل لغة من اللغات لا تخلو من وصفي الفصاحة والبلاغة ، المختصين بالألفاظ والمعاني . إلا أن اللغة العربية مزينة على غيرها ، لما فيها من التوسعات التي لا توجد في لغة أخرى سواها .

مسألة أخرى تتعلق بهذا الفصل أيضا

هل علم البيان من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا ؟
الجواب عن ذلك أنا نقول : الفرق بينهما ظاهر ، وذلك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد ، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك ، ولما كان العقل يأباه ولا ينكره ، فإنه لو جعل الفاعل منصوباً ، والمفعول مرفوعاً ، قلد في ذلك ، كما قلد في رفع الفاعل ونصب المفعول . وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة فلهي كذلك . لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل ، من غير واضع اللغة ، ولم يقتصر فيه إلى التوقيف منه ، بل أخذت ألفاظ ومعاني على هيئة مخصوصة ، وحكم لها العقل بمزية من الحسن ، لا يشاركها فيها غيرها ، فإن كل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ حسنة راقية ، يلدّها السمع ولا ينبو عنها الطبع ، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ، ينبو عنها السمع . ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه .

فإن قيل : لو اخذت اقسام النحو بالتقليد من واصبعها لما اقيمت الادلة عليها .
وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعاً ، والمفعول منصوباً .
فالجواب عن ذلك أنا نقول : هذه الأدلة واهية ، لا تثبت على محك الجدال ،
فإن هؤلاء الذين تصدوا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب
المفعول ، من غير دليل أبداً لهم ، فاستخرجوا لذلك أدلةً وعيلاً ، وإلا فمن أين
علم هؤلاء أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ، ونصب المفعول هي التي
ذكروها ؟

الفصل التاسع

في أركان الكتابة

اعلم أن للكتابة شرائط وأركاناً أما شرائطها فكثيرة ، وهذا التأليف موضوع
لمجموعها وللقسم الآخر من الكلام المنظوم .
وليس يلزم الكاتب أن يأتي بالجميع في كتاب واحد ، بل يأتي بكل نوع من
أنواعها في موضعه الذي يليق به ، كما أريناه فيما يأتي من هذا التأليف .
وأما الأركان التي لا بد من إبداعها في كل كتاب بلاغى ذى شأن فخمسة :
الأول : أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة . فإن الكاتب من أجاد
المطلع والمقطع ، أو يكون مبنياً على مقصود الكتاب . ولهذا باب يسمى باب
«المبادئ والافتتاحات»^(١) فليحذ حذوه . وهذا الركن يشترك فيه الكاتب
والشاعر .

الركن الثاني : أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذي
بنى عليه الكتاب : وقد نبهنا على طرف من ذلك في باب ينحصره^(٢) أيضاً ، فليطلب

(١) هو النوع الثانى والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية ، وسيأتى .

(٢) هو باب الاشتقاق وهو النوع السادس والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية .

من هناك. وهو ممّا يدل على حداقة الكاتب وفطانتِهِ. وكثيراً ما نجدُهُ في مكاتباتي التي أنشأتها، فإنّي قصّدتُهُ فيها، وتوخّيته بخلافِ غيري من الكتّاب. لأنّه ربّما يوجدُ في كتابةِ غيري قليلاً، ونجدُهُ في كتابتي كثيراً.

الركنُ الثالثُ: أن يكونَ خروجُ الكاتبِ من معنى إلى معنى برباطة، لتكون رقابُ المعاني آخذةً بعضها ببعض، ولا تكون مُقتَصَبَةً، ولذلك بابٌ مفردٌ أيضاً يسمّى باب «التخلّص والافتضاب»^(٣). وهذا الركنُ أيضاً يشترك فيه الكاتب والشاعر.

الركنُ الرابعُ: أن تكونَ ألفاظُ الكتابِ غيرَ مخلوّلةٍ بكثرة الاستعمال، ولا أريدُ بذلك أن تكونَ ألفاظاً غريبة، فإنّ ذلك عيبٌ فاجِسٌ، بل أريدُ أن تكونَ الألفاظُ المستعملةُ مسبوكةً سبكاً غريباً، يظن السامعُ أنها غيرُ ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس. وهناك مُعْتَرَكُ الفصاحةِ الذي تُظهِرُ فيه الخواطرُ براعتها، والأقلامُ شجاعتها، كما قالَ البُحْتَرِيُّ.

باللفظِ يَقْرَبُ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ عَنَّا وَيَبْعُدُ نَيْلُهُ فِي قُرْبِهِ^(٤).

وهذا الموضعُ بعيدُ المنالِ، كثيرُ الإشكالِ، يحتاجُ إلى لُطْفِ ذوقٍ، وشهامَةِ خاطر، وهو شبيهٌ بالشئِ الذي يقالُ إنه «لا داخلُ العالمِ ولا خارجُ العالمِ» فلفظُهُ هو الذي يستعمل، وليس بالذي يستعملُ، أي أنّ مفرداتِ ألفاظِهِ هي المستعملةُ المألوفةُ، ولكن سبْكُهُ وتركيبُهُ هو الغريبُ العجيبُ.

وإذا سمّوتُ أيّها الكاتبُ إلى هذه الدرجة، واستطعّمتَ طعمَ هذا الكلامِ المشارِ إليه عَلِمْتَ حينئذٍ أنّه كالروحِ السّاكنةِ في بدنك التي قال الله فيها: «قُلِ الرُّوحُ

(٣) في الأصل «التخليص» والتخلص والافتضاب هو النوع الثالث والعشرون من ضروب الصناعة المعنوية.

(٤) ديوان البحري ١٩٩/٢ ورواية الديوان «منا» موضع «عنا» والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن وحب.

مِنْ أَمْرِي^(٥) وليس كلُّ خاطرٍ بَرَّاقٍ إلى هذه الدَّرَجَةِ ، و ذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذو الفضلِ الْعَظِيمِ^(٦) .

ومع هذا فلا نَظَنُّ أنَّها الناظر في كتابي أني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني ، بحيث يُؤْتَى باللفظِ الموصوفِ بصفاتِ الحُسْنِ والمَلَاخَةِ ، ولا يكون تحتَه من المعنى ما يماثلُه ويساويه ، فإنَّه إذا كان كذلك كان كصورةٍ حَسَنَةٍ بدیعةٍ في حُسْنِها ، إلا أنَّ صاحبها بليدٌ أَثْلُهُ والمرادُ أن تكونَ هذه الألفاظُ المشارُ إليها حسماً لمعنى شريفٍ .

على أن تحصيلَ المعاني الشريفةِ على الوجهِ الذي أَشَرْتُ إليه أيسرُ من تحصيلِ الألفاظِ المشارِ إليها .

ويمكني عن البرء - رحمه الله تعالى - أنه قال : ليس أحدٌ في زمانٍ إلا وهو يسألني عن مُشْكلٍ من معاني القرآن ، أو مُشْكِيلٍ من معاني الحديث النبوي ، أو غير ذلك من مشكلات علم العربيَّة ، فأنا إمامُ الناس في زمانٍ هذا ، وإذا عَرَضَتْ لي حاجةٌ إلى بعض إخواني ، وأردتُ أن أكتبَ إليه شيئاً في أمرٍها أَحْجِمُ عن ذلك ، لأنني أرتبُ المعنى في نفسي ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظٍ مَرْضِيَّةٍ ، فلا أستطيعُ ذلك ! ولقد صدَّقَ في قوله هذا ، وأنصفَ غايةَ الإنصافِ .

ولقد رأيتُ كثيراً من الجهَّال الذين همُّ من السُّوقَةِ أربابِ الحَرْفِ والصَّنَائِعِ ، وما منهم إلا مَنْ يَقَعُ له المعنى الشريفُ ، ويظهرُ من خاطره المعنى الدقيقُ ، ولكنه لا يحسنُ أن يُزَاجِجَ^(٧) بين لفظتين فالعبارةُ عن المعاني هي التي تُخَلِّبُ بها العقولُ . وعلى هذا فالناسُ كلُّهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنَّه لا يمنع الجاهلُ الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكونَ ذكياً بالفطرة . واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء ، لا بتعلُّمِ العِلْمِ .

وَبَلَّغْنِي أَنَّ قَوْمًا بِيَهْدَادَ مِنْ رِعَاعِ الْعَامَةِ يَطُوفُونَ بِاللَّيْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى

(٥) سورة الإسراء : آية ٨٥ . (٦) سورة الحديد : آية ٢١ .

(٧) في الأصل « يزوج » وهو تحريف . والمزاوجة من فنون البلاغة .

الحاراتِ وَيَتَادُونَ بالسَّحُورِ ، ويخرجونَ ذلكَ في كلامٍ موزونٍ على هيئةِ الشعرِ ، وإنْ لم يكنْ من بحارِ الشعرِ المنقولةِ عن العربِ ، وممعتُ شيئاً منه فوجدتُ فيه معاني حسنةً مليحةً ، ومعاني غريبةً ، وإنْ لم تكنِ الألفاظُ التي صيغتْ به صبيغةً . وهذا الرُّكنُ أيضاً يشتركُ فيه الكاتبُ والشاعرُ .

الركنُ الخامسُ : أنْ لا يخلوَ الكتابُ من معنى من معاني القرآنِ الكريمِ والأخبارِ النبويَّةِ ، فإنَّها معدنُ الفصاحةِ والبلاغةِ . وإيرادُ ذلكَ على الوجهِ الذي أشرتُ إليه في الفصلِ الذي يلى هذا الفصلَ من حلِّ معاني القرآنِ الكريمِ والأخبارِ النبويَّةِ أحسنُ من إيرادِهِ على وجهِ التَّضمينِ . وتوخى ذلكَ في كلِّ كتابٍ عسيرٍ جداً . وأنا انفرذتُ بذلكَ دونَ غيري من الكتابِ ، فإنِّي استعملتُهُ في كلِّ كتابٍ ، حتَّى إنَّه ليأتيني في الكتابِ الواحدِ في عدَّةِ مواضعٍ منه ، ولقد أنشأتُ تقليداً لبعضِ الملوكِ مما يكتبُ من ديوانِ الخلافةِ ، ثمَّ إنِّي اعتبرتُ ما وَرَدَ فيه من معاني الآياتِ والأخبارِ النبويَّةِ ، فكانَ ما يزيدُ على الخمسينِ ، وهذا لا أتكلَّفُه تكلُّفاً ، وإنما يأتي على حَسَبِ ما يقتضيه الموضعُ الذي يُذكرُ فيه . وقد عرفتُك أيُّها الكاتبُ كيفَ تستعملُ ما تستعملُهُ من ذلكَ في الفصلِ الذي يأتي بعدَ هذا الفصلِ ، فَخُذْهُ من هناكَ . وهذا الرُّكنُ يختصُّ بالكاتبِ دونَ الشَّاعرِ ، لأنَّ الشَّاعرَ لا يلزمُهُ ذلكَ . إذ الشعرُ أكثرُهُ مدائحَ ، وأيضاً فإنَّه لا يتمكَّنُ من صَوغِ معاني القرآنِ والأخبارِ في المنظومِ ، كما يتمكَّنُ منه في المثورِ . ولربَّما أمكنَ ذلكَ في الشيءِ اليسيرِ في بعضِ الأحيانِ . وإذا استكلتَ معرفةَ هذه الأركانِ الخمسةِ ، وأتيتَ بها في كلِّ كتابٍ بلاغياً ذى شأنٍ ، فقد استحققتَ حينئذٍ فضيلةَ التَّقدُّمِ ، وَوَجِبَ لَكَ أن تسمَّى نفسك كاتباً .

الفصل العاشر

في الطريق إلى تعلم الكتابة

هذا الفصل هو أكثر الكتابة ومنبعها ، وما رأيتُ أحداً تكلم فيه بشيءٍ ولما حُببتُ إلى هذه الفضيلة ، وبلغني الله منها ما بلغني وجدتُ الطريقَ ينقسم فيها إلى ثلاثِ شُعَبٍ :

الأولى : أن يتصفحَ الكاتبُ كتابَ المتقدمين ويطلعَ على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحدو حَدَوَهُمْ وهذه أدنى الطبقاتِ عندي .

الثانية : أن يمزجَ كتابَ المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادةٍ حسنةٍ ، وإما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معاني . وهذه هي الطبقةُ الوسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

الثالثة : أن لا يتصفحَ كتابَ المتقدمين ، ولا يطلعَ على شيءٍ منها ، بل يصرفُ همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدو من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلبَ على شعره الإجادةُ في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذُ في الاقتباسِ من هذه الثلاثة ، أعني القرآنَ والأخبارَ النبويةَ والأشعارَ ، فيقومُ ويقعُ ، ويخطئُ ويصيبُ ، ويُفِلُّ ويتهدي ، حتى يستقيمَ على طريقةٍ يفتحُها لنفسه ، وأخلقُ بتلك الطريقُ أن تكونَ مبتدعةً غريبةً ، لا شركةَ لأحدٍ من المتقدمين فيها ، وهذه الطريقُ هي طريقُ الاجتهادِ ، وصاحبها يُعدُّ إماماً في فنِّ الكتابةِ ، كما يعدُّ الشافعيُّ وأبو حنيفةٌ ومالكٌ ، رضي الله تعالى عنهم ، وغيرهم من الأئمةِ المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مُستورةٌ جداً ، ولا يستطيعها إلا مَنْ رَزَقَهُ الله تعالى لساناً هجاًماً ، وخاطرًا رَقَامًا . وقد سَهَلْتُ لك صِغَابَهَا وَذَلَّلْتُ مَحَاجَّهَا . وكنتُ أشعُّ بإظهار ذلك لِمَا عانيتُ من

نَيْلُهُ مِنَ الْعَنَاءِ . فَإِنِ سَلَكَتْ إِلَيْهِ كُلُّ طَرِيقٍ حَتَّى بَلَغَتْهُ آخِرًا . وَإِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةً
لِلْأَشْيَاءِ لِعِزَّةِ حُصُولِهَا . وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلُومًا وَجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْيِغُهُ طِلَابًا حَتَّى يَعْزَّ طِلَابُهُ (٨) .

وَلَقَدْ مَارَسْتُ الْكِتَابَةَ مَهَارَةً كَشَفْتُ لِي عَنْ أَسْرَارِهَا ، وَأَطَقْتُ نَبِيَّ بَكْنُوزِ
جَوَاهِرِهَا . إِذْ لَمْ يَطْفُرْ غَيْرِي بِأَحْجَارِهَا . فَمَا وَجَدْتُ أَعَوْنَ الْأَشْيَاءَ عَلَيْهَا إِلَّا حَلًّا
آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ . وَحَلَّ الْأَيَّاتِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَقَدْ قَصَرْتُ هَذَا الْفَصْلَ عَلَى ذِكْرِ وَجُوهِهَا وَتَقْسِيمِهَا ، وَتَمْهِيدِ الطَّرِيقِ إِلَى
تَعْلِيمِهَا ، فَمَنْ وَقَفَ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ عَلِمَ أَنِّي لَمْ أَتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٩) ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ
نَحْتِ خَوَاطِرِي مِنْ بَنَاتِ الْأَفْكَارِ سَرِيًّا (١٠) ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَعَاظِي
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَالَّذِي يَعْلَمُهَا مِنْهُمْ يَرْضَى بِالْحَوَاشِي وَالْأَطْرَافِ ، وَيَقْنَعُ مِنْ لَآئِهَا
بِعُفُوفَةٍ مَا فِي الْأَصْدَافِ ، وَلَوْ اسْتَخْرَجَ مِنْهَا مَا اسْتَخْرَجْتُ ، وَاسْتَنْتَجَ مَا
اسْتَنْتَجْتُ ، لَهَامَ بِهَا فِي كُلِّ وَادٍ ، وَتَزَوَّدَ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا كُلِّ زَادٍ :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُوا لِعِزَّةِ رُكْعًا وَسُجُودًا (١١)

وَلَا أُرِيدُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ مِنَ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ وَالشَّعْرِ ، بَحِثُ أَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا إِلَّا مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ
أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَأَكْثَرَ مِنْ حِفْظِ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ وَالْأَشْعَارِ ، ثُمَّ
نَقَّبَ عَنْ ذَلِكَ تَقْيِيبَ مُطَّلَعٍ عَلَى مَعَانِيهِ ، مُقْتَبِشٍ عَنْ ذِفَائِنِهِ ، وَقَلْبُهُ ظَهَرًا لِبَطْنِهِ ،
عَرَفَ حَيْثُئِلَهُ مِنْ أَيْنَ تَوَكَّلَ الْكَتِفَ ، فَمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَاسْتَعَانَ بِالْحِفْظِ عَلَى
الْغَرِيزَةِ الطَّبِيعِيَّةِ .

(٨) الْبَيْتُ لِلْبَحْرِيِّ : دِيْوَانُهُ ٦٢/٢ . وَرَوَايَةُ الدِّيْوَانِ

لَيْسَ بِمَجْمُوعٍ وَجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْيِغُهُ هِيَ النَّفَاسَةُ حَتَّى يَعْزَّ طِلَابُهُ

(٩) بَدِيعًا عَجَبِيًّا . وَالْقَرِيقُ الْقَطْعُ كَأَنَّهُ يَقْطَعُ الْعَادَةَ . وَالْعِبَارَةُ تَضْمِينُ قَوْلِهِ تَعَالَى « قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ
شَيْئًا فَرِيًّا » سُورَةُ مَرْيَمَ : آيَةُ ٢٧ .

(١٠) السَّرِيُّ النُّهْرُ الصَّغِيرُ . وَالْعِبَارَةُ تَضْمِينُ قَوْلِهِ تَعَالَى « قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » سُورَةُ مَرْيَمَ : آيَةُ ٢٤ .

(١١) الْبَيْتُ لِكَثِيرٍ . وَرَوَايَةُ الْأَمَلِيِّ (ج ٢ ص ٧٥) :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُوا لِعِزَّةِ خَاشِعِينَ مَجْدُودًا ١٠١

· ألا ترى أن صاحب الاجتهاد من الفقهاء يفتقر إلى معرفة آيات الأحكام وأخبار الأحكام ، وإلى معرفة النسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وإلى معرفة علم العربية ، وإلى معرفة الفرائض والحساب من المعلوم والمجهول ، من أجل مسائل الدور والوصايا وغيرها ، وإلى معرفة إجماع الصحابة ؟ فهذه أدوات الاجتهاد ، فإذا عرفها استخرج بفكرته حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده ؛ كما فعل أبو حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم من أئمة الاجتهاد .

وكذلك يعجز الحكم في الكتاب إذا أحب الترقى إلى درجة الاجتهاد في الكتابة ، فإنه يحتاج إلى أشياء كثيرة ، قد ذكرتها في صدر كتابي هذا ، إلا أن رأسها وعمودها وذروة سننها ثلاثة أشياء ، هي حفظ القرآن الكريم ، والإكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار .

وحيث انتهى بنا القول إلى هذا الموضع ، فأول ما أبدأ به على عقب ذلك أن أقول :

حل الأبيات الشعرية

ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مربية :

أَنْ يَأْخُذَ النَّائِثُ بِيَتًا مِنَ الشَّعْرِ ، فَيَنْثَرَهُ بِلَفْظِهِ ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ . وَهَذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ .
ومثاله كمن أَخَذَ عِقْدًا ، قَدْ أَتَقَرَّنَ نَظْمُهُ ، وَأَحْسِنَ تَأْلِيْفُهُ ، فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ ، وَكَانَ يَقُومُ
عُدْرُهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ ، أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا
فَإِنَّهُ إِذَا نَثَرَ الشَّعْرَ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ السَّرْقَةِ ، فَيَقَالُ : هَذَا شَعْرُ فُلَانٍ بَعَيْنِهِ ،
لِكَوْنِ الْفَاضِلِ بَاقِيَةً ، لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ .

وقد سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ بَعْضُ الْعِرَاقِيِّينَ ، فَجَاءَ مُسْتَهْجِنًا ، وَلَا مُسْتَحْسِنًا ، كَقَوْلِهِ

فِي بَعْضِ أَيْتَاتِ الْحِمَاسَةِ (١) :

وَالَّذِي حَتَّى عَلَى كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ (٢)
أَرْجِيئُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْئُهُ فَوْقَ النَّوَاطِرِ مِنْ عَلِيٍّ (٣)

فَقَالَ فِي نَثْرِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ : « فَكَمْ لَقِيَ أَلَدًا (٤) حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْكُوكَبِ مِنْ
عَلِيٍّ ، وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ ، فَكُوهَا فَوْقَ نَاضِرَتِهِ وَأَكْبَهُ لِفَمِّهِ وَيَدِيهِ » فَلَمْ يَزِدْ
هَذَا النَّائِثُ عَلَى أَنْ أَزَالَ رَوْنَقَ الْوَزْنِ ، وَطَلَاوَةَ النِّظْمِ لَا غَيْرَ .

وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ صَرَبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ مِنَ الشَّعْرِ قَدْ

(١) ديوان الحماسة ٢٣/١ والبيتان لربيعة بن مرقوم الغنوي .

(٢) الألد الشديد الخصومة ، والحق النيط ، والمرجل القدر من نحاس ، يقول : رب خصم تغل العداوة في صدره غليان الرجل مما فيه على النار .

(٣) أرجيته أخرته وصرفته ، قال أبو الفتح بن جني : أكثر من نرى يروى هذا البيت أرجيته بالراء ، فإذا تعال شيئاً رواه أرجياته بالهمز ، وكلاهما تصحيف ، وإنما هو أرجيته بالواو ، أي أذلته وقهرته . يقول : رب خصم صرفته عن نفسي . وقد أبصر رشده وكويته فوق نواظره من أعلاه .

(٤) في الأصل « ذى » .

تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحيثيذ يُعَدَّر ناثره ، إذا أتى بذلك اللفظ ، ومثاله قول الشاعر في أول الحماسة^(٥) :

لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إيلي بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ
وقد نثرتُ ذلك ، فقلتُ : « لستُ ممن تستبِحُ إيلي بَنُو اللَّقِيْطَةِ ، ولا الذي إذا همَّ
بأمر كانت الآمالُ إليه وسيطة ، ولكنني أحمل الهمْلَ ، وأقرب الأمل ، وأقول : سبقَ
السَّيْفُ العَدْلَ^(٦) » : فذكرُ « بني اللَّقِيْطَةِ » هاهنا لأبداً منه على حسب ما ذكره الشاعر .
وكذلك الأمثال السائرة فإنه لا بُدَّ من ذكرها على ما جاءت في الشعر .

وأما القسم الثاني وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة :

فهو^(٧) أن يثُر المعنى المنظوم ، ببعض ألفاظه ، ويعزَم عن البعض بألفاظٍ آخر .
وهناك تظهرُ الصنعة في المائلة والمشابهة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة .
فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعرٍ مجيد ، قد نَقَّحه وصَحَّحه ، فقرَّنه بما لا يُلَامُهُ كان كَمَنْ
جمعَ بينَ لَوْوُؤَةٍ وَحَصَاةٍ ، ولا خفاءَ بما في ذلك من الانتصاب للقدَح ، والاشتهادِ
للطَّعْنِ .

والطريقُ المسلوكُ إلى هذا القسم أن تأخذَ بعضَ بيتٍ من الأبياتِ الشعرية ، هو
أحسنُ ما فيه ثم تماثلهُ . وسأوردُ هَاهُنَا مثالا واحداً ، ليكونَ قُدْوَةً للمتعلم ، فأقول :
قد وَرَدَ هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له :
حَدَاءَ تَمَلُّ كُلُّ أُذُنٍ حِكْمَةً وَبِلَاغَةً وَتَدِيرُ كُلُّ وَرِيدٍ^(٨)

(٥) ديوان الحماسة ١٣/١ والبيت لقريط بن أنيف أحد بني العنبر .

(٦) نثل من أمثال العرب قاله ضبة بن أدلا لامة الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم . انظر جميع الأمثال للميداني ٢٤١/١ .

(٧) في الأصل « وهو » .

(٨) ديوان أبي تمام ٨٥ وهو من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد . ويعتذر إليه وقبله .
غلها مظفة القوافي رهبا لسوايغ النعاه غير كنود

في الأصل « حداء » موضع « حداء » والحداء القارصة أو الطاعة : وتدر : تحلب : والوريد عرق في

العنق .

فَقَوْلُهُ . « تَمَلَّ كُلُّ أُذُنٍ حِكْمَةً » مِنَ الْكَلَامِ الْحَسَنِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي الْبَيْتِ .
فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَرَّ هَذَا الْمَعْنَى فَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِعْمَالِ لَفْظِهِ بَعِينَهُ ، لِأَنَّهُ فِي الْغَايَةِ الْقَصْوَى
مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَعَلَيْكَ حَيْثُذِرَ أَنْ تَوَاضِعَ بِمِثْلِهِ . وَهَذَا عَرِيبٌ جَدًّا ، وَهُوَ عِنْدِي
أَصْعَبُ مَثَلًا مِنْ نَثْرِ الشَّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ ، لِأَنَّهُ مَسْلُكٌ مُضْيِيقٌ ، لِمَا فِيهِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْمَثَلَةِ
مَا هُوَ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْجَوْدَةِ .

وَأَمَّا نَثْرُ الشَّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ ، فَذَلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاقِثُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ ، وَلَا يَكُونُ
مَقِيدًا فِيهِ بِمِثَالِي يُضْطَرُّ إِلَى مُوَاضَاتِهِ .

وَقَدْ نَثَرْتُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَشَارِإِلَيْهَا ، وَأَتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابِ قُلْتُ : « وَكَلَامِي
قَدْ عُرِفَ بَيْنَ النَّاسِ وَاشْتَهَرَ ، وَفَاقَ مَسِيرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَإِذَا عُرِفَ الْكَلَامُ صَارَتْ
الْمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً ، وَأَمِنْ مِنْ سَرَقَتِهِ ، إِذْ لَوْ سَرَقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ الْوَسَامَةُ ، وَمِنْ خِصَائِصِ
صِفَاتِهِ أَنْ يَمْلَأَ كُلُّ أُذُنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلُ فَصَاحَةً كُلَّ لِسَانٍ عَجْمَةً ، وَإِذَا جَرَّتْ بِفَثَاتِهِ فِي
الْأَفْهَامِ قَالَتْ : أَهْلِهِ بَنَتْ فِكْرَةً ؟ أَمْ بَنَتْ كَرَمَةً ؟ »

فَانْظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَإِنِّي لَمَّا أَخَذْتُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ مِنَ الْبَيْتِ
الشَّعْرِيِّ التَزَمْتُ بِأَنْ أَوْضَحِيهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا ، أَوْ أَحْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهَذَا الْفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ ،
وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْعَلَ فِيهَا هَذَا سَبِيلُهُ .

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ وَهُوَ أَعْلَى مِنَ الْقَسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ :

فَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى ، فَيَصَاحَ بِالْفَافِظِ غَيْرِ الْفَافِظِ . وَثُمَّ يَتَبَيَّنُ حَيْثُ الصَّانِعِ فِي
صِيَاقَتِهِ ، وَيُعْلَمُ مَقْدَارُ تَصَرُّفِهِ فِي صِنَاعَتِهِ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ
الدرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، وَإِلَّا أَحْسَنَ التَّصَرُّفِ ، وَاتَّقَنَ التَّأْلِيفِ ؛ لِيَكُونَ أَوَّلَى بِذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ
صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَيْبَاتِ الشَّعْرِ مَا يَتَّسِعُ الْمَجَالَ لِنَاقِثِهِ ، فَيُورَدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ ،
وَذَلِكَ عِنْدِي شَيْبَةٌ بِالْمَسَائِلِ السَّيَالَةِ فِي الْحِسَابِ ، الَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بَعْدَةٌ مِنَ الْأَجُوبَةِ
وَمِنَ الْإِتْيَاطِ مَا يَضِيقُ فِيهِ الْمَجَالُ حَتَّى يَكَادُ الْمَاهِرُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْآيُخْرِجُ عَنْ ذَلِكَ
الْلفْظِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لَعَدَمِ النَّظِيرِ .

فَأَمَّا مَا يَتَّبِعُ الْجَهْلُ فِي نَثَرِهِ فَكَقَوْلُ أَبِي الطَّبَّيْرِ الْمُنْتَهَى :
 لَا تَعْدُلْ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ^(٩)
 وقد نَثَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي : « لَا تَعْدُلْ الْحُبَّ فَيَا يَهْوَاهُ ، حَتَّى تَطْوِي
 الْقَلْبَ عَلَى مَا طَوَاهُ » وَمِنْ ذَلِكَ وَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ : « إِذَا اخْتَلَفَتِ الْعَيْنَانِ فِي النَّظَرِ ،
 فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْهَدْرِ » .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ أَبِي الطَّبَّيْرِ الْمُنْتَهَى أَيْضاً :
 إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدَمُوعِهِ مِثْلَ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ^(١٠)
 أَخَذْتُ هَذَا الْمَعْنَى فَثَرْتُهُ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي : « الْقَتِيلُ بِسَيْفِ الْعَيْنِ ، كَالْقَتِيلِ بِسَيْفِ
 الْمُنُونِ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجَرَّدُ مِنْ غَمْدِهِ ، وَلَا يُقَادُّ صَاحِبَهُ بِعَمَلِهِ » فَرِذْتُ عَلَى الْمَعْنَى
 الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الْبَيْتُ ، وَغَيَّرْتُ اللَّفْظَ . وَمِنْ ذَلِكَ وَجْهٌ آخَرٌ ، وَهُوَ « دَمَعُ الْحُبِّ وَدَمُ
 الْقَتِيلِ مُتَّفَقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالْمِثَالِ ، وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، إِلَّا أَنَّهَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا » وَهَذَا
 أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وَأَمَّا مَا يَضِيقُ فِيهِ الْجَهْلُ ، فَيُعَسَّرُ عَلَى النَّاتِرِ تَبْدِيلُ الْأَفَاضَةِ فَكَقَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :
 تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُتُنْدِسٍ خَضِرُ^(١١)
 وَقَوْلُ أَبِي الطَّبَّيْرِ الْمُنْتَهَى :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُسْشِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ^(١٢)
 وَأَمْثَالُ هَذَا لَا تَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا ، وَسَبَبُهُ أَنَّ الْمَعْنَى يَنْحَصِرُ فِي مَقْصِدٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ حَتَّى
 لَا يَكَادُ يَأْتِي إِلَّا قَلِيلًا كَهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ قَصَدَ الْمَوَاضَاةَ فِي ذِكْرِ لَوْنِي

(٩) ديوان المتنبي ٦/١ وفي الأصل : « لَا تَعْدُلْ » بِالزَّيْ ، وَفِي الْدِيَوَانِ « لَا تَعْدُلْ » بِالذَّالِ وَالرَّاءِ . يَقُولُ :
 لَا تَكُنْ عَازِرًا لِلْمُشْتَقِّ فِي شَوْفِهِ حَتَّى تَجِدَ مَا يَجِدُهُ . وَيَكُونُ قَلْبُكَ فِي قَلْبِهِ ، أَيْ نَحْبُ مِثْلُ مَا يَجِبُ . وَهُوَ مِنْ
 قَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ :

إِذَا شِئْتَ أَلَا تَعْدُلِ الدَّهْرَ عَاشِقًا عَلَى كَمَدٍ مِنْ لَوْحَةِ الْبَيْنِ فَاهْشِقْ
 (١٠) المصدر السابق . وَيُرْوَى « إِنَّ الْمَشُوقَ » جَمَلَ جَرِيَانِ الْمَدَمِ كَجَرِيَانِ الدَّمَاءِ . وَهَذَا لِأَنَّهُ جَمَلَ الْعَاشِقِ
 كَالْقَتِيلِ . تَنْظِيمًا لِلْأَمْرِ .

(١١) ديوان أبي تمام ٣٦٩ . وَيُرْوَى « فَا دَجَى » وَ« مَوْضِعٌ » فَا أَتَى « وَالسُّتُنْدِسُ نَوْعٌ مِنْ رَتِيقِ الدِّيَاغِ مَعْرَبٌ .
 كُنِيَ بِالْأَوَّلِ عَنْ مَوْتِهِ قَتِيلًا . وَبِالثَّانِي عَنْ دَخُولِهِ الْجَنَّةِ . (١٢) ديوان المتنبي ٣/٣٨١ .

التياب من الأحمر والأخضر . وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أرادته من لون ثياب القتلى و ثياب الجنة . فإذا فكَّ نَظَمُ هذا البيت ، وأريدَ صَوْغُهُ بغير لفظه لا يمكن ذلك .

وبيتُ أبى الطَّيِّبِ جازَ هذا المجرى ، فإنه بناه على واقعة من الوقائع . وذلك أن حصناً من حصون سيف الدولة قصده الروم وانتزعوه وأخرُّبوه . فنَهَدَ سيفُ الدولة إليه ، واسترجعهُ . وجدَّدَ بناءه ، وهَزَمَ الرومَ ، ونصبَ من جُشِّ القتلى على السور . فنظَّمَ المتنِّى في هذا قصيداً أوله :

• عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَامُ (١٣) •

فلما انتهى إلى ذكر الحصن جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة الحارثي إزعاج الحصن بالقتال ، وتعليق القتلى عليه . وأبرز ذلك في معنى التثليل بالجنون والهمام ، وهذا لا يمكن تبديل لفظه . وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكِّ نظامه ، لأنه يتصدى لنثره بالفاظه . فإن كان عنده قوَّةٌ تُصَرِّفُ ، وبَسْطَةُ عِبَارَةٍ ، فإنه يأتي به حسناً رائعاً .

وقد نثرت هذين البيتين . أما بيت أبى تمام فإنه قلَّت في نثره : « لم نكسُ المنايا نسجَ شِفَارِها ، حتَّى كسَّتهُ الجنةُ نسجَ شِعَارِها . فبدَّلَ أحمرُ ثوبِهِ بأخضرِهِ ، وكأَسَ حِمَامِهِ بكأيسَ كَوْثُرِهِ » . وهذا من الحُسْنِ على غاية يكون كمد حُسُودِها من جملة شُهُودِها .

وأما بيت أبى الطَّيِّبِ المتنِّى فإنه قلَّت في نثره : « سَرَى إِلَى حِصْنٍ كَذَا مُسْتَعِيداً مِنْهُ سَيِّئَةُ نَزْعِهَا الْعَدُوَّ اخْتِلَاساً ، وَأَخَذَهَا مُخَادَعَةً لَا افْتِرَاساً ، فَمَا نَزَّلَهَا حَتَّى اسْتَقَادَهَا ، وَلَا نَزَّلَهَا حَتَّى اسْتَعَادَهَا . وَكَأَنَّا إِذَا بَهَا جُنُونٌ فَبَعَثَ لَهَا مِنْ عَزَائِمِ عَزَائِمٍ ، وَعَلَّقَ عَلَيْهَا مِنْ رُءُوسِ الْقَتْلِ تَمَائِمَ » . وفي هذا من الحُسْنِ مالا خفاء به ، فمن شاء أن يثُرَ شِعْراً فليثُرْ هكذا ، وإلا فليترك .

(١٣) ديوان المتنِّى ٣٧٨/٣ وصحز البيت • وتأتى على قدر الكرام المكارم •

وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر ، وأبرزته في صورة أخرى . وذلك أني أضفت
إلى هذا البيت الذى قبله ، وهو :

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَاءِ حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ

ولما نثرت هذين البيتين قلت في نثرهما ما أذكره ، وهو « بنَاهَا والأسنة في بنائها
متخاصمة ، وأمواج المنايا فوق أيدى البائين متلاطمة وما أحلت الحرب عنها حتى
زلزلت أقطارها برقص الحياض ، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمايم من الرؤوس
والأجساد ، ولا شك أن الحرب تعد عمن عز جانيه ، وتقول : ألا هكذا فليكسب
المجد كاسبه » وهذا أحسن من الأول . وأتم معنى .

وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه ، ونثرته على أسلوب أحسن من هذا
الأسلوب ، فقلت : « بنَاهَا ودون ذلك البناء شوك الأسل » ، وطوفان المنايا الذى لا
يقال ساوى منه إلى جبل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدمت رؤوس عن أعناق ،
وكانها أصيبت يحنون فعلقت القتلى عليها مكان التمام ، أو شينت بطل فعلقت مكان
الأطواق » وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

وإذا انتهى بنا الكلام إلى هاهنا في التنبيه على نثر الشعر وكيفية نثره ، وذكر
ما يسهل منه وما يصعب ، فلتتبع ذلك بقول كل في هذا الباب ، فنقول :

من أحب أن يكون كاتباً أو كان عنده طبعٌ مُجيبٌ ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات
العدد : ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته : وطريقه أن
يتبدى فيأخذ قصيداً من القصائد ، فينثره بيتاً بيتاً على التوالى . ولا يستكف في
الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك . وإذا مرت نفسه
وتدرب خاطره ، ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من
عنده . ثم يرتفع عن ذلك ، حتى يكسوه ضرباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يحصل
لخاطره بمباشرة المعانى لقاح ، فيستتج منها معانى غير تلك المعانى ، وسيله أن يكثر
الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة ، فإذا كتب
كتاباً ، أو خطب خطبة تدفقت المعانى في أثناء كلامه ، وجاءت ألفاظه معسولة لا

مُعْسُولَةٌ ، وَكَانَ عَلَيْهَا حِدَّةٌ ، حَتَّى تَكَادُ تَرْقُصَ رَقْصًا . وَهَذَا شَيْءٌ خَبِرْتُهُ بِالتَّجَرُّبَةِ .
لَا يُبْنِتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ .

فَإِنْ قِيلَ : الْكَلَامُ قِسْمَانِ : مَنْظُومٌ ، وَمَشْهُورٌ فَلَمْ خَصَّصْتَ عَلَى حِفْظِ الْمَنْظُومِ .
وَجَعَلْتَهُ مَادَّةً لِلْمَشْهُورِ ، وَهَلَا كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ ؟

قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ الْأَشْعَارَ أَكْثَرُ ، وَالْمَعَانِي فِيهَا أَغْزَرُ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ
الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ الْفَصَاحَةِ جُلُّ كَلَامِهِمْ شِعْرٌ ، وَلَا نَجْدُ الْكَلَامَ الْمَشْهُورَ فِي كَلَامِهِمْ إِلَّا
يَسِيرًا ، وَلَوْ كَثُرَ فَإِنَّهُ لَمْ يُثْقَلْ عَنْهُمْ ، بَلِ الْمَنْقُولُ عَنْهُمْ هُوَ الشَّعْرُ . فَأَوْدَعُوا أَشْعَارَهُمْ كُلَّ
الْمَعَانِي كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ^(١٤) » ثُمَّ جَاءَ الطَّرَازُ الْأَوَّلُ
مِنَ الْمُخَضَّرِمِينَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا الشَّعْرُ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ الشَّعْرُ هُوَ
الْأَكْثَرُ . وَالْكَلَامُ الْمَشْهُورُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ قِطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ . وَلِهَذَا صَارَتِ الْمَعَانِي كُلُّهَا مُودَعَةً فِي
الْأَشْعَارِ ، وَحَيْثُ كَانَتْ بِهِذِهِ الصُّورَةُ فَكَانَ حَتَّى عَلَى حِفْظِهَا ، وَاسْتِمَالِهَا مَعَانِيهَا فِي
الْخَطْبِ وَالْمَكَاتِبِ لِهَذَا السَّبَبِ .

وَقَدْ نَثَرْتُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ آيَاتًا تَكُونُ قُدْوَةً لِلْمَتَعَلِّمِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِي فِي فَصْلِ مِنْ
فُصُولِ الْكَلَامِ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ السِّيَادَةِ :

« وَهُوَ الشَّرِيفُ مَنْ شَرَّفَ بِنَفْسِهِ ، لَا بِمَا دُفِنَ مَعَ أَبِيهِ فِي رَمْسِهِ ، فَإِنَّ تِلْكَ مَكَارِمُ
أَنْتَ فَتَجَمَّلُ الزَّمَانُ بِمَاتَاخَا . ثُمَّ مَاتَ أَرْبَابُهَا فَدُفِنَتْ مَعَ مَوْتَاهَا . وَلَوْ سَادَ النَّاسُ
بِآبَائِهِمْ لَكَانَتِ السِّيَادَةُ لِلطَّيْنَةِ الْأُولَى . وَلَقَدْ خَلَقَ الْأَنْبَاءُ مِنَ الْآبَاءِ مَجْبُولًا » . وَهَذَا
الْمَعْنَى مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظَمِ الرَّئِيسِ وَإِنَّمَا فَخَاؤُ الَّذِي يَبْقَى الْفَخَارُ بِنَفْسِهِ

غَيْرَ أَنَّ الْفَصْلَ الَّذِي ذَكَرْتُهُ يَتَضَمَّنُ مِنَ الْمَعْنَى زِيَادَةً عَلَى مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْبَيْتِ .
وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبْتُهُ فِي فَصْلِ مِنْ كِتَابِي يَتَضَمَّنُ مَعَانِيَةً أُخْرَى لِإِخْوَتِهِ ، وَتَصَلُّهُ إِلَيْهِمْ .

فَقُلْتُ :

« جَرَحُوا قَلْبِي ، وَحُبُّهُمْ يَذْهَبُ بِأَلَمِ الْجِرَاحَةِ ، وَطَرَفُوا عَيْنِي وَهُمْ يَزِيدُونَ فِي نَظَرِهَا مَلَاخَةً . وَإِذَا صَدَرَتْ الْإِسَاءَةُ عَنِ الْأَحْبَابِ لَمْ يَكُنْ وَقَرُّهَا وَقَرًّا ، وَأَصْبَحَتْ وَهِيَ مَيْسِيَّةٌ إِذَا تَجَدَّدَتْ الْإِسَاءَةُ بِالذِّكْرِ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ سَيَّطَ دَمِي بِدَمِهِ ، وَبَلَعَمِي بِلَحْمِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْأَسْمَاءَ مَعَارِفَ الْأَشْخَاصِ لَكَانَ اسْمِي وَارِدًا عَلَى اسْمِهِ ، وَكَيْفَ أَخْشَنُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ جَبَلَنِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى اللَّيْنِ ؟ أَمْ كَيْفَ أَذْوَدُ النَّفْسَ عَنْهُمْ وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْهُمْ ، وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ ؟ وَمَتَى أُؤْمَلُ مِنْ شَجَرَتِي أَغْصَانًا كَهَذِهِ الْأَغْصَانِ ، وَقَدْ أَصِيبَتْ جَرَّتُومُهَا بِالْجِدَادِ^(١٥) ؟ وَلِهَذَا قِيلَ إِنَّ الْإِخْوَةَ يَتَعَذَّرُ الْإِعْتِيَاضُ عَنْهُمْ ، وَلَا يَتَعَذَّرُ الْإِعْتِيَاضُ عَنِ الْوُلَادِ » آخِرُ هَذَا الْفَصْلِ مَأْخُودٌ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الرُّومِيِّ ، وَهُوَ قَوْلُهُ^(١٦) :

تَعَزَّيْتُ عَنْ أَمْرَتِكَ حَيَاتَهُ وَوَشَكَ التَّعَزَّى عَنْ ثَمَارِكَ أَجْدَرُ
تَعَذَّرُ أَنْ تَعَاضَ عَنْ أُمّهَاتِنَا وَأَبَائِنَا^(١٧) وَالنَّسْلُ لَا يَتَعَذَّرُ

غَيْرَ أَنَّ ابْنَ الرُّومِيِّ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي تَعَزُّيَةِ إِنْسَانٍ بَابِيهِ ، فَتَصَرَّفْتُ أَنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَنَقَلْتُهُ إِلَى هَذَا الْفَصْلِ فِي تَضَمُّنِهِ مَعَابَةِ أَخٍ لِإِخْوَتِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي فَصْلِ مِنْ كِتَابِ يَتَضَمَّنُ ذِمَّ الْمَشِيبِ ، فَقُلْتُ :

« وَالْعَيْشُ كُلُّ الْعَيْشِ فِي سَيْنِ الْحِدَاثَةِ ، وَمَمَّا يَأْتِي بَعْدَهَا فَلَا يُدْعَى إِلَّا بِسَنِ الْعَتَاثَةِ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ مَصِيبٍ لِلذِّقَّةِ وَلَا مَرِيعٍ . وَهِيَ نَهَايَةُ الْقُوَّةِ الصَّالِحَةِ مِنَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ . فَإِذَا تَجَاوَزَهَا الْمَرْءُ أَشْفَتْ ثَمَارُ عَمْرِهِ عَلَى حَرْصِهَا^(١٨) . وَصَارَتْ زِيَادَتُهُ كَزِيَادَةِ التَّصْغِيرِ الَّتِي هِيَ زِيَادَةٌ تَدُلُّ عَلَى نَقْصِهَا . وَأَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ يُدْعَى أَبًا بَعْدَ أَنْ كَانَ يُدْعَى ابْنًا ، وَتَقَمَّصَ ثَوْبًا مِنَ الْمَشِيبِ لَا يُجَرُّ ثَوْبُهُ خِيَلَاءَ . وَلَا يُزْهَى بِهِ حُسْنًا ، وَإِنْ قِيلَ : إِنْ أَحْسَنَ الثِّيَابَ شَعَارَ الْبَيَاضِ . قِيلَ : إِلَّا هَذَا الثَّوْبَ فَإِنَّهُ مُسْتَنَى . وَيَكْفِيهِ مِنَ الْفُطَاعَةِ أَنْ يَنْظُرَ الْأَحْبَابُ إِلَيْهِ نَظَرَ الْقَتَالِ . وَلَوْلَا أَنَّ الْحَمْدَ بَعْدَهُ

(١٥) الْجِدَادُ الْقَطْعُ .

(١٦) دِيوَانُ ابْنِ الرُّومِيِّ ١٠٤ .

(١٧) فِي الْأَصْلِ « وَأَبَائِنَا » وَهُوَ خَطَأٌ . وَالتَّصْحِيحُ عَنْ الدِّيَوَانِ .

(١٨) الْحَرْصُ حَزْمًا عَلَى النَّخْلِ مِنَ الرُّطْبِ تَمَرًّا .

لما استعير له لفظة الاشتعال . ومن الناس من يُدَلِّس لونه بِصِبْغَةِ الحُضَاب . وليس ذلك إلا حِدَاداً على فَقْدِ الشَّباب . وهو في فعله هذا كاذبٌ . ولا يخفى أَنَّهُ الصَّادِقُ من وَحْشَةِ الكَذَاب . وخَدَعُ النَّفْسَ أَنْ تَسْلُوَ عَنْ بَرِّهِ المَعْطَلَةِ . وقصره المَشِيد . ويحسن لها الخروج في ثوبٍ مرقع . وهى تراه بعينِ الثَّوبِ الجديد . وبعضُ هذا مأخوذ من شعرِ ابنِ الرومي . وهو قوله :

رَأَيْتُ حُضَابَ المَرءِ بعدَ مَشِيهِ حِدَاداً على شَرِّهِ الشَّيْبَةِ يَلْبَسُ ^(١٩)
غير أن في هذا الفصلَ معاني كثيرةً لطيفةً لا توجد في كلامٍ آخر .

ومن ذلك قولُ في وصفِ الجودِ والسخاءِ . وهذا الفصلُ يشتملُ على معاني متعددة . منها قولُ في العطاء . وهو :

شَأَفَهْتَنِي أسبابُ الغِنَى بِرُؤْيَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَنْطِقُ ، وَاخْضَرَّتْ أَكْثَانُ مَنَزَلِي بِعَطَائِهِ حَتَّى كَادَتْ تَوْرِقُ ، ومن فضيلةِ بَرِّه أنه لا يأتي به على أَعْيُنِ الناسِ . وإذا عَرَسَهُ عندُ إنسانٍ رَبٌّ ذَلِكَ الْغِرَاسُ . فلا يستكثرُ ما حادَتْ به سخابُ يده ، ولا يمتنعُه عطاءُ يومه عن عطاءِ غَدِهِ » وبعضُ هذا المعنى مأخوذ من شعرِ أبي نواس :

كَانُوا إِذَا غَرَسُوا سَقَوْا وَإِذَا بَنَوْا لَمْ يَهْلُمُوا لِبَنَائِهِمْ آسَاسًا ^(٢٠)

ومن هذا المعنى أيضاً قولُ : « وَهُوَ أَخَذَ المَكَارِمَ مِنْ سَائِهَا وَأَرْضَهَا . وَقَامَ بِنَفْلِهَا فِي النَّاسِ وَقَرَضَهَا . وَتَحَلَّى بِبَعْضِ أَسْمَاءِ الشُّهُورِ حَتَّى أَصْبَحَ بَعْضُهَا حَاسِداً لِبَعْضِهَا . فَالْحَرَمُ لِلْعَائِدِ بِحَرَمِهِ . وَصَفَرٌ لِلطَّامِعِ فِي سَعَادَةِ قَدَمِهِ . وَرَبِيعٌ لِرَائِدِ نَوَالِهِ . وَرَجَبٌ لِأَقْوَالِ عَدَالِهِ » . وهذا مأخوذٌ من قولِ الفَرَزْدَقِ :

يَذَاكَ بَدْ رَبِيعُ النَّاسِ فِيهَا وَفِي الأُخْرَى الشُّهُورُ مِنَ الْحَرَمِ

وقد قال الشعراءُ في ذلك كثيراً إلا أَنِي أَنَا تَصَرَّفْتُ فِي هَذَا المعنى تَصَرُّفاً لَمْ تَصَرَّفْ فيه أَحَدٌ غَيْرِي .

(١٩) ديوان ابن الرومي ٣٩٧ ورواية الديوان « رأيت حُضَابَ المَرءِ عندَ مشيه » .

(٢٠) ديوان أبي نواس ١٣٠ وهو من أبيات يكي فيها الترامكة . وقد مرَّ بدورهم . فكتبها على حائط منها .

ومن هذا المعنى ما ذكرته في فصل من كتاب وهو :

ولقد سَوَّى بين أعدائه في الْبُغْضِ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِ فهذه مُغْنِيَةٌ بوقع نصايله . وهذِهِ مُعْنِيَةٌ بصنائع نَوَالِهِ . ولو أَحَبَّ الْمَالَ لَكَانَ أَحَبَّهُ إِلَيْهِ مَا يَبْدُلُهُ ، كما أَنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ مَنْ يَسْأَلُهُ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا سَنَّهُ مِنَ الْكِرَمِ أَنَّهُ جَادَ حَتَّى بَدَّلَ رَغَبَ الْعَافِينَ زُهْدًا . وَرَأَى الْحَمْدَ عَوْضًا مِنَ الصَّنِيعَةِ فَأَتَى أَنْ يَتَعَاضَّ مِنْ صَنَائِعِهِ حَمْدًا ، وبعضُ هذا المعنى مأخوذٌ من شِعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ ، وهو :

لَيْتَ أَعْدَائِي كَانُوا لِأَبِي إِسْحَاقَ مَالًا^(٢١)

ومن ذلك قولِي في وصف القتال ومواطن الحرب ، ووصف الشجاعة والإنجاد . وما يتعلق بذلك ، ويجرى معه . وهذا الفصل يشتمل على معانٍ مختلفة . فمن ذلك ما ذكرته في وصف العسكر ، وهو :

« فسرنا في غَمَامَةٍ مِنَ الْكَتَائِبِ تُظَلِّهَا غَمَامَةٌ مِنَ الطُّيُورِ الْأَشَائِبِ^(٢٢) ، فهذه يَضُمُّهَا بَحْرٌ مِنْ حَدِيدٍ ، وهذه يَضُمُّهَا بَرٌّ مِنْ صَعِيدٍ . وما مَرَّتْ بِلَدٍ إِلَّا أَزَالَتْ أَرْضَهُ مِنْ سَائِهِ ، وَأَلْبَسَتْ نَهَارَهُ ثَوْبَ ظَلَمَاتِهِ ، وَبَدَّلَتْ أَحْرَارَهُ بَعِيدِهِ ، وَحَرَائِرَهُ بِإِمَائِهِ . وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ بِمَدِينَةِ فُلَاتَةِ ، وَقَدْ ضَرَبَ الْأَمْنُ عَلَيْهَا أَسْرَارًا ، وَبَعْدَ عَهْدِهَا بِالنَوَائِبِ فَلَمْ تَدْخُلْ لَهَا دِيَارًا ، فَهِيَ تُخْبِرُ عَنْ بُلَهْنِيَةِ الْخَفْضِ ، وَلَمْ تُرْعَ عَنْهُ بِالْإِنْتِقَالِ ، وَلَا رَأَتْ السَّيْفَ وَقَدْ أَلْقَى لَوْنَهُ فِي ذَوَائِبِ الْأَطْفَالِ ، فَمَا شَعَرَ أَهْلُهَا إِلَّا وَقَدْ رَجَمَهَا الْجَيْشُ بِكَاهِلِهِ . وَرَمَاهَا بِوَابِلِهِ قَبْلَ طُلُوعِهِ ، وَطَلَّ السَّحَابُ قَبْلَ وَابِلِهِ ، وَبَرَزَتْ حِيلُ الْقَوْمِ وَلَهَا زِيٌّ فَرَسَانَا ، وَهِيَ مُسْتَبَقَّةٌ إِلَى طَرَادِهَا كَاسْتَبَاقِهَا إِلَى مِيدَانِهَا إِلَّا مِنْ تَقَاوُدِ الْفَنَاءِ مِنْ يَدِهِ بَيْنَ لَهْذَمَيْنِ^(٢٣) ، وَتَسْقِلُ السَّرَجَ مِنْهُ وَمِنْ جَوَادِهِ بَيْنَ مُطْهَمَيْنِ^(٢٤) ، فَجَرَّتِ الْمَغَاوِيرُ

(٢١) ديوان أبي نوّاس ١١٨ وهو من قصيدة بمدح بها إبراهيم بن عبيد الله الحميري.

(٢٢) الأشائب : الأخطا . جمع أشابة يضم الهوزة .

(٢٣) اللهزم على وزن جعفر القاطع من الأسة .

(٢٤) المظهم على وزن معظم السمين الفاحش السمن . والتحفيف الجسم الدقيقه : ضدان . والتام من كل شيء . والبارع الجمال . والمتنصغ الوجه . والدور الوجه المحتشمه .

إلى المغاور . وتلاقت الرياح بالأعاصير . وكان الطعن بينهم عناقاً . واللثب وفقاً .
وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونفذت غير محتضبة لِسِرْعَتِهَا أسنة الرماح ، وحصل
القوم في القبضة ، وذبوا عني النهضة ، وجيء بالأسرى مقرّين في الأصفاد ، موقنين
أنّ رؤسهم عوار على تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه
لأنكره ، ولا يودّ - وهو المعظم - أن يقال : ما أعظمه ! بل يقال : ما أحقره !
تبصرقت أيدي المسلمين في القتل والنهب ، وكان للسيف رقاب ، وللسيب رقاب ،
في هذا الفصل معانٍ كثيرة مستحسنة . ومنها ما أخذ من شعر المتنبي كقوله :
سحاب من العقبان يزحف تحته

سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه^(٢٥)

وكقوله :

واستعار الحديد لونا وألقى لونه في ذوائب الأطفال^(٢٦)

ومن ذلك مذكّره في وصف المسلمين ، في فصل من جملة كتاب يتضمن
البشرى بهزيمة الكفار ، وهو :

« فسلبوا وعاصتهم الدماء عن اللباس ، فهم في صورة عار ، وزئهم زى كاس ،
وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمّر ، غير أنه لم يجب عليهم ولم يزر ، وما ليسوه حتى
لبس الإسلام شعار النصر الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السنان الحارق ، لا
الصنع الحاذق ، ولم يغيب عن لابسِه إلا زئماً غابت البيض في الطلى والهام^(٢٧) ،
وألف الطعن بين ألف الخط واللام » .

وهذه معان حسنة رائعة ، ومنها معنى واحد مأخوذ من شعر البحتري ، وهو :
سلبوا وأشرقت الدماء عليهم
محمرة فكانهم لم يسلبوا^(٢٨)

(٢٥) ديوان المتنبي ٣/٣٣٨ . جعل الطير التي يطير فوق عسكره سحاباً ، وجعل جيشه سحاباً ، لما فيه من
بريق الأسلحة وصبّ الدماء وصوت الأبطال ، وجعل الأسفل يسقى الأعلى إغراباً في الصنعة .

(٢٦) ديوان المتنبي ٣/٢٠٠ .

(٢٧) الطلى بالضم الأعناق أو أصولها : جمع بطل . بضم الطاء ، أو طلاء بضمها أيضاً .

(٢٨) ديوان البحتري ٢/١٨٩ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي صَدْرِ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ فِتْحًا وَهُوَ : « أَصْدِرَ هَذَا الْكِتَابُ .
وَالْفَتْحُ غَضْرُ طَرِيٍّ لَمْ تَنْفَضِلْ حُمْرَةً يَوْمَهُ . وَلَا أَغْمَدْتَ سَيْوْفُ قَوْمِي . فَسُوطُهُ مُتْرَبَةٌ
بِمِثَارٍ عَجَاجِهِ ، مِثْلَةٌ بِخَطِّ ضَرْبِهِ وَإِعْجَامٍ زَجَاجِهِ ^(٢٩)
وهذا المعنى يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ أَبِي تَمَّامٍ ^(٣٠) :

كَتَبْتُ أَوْجُهُهُمْ مَشَقًّا وَنَنْمَةً ضَرْبًا وَطَعْنَا بِقَاتِ الْهَامِ وَالصُّلْفَا ^(٣١)
كِتَابَةً مَا تَنَى مَقْرُوءَةً أَبَدًا وَمَا خَطَطْتَ بِهَا لَامًا وَلَا أَلِفًا
إِلَّا أَنْ أَبَا تَمَّامٍ مِثْلُ آثَارِ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ فِي الْوَجْهِ بِالْكِتَابَةِ ، وَأَنَا مِثْلُ الْكِتَابَةِ
وَإِعْجَامِهِ بِالضَّرْبِ وَالطَّعْنِ ، فَكَانَتِي عَكْسُ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو تَمَّامٍ :
وهذا مَقْصِدٌ فِي حُلِّ الْآيَاتِ الشَّعْرِيَّةِ حَسَنٌ ، فَإِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَعْنَى مِنْ عَكْسِهِ أَدْقُ
مِنْ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقَدْ نُبِّهْتُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ مِنْ هَذَا الْبَابِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي فَصْلِ مِنْ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ فِتْحًا مِنْ فِتْحِ الْكَلَامِ ، وَهُوَ :
« وَأَقْبَلْتُ أَحْزَابُ الْكُفْرِ وَهِيَ مَعْتَصِمَةٌ بِصَلِيلِهَا ، وَرَفَعْتُهُ عَلَى أَعْوَادٍ عَالِيَةٍ كَهَيْئَةِ
خَطِيلِهَا . وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِ الْهَوَانَ بَعْدَ تِلْكَ الْكِرَامَةِ ، وَأَنَّهُ ذُو شَعْبٍ أَرْبَعٍ .
وَالْتَرْبِيعُ نَحْسٌ فِي حُكْمِ النِّجَامَةِ ^(٣٢) ، وَكَيْفَ تَرْجُو بِكُفْرِهَا ظُهُورًا ، وَلَهَا مِنْهُ مَعْنَى
الِاخْتِفَاءِ ، وَلِلْإِسْلَامِ مَعْنَى السَّلَامَةِ ، وَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ اصْطَلَفَتْ بَيْنَ وَشِمَالٍ ،
وَزَحَقَتْ جِبَالٌ إِلَى جِبَالٍ ، وَكَثُرَتِ النُّفُوسُ عَلَى الْمَنَآيَا حَتَّى كَادَتْ لَا تَنْهَى بِالْأَجَالِ ،
وَأَقْدَمَتِ الْحَيْلُ إِقْدَامَ قُرْسَانِهَا ، وَأَظْلَمَ النَّعْصُ فَلَا تَبْصُرُ إِلَّا بِأَذَانِهَا ، وَنَالَتِ النُّحُورُ ثَأْرَهَا
مِنْ كُؤُوبِ الرِّمَاحِ ، وَاشْتَكَّتِ الْأَسْنَةُ فَلَا طَرِيقَ بَيْنَهَا لِمَهَبِّ الرِّيحِ ، وَاسْتَوْصِلَتْ شَجَرَةُ
الْكَافِرِينَ بِالْأَطْعِ لَا بِالْجِدَادِ ، وَحَالَ حُدُّ السَّيْفِ دُونَ حَدِيدِ الْأَصْفَادِ ، وَتَقَلُّوا إِلَى

(٢٩) الزجاجة بكسر الزاء جمع زج بعضها : الحليدة في أسفل الرمح .

(٣٠) ديوان أبي تمام ٧٠٣ .

(٣١) المشق مد الحروف . والصلف جمع صليف . وهو عرض المقي .

(٣٢) أراد بها صناعة التنجيم . قال ابن أبي الحديد : إن لفظة « النجامة » رديئة مستغفلة على أنا لا نعرف
صحتها وجوازها . ولا سمعتها اسماً للتنجيم ولا مصدرًا - انظر الفلك الدائر على الملل السائر ٤٠ .

جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا وَيُسْ الجهاد ، وانقلب المسلمون وقد ملكوا الأغنادَ نصراً ، والصحائفَ
أَجْراً ، والأيدىَ وقراً ، والقلوبَ جدلاً ، والألسنةَ شكراً وكان ذلك اليوم في الأيام
علماً ، وفي الأقسام قسماً ، ولم يره الزمان منسواً إليه إلا رانجَعَ شباباً بعد أن نَاهَزَ
هرماً .

في هذا الفصل شيء من معاني الشعر ، وذلك من قول أبي الطيب المتنبي (٣٣) .
أَتَاهُمْ بِأَوْسَعَ مِنْ أَرْضِهِمْ طَوْلَ السَّيْبِ قِصَارَ الْعُسْبِ (٣٤)
تَغِيبُ السَّوَاهِقُ فِي جَيْشِهِ وَتَبْدُو صِغَارًا إِذَا لَمْ تَغِبْ
وَلَا تَغْبِرُ الرِّيحُ فِي جَوْوِ ذَا لَمْ تَخْطُ الْقَنَا أَوْ تَغِيبْ
ومن قوله أيضاً (٣٥) :

فِي جَحْفَلٍ سَرَّ الْعَيُونُ عِبَارُهُ فَكَانَمَا يُبْصِرْنَ بِالْآذَانِ

ومن ذلك ما ذكرته في الإيجاد وإجابة الصريح ، وهو :

إِذَا اسْتَضْرَخَ أَصْرَخَ بِعَزْمٍ غَذَّتْهُ صُحْبَةُ الْجَيْشِ عَنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ ، فَهُوَ يَسْتَعْدِبُ حَرَّ
الثَّغُورِ عَلَى بَرْدِ الثَّغُورِ ، وَيَلْهُوُ بِالْبَيْضِ الذَّكَورِ عَنْ بَيْضِ الْخُدُورِ ، وَلَا طِيبَ عِنْدَهُ إِلَّا
رِيحُ الْعَجَاجِ ، وَلَا عِنَاقُ إِلَّا أَطْرَافُ الزُّجَاجِ ، وَلَا أَرْبَ لَهُ فِي الرُّقَادِ ، إِلَّا عَلَى
صَهَوَاتِ الْجِيَادِ ، فَعَسَكَرَ قَلْبُهُ أَمْضَى فِي الْوَعَى مِنْ عَسْكَرِ ، وَتَجَدَّدَ بِأَسِيهِ تَأْمِي لِقَاءِ
الْأَقْرَانِ فِي ذِرْعٍ أَوْ مِغْفَرٍ (٣٦) وهذه المعاني مأخوذة من أبيات الحماسة ، ومن شعر مُسْلِمِ
بن الوليد .

(٣٣) ديوان المتنبي ١٠١/١ .

(٣٤) السَّيْبُ : شعر الناصية والعرف والذنب ، والعُصْبُ جمع عَصَب ، وهو منبت الذنب من الجبلد
والعظم ، والعُصْبُ من السَّعَف : فوق الكَرَبِ لم ينبت عليه خوص ، والعُصْبُ : اسم جبل . يريد أن اللمستق
ملك الروم أتاهم بجبل أوسع من الأرض ، واللمستق في الخيل ما ذكر : أن يطول شعر الذنب ، ويقصر
عظمه .

(٣٥) ديوان المتنبي ١٧٦/٤ والجحفل الجيش العظيم ، مأخوذ من جحفل القوم ، أي اجتمعوا .

(٣٦) المنفر على وزن منير : زود من الدرع يلبس تحت القلنسة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح .

ومن ذلك مذكرته في وصف الخبز دون المنظر ، وهو :

وَإِذَا سَمَوْتُ لِأَمْرِ فَكُنْ وَاحِدًا فِي مَكَانِكَ ، وَلَا تَرْضَ بِكَثْرَةِ الشَّرَاءِ فُيْقَالُ : فَلَانُ
مِنْ أَقْرَانِكَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الْجِرْبَاءِ الَّذِي هُوَ دَوْبِيَّةٌ حَقِيرَةُ الشَّانِ ، ضَعِيفَةُ الْأَرْكَانِ . فَإِنَّهُ
ارْتَفَعَ فِي هَوَاهُ عَنِ الْأَرْضِ وَأَنْسَاهَا ، إِلَى السَّمَاءِ وَشَمْسِيهَا ؟ وَقَالَ : لَا أَحِبُّ مَنْ تُفْسِدُ
الْأَيَّامُ مِنْ حُسْنِهِ ، وَلَا مِنْ أَحَدٍ بِسَمَةِ خِلْمِهِ^(٣٧) وَلَا خِدْنِهِ ، وَالْهِمَمُ لَيْسَتْ مُنَوَّطَةٌ
بِجَهَارَةِ الْمَنَاطِرِ ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَى الْخَيْرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الْأَفْتَدَةِ الْبَاطِنَةِ لَا عَلَى الظُّوَاهِرِ ، وَمِنْ
هَاهُنَا حَيْلُ إِنْ وَصَاءَةَ النُّفُوسِ أَنْصَرُ مِنْ وَصَاءَةِ الْأَجْسَادِ ، وَرَقَمَ الشَّيْمُ أَحْسَنَ مَنْ رَقَمَ
الْأَبْرَادِ » وَآخِرُ هَذَا الْفَصْلِ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ سُحَيْمِ عَبْدِ بَنِي الْحَسَّاسِ^(٣٨) :
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَتَفْسِي حَرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنْ أَيْضَ الْخَلْقِ^(٣٩)
إِلَّا أَنْ الْفَصْلَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى غَرِيبًا لَمْ يَسْقِنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ .

ومن ذلك مذكرته في الحسد في فصل من كتاب ، وهو :

« حَاسِدٌ سَيِّدُنَا يَنْظُرُ إِلَى زَهْرَةٍ دُنْيَاهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ ، وَهُوَ كَالنَّاطِرِ إِلَى
الْأَطْوَاقِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْحَبِيدِ ، وَلَا يَذَرِي أَنَّ الْجَبِيدَ أَحْسَنَ مِنْ أَطْوَاقِهِ ، وَلَوْ قَاسَ الدُّنْيَا
بِالْإِسْتِحْقَاقِ لَذَهَبَ الْحَسَدُ مِنْ صَدْرِهِ ، وَقَالَ : مَا لِي أَحْسَدُ مَنْ لَمْ يَنْتَهُ قَدْرُ دُنْيَاهُ إِلَى
مِعْشَارِ قَدْرِهِ ؟ »

ومن ذلك مذكرته في صدر كتاب يتضمن الإعذار عن تواتر المكاتبات ، وهو :

إِذَا اعْتَذَرَ مِنْ انْقِطَاعِ الْكُتُبِ ، اعْتَذَرَ الْخَادِمُ مِنْ اتِّصَالِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ وَارِدَةً عَلَى
غَيْرِ ذَلِكَ الْبَابِ الْكَرِيمِ خَافَ مِنْ إِمْلَاحِهَا ، وَقَدْ عُدَّ احْتِمَالُ تَثْقِيلِهَا مِنْ جُمْلَةِ الْآيَادِي

(٣٧) الخَطْمُ بِالْكَسْرِ الصَّدِيقُ وَالصَّاحِبُ .

(٣٨) سَحْمُ عَبْدِ بَنِي الْحَسَّاسِ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ . وَكَانَ أَسْوَدَ شَدِيدَ السَّوَادِ . وَبَنُو
الْحَسَّاسِ مِنْ بَنِي أَسَدَ بْنِ خَزِيمَةَ ، قَالَ الْمُبَرِّدُ : كَانَ عَبْدُ بَنِي الْحَسَّاسِ يَرْضَخُ لَكِنَّةَ حَبْشَةٍ . وَقَتْلَ سَحْمٍ فِي
خِلَافَةِ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَا قَبِلَ مِنْ تَغْزَلَةٍ فِي امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْحَسَّاسِ .

(٣٩) لَيْبَتٌ فِي خِزَانَةِ الْأَدَبِ ٣٨٣/١ .

التي أثقلت ، وأرادَ أَنْ يَجْزِيَ معها بسوابقِ شُكْرِه فَأَعْجَلَتْهَ وَمَا أَمَهَلَتْهَ . وهو الآنَ مُرْتَهِنٌ
 بينَ قديمٍ وجديدٍ . وأصبحَ كَخَرَائِشٍ إِذْ تَكَاثَرَتْ عليه الظَّبَاءُ فلمْ يَدْرِ لِكَثْرَتِهَا مَا يَصِيدُ .
 فَإِنْ أَمْسَكَ سَيِّدُنَا مِنْ أَيْدِيهِ . وإلاَ فليَتَفَضَّلْ على الشكرِ بِالْأَنْظَارِ . وليعلمْ أَنَّ دُمْعَةً وفاته
 كَلِمَةٍ ديوانِ المَالِ في الإِعْسَارِ .

هذا فصلٌ في هذا المعنى قَلَمًا يُوْتَى بِمِثْلِهِ . وفيه معنى واحد من قول الشاعر :

تَكَاثَرَتْ الظَّبَاءُ عَلَى خَرَائِشٍ فَمَا يَدْرِ خَرَائِشُ مَا يَصِيدُ

ومن ذلك ما ذكرته في اصطلاح مودة . فقلت :

« كُنْتُ عِنْدَهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي آمَنْتُ بِهَا مَا أَجْنِيهِ فَصِرْتُ أَخَافُ مَا لَمْ أَجْنِهِ . وَكَانَ لَا
 يَقْبَلُ عَلَيَّ شَهَادَةَ عَيْنِهِ . فَأَصْبَحَ الْآنَ يَقْبَلُ عَلَيَّ شَهَادَةَ أُذُنِهِ . لَكِنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ
 الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ إِلَّا لِيَذْهَبَ بِهَا كُلُّ وَادٍ . وَمِنْ هَاهُنَا كَانَتْ تَنْتَقِلُ مِنْ
 وَدَادٍ إِلَى قُلَى ، وَمِنْ قُلَى إِلَى وَدَادٍ . وَلَا شَكَّ أَنَّهَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ عُمرًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ كَمَا
 تَنْتَهِي أَعْمَارُ الْأَجْسَادِ . وَالصَّبْرُ خَيْرٌ مَا اسْتَعْمِلَ فِي جَفَاءِ الْإِخْوَانِ . وَالْمَاءُ إِذَا جَرَى فِي
 مَكَانٍ ثُمَّ انْحَرَفَ عَنْهُ فَلَا يَدُّ أَنْ يُوْعَدَ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ . »

وبعض هذا مأخوذٌ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الرُّومِيِّ :

عَهْدْتُكَ لَا تَعْتَدُ بِالْعَيْنِ شَاهِدًا عَلَى قَلَمٍ أَصْبَحَتْ تَعْتَدُ بِالْأُذُنِ (٤٠)

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الملوك على يد بعض العفاة .

وهو :

« الشَّيْمُ الْكَرِيمَةُ لِلْإِنْسَانِ ، بِمَنْزِلَةِ الْمِسْكِ فِي سُرْرِ الْغُرْلَانِ ، غَيْرَ أَنَّ طِيبَ هَذِهِ يَعْبُقُ
 بِالْأَنْوْفِ ، وَطِيبُ هَذِهِ يَعْبُقُ بِالْأَذَانِ ، وَقَدْ جُعِلَ تَفَاوُتُ الْمَرْبَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ الطَّيِّبَيْنِ
 قَرَفًا ، فَأَحَدُهُمَا يَبْقَى دَائِمًا وَلَا يَذْهَبُ ، وَالْآخَرُ يَذْهَبُ وَلَا يَبْقَى . وَنَصِيبُ مَوْلَانَا مِنَ
 الطَّيِّبِ الْبَاقِي نَصِيبُ زَكْتِ مَعَادِنِهِ ، وَكَثُرَتْ خَزَائِنُهُ ، وَسَارَتْ فِي الْأَبْضِ مُحَاسِنُهُ . »

(٤٠) ديوان ابن الرومي ٤٣١ ، وهو من قصيدة قالها مستعطفاً ومستعطفاً أبا الحسن محمد بن أبي سلافة في

مكانته إياه .

وَرَفَعَهُ اللهُ بِهِ إِلَى مَحَلٍّ يَبْعُدُ شَأْؤُهُ عَلَى الطَّالِبِ ، وَلَا يُرَى إِلَّا فِي لِسَانِ خَاطِبٍ ، وَهُوَ مَا اسْتَشْنَى مِنْ خَلْقِي النَّاسِ الَّذِي هُوَ مِنْ طِينٍ لَا زَبَ (٤١) . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَرُونَ أَشْبَاهًا مَاعَدَاةَ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ يُقَرُّ بِفَضْلِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ حُسَادِهِ أَوْ عَدَاةِ ، وَقَدْ أَصْبَحُوا وَهُمْ يَقُولُونَ لَدَيْهِ حِينَ يَكْتُرُونَ ، وَيَقُولُ كُلُّ مِنْهُمْ لِمَالِكِهِ : « أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » (٤٢) .

هذا الفصل وإنْ تَضَمَّنَ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ هَامِنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، بَلْ مِنْهُ شَيْءٌ مَأْخُودٌ مِنَ الشُّعْرِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْمُتَنَبِّئِيِّ (٤٣) :

النَّاسُ مَالِمٌ يَرُونَكَ أَشْبَاهُ وَالذَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي وَصْفِ الْحَمْرِ ، وَهُوَ :

« الْحَمْرُ لَا تَفْهِي لِلذَّةِ إِسْكَارَهَا [إِلَّا] بِتَبْغِيزِ خَمَارِهَا . فَعَبَى خُرْقَاهُ الْبَيَّانَ بِذُبَّةِ اللِّسَانِ . وَتَأْنِيهِهَا بِذَلِكَ أَنَّهَا مِنْ نَاقِصَاتِ الْعُقُولِ وَالْأَذْيَانِ . وَقَدْ عُرِفَ مِنْهَا سِنَّةُ الْجَوْرِ فِي أَحْكَامِهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا اسْتَأْثَرْتُ مِنَ الرُّؤُوسِ بِمِثَالِهَا أَقْدَامِهَا » .

وهذا أحسن من قول الشاعر وأغرب وألطف ، لِأَنَّهُ قَالَ :

ذَكَرْتُ حَقَائِدَهَا الْقَدِيمَةَ إِذْ غَدَتْ وَهَنَا تَدَاسُ بِأَرْجُلِي الْعَصَارِ
لَأَنْتَ لَهُمْ حَتَّى انْتَشَوْا فَتَحَكَّمْتُ فِيهِمْ فَنَادَتْ فِيهِمْ بِاللَّئَارِ

وَكَذَلِكَ قُلْتُ فِي وَصْفِهَا أَيْضاً ، وَهُوَ :

« مُدَامَةً تَبْقَى خَوَاطِرُ الْهُمُومِ ، وَتَسْرَى مَسْرَى الْأَزْوَاجِ فِي الْجُسُومِ ، وَتَشْهَدُ بَأَنَّ الْكَرَمَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ مَاءِ الْكَرُومِ . وَيَتِمَّلُ حَبِيبُهَا نَجُومًا ، إِلَّا أَنَّهَا مُضِلَّةٌ وَالْهُدَايَةُ لِلنُّجُومِ »
وَبَعْضُ هَذَا مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّائِسَ :

(٤١) تفسیر قول الله تعالى « فاستفتحهم أمم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب » سورة الصافات : آية ١١ . واللازب : اللازق .

(٤٢) سورة الطور : آية ١٥ .

(٤٣) ديوان المتنبی ٢٦٣/٤ وهو مطلع قصيدة يمدح بها أبا العثراء . وقد أراد سفيراً .

إِذَا هِيَ حَلَّتْ فِي اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى دَعَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَجِيلٍ^(٤٤)
وما زال الشعراء يتوارثون على هذا المعنى حتى سمَّج ، لكن الذي ذكرته بعد هذا
المعنى من محاسن المعاني في وصفها .

وكذلك ما ذكرته في وصفها . وهو :

« الخمر كالعدراء في نفورها ، وملازمة خدورها ، ولهذا تشمير من نكاح المزاج ،
وتصحب لمس الماء صخب الأبقار لمس الأزواج ، ومن شأنها أن تلبس عند الزفاف
إكليلاً على رأسها . وكذلك شأن العرائس عند زفافها إلى أعراسها . »

وهذه المائلة بين الخمر وبين البكر على هذا النسق لم يأت بها أحد غيري ، وإنما
وُصِفَتْ بأنها بكر ، كقول أبي نواس^(٤٥) :

فَقُلْتُ لَشَيْخٍ مِنْهُمْ مُتَكَلِّمٍ لَهُ دِينَ قَيْسِيٍّ وَفِي نَفْثِهِ كُفْرٌ^(٤٦)
أَعِنْدَكَ بِكَرٍّ مَرَّةُ الطَّعْمِ قَرَقَفٌ صَنِيعَةٌ دِهْقَانٌ تَرَاحَى لَهُ الْعُمُرُ^(٤٧)
فَقَالَ عَرُوسٌ كَانَ كَيْسَرِي رَبِيبَهَا مُعْتَقَةٌ مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسُّرُرُ
وَوُصِفَتْ بِالنَّكَاحِ وَالزَّوْجِ ، كقولهِ أيضاً^(٤٨) :

وَقَهْوَةٌ كَالْعَقِيقِ صَافِيَةٍ يَطِيرُ مِنْ كَأْسِهَا مَا شَرُرُ
زَوْجَتُهَا الْمَاءَ كَيْ تَذِلَّ لَهُ فَاثْمَعَصَتْ حِينَ مَسَهَا الذَّكْرُ

(٤٤) ديوان أبي نواس ٣١٠ ورواية الديوان . إذا ما أنت دون اللهاء من الفتى . واللهاء اللحمه المشرفة على
الحلق . أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم .

(٤٥) ديوان أبي نواس ٧٨٠ .

(٤٦) موضع هذا البيت في الديوان :

حططنا على خيارها جنح ليلة فلاح لنا فجر ولم يطلع الفجر

(٤٧) رواية الديوان . وأبرز بكراً مرة الطعم قرقفاً .

والقرقف : على وزن جسر الخمر يرعد عنها صاحبها ، والدهقان بالكسر والغم القوي على التصرف مع
حدة . والتاجر ، وزعيم فلاحي المعجم ، ورئيس الإقليم ، معرب . والجمع دهاقنة ودهاقين . والاسم الدهقنة .

(٤٨) ديوان أبي نواس ٢٨٩ والبيت الثالث بعد هذين البيتين :

كذلك البكر عند خلوتها يظهر منها الحياء والخصر

ومن ذلك ما ذكرته في الحزم - وهو :

« لا ينبغي للحازم أن يساور المؤبد المؤذن بمضيقيه . وإن أفضى الصائر إلى رجبته . فإن توفي الداء خير من التعرض له مع وجود طبيبه . ولتأخ قول من يقعد على نل السلاية . ثم يلبس الكاتب بالكاتب ويقول ليس للجزم إلا تمام الصدور . وليس له تمام العواقب » .

بعض هذا مأخوذ من شعر أبي تمام^(٤٩) :

وَرَكِبَ كَاطْرَافِ الْأُسَّةِ عَرْمُوا عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَابَهُ
لَأْمُرٍ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهُ

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الرأى والكيد وهو :

« أُنخني على العدو كيده حتى لم يدع كائداً . وأعمى عليه سلوك الطريق حتى ظنه حائداً . فسبوه تسطو على بَعْدِهَا ، ولا تقطع إلا وهي في غمدها » .

وبعض هذا المعنى أخذته من شعر أبي تمام . وهو^(٥٠) :

سَكَنَ الْكَيْدُ فِيهِمْ إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ سَمِ كَيْدٍ أَلَّا تُسَمَّى أَرِيئاً

وكذلك قوى في هذا المعنى وهو :

« أَخَذَ بِسَمْعِ الْعَدُوِّ وَبَصَرِهِ ، وَسَدَّ مَطْلَعَ وَرَدِهِ وَصَدْرِهِ ، فِيدَاهُ مَقُولَةٌ مَعَ أَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ السَّرَاحِ ، وَمَقَاتِلُهُ بَادِيَةٌ عَلَى أَنَّهَا شَاكِيَةُ السَّلَاحِ » .
وهذا المعنى ينظر إلى المعنى الذي قبله » .

(٤٩) ديوان أبي تمام ٤٤ من قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، ومطلعها :

أَهْنُ حِرَادِي يَوْسُفَ وَصَوَابِهِ فَعِزْماً فَقَدْماً أَدْرَكَ السُّؤْلَ صَاحِبِهِ

(٥٠) ديوان أبي تمام ٢٧ . ورواية الديوان « إن من أعظم إرب » والإرب الحاجة أو الدهاء والأريب :

العاقل . والبيت من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري . وأولها :

مِنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلَا تَبَيَّنَا فَصُوبَ مِنْ مَقْلَى أَنْ تَصُوبَا

وكذلك قولى أيضاً - وهو :

« نَبَيْتُ بِرَأْيِهِ الْعَدُوَّ قَبْلَ جَيْشِهِ وَتَلَقَّاهُ بِطَيْشِ قَلَمِهِ . الَّذِي كُلُّ الْجَلَمِ فِي طَيْشِهِ . فَإِذَا أَطْلَلْتُ وَجْهَهُ الْآرَاءُ كَانَ رَأْيُهُ لَهَا صَبَاحًا . وَإِذَا جُهِزَتِ الْجَحَافِلُ لِلْحَرْبِ كَانَ قَلَمُهُ لَهَا سَلَاخًا » .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعر البُحْتَرِيِّ :

وَهُوَ الْمَرْءُ مَا غَزَا بِلَدًا بِالرَّأْيِ إِلَّا كَفَاهُ غَزَا الْجُنُودِ (٥١)

ومن ذلك ما ذكرته فى وصف السير والركاب والحيل والقفار وما يتعلق بها فإنه ما يتعلق بالسير وهو :

رَكِبَ ظَهَرَ اللَّيْلِ يُبَارِي مَسِيرَ شَهْبِهِ بِمَسِيرِ أَشْهَبِهِ . وَيَسْتَقْرِبُ بَعْدَ أَلَمَدَى فِي نَيْلِ مَطْلَبِهِ . غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ تَقَرَّى أَدِيمَ الْغِيَاهِبِ . وَهَذَا يَقَرَّى أَدِيمَ السَّبَاسِبِ (٥٢) .

وهذا مأخوذ من قول المتننى :

يُبَارِي نُجُومَ الْقَذْفِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ نُجُومٌ لَهُ مِنْهُمْ وَرَدٌ وَأَذْهَمُ (٥٣)

ومن هذا المعنى أيضا قولى وهو :

« اتَّخَذَ اللَّيْلَ ظَهْرًا . وَاسْتَلَانَ خُشُونَةَ الْمَسْرَى . فَلَمْ يَزَلْ يَقْدِفُ صَبْغَةَ سَوَادِهِ بِصَبْغَةِ جَوَادِهِ . حَتَّى بَدَتْ فِي أَدِيمِ اللَّيْلِ شِيَاكُ صَبَاحِهِ . وَشَابَةَ الْأَذْهَمُ فِي غُرْتِهِ وَأَوْضَاحِهِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ أَحَدُهُمَا فِي رَحِيلِهِ ، وَأَخَذَ الْآخَرُ فِي نَزْوِهِ » .

وهذا المعنى ينظر إلى الذى قبله ، وفيه من شرف الصُّنْعَةِ مالا خفاء به .

(٥١) هو مثل قوله :

ففى من عزم رأيه فى جنود قمن من حولها مقام الجنود

(٥٢) السباب : جمع سبب . وهو المفازة . أو الأرض المستوية البعيدة .

(٥٣) ديوان المتننى ٣/٣٠٢ . ورواية الديوان « تبارى » بالهاء . ونجوم القذف : هى التى تقذف بها

الشياطين . قال الله تعالى « ويقذفون من كل جانب دحورا » . والورد : القوس الأحمر .

ومن ذلك ما ذكرته أيضا في فصل من كتاب وهو :

« سِرْتُ وَتَحْتِي بَنْتٌ قَفْرَةٌ لَا يَذْهَبُ السُّرَى بِجِمَاحِهَا ، وَلَا تَسْتَرِيدُ الْحَادِيَّ مِنْ
بِرَاجِهَا . فِيهَا طُمُوحٌ بِأَنْثَاءِ الزَّمَامِ ، وَإِذَا سَارَتْ بَيْنَ الْآكَامِ قِيلَ هَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ
الْآكَامِ . وَلَمْ تُسَمَّ « جَسْرَةٌ »^(٥٦) ، إِلَّا لِأَنَّهَا تَقْطَعُ عَرْضَ الْفَلَاةِ كَمَا يَقْطَعُ الْجَسْرُ عَرْضَ
الْمَاءِ . وَلَا سُمِّيَتْ « حَرَقًا »^(٥٧) ، إِلَّا لِأَنَّهَا جَاءَتْ لِمَعْنَى فِي الْعَزَائِمِ لَا لِمَعْنَى فِي الْأَفْعَالِ
وَالْأَنْثَاءِ . وَخَلَفَهَا جَنِيبٌ مِنَ الْخَيْلِ يُقْبِلُ بِجَذَعٍ وَيُذْبِرُ بِصَخْرَةٍ . وَيَنْظُرُ مِنْ عَيْنِ
جَحْظَةٍ . وَيَسْمَعُ بِأَذْنِ حَشْرَةٍ . وَيَجْرِي مَعَ الرِّيحِ الزُّعْرَعِ ، فَيَذَرُهَا وَقَدْ ظَهَرَ فِيهَا أَثَرُ
الْقَتْرِقِ . وَمَا قَبْدٌ خَلَفَهَا إِلَّا وَهُوَ يَهْتَدِي بِهَا فِي الْمَسَالِكِ الْمُضِلَّةِ ، وَيَطَّأُ عَلَى أَثَرِهَا ، فَيَرْقُمُ
وُجُوهَ الْبُدُورِ بِأَشْكَالِ الْأَهْلَةِ ، هَذَا وَاللَّيْلُ قَدْ أَلْقَى جِرَانَهُ »^(٥٨) فَلَمْ يَبْرَحْ ، وَالْكَوَاكِبُ
قَدْ كَسَدَتْ فِيهِ فَلَمْ تَسْبَحْ . وَأَنَا أَوْدُ لَوْ زَادَ طَوْلُهُ ، وَلَمْ تَظْهَرْ غَرَّةُ أَذْهِمِهِ وَلَا حَجُّوْلُهُ ، فَقَدْ
قِيلَ إِنَّهُ أَذْنَى لِلْبُعْدِ وَأَكْثَمُ لِلْأَسْرَارِ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ النَّبِيُّ بِأَنَّ الْأَرْضَ تَطْوِي فِيهِ مَا لَا
تَطْوِي فِي النَّهَارِ . وَمَا زِلْتُ أَسِيرُ بِرِيدِهَا تَتَوَّءُ بِهِ حَتَّى كَادَ يَنْضُولُونُ السَّوَادَ ، وَظَهَرَ لَوْنُ
السَّرْحَانِ ، فَأَغَارَ عَلَى سَرَحِ السَّيِّءِ كَمَا يَغْيِرُ السَّرْحَانُ عَلَى سَرَحِ النَّقَادِ »^(٥٩) ، فِعِنْدَ ذَلِكَ
نَهَلَتْ الْعَيْنُ مِنَ الْكَرَى نَهْلَةَ الطَّائِرِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْمُطْمَئِنَّةِ ، وَإِنَّمَا
كَانَ عَلَى الظَّهْرِ السَّائِرِ .

في هذا الفصل كلُّ ملبحةٍ من المعاني ، ولو لم يكن في هذا الكتاب سواه ، لكان
كافيا ، وبعضه مأخوذ من الشعر . كقول أبي تمام :

طُمُوحٌ بِأَنْثَاءِ الزَّمَامِ كَأَنَّمَا يَخَالُ بِهَا مِنْ عَدُوِّهَا طَيْفَ جَنَّةٍ^(٥٨)
وكقوله :

بِالشُّذُوقِيَّاتِ الْعَتَاقِ كَأَنَّمَا أَشْبَاحُهَا بَيْنَ الْإِكَامِ إِكَامٍ^(٥٩)

(٥٤) الجسرة : العظيم من الإبل . (٥٥) الحرف : الناقة العظيمة .

(٥٦) جران البعير : مقدم عقه من مذبحه إلى منحره .

(٥٧) النقاد جمع نقد جنس من الغنم فيح الشكل .

(٥٨) ديوان أبي تمام ٦٠ والناقة الطموح التي ترفع يديها في السير .

(٥٩) ديوان أبي تمام ٢٨ . والشذقيات يراد بها التوق الكرام . والإكام التلال .

ومن ذلك ما ذكرته في النسب في فصل من كتاب وهو :

« لَمْ نَسَبْ لَّا تَدْخُلُهُ لَأُمُّ التَّعْرِيفِ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ لَا يَجْرِي عَلَى سَنَنِ التَّوْقِيفِ ، فَإِذَا ذُكِرَ أَوَّلُهُ وَقَفَتْ مِنْ عِرْفَانِهِ عَلَى طَلَلٍ ، وَوَجَدَتْهُ مُهْمَلًا فِي جُمْلَةِ الْهَمَلِ ، وَإِلَّا قِيلَ : إِنَّهُ مِنْ نَجْمِ السَّمَاءِ ، قُلْتُ . لَكُنْهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الثُّورِ أَوْ الْحَمَلِ ، فَا أَرِهَفَ لَوْصِفِهِ لِسَانٌ إِلَّا نَبَا ، وَلَا اقْتَدَحَ لَهُ زِنَادٌ خَاطِرُ إِلَّا كَبَا ، وَهُمْ مِنْهُ كَأَوَى الَّذِي يَرَى النَّاسَ لَهُ ابْنًا ، وَلَا يَرُونَ لِابْنِهِ أَبَا » .

وهذا مِنْ « غَرْبِ مَا يُؤْتَى بِهِ فِي ذِمِّ النَّسَبِ » ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَوَلِيدِ الْمَعَانِي الَّذِي يُسَمَّى الْكَيْمِيَاءَ ، وَبَعْضُهُ مُسْتَوَلِدٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ فِي هِجَاةِ الْخَصِيبِ ^(٦٠) :

وَمَا خِيَزَهُ إِلَّا كَأَوَى يَرَى ابْنَهُ وَلَمْ يَرَأَوَى فِي حَزُونٍ وَلَا سَهْلٍ ^(٦١)
فَأَبُو نَوَاسٍ ذِمٌّ خَيْرٌ ^(٦٢) الْخَصِيبِ فِي عَدَمِ رُؤْيَيْهِ ، وَلَمَّا نَقَلْتُ ذَلِكَ إِلَى النَّسَبِ ، فَجَاءَ الطُّغْفَى وَأَحْسَنَ وَالْيَقِي ، وَأَدْخَلَ فِي بَابِ الصَّنْعَةِ . وَإِذَا حَقَّقَ النَّظْرَ فِيهَا ذَكَرَهُ أَبُو نَوَاسٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَوْجِدْ مَنَاسِبًا ، فَإِنَّ الْخِيَزَ ^(٦٣) فِي عَدَمِ رُؤْيَيْهِ لَا يُحْمَلُ عَلَى ابْنِ آوَى . وَإِنَّمَا الْمَنَاسِبَةُ تَقَعُ فِي النَّسَبِ مِنْ أَجْلِ ذِكْرِ الْإِبْنِ وَالْأَبِ .
ومن ذلك ما ذكرته في ذِمِّ قَوْمٍ وَهُوَ فَصْلٌ مِنْ كِتَابِ قُلْتُ :

« تَرَكْتُ قَوْمًا لَمْ يَنْقَعُوا صَدَى ، وَلَمْ يَجْرُوا إِلَى مَدَى ، فَأَعْرَضَهُمْ نَكْرَةُ الْعَارِفِ ، وَأَمَوَالُهُمْ حَنْظَلَةُ النَّاقِفِ ، وَلَا تُمَطِّرُ سَحْبُهُمْ عَلَى كَثْرَةِ مَاثِمَا ، وَلَا تَرَكُوا الزَّرْبَعَةَ بَارِضِهِمْ عَلَى نَمَاتِهَا » .

وبعض هذا المعنى مأخوذٌ مِنْ شِعْرِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ ^(٦٤) .

(٦٠) هكذا روى ابن الأثير . والذي في ديوان أبي نواس (ص ١٧١) أن هذا الشعر هجاءه إسماعيل بن أبي سهل بن نويث . وقيل هذا البيت :

على خبز إسماعيل وافية البخل فقد حل في دار الأمان من الأكل
وبعده :

وما خيزه إلا كسقاء مغرب تصور في بسط الملوك وفي المثل
(٦١) في الأصل « وما خيره » بالراء . وهو تصحيف .

(٦٢) في الأصل « خير » بالراء . وهو تصحيف .

(٦٣) هو أبو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي الموسوي . تقيب أشراف بغداد . وأشعر بني هاشم .

توفي سنة ٤٠٦ هـ عن خمس وأربعين سنة .

تَرَكْتُ أَنَاثًا لَمْ يَبْتَثُوا لَبَنَةً وَلَمْ يَنْقَعُوا غُلَّ الظَّاهِرِ الْخَوَامِيسِ
عَلَى الْقُرْبِ فِيهِمْ إِنِّي غَيْرُ طَامِعٍ وَمِنْكَ عَلَى بُعْدِ الْمَدَى غَيْرُ آتِيسِ

ومن هذا الباب أيضا قول وهو :

« تَرَكْتُ قَوْمًا يَسْلُونَ الْحَبِيبَ ، وَيَمْلُونَ الْقَرِيبَ ، وَلَا يَرْعَوْنَ مَنْ يَرْعَاهُمْ ، وَلَا يَدِرُّ
اللَّبَنُ عَلَى مَرْعَاهُمْ ، فَتَوَالَهُمْ تَحَايَا ، وَأَعْرَاضُهُمْ ضَحَايَا ، وَمِنْ أَحْسَنِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ
يَعَاقِبُونَ عَلَى الظَّنَّةِ ، وَلَا يَرْتَاخُونَ لِنَعْتِ ، فَالذَّرَائِعُ لَدَيْهِمْ مَذْفُونَةٌ ، وَالصَّنَائِعُ غَيْرُ
مُسْتَوْنَةٍ » .

وبعض هذه المعاني مأخوذ من شعر أبي الطيب المتنبي ^(٦٤) :

رَأَيْتَكُمْ لَا يَصُونَ الْعِرْضَ جَارِكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ
جَزَاءَ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَكٌ وَحَظُّ كُلِّ مُجِيبٍ مِنْكُمْ صَغْنٌ

ومن ذلك ما ذكرته في الحث على الاغتراب وهو :

« لَوْلَا التَّغَرُّبُ لَمَا ارْتَفَعَتْ بَنَاتُ الْأَصْدَافِ إِلَى شَرَفِ الْأَعْنَاقِ ، وَلَا ارْتَفَعَى تَرَابُ
الْأَحْجَارِ إِلَى نُورِ الْأَحْدَاقِ » .

وكذلك قول في هذا المعنى وهو :

« فِي الْإِنْتِقَالِ تَنْوِيَةٌ لِحَامِلِ الْأَقْدَارِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يُكْسَ الْهَلَالُ حَلَّةُ الْأَبْدَارِ .
وَالْمَبْدَلُ الرُّطْبُ حَطَبٌ فِي أَوْطَانِهِ ، وَالْمِسْكُ دَمٌ فِي سُرَرِ غَزْلَانِهِ ، وَلَوْلَا فِرَاقُ السَّهْمِ
وَتَرَهُ لَمْ يَحْظُ بِفَضْلِ الْإِصَابَةِ ، وَلَوْلَا فِرَاقُ الْوَشِيحِ ^(٦٥) مَنِيَّتُهُ لَمْ يَتَحَلَّ بِعِزِّ اللِّسَانِ وَلَا
شَرَفِ الدُّوَابَةِ » .

وهذا الفصل فصل من القول في معناه ، ومما لم يُبَيِّنْ للمخاطب ابتداءً مَبْنَاهُ ، فنه
ما هو مأخوذ من الشعر ، ومنه ما سَنَحَ به الخاطر على غير مثال ، وهو يشهد لنفسه .

(٦٤) ديوان المتنبي ٢٣٦/٤ من قصيدته التي مطلعها :

بِمِ الْحَالِ ؟ لَا أَهْلَ وَلَا وَطَنٍ وَلَا نَدِيمٍ وَلَا كَأْسَ وَلَا سَكَنٍ

(٦٥) الوشيع : شجر الرماح .

ومن ذلك مذكرته في وصف الأيام وهو :

« أيام تعدُّ بأعوامٍ لِقَصْرِ أَعْمَارِها ، وشُهُورٌ لا يَشْعُرُ بِانْتِصَافِها ولَأَسْرَارِها^(٦٦)
فالْأَوَاقَاتُ بها أَصَابِلُ ، والحَاسِنُ فيها شَمَائِلُ ، والمَّارِبُ في سَاعَاتِها رِياضٌ في خِثَالِ ، فَا
أَذْرِي أَهْيَ خِيَالَاتُ أَحْلَامٍ غَرَّتْ ، أَمْ أَحَادِيثُ أَمَانٍ مَرَّتْ ؟ »

وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة^(٦٧) :

شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وما شَعَرْنَا بِانْتِصَافٍ لَهنَّ ولا سِرَارِ

ومن ذلك مذكرته في وصف الإخوان وهو :

« لَيْسَ الصَّدِيقُ من عَدَّ سَقَطَاتِ قَرِينِهِ ، وَجَازَاهُ بَعَثَهُ وَسَمِينِهِ ، بَلِ الصَّدِيقُ من
مَاشَى أَخَاهُ على عَرَجِهِ ، وَاسْتَقَامَ لَهُ على عَوَجِهِ ، فَذلِكَ الَّذِي إِنْ رَأَى سَيِّئَةً وَطِثَها
بِالْقَدَمِ ، وَإِنْ رَأَى حَسَنَةً رَفَعَهَا على عَلمٍ » .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من أبيات الحماسة^(٦٨) .

إِنْ يَسْمَعُوا رِييَةً طَأَرُوا بها فَرَحاً عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
إِلَّا أَنَّ الَّذِي ذَكَرْتَهُ ضِدُّ هَذَا الْمَعْنَى ، وَقَدْ يُسْتَخْرَجُ الْمَعْنَى مِنْ ضِدِّهِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ
مِمَّا يَسْتَخْرَجُ مِنْ نَفْسِهِ .

ومن هذا قولى أيضا وهو :

« لَيْسَ الصَّدِيقُ من صَرَّى^(٦٩) أَخْلَافَ وُدِّهِ ، وَعَشَّ في صَفَقَةِ عَهْدِهِ ، بَلِ
الصَّدِيقُ مَنْ لَا تُرَدُّ سِلْعُهُ وَدَّهُ بِاقَالَةٍ وَلَا عَيْبٍ . وَلَا تُخْصَفُ مَحَافِظُهُ إِخَائِهِ بِشَهَادَةِ دُونِ
غَيْبٍ ، فَذلِكَ أَخِي مِنْ غَيْرِ نَسَبٍ وَكَثْرَى مِنْ غَيْرِ نَسَبٍ^(٧٠) »

(٦٦) السرار من الشهر آخر ليلة منه .

(٦٧) ديوان الحماسة ٦٦/٢ .

(٦٨) ديوان الحماسة ١٧٩/٢ ونسبه لقضب بن أم صاحب . وهو شاعر إسلامي كان في أيام الوليد بن
عبد الملك .

(٦٩) صرى الشاة نصرية إذا لم يحلبها أياماً . حتى يجتمع اللبن في ضرعها . والشاة مصراة .

(٧٠) النشب بفتحين المال والمغار .

وهذا مأخوذ من الفقه في تَصْرِيفِ صَرْعِ الشَّاعِ عند البيع . وذلك يُوجِبُ الرَّد .

ومما ينتظم بهذا السلك قول وهو :

« الانتقال عن خِلَّةِ الوَاد كالانتقال عن نَسَبِ المِلَاد . وكما يَحْرُمُ هذا في نَسْرِ الحَكْمِ المَشْرُوع . فكذا يَحْرُمُ هذا في خُلُقِ الكَرَمِ المَطْبُوع . على أَنَّ نَسَبَ الخِلَّةِ الذي يَنْمِيهِ القلبُ إِلَى القلبِ . أَوْصَلَ من نَسَبِ الرَّحِمِ الَّذِي يَنْمِيهِ الابْنُ إِلَى الأب . ولهذا كانت مودة سَلَمَانَ^(٧١) قُرْبَى . وَنَسَبُ أَبِي لَهَبٍ سَبًّا وَكِبًّا .

وبعض هذا مأخوذ من شعر أبي نَوَاسٍ . وهو :

كانت مودة سَلَمَانَ لَهُ نَسَبًا ولم يَكُنْ بَيْنَ نُوْحٍ وَابْنِهِ رَحِمٌ ؟

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الديار وهو :

« دَارٌ كانت مَقَاصِرَ جَنَّةٍ . فأصبحتْ وهى ملاعبُ جَنَّةٍ . وَلَقَدْ عَمِيَّتْ أَخْبَارُ قُطَّانِهَا . وَأَنْشَارُ أَوطَانِهَا . حتى شابهتْ إِحْدَاهُمَا في الخِفَاءِ الأُخْرَى في العَفَاءِ . وَكنتُ أَظُنُّ أَنهَا لَا تُسْقَى بعدَهُمْ بِغَمٍّ ، وَلَا يُرْفَعُ عنها جِلْبَابُ ظَلَامٍ ، غَيْرَ أَنَّ السَّحَابَ بِكَاهُمُ فَجَرَتْ بها سَوَافِعُ دُمُوعِهِ . وَاللَّيْلُ شَقَّ عَلَيْهِمْ ثَوْبَهُ ، فَظَهَرَ الصَّبَاحُ من خِلَالِ صُدُوعِهِ . »

وهذه معانٍ لطيفةٌ جدا ، وبعضُها مأخوذ من شعرِ الشَّريفِ الرُّضِيِّ ، رحمه الله

تعالى :

أَمْرَائِعَ الْغَزْلَانِ غَيْرِكَ الْبَلَى حَتَّى غَدَوْتَ مَرَاتِعَ الْغَزْلَانِ

ومما يلتمس بهذا المعنى قولُ أبيها ، وهو :

« دَارٌ أَصْبَحَتْ مَرَاتِعَ أَذْوَادٍ ، بعدَ أَنْ كانتْ مَنَاجِعَ رَوَادٍ ، فَلَوْ تَصَوَّرْتَ الآمَالَ التي مَثَلَتْ بِفَيْئَاتِهَا ، كما تَصَوَّرْتَ الآثارَ الماثِلَةَ من بَنَائِهَا ، لرَأَيْتَ رُسُومَهَا مَعَ رُسُومِ القَبَابِ ، وَعِلِمْتَ كَمْ غَارَ بها من بَحْرٍ ، وَنَضَبَ من سَحَابٍ . »

(٧١) يقصد سلمان الفارسي .

وهذا معنى حسنٌ ، له من نفسه مُثْنٍ وَحَامِدٌ ، وَمِنْ سَامِعِهِ يَمِينٌ وَشَاهِدٌ ، وَهُوَ مِنْ
مَعَانِي الْمُسْتَخْرَجَةِ .

ومن ذلك قولى أيضا . وهو :

« النقصُ مُوَكَّلٌ بِكَمَالِ النَّجَاءِ . وَلِذَلِكَ كَانَ الْوَحْمُ مَقْتَرِنًا بِالْمَرْعَى وَالْمَاءِ . وَقَلْبًا
تَرَى ثَمْرَةَ إِلَّا وَمَعَهَا زُنْبُورٌ . وَلَا لَذَّةٌ إِلَّا وَآلِي جَانِبِهَا شَيْءٌ مُحْدُورٌ » .

وكذلك قولى أيضا . وهو :

« لَا يَظْفَرُ الرَّجُلُ بِعَطَالِهِ شَفْعًا . وَلَا يُؤْتِيهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ نَفْعًا . بَلْ يَرَى مَرْعَى بِلَا
مَاءٍ وَمَاءٌ بِلَا مَرْعَى ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ النُّحْلَةُ مَعَ الشَّهْدَةِ . وَالشُّوْكَةُ مَعَ الْوَرْدَةِ » .

وبعضُ هذه المعاني مأخوذٌ من قول أبى تمام :

أَرْضٌ بِهَا عُشْبٌ زَالِكٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَأُخْرَى بِهَا مَاءٌ وَلَا عُشْبٌ (٧٢)

إِلَّا أَنَّ فِي الْكَلَامِ الْمُتَوَصِّلِ لِهَذَا الْفَنِّ أَنَّ يَأْخُذَ الْمَعْنَى مِنَ الشَّعْرِ . وَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا بَعِيدًا .

وَمِنْ سَبِيلِ الْمُتَصَدِّقِ لِهَذَا الْفَنِّ أَنَّ يَأْخُذَ الْمَعْنَى مِنَ الشَّعْرِ . فَيَجْعَلُهُ مِثْلَ الْإِكْسِيرِ فِي

صِنَاعَةِ الْكِيمِيَاءِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْهُ أَلْوَانًا مُخْتَلِفَةً مِنْ جَوْهَرٍ وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ . كَمَا فَعَلْتُ فِي

هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَبَى أَخَذْتُ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ . فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهُ مَا لَيْسَ مِنْهُ .

وَهَذَا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ فِي نَزْرِ الْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ . وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَكَشَفْتُ عَنْ دِفَائِنِهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي وَسَمْتُهُ : ب (الْوَشْيُ الْمَرْقُومُ ، فِي حَلِّ

الْمُنَظَّمِ) ، وَهُوَ كِتَابٌ مُفْرَدٌ لِهَذَا الْفَنِّ خَاصَّةً .

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ الْكِيمِيَاءُ فِي تَوَلِيدِ الْمَعَانِي مَا ذَكَرْتُهُ فِي وَصْفِ الرَّبِيعِ

فَقُلْتُ :

« فَصْلُ الرَّبِيعِ هُوَ أَحَدُ مِيزَانِي عَامِي . وَالْمُسْتَفِيدُ لِسَامِيهِ مِنْ حَامِيهِ ، وَقَدْ وُصِفَ

بَأَنَّهُ مِيعَادُ نُطْقِ الْأَطْيَارِ ، وَمِيلَادُ أَجْنَةِ الْأَزْهَارِ ، وَالَّذِي تَسْتَوِي بِهِ حَوْلَهَا سُلَاقَةُ الْعُقَارِ ،

(٧٢) ديوان أبى تمام ٥٠ ورواية الديوان « أرضٌ بها عشبٌ جوفٌ وليس بها » والجوف ما جرفته السيول

وأكلته من الأرض .

فَإِذَا سَلَّتِ السُّحُبُ فِيهِ سُبُوقَهَا ، كَانَ ذَلِكَ لِلرُّضَا لَا لِلْعَصَبِ ، وَإِذَا خَلَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ غُلَّالَهَا الدِّكْنَاءَ لَبِسَتْ مِنْهَا دِيْبَاجَةً مُتَسَوِّجَةً بِالذَّهَبِ .

وهذا المعنى مُستَوَلَّدٌ من قول أبي تمامٍ في وَصْفِ السَّحَابِ :
سَلَبَتْهُ الْجُنُوبُ وَالْدِّينَ وَالذَّنْبَ سَيَا وَصَافِي الْحَيَاةِ فِي سَلَبِهِ (٧٣)
إِلَّا أَنَّ فِي الذِّى ذَكَرْتَهُ مَعْنَيْنِ غَرِيبَيْنِ ، إِذَا أَمْعَنَ النَّاطِرُ نَظْرَهُ فَمِمْهَا .

ومن ذلك ما ذكرته في لبين القول واعادته ، وما يجرى مجراه ، كقولِي في فصل من كتاب ، وهو :

لَمْ أَعِذْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ لِأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَى مَيْدَانِهِ ، إِلَّا بِتَحْرِيكِ سَوْتِهِ وَعَيْنَانِهِ ، بَلْ أَخَذَ بِأَدَبِ اللَّهِ فِي أَذْكَارِ الْقُرْآنِ أَخَذًا ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي تَتَوْبِ الْأَذَانِ (٧٤) .

وبعضُ هذا مأخوذٌ من شعرِ أبي تمامٍ :
لَوْ رَأَيْنَا التَّكَايِدَ خُطَّةَ عَجَزٍ مَا شَفَعَنَا الْأَذَانُ بِالتَّثْوِيبِ (٧٥)
وكذلك قولِي أيضًا ، وهو :

« وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لِبَيْنَ الْقَوْلِ أَنْجَعُ قَبُولًا ، وَهُوَ مِنْ أَدَبِ كَلِمِ اللَّهِ إِذْ بَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْحُدَاءَ يَبْلُغُ مِنَ الْمَطَايَا بِلُطْفِهِ ، مَا لَا يَبْلُغُهُ السَّوْطُ عَلَى عُنْفِهِ » .

وبعضُ هذا المعنى مأخوذٌ من شعرِ أبي تمامٍ :
وَأَخَذَهُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارَى يُهَبِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الْحُدَاءُ (٧٦)

(٧٣) ديوان أبي تمام ٥٢ والذي في الديوان :

قد جلبته الجنوب فالدين والذن سيا وصافي الحياة من جلبه

وهو من قصيدة يمدح بها أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ، ومطلعهما :
إِنْ بَكَاءَ فِي الرِّيحِ مِنْ أَرِيهِ فَشَايَعًا مَفْرُومًا عَلَى طَرَبِهِ

(٧٤) التثويب في أذان الفجر أن يقول المؤذن « الصلاة خير من النوم » .

(٧٥) ديوان أبي تمام ٣٨ ورواية الديوان « التوكيد » بالواو . ومن معاني التثويب التردد .

(٧٦) ديوان أبي تمام ٣٩٤ . والرقى جمع رقية . والحفاء الفناء .

ومن ذلك ما ذكرته في خم الدنيا ، وهو :

« أَتَكَادُ الدُّنْيَا مَشْوَبَةً بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي جُبِلَتْ النُّفُوسُ عَلَى حُبِّهَا ، وَكُلُّ مَا تَسْتَلْذُهُ
الْأَبْدَانُ مِنْ مَأْكُلِهَا فَإِنَّهُ يَضُرُّهَا مِنْ جِهَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَلِهَذَا يُدْنِمُ مِنْ مَضْغَةِ الْهَلِيلِجِ (٧٧) ،
وَمَضْرَةِ اللُّوزِ بِنَجْ ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ مِنْ لَذَائِهَا إِلَّا ضَرَّهُ
مِنْ جِهَةِ ثَوَابِهِ وَهُوَ كَالَّذِي يَنْتَفِعُ بِاصْطِلَاءِ النَّارِ وَهِيَ مُحْرِقَةٌ لِأَثْوَابِهِ ، وَقَدْ ضَرَبَ لَذَلِكَ
مَثَلٌ مِنَ الْأَمْثَالِ ، وَقِيلَ : إِنْ كُلُّ مَا يَنْفَعُ الْكَبِدَ مُضِرٌّ بِالطَّلْحَالِ » .
وهذا مأخوذٌ من الأمثالِ العربيَّةِ والمولدة .

ومن ذلك ما ذكرته في الزهد ، وهو :

النَّاسُ فِي الدُّنْيَا أَبْنَاءُ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ، وَكَأَنَّ النُّفُوسَ لَيْسَتْ فِيهَا بِقَاطِنَةٍ ، فَكَذَلِكَ
الْأَحْوَالُ لَيْسَتْ بِقَاطِنَةٍ ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَاتَمُ بِهَا كَالْأَعْرَاسِ ، يَتَفَرَّقُ نَدَى جَمْعِهَا ، فَهَذِهِ
تَنْسَى مَا مَضَى مِنْ لَذَّةِ سُرُورِهَا ، وَهَذِهِ تَنْسَى مَا مَضَى مِنْ أَلَمِ فَجْجِهَا ، وَلَا شَيْءَ لَهَا عَلَى
ذَلِكَ إِلَّا الْأَحْلَامُ الَّتِي يَتَلَاشَى خِيَالُهَا عَاجِلًا ، وَتَجْعَلُ الْبِقِظَةَ حَقِّهَا بِاطِلًا ، وَمَا يَنْبَغِي
حِينَئِذٍ أَنْ يُفْرَحَ بِهَا مُقْبِلَةً ، وَلَا يُؤَسَى عَلَيْهَا مُدْبِرَةً ، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ مِنْهَا ثُمَّ يَذْهَبُ
فَكَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُ ، وَغَايَةُ مَطْلُوبِ الْإِنْسَانِ مِنْهَا أَنْ يُنَدَّ لَهُ فِي مُدَّةِ عُمُرِهِ ، وَيُعْلَى لَهُ فِي
امْتِدَادِ كَثْرِهِ ، أَمَّا تَعْمِيرُهُ فَيَعْتَرِضُهُ الْمَشِيبُ الَّذِي هُوَ عَدَمٌ فِي وُجُودٍ ، وَهُوَ أَخُو الْمَوْتِ فِي
كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي سُكْنَى اللَّحُودِ ، فَالْجَوَارِاحُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الشَّهَوَاتِ تَرَى وَكُلُّهَا مِنْهَا قَدْ
تَحَوَّلَ ، وَأَصْبَحَ كَالطَّلَلِ الدَّارِسِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْ مَعُولٍ ، فَلَا يَكِلَى بِلَيْكِي ، وَلَا
النَّوَارِ بِالنَّوَارِ ، وَلَا الْأَسْمَاعُ أَسْمَاعُ ، وَلَا الْأَبْصَارُ أَبْصَارُ ، وَأَمَّا مَا لَهُ فَإِنْ أَمْسَكَهُ فَهَوَ
عُرْضَةٌ لَوَارِثٍ يَأْكُلُهُ ، أَوْ لِحَادِثٍ يَسْتَأْصِلُهُ ، وَإِنْ أَنْفَقَهُ كَانَ عَلَيْهِ فِي الْحِلَالِ حِسَابًا ،
وَفِي الْحَرَامِ عِقَابًا فَهَذِهِ زَهْرَةُ الدُّنْيَا النَّاصِرَةِ ، وَهَذِهِ عُقْبَاهَا الْخَاسِرَةِ » .

(٧٧) ذكره أكثر كتب اللغة باسم « الإهليلج » بفتح اللام الثانية وكسرهما . والواحدة بهاء . ثم منه أصفر
ومنه أسود وهو البالغ النضج ، ذكر أنه يحفظ العقل ويزيل الصداع .

وبعض هذا المعنى مأخوذ من شعرِ صالح بن عبد القدوس :
 وإذا الجنازةُ والعروسُ تلاقيا ألفتَ جمعاً كله ينفرقُ
 ومن قولِ أبي العتاهية :
 إنا أنْتَ طولَ عمركَ ماعمرُ تَ في السَّاعةِ التي أنْتَ فيها

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن تعزية ، وهو :

« كيف يُظلمُ ذلك اللحدُ وبه من أعالٍ ساكنه أنوار ؟ أم كيف يُجذبُ وبه من
 فيض يمينه سحابٌ مذرّار ؟ أم كيف تُوحشُ أقطارُهُ والملائكةُ داخلةً عليه من تلكِ
 الأقطار ؟ أم كيف يُخفيه طولُ العهدِ على زوّاره وطيبُ ترابه هادٍ للزوّار ؟ وما أعلمُ ما
 أقوله في هذا الخطيبِ الجليل ، الذي دقَّ فيه الحزنُ الجليل ، وسَمَحَتْ له النفوسُ
 بالقديةِ على حُبِّ الحباة ، وذلك من الفداءِ القليل ، وقد قيل : إنّه لم يُخلقِ الدَّمْعُ إلا
 إنذاراً بأنَّ نوائبَ الزمانِ ستُنوب ، وقد جعله الله دُخْرًا للقائِها ، وإنما يُدخِرُ السِّلَاحَ للقَاءِ
 المَروِب ، والذي دَخَرْتُهُ : لم يغزِ عَنِّي في هذه الثَّانيةِ ، وأَيُّ جُنَّةٍ تقومُ في وجهِ سهايمِها
 الصابئةِ ؟ لا جَرَمَ أني أصبحتُ بين يديها هدفاً للرّماء ، ولم يبقَ مِنِّي إلا دَماءُ
 الحشاشَةِ (٧٨) ، ومن العَجَبِ بقاءُ الدماءِ » .

وشيء من هذا الفصل مأخوذ من شعرِ ابن الرومي :

لَمْ يُخْلَقِ الدَّمْعُ لِمَرِيٍّ عَبَثاً اللهُ أَذْرَى بِلَوْعَةِ الْحَزَنِ (٧٩)

وكذلك ذكرت فصلاً في كتاب آخر يتضمن تعزية ، وهو :

« فيا وَجْحَ أَيْدٍ أَسْلَمَتْهُ إِلَى الثَّرَى وما كانَ يُسَلِّمُهَا إِلَى الإِعْدَامِ ، وَالْبَسَتْهُ ظُلْمَةُ اللَّحْدِ
 وَطَالَ مَا جَلَا عَنْهَا غَيَابَةُ الظُّلُمِ وَالْإِظْلَامِ ، وَغَادَرَتْهُ بَوَاحِدَتِهِ مُسْتَوْحِشاً ، وَقَدْ كَانَ يُؤَسِّسُهَا
 بِنَوَافِلِ الْأَنْعَامِ ، وَمِثْلُهُ لَا يُوَارِي الْقَبْرِ مِنْهُ إِلَّا صُورَةٌ يُدْرِكُهَا النُّقَادُ ، وَتَبَلَّى كَمَا يَبْلَى غَيْرُهَا

(٧٨) الرماء مصدر واماء مرأاة ورماء ، والذماء بقية الروح في الملبوس ، والحشاشه بقية الروح في المريس والجريح .

(٧٩) ديوان ابن الرومي ٤٨٠ .

من الأجساد ، ولكنه لا يستطيع مُوَاراة الذكر الخالد الذي يذهب بِشَهَانَةِ الحُسَاد ،
ويتمثلُ في السماء بصورة الكواكب وفي الأرض بصورة الأطوار .

وبعضُ هذا مأخوذ من قولٍ بعض شعراء الحِجَاسَة (٨٠) :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الْبَكْرَى لَا تَدْفِنُوا اسْمَهُ وَلَا تَدْفِنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ (٨١)

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام بالفصاحة ، وهو لفصل من كتاب ، فقلت :

وله البيان الذي يغض من نسق الفريد ، ولا يُخلَقُ نَصْرَةً لباسه الجديد ، وهو فوق
كلام المُجِيد ، ودون القرآن المَجِيد ، وإذا اختَصِرَ واصفه قال : إنه يستميلُ سَمْعَ
الطُّرُوب ، ويستحقُّ قَارَ القلوب ، ويتمثلُ آيات بيضاء ، من غير ضَمٍّ إلى الجُيُوب ،
ويُرى في الأرض غيرَ لاغِبٍ إذا مَسَّ غَيْرَهُ قَتْرَةُ اللُّغُوب ، ولا تَرَالُ النَّاسُ في عِشْقِي
معانيه ضرباً واحداً والعاشقون ضُرُوب ، ولما وقفتُ عليه قلتُ : سُبْحَانَ من أَعْطَى
سيدنا فلم يَبْخُلْ ، وخصَّه بِنُورِ الْبَيَانِ إلا أَنَّهُ لم يُرْسَلْ ، ولولا أَنَّ الْوَحْيَ قد سَدَّ بِأَيْهِ
لَقِيلَ : هَذَا كِتَابٌ مُتْرَل ، ولقد خَارَ اللهُ لأوَلَى الْفَصَاحَةِ إِذْ لَمْ يَحْيُوا إلى عصره ، ولم
يَبْتَلُوا فِيهِ بَدَاءَ الْحَسَدِ الذي يُصْلِيهِمْ بتوقُّدِ جَمْرِهِ ، ولئن سَلِمُوا من ذلك لما سَلِمَتْ
أَقْوَالُهُمْ من أَقْوَالِهِ التي مَحَتْهَا مَحَوِّ الْمَدَاد ، وقد كانتُ باقيةً بَعْدَهُمْ فلما أَتَى صَارَتْ كَمَا
صَارُوا إلى الْآلَمَاد .

وفي هذا الفصل شيء من المعاني الشعرية كقول البحتری :

مُسْتَمِيلٌ سَمْعَ الطُّرُوبِ الْمُعْنَى عَنْ أَغَانِي مَعْبِدٍ وَعَقِيدٍ (٨٢)

(٨٠) هو أبو الشغب العبسي ، قاله في خالد بن عبد الله القسري لما وقع خالد أسيراً في يد يوسف بن عمر
القتلي .

(٨١) رواية ديوان الحِجَاسَة ٣٩١/١ :

فَإِنْ تَسْجِنُوا الْقَسْرَى لَا تَسْجِنُوا اسْمَهُ وَلَا تَسْجِنُوا مَعْرُوفَهُ فِي الْقَبَائِلِ

(٨٢) ديوان البحتری ١٩٥/٢ وهو من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات ، ومطلعها :

بعضُ هذا المَتَابِ والتَّضَنُّدِ لَيْسَ ذِمُّ الْوَفَاءِ بِالْهَمُودِ

وقد ورد الشطر الثاني في رواية الديوان هكذا : « عَنْ أَغَانِي عَذَابٍ وَعَقِيدٍ » .

وعنارق هو عنارق بن يحيى بن نائس الجزار ، مولى الرشيد ، وكان قبله لعاتكة بنت شهدة ، وهي من
الغنيات المحسنات المتحنات في الضرب ، ونشأ في المدينة ، وقيل كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزاً مملوكاً ،
وكان عنارق وهو صبي يتادى على ما يبيعه أبوه من اللحم ، فلما بأن طيب صوته علمته مولاه طرقة من الغناء ، ثم =
١٣١

وقول الشريف الرضي - رحمه الله - :

عَشِقْتُ وَمَالِي ، يَعْلَمُ اللَّهُ ، حَاجَةً سَيَوِي نَظْرِي وَالْعَاشِقُونَ ضُرُوبٌ (٨٣)
وفيه أيضاً شيءٌ من معاني القرآن الكريم ، إلا أنها جاءت ضيماً وتبناً ، وموضعها
يأتي بعد الآيات الشعرية .

وكذلك ذكرت فصلاً آخر من هذا الأسلوب ، وهو :

« وَإِنَّ لِلْكَلِمَةِ طَعْمًا يُعْرَفُ مَذَاقُهُ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ ، وَخَفَةُ الْأَرْوَاحِ مَعْلُومَةٌ مِنْ بَيْنِ
ثِقَلِ الْأَجْسَامِ ، فَلَوْ لَمْ نَعْرِفْهُ بِطَعْمِهِ ، عَرَفْنَاهُ بِوَسْمِهِ ، وَالصَّبَاحُ لَا يُتَارَى فِي إِسْفَارِهِ ،
وَلَا يُفْتَقَرُ إِلَى دَلِيلٍ عَلَى إِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْعَرَقَ يُعْرَفُ بِغُضْنِهِ ، وَأَنَّ الْقَوْلَ
يُعْرَفُ بَلَحْنِهِ ، وَنَفَائِسُ هَذِهِ الْعُقُودِ لَا يُبْرِزُهَا إِلَّا أَنْفَاسُهُ ، فَذَرُّهَا لَفْظُهُ ، وَسَلُوكُهَا
قُرْطُلُوسُهُ » .

ومن هذا الباب قول أيضاً وهو :

« أَلْفَاظُ كَخَفَى الْبُؤْدُ ، أَوْ زَارُ الْأَسْوَدُ ، وَمَعَانٍ تَدُلُّ بِإِرْهَافِهَا أَنَّهَا هِيَ السُّيُوفُ وَأَنَّ
قُلُوبًا نَمَتْهَا هِيَ الْغُمُودُ ، فَيَخَالُهَا الْمُتَأَمِّلُ حَوْمَةَ طِعْمَانٍ ، أَوْ حَلَبَةَ رَهَانٍ » .

وبعض هذا مأخوذ من شعر البحري :

بِقِطْطَانٍ يَبْتَخِبُ الْكَلَامَ كَأَنَّهُ جَيْشٌ لَدَيْهِ يَرِيدُ أَنْ يُلْقَى بِهِ (٨٤)

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان من أهل الكتابة كان

اعتدى عليه شخص يدعى الكتابة وليس من أهلها ، فقلت :

« وَقَدْ نَيْطَ بَسِيدُنَا قَلَمًا الْخَطَّ اللَّدَانِ يُنْسَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى الْمِدَادِ ، وَيُنْسَبُ الْآخَرُ إِلَى

الصَّبَادِ (٨٥) ، فَهوَ يُدِيرُ هَذَا فِي مَعْرَكَةِ الْمَقَالِ ، وَهَذَا فِي مَعْرَكَةِ الْإِطْرَادِ ، وَلَوْ رَأَى صَهْلٌ

أرادت به ، فاشتره إبراهيم الموصلي منها ، وأهداه إلى الفضل بن يحيى ، فأعذه الرشيد ، لم أحقه .

(٨٣) ديوان الشريف الرضي ٤١٧/١ طبعة الحلبي .

(٨٤) ديوان البحري ٩٣/٢ من قصيدة يطالب بها إسماعيل بن شهاب .

(٨٥) الصباد : الرماح .

أَحَدُ قَلَمِيهِ مِنْ فَوْقِ صَفْحَاتِ الدُّرُوجِ ^(٨٦) ، كَمَا تَصَهَّلُ الْجِبَادُ مِنْ تَحْتِ أَعْوَادِ السُّرُوجِ ، فَلَهُ احْتِفَالُ الْمَوَاطِنِ وَالْمَجَالِسِ ، وَإِلَيْهِ غَنَاءُ أَصْحَابِ الْعَالَمِ وَالْقَلَائِسِ ، لَا كَمَنْ لَا يُجَاوِزُ هَمَّهُ طَرَفِي رِدَائِهِ ، وَإِذَا نُودِيَ لِفَضِيلَةٍ قِيلَ إِنَّمَا يَسْمَعُ الْحَيُّ بِنْدَائِهِ . وَكَمْ فِي النَّاسِ مِنْ صُورٍ لَا تَجِدُ لِمَعْنَاهَا أَثَرًا ، وَإِذَا رَأَيْتَهَا قُلْتَ أَرَى خَالًا ^(٨٧) . وَلَا أَرَى مَطَرًا ، وَأَيُّ جَهَالٍ عِنْدَ مَنْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا جَهَالُ ثِيَابِهِ ، وَهَلْ يَنْفَعُ السِّيفُ الْكَهَامَ ^(٨٨) أَنْ يُجَعَلَ مِنَ الذَّهَبِ حَلِيَّةُ قَرَابِهِ . وَكُلُّ مَنْ هُوَ لَا ذَنْبَ يَسْعَى بِغَيْرِ رَأْسٍ ، وَلَا لَهُ هِمٌّ إِلَّا فِي عِيشَةِ الطَّاعِمِ الْكَاسِي ، وَإِذَا اعْتَبِرَ حَالَهُ وَجَدَ مِنَ الْيَاهَمِ وَإِنْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى النَّاسِ ، وَالسِّيَادَةِ لَيْسَتْ فِي وَشْيِ الثِّيَابِ ، وَلَا فِي طَيِّبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي شَيْئَيْنِ : إِمَّا شِهَامَةُ قَلَمٍ تَفَرِّقُهَا قُلُوبُ الْغُمُودِ ، أَوْ شِهَامَةُ رُمَحٍ تَفَرِّقُهَا قُلُوبُ الْأَسُودِ . وَكَأَنِّي بِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ هَذَا وَكُلَّهُمْ يَمْتَعِضُ امْتِعَاضَ الْمُغْضَبِ ، وَيَتَتَابِعُ نَفْسَهُ تَتَابِعَ الْمُتَتَبِعِ ، وَيَعْتَرِضُ الشَّجَى فِي حَلْفِهِ حَتَّى يَقْصُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَبَ . وَلَمْ يَزَلْ بِالْحَسَادِ مِنْ سَيْلِنَا دَاءُ يُورِثُهُمْ أَرْقًا ، وَيُوسِعُهُمْ شَرْقًا ، وَكثيرًا مَا تَمَرَّقُ لَهُمْ جِبَاهُهُمْ وَكَذَا الْمَيْتُ تَنْدَى جَيْثُهُ عَرَقًا ، وَمَا أَرَى لِهَوْلَاءِ دَوَاءٍ إِلَّا أَنْ يَطْرَحُوا عَنْ مَنَاكِبِهِمْ ثِقْلَ الْمُسَاجِلَةِ ، وَالْحَسَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَجْرَى مَعَ صَاحِبِهِ فِي مِضَارِ الْمَائِلَةِ . وَكَنتُ أَحَبُّ أَنْ يُقَامَ عَلَى الْكِتَابَةِ مُحْتَسِبٌ حَتَّى يَقْتُلْسَ مِنْهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَتُسْتَرْجِعَ جِبَادُ كَثِيرَةٍ مِنْ رُكُوبِ حَمِيرٍ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا السُّوقِ يَظْهَرُ أَهْلُ الْخِلَابَةِ وَالنَّجْشِ ^(٨٩) ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي الْحَقِيبِضِ الْأَسْفَلِ وَقَدْ أَجْلَسَ نَفْسَهُ قَائِمَةً الْعَرْشِ ، وَنَارَ الْآلَةِ الْعُمَرِيَّةِ . تَمِيزُ خَالِصَ النُّقُودِ مِنْ زَيْفِهَا ، وَلَا حَيْفَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى مَنْ أَسْرَفَتْ دَعَاؤُهُ الْكَاذِبَةَ فِي حَقِّهَا .

(٨٦) الدُّرُوجُ جَمْعُ دَرَجٍ يَفْتَحُ الدَّلَالُ وَسُكُونُ الرِّاءِ ، أَوْ يَفْتَحُهَا ، مَا يَكْتُبُ فِيهِ .

(٨٧) الْحَالُ سَحَابٌ لَا مَطَرَ فِيهِ .

(٨٨) السِّيفُ الْكَهَامُ - عَلَى وَزْنِ سَحَابٍ - الْكَلِيلُ الَّذِي لَا غَنَاءَ فِيهِ .

(٨٩) النَّجْشُ أَنْ تَوَاطَىءَ رَجُلًا إِذَا أَرَادَ يَمِينًا أَنْ تَمْلَحَهُ ، أَوْ أَنْ يَرِيدَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبِيعَ بِبَايَعَةٍ خَسَافَهُمْ فِيهَا

بِشَمَنِ كَثِيرٍ ، لِيَنْظُرَ إِلَيْكَ نَاطِرٌ ، فَيَقَعُ فِيهَا .

وبعض هذا الفصل مأخوذ من شعر عبد السلام بن رُغبان ، عُرِفَ بِدِيكِ
الجن^(٩٠) :

يُزْهِى بِهِ الْقَلَامُ إِلَّا أَنَّ ذَا لَذْنُ الْمَجْسُ وَأَنَّ ذَا يَكْمُوبِ
عُودَانِ يَقْضِبُ ذَا الطَّلَى^(٩١) بِلَعَابِهِ وَيَجُوبُ ذَا الْمُهْجَاتِ بِالْتَرَكِيبِ

ويكفيك أيها المتوشح لنثر الشعر أن تنظر إلى هذا الفصل ، وتتأمل الوضع الذي
أخذتُ معنى هذين البيتين ، ووضعته فيه ، فإن فيه غناءً ومقنعاً .

وأما حلُّ آيات القرآن العزيز فليس كثر المعاني الشعرية ، لأنَّ ألفاظه ينبغي أن
يُحَافَظَ عليها ، لمكانِ فصاحتها ، إلا أنه لا ينبغي أن يُؤْخَذَ لفظُ الآيةِ بِجَمَلِيَّتهِ ، فإنَّ
ذلك من باب (التضمين) ، وإنَّما يُؤْخَذُ بَعْضُهُ . فإِذَا أَنْ يُجْعَلَ أَوَّلًا لِكَلَامٍ أَوْ آخِرًا
على حسب ما تقتضيه موضعه وكذلك تفعلُ بالأخبار النبوية . على أنه قد يؤخذُ معنى
الآية والخبر ، فيُكسَى لفظاً غير لفظه ، وليس لذلك من الحُسْنِ ما للقسم الأول ،
الفائدة التي أشرنا إليها .

وقد سلكْتُ في ذلك طريقاً اخترعتها ، وكنتُ أنا بنَ عذْرَتِهَا ، وعند تأمل ما
أوردته منها في هذا الكتاب يظهر للمتأملُ صحَّةُ دَعَاوِي . ولئن كَانَ مَنْ تَقَدَّمَنى أُنَى
بشئ من ذلك ، فإنِّي رَكِبْتُ فيه جَوَادًا وَرَكِبَ جَمَلًا ، ونال من مَوْرِدِهِ نَهْلَةً
واحداً ، ونَلْتُ منه نَهْلًا وَعَلَلًا .

ومن آتاه الله في القرآن بَصِيرَةً فَإِنَّهُ يَسْبِكُ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ فِي كَلَامِهِ وَيَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ
غِيَرِهِ ، إلا أنه ينبغي أن يكون فيه صَوَاعِغٌ يَخْرُجُ مِنْهُ صُرُوبُ الْمُصَوِّغَاتِ ، أَوْ صَرَافًا
يَتَجَهَّدُ فِي تَقْوِيدِهِ الْمُخْتَلَفَةِ مِنَ الذَّهَبِ الْمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ ، وَلَا أَقُولُ مِنَ الْفَضَّةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ
بِهِ مِنَ الْفَضَّةِ شَيْءٌ وَهُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ تَاجِرًا يَدِيرُهُ عَلَى يَدَيْهِ ،

(٩٠) ديك الجن هو عبد السلام بن رغبان ، ولد في حمص ، وديك الجن لقب له ، وكان شديد الشعب
والعصبية على العرب ، وهو شاعر مجيد . لم يبرح نواحي الشام ، وكان متشيعاً لآل البيت ، وله مرثيات كثيرة في
الحسين بن علي ، وكان مع ذلك خليعاً ماجناً عاكفاً على اللهو والقصص ، متلافاً لما ورث عن آبائه وما كتبه
بشره من أحمد وجعفر ابني علي الهاشميين . توفي ديك الجن سنة ٢٣٥ هـ .

(٩١) الطلل بالضم الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة بضم الطاء فيها .

ويتصرف في أرباحه ، ويُخرج من الأمتعة المجلوبة من مناسجه كل غريبة عجيبة .
وكل هذا يفهمه مَنْ عَرَفَ قَلَمَ ، وَحَكَمَ بِمَا عَلِمَ :

وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ الْقَرِيضُ بِشَاعِرٍ وَلَا كُلُّ مَنْ عَانَى الْهَوَى بِمُتِمِّمٍ
واعلم أن المصدي حل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس ، فإنه كلما ديم على
دَرَسَهُ ظَهَرَ مِنْ مَعَانِيهِ مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْ قَبْلُ .

وهذا شيء جربته وخبرته ، فَإِنِّي كُنْتُ أَخْذُ سُورَةَ مِنَ السُّورِ ، وَأَتْلُوهَا وَكُلَّمَا مَرَّ بِي
مَعْنَى أَتَيْتُهُ فِي رَقَةٍ مُفْرَدَةٍ ، حَتَّى أَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي حَلِّ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي
أَتَيْتُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، وَلَا أَقْنَعُ بِذَلِكَ حَتَّى أَعَاوِدَ تِلَاوَةَ تِلْكَ السُّورَةِ ، وَأَفْعَلُ مِثْلَ مَا
فَعَلْتُهُ أَوَّلًا ، وَكُلَّمَا صَقَلْتُهَا التِّلَاوَةَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ظَهَرَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنَ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَظْهَرْ فِي
الْمَرَّةِ الَّتِي قَبْلُهَا .

ومأورد في هذا الموضع سورة من السُّورِ ، ثُمَّ أَرَدْتُهَا بِآيَاتٍ أُخْرَى مِنْ سُورٍ
مُتَفَرِّقَةٍ ، حَتَّى يَتَيْنَ لَكَ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ مَا فَعَلْتُهُ ، فَتَحْدُوْ حَذْوَهُ . وَقَدْ بَدَأْتُ بِالسُّورَةِ أَوَّلًا ،
وَهِيَ سُورَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهَا قِصَّةٌ مُفْرَدَةٌ بِرَأْسِهَا ، وَفِيهَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ .

فالاول ما ذكرته في دعاء كتاب من الكتب . وهو :

« وَصَلَّ كِتَابُ الْخَضِرَةِ السَّامِيَةِ ، أَحْسَنَ اللَّهُ أَثَرَهَا ، وَأَعْلَى خَطَرَهَا ، وَقَضَى مِنْ
الْعَلْيَاءِ وَطَرَهَا ، وَأَظْهَرَ عَلَى يَدِهَا آيَاتِ الْمَكَارِمِ وَسُورَهَا ، وَأَسْجَدَ لَهَا كَوَاكِبَ السِّيَادَةِ
وَشَمْسَهَا وَقَرَهَا » .

وهذا أول معنى في السُّورَةِ ، وَقَدْ نَقَلْتُهُ عَنْ قِصَّةِ الْمَنَامِ إِلَى الدُّعَاءِ .

ثم أبرزت هذا المعنى في صورة أخرى ، وهو :

« أَكْرَمَ النِّعَمَ مَا كَانَ فِيهَا ذِكْرِي لِلْعَابِدِينَ ، وَتَقَدَّمَ أُنِّي زَايَتْ أَحَدَ عَشَرَ كَوَكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، فَهَذِهِ النِّعْمَةُ هِيَ الَّتِي تَأْتِي بِتَسْيِيرِ الْعَسِيرِ ، وَتَجْلُو
ظِلْمَةَ الْخَطْبِ بِالصَّبَاحِ الْمُنِيرِ ، فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ،
إِنَّ ذَلِكَ لِمُحْيِي الْمَوْتِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم تصرفت في هذا المعنى ، فأخرجته في معرض آخر ، وهو فصل من جملة تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء ، فقلت :

وقد علمه أمير المؤمنين ، فأذنني مجلسه من سائه ، وآنسه على وحدة الانفراد يحفل
بنفائه ، ورفعته حتى ودت الشمس لو كانت من آترابه ، والقمر لو كان من ندمائه ،
وذلك مقام لا تستطيع الجدود أن ترقى إلى رتبته ، ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ،
ولا الشفاء أن تشرف بتقبيل رتبته . فليزد إعجاباً بما نالته موافق أقدايه ، ولينظر إلى
سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .
ومن ذلك مذكرته في ذم بخيل ، وهو :

« لم أر كهواهب فلان ملأت أملى بطمع وعودها ، وفرغت يدي من نبل
جودها ، فلم أحفظ إلا بلامع سربها ، وكانت كدم القميص في كذابها » .

ومن ذلك ما ذكرته في تزكية إنسان مما رمى به ، وهو :

« لم ترم بذنب إلا نابت البراءة له مناب الشهود ، وجيء من أهلها بشهادة
القميص المقدود » .

ومن ذلك مذكرته في عنر الهوى ، وهو :

« لم يهوحياً إلا كان لأهل التقى فيه أسوة ، ولا ليم من أجله إلا اعتذر عذر امرأة
العزير إلى النسوة » .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من جواب كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« إن كان الكلام كما قيل ذكراً والجواب أنثى ، فجوابي هذا عروس تجلى في حلليها
الحيرة ، وعودها المشدرة ، وتزهي بما آتاه الله من الحسنى الذي ليس بالجلوب ، ولا
ترضى بتقطيع الأيدي دون تقطيع القلوب . وها قد أرسلتها إلى سيدنا ، حتى يعلم أن
نتائج خاطري على الفطرة ، وأنها معشوة الصورة ، فكل الناس في هواها بنو عذرة » .
وفي هذا الفصل معنى الآية والخبر النبوي والبيت من الشعر .

ومن ذلك ما ذكرت في قلب الأيام ، وهو :

« لَقِينَا أَيَّامًا ضاحِكَاتٍ ، وَلَيْتَهَا أَيَّامٌ عَابِسَاتٌ ، فَكَانَتْ كَسْبِغِ سُبُلَاتِ خُضِرٍ
وَأُخْرَ يَابِسَاتٍ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كريم ، وهو :

« لَيْسَ مِنْ يَرْقُبُ عَجْفَ الزَّمَانِ ، فَيَذُرُ الْحَبَّ فِي سُنْبُلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَأْنِفُ الصَّبْرَ فِي
آخِرِهِ ، وَيَسْتَهْلِكُ الْمَالَ فِي أَوَّلِهِ ، فَلَا يَبْقَى مِنْ يَوْمِهِ لَعْدِهِ ، وَلَا يَبْقَى مِنْ يَوْمِهِ لَعْدِهِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في حب الرشوة ، وهو :

« الرُّشْوَةُ تَحُلُّ عَقْدَ الْقُلُوبِ ، وَتَهْوِنُ فِرَاقَ الْمَحْبُوبِ . أَلَا تَرَى أَنَّ رَدَّ الْبِضَاعَةِ حَكَمَ
عَلَى أَخِي يُوسُفَ بِالْإِضَاعَةِ ؟ » .

ومن ذلك ما ذكرته في الاستسلام لحكم الأقدار ، وهو :

« لَا تَحْتَرِسْ مِنْ جُنُودِ الْأَقْدَارِ بِالْأَرَاءِ الْمُتَعَمِّقَةِ ، وَسَوَاءٌ عِنْدَهَا الْبَلَجُ الْوَاحِدُ
وَالْأَبْوَابُ الْمُتَفَرِّقَةُ » .

ومن ذلك ما ذكرته في تنابح الإساءة ، وهو :

« لَمْ يَزَلْ يَرْشَقُنِي بِقَوَارِصِهِ حَتَّى تَكَاثَرَ النَّبْلُ ، وَاسْتَحْكَمَ النَّبْلُ (٩٢) ، وَلَمْ يَكْفِهِ
الْإِلْقَاءُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ حَتَّى قَالَ : إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ » .

ومن ذلك ما ذكرته في التوكل ، وهو :

« إِذَا طَلَّبَ أَمْرًا أَجْمَلَ فِي الْمَطْلُوبِ ، وَوَكَّلَهُ إِلَى الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ الْغُيُوبِ ،
وَتَأَسَّى فِي حَاجَتِهِ مِنْهُ بِالْحَاجَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ » .

(٩٢) من معاني النبيل العداوة ، واللحل ، والإسقام ، وتبله ذهب ببقوله ، وتبل الدهر القوم رماهم بصرفه
وأفناهم . وكل هذه المعاني تصح .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الكيد ، وهو :

« لم يأت أمراً إلا أخفى أسباب أواخيه ، وبدأ فيه بالأوعية قبل وعاء أخيه » .
وهذه ثلاثة عشر معنى من سورة يوسف عليه السلام .
وأما الآيات التي هي من سور متفرقة فأولها ما كتبه في صدر كتاب إلى بعض الإخوان جواباً على كتابه وهو : « ورد كتابه عشية يوم كذا فعرض على عرض الجياد على سليمان ، وتساوينا في الاشتغال منه ومنها بالاستحسان ، غير أن الجياد وإن حسنت فإنها لا تبلغ في الحسن مبلغ الكتاب ، لكن قلت كما قال : إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ولئن قضى الاشتغال هناك بمسح سوق وأعتاق ، فإنه لم يقض هاهنا بمسح سطور ولا أوراق ، وإنما اشتغلت عن عبادة بعبادة ، ولو شئت لقلت : عن إفادة بإفادة » .

وهذا مأخوذ من قصة سليمان عليه السلام في سورة (ص) وهي قوله تعالى : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » . إذ عرض عليه بالتمشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعتاق (٩٣) .

فانظر كيف أخذت هذه القصة ، وقابلت بينها وبين الكتاب ، ثم إنني تصرفت فيها بالموافقة بينهما تارة ، والمخالفة بينهما أخرى .
وهكذا ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله .

ومن ذلك ما كتبه عن الملك الأفضل على بن يوسف :

إلى الديوان العزيز النوى ببغداد في فصل من كتاب ، وهو :
« وقد علم أن المال الذي يختزن كالماء الذي يخبث . فكما أن هذا يأجن بتعطيل الأيدي عن امتياع مشاربه ، فكذلك يأجن هذا بتعطيل الأيدي عن امتياع مواهبه ،

بأى فرق بين وجوده وعلمه لولا أَنَّ تملك به القلوب . وتقل به الخطوب . ويُركَّب به ظهر العزم الذى ليس يركَّب . ومن بسط الله يده فيه . ثم قبضها بجله . فإنه يقف دون الرجال مغموراً ، ويقعد عن نيل المعالي مَلُوماً محسوراً . وإذا أدركته مَنِيَّةٌ مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً .

ومذاط الله بيد الخادم مانطة من أمر بلاده لم يدخر منها إلا مربط أشقره ومركز أسمره^(٩٤) ، وما عداها فإنه مصروف إلى قوة الإسلام في سد ثغوره ، وتكثير جنوده ، وإيقاد حرب عدوه بعد خمودها ، واستباحة جمرها عند وقوده ، وما يفضل عن ذلك فإنه للناس يشتركون في وشله وغمره^(٩٥) ، والمسلم أخو المسلم يساويه في حق من بيت المال ، وإن خالفه في مزية قدره ، ولا سبيل على هذا الخادم وهو يفعل ما يفعله أن يدلّس من هذا المال بتبعة المطلوب ، أو يلتحق بالقوم الذين يكترونه فيجزي عليه بكى الجباه والظهور والجنوب . ولم يأت به الله على فترة من مثله إلا يحموه سيئات الدين ، ويبعد به الإسلام إلى وطنه بعد أن طال عهده بمفارقة الوطن ، ولا يكون حسنة من حسنات أمير المؤمنين ترقمها الدنيا في ديوانه ، وتثقل بها في الآخرة كفة ميزانه .

فى هذا الفصل معنى آيتين ، إحداهما : فى سورة « هل أتى » والأخرى فى سورة « براءة » .

ومن ذلك ماكتبته عنه :

إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتنصل إليه ، وهو :

« من شيمعة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوى الألباب ، وتمثل لهم الخطأ فى مثال الصواب ، ولولا ذلك لما زل الحكيم ، واعوج المستقيم والمملوك يقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلة ، لا زال عرقها مأمولاً وإحسانها عند الله مقبولاً ، وفعلها فى المكرمات مبتدعاً إذا كان فعل الأبايدى مفعولاً ونستغيث إلى عفوها الذى يكفى فيه لفظة

(٩٤) المراد بالأشقر الفرس وبالأسمر الريح .

(٩٥) الوشل الماء القليل ، والقمر الماء الكثير .

الاعتذار ، ولا ينفد بمواظبة الإصرار . ولو عَرَفَ ذَنْبَهُ بادياً لَقَرَّحَ له مِيزَ الندامة . وعادَ على نفسه باللامة . ولما كَانَ عَجِيباً أَنْ يَكُونَ مُلِماً^(٩٦) . وَأَنْ يَكُونَ مولانا كريماً لكنه حَمَلَ إِصْرَةَ الذَّنْبِ وهو يرى مِنْ حَمَلِهَا . وخافَ أَنْ تَكُونَ هذه كَأَخَوَاتِهَا التي سَلَفَتْ مِنْ قَبْلِهَا . والأُمُورُ المِثْلِيَّةُ يَقيسُ البعضُ منها على البعض . والمُسَوِّغُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى جَرَّ حَبْلِ على الأَرْضِ . ولم يَجْتَرِمْ المملوكُ الآنَ جَرِيْمَةَ سِوَى أَنْ فَرَّ إلى الاعتصام . وَالتَّى يَبْدُو إلى أَقْوَامٍ لم يَكُونُوا له بِأَقْوَامٍ . وَإِذَا ضَاقَ على المرءِ أَقْرَبُهُ كَانَ الأَبْعَدُ له مِنْ ذَوِي الأَرْحَامِ ، وَلَيْسَ بِأَوْلَى مَنْ ذَهَبَ هذا المذهبُ ، ولا بأَوْلَى مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ على رُكُوبِ هَذَا المركَّبِ .

ولئن قال بعضُ الناسِ : إنه عَجَلٌ في اعتصامه وفَراره ، وأنه لَوَصَّرَ لِحْمَدِ مَعْبَةٍ اصطِياره ، فهذا قولٌ من لم يَعْرِفْ حالَ المملوكِ فيَقِيْمَ لَهُ عِذْراً ، ولا ابْتلى بما ابْتُلِيَ به مِنْ قَوَارِصِ مولانا مرَّةً بعد أُخْرَى . ولقد تَكَاثَرَتْ عليه هذه الأَقْوَالُ المؤْتَبَةُ حَتَّى مَلَأَ طَرَفَهُ كَحُلِّ السَّهَادِ ، وَجَنَّبَهُ شَوْكُ القِتَادِ . وَأَصْبَحَ وهو يرى أَنَّهُ زَلَّ في خَطِيئَتِهِ زَلْقا ، وَغَضَّ بِنْدَمِهِ مِنْ أَجْلِهَا شَرْقا ، وَبَدَتْ لَهُ سَوَاتُهُ حَتَّى طَلَقَ بِخُصْفٍ عَلَيْهَا وَرَقاً^(٩٧) . ومع هَذَا فَإِنَّهُ واثِقٌ أَنْ حِلْمَ مولانا لا يُؤْتِي مِنَ الزَّلَلِ ، وَأَنْ حَصَاةَ الذُّنُوبِ لا تَحْفُ بِوزنِ ذَلِكَ الجبلِ ، وَها هو قد جَاءَ نَازِعاً ، وَلِلنَّازِعِ العُتَى ، وعادَ مَسْتَشْفِئاً ، ولا شَفِيعَ أَكْرَمُ مِنَ القُرْبَى » .

ثم مضيت على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

وفي الذي أوردته من هذا الفصل معنى آية من القرآن في سورة « الأعراف » وهي قوله تعالى : « بَدَتْ لَهِمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ »^(٩٨) .

(٩٦) المليم الداخل في اللامة .

(٩٧) يجعل على عورته ورقة فوق ورقة . ليستريح بها . كما تخصف النمل .

(٩٨) سورة الأعراف : الآية ٢٢ . وفي الأصل « فَبَدَتْ لَهِمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ »^(٩٨) . بدت لهما سوءاتهما . . .

ومن ذلك ما كتبه عن الملك الفاهر عز الدين مسعود بن أرسلان بن مسعود صاحب
الموصل :

إلى الديوان العزيز ببغداد بعد وفاة والدو يسأل في التَّقليد ، وكان عُمره إذ ذاك
ستَ عشرة سنة .

فمَّا جاءَ في صدر الكتابِ بعدَ الدُّعاءِ قولي ، وهو :
« إذا تُوفِّيَ وليٌّ من أولياءِ الدَّولةِ فنِ السَّنةِ أن يعزَّى يفقده ، ويُستَخْرَجُ إذْثُها في
سَليلِهِ القائمِ من بعده ، حتى لا تَحُلُوْا أرضَها من رِواصي الجِبَالِ ، ولا سَواها من مَطالِعِ
الكواكبِ التي تَحُلُوْا ظِلْمَةَ اللَّيَالِ ، وقد مضى وَالِدُ الْعَبْدِ إلى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَهُوَ مَرَوِّدٌ من
الطَّاعَةِ خَيْرَ زَادٍ ، غَيْرَ خَائِفٍ من إحصاءِ الرُّقِيبِ الْعَتِيدِ إِذْ جَعَلَهَا لَهُ من الْعَتَادِ ، وما
عليه وَقَدْ تَفَعَّلَتْ كَيْفَةَ مِيزَانِهِ ما كانَ في الكَيْفَةِ الأُخْرَى من السَّجَلَّاتِ الكَثِيرَةِ الْأَعْدَادِ .
ومضمونُ وصِيَّتِهِ التي عهدَتهَا أن نَمُشِيَ في الطَّاعَةِ على أثرِهِ ، وَنَهْتَدِيَ بالأوامرِ
الشَّرِيفَةِ في مَوْرِدِ الأَمْرِ وَمَصْدَرِهِ ، وقد جَلَعَهَا الْعَبْدُ نَجْمِي فَكَرَهُ إِذَا قَامَ وَإِذَا قَعَدَ .
وسُبْحَةُ صَلَاتِهِ إِذَا رَكَعَ وَإِذَا سَجَدَ ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ لَمْ يَمُضِ والده حتى أَبْقَى لِلدَّوْلَةِ مِنْ
يُثْبِتُ قَدَمَهُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ ، وعندَ ذَلِكَ يُقَالُ إِنَّ غَضْنَ الشَّجَرَةِ كَالشَّجَرَةِ في نَبَاتِ
أَصْلِهِ ، وَقُوَّةِ مَعْجَمِهِ . وهذا مَقَامٌ لا تَمْتَنَّا فِيهِ الْآبَاءُ عَنِ الْأَبْنَاءِ ، وَلَيْسَتْ الْمَرْيَةُ
لَا كَتَاهِلُ السَّنِ إِنَّمَا هِيَ لَشَيْبَةِ الْعَتَاءِ . وقد أَوْتَى بِحُكْمِ الْقَلَمِ أَنْ يَجْرِيَ الْقَلَمُ في
كِتَابِهِ ، وشَهِدَ لَهُ بِالرَّكْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَصِبَ في مِحْرَابِهِ ، وكذلكَ قد أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
أُسَامَةَ على قِتَاءِ عَمْرِهِ ، وشَهِدَ أَنَّهُ خَلِيقٌ بما أَسْنَدَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ ، وَالْعَبْدُ وَإِنْ بَسَطَ
الاستِحْقَاقُ لِسَانَهُ ، فَإِنَّ الْأَدَبَ يَحْكُمُ بِانْقِبَاضِهِ ، وَيُرِيهِ أَنَّ التَّفْوِيضَ إِلَى إِنْعَامِ
الديوانِ الْعَزِيزِ أَسْرَعُ مِنْ نُجْعِ اغْتِزَاضِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنَهَى الْأَمَالِ لَا يَبْلُغُ أَدْنَى تِلْكَ
المَوَاقِبِ ، وَلَوْ جُمِعَتْ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ . ثم سَأَلْتُ مَطالِبَها لَمَّا نَفَصَتْ خَزائنُ الْعَطَايا مِنْ
تِلْكَ الْمَطالِبِ » .

وهذا الفصل من أول الكتاب ، وفيه معنى آيتين من سورة مريم عليها السلام . أما

الأولى فقولته تعالى عند ذكر يحيى عليه السلام «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» (١٩٠) وأما الثانية فقولته تعالى : «وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَرَكَّةً وَكَانَ تَقِيًّا» (١٩١) .

وفي هذا الفصل أيضا معان ثلاثة من الأخبار النبوية ، وليس هذا موضعها ، وإنما جاءت ضُمَّنًا وتبعًا .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الغبار في الحرب ، وهو :

«وَعَقَدَ الْعَجَاجُ شَفَقًا فَانْعَقَدَ ، وَأَرَانَا كَيْفَ رَفَعُ السَّمَاءِ يَغْيِرُ عَمَدٌ ، غَيْرَ أَنَّهَا سَمَاءٌ بُنِيَتْ بِسَنَابِلِكِ» (١٩١) الجباد ، وَزُيِّنَتْ بِنُجُومِ الصَّعَادِ (١٩٢) ، ففيها ما يُوعَدُ مِنَ الْمَنَاطِي مَا لَا يُوَعَدُ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، ومنها تُقَدَّفُ شَيَاطِينُ الْحَرْبِ لَا شَيَاطِينُ الْأَسْتِرَاقِ .
وهذه المعاني مأخوذة من سورة «الرَّعْدِ» (١٩٣) وسورة «الصَّافَّاتِ» (١٩٤) وسورة «الذَّارِيَاتِ» (١٩٥) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف طعام ، وهو فصل من كتاب ، فقلت :

«طَعَامٌ لَا يَمْلُ إِذَا شِينَتْ الْأَطْعَمَةُ بِمِلْكِهَا ، وَكَأَنَّمَا تَوَلَّتْهُ يَدُ الْخَلْقَةِ وَلَمْ تَبَاشِرْهُ الْأَيْدَى بِمِلْكِهَا ، فَهُوَ مِنْ بَقَايَا الْمَائِدَةِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقَدْ طَابَ حَتَّى لَا يُحْتَاجَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ ، وَمَا رَأَاهُ ذُو شَيْعٍ إِلَّا رَأَى تَرْكُهُ عَنَيْنًا ، وَوَدَّ لَوْ زِيدَ إِلَى بَطْنِهِ بَطْنًا» .

وبعض هذا مأخوذ من سورة «المائدة» (١٩٦)

(٩٩) سورة مريم : الآية ١٢ (١٠٠) سورة مريم : الآية ١٣

(١٠١) السنايك جمع سنبل على وزن قفخذ ضرب من العود ، وطرف الحافر .

(١٠٢) الصعاد الرماح .

(١٠٣) انظر سورة الرعد : الآية ٢ «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» .

(١٠٤) انظر سورة الصافات : الآيات ٨ و ٩ .

(١٠٥) انظر سورة الذاريات : الآية ٢٢ «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» .

(١٠٦) انظر سورة المائدة : الآية ١١٤ «قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى ديوان الخلافة . وهو :

« قد تكاثرت وسائل الخادم حتى لا يدري ما يجعله لطلابه سقيراً ، وما منها إلا ما يُقال إنه أولٌ ولكس فيها ما يجعلُ أخيراً ، غير أنه لا يذكر منها إلا ما هو تَوْءَمُ إِيْمَانِهِ والذي لا ينظر الله من ابن آدم إلا إلى مكانه ، وفي ذلك كاف عن الوسائل التليدة والطريقة ، وقول « لا إله إلا الله » لا يعدله شيء من الحسنات المودعة في الصحيفة ، وقد تجدّد الآن للخادم مطلبٌ هو بالنسبة إلى مواهب الديوان العزيز يسير ، ولو قامت مطالبُ الناس في صعيدٍ واحدٍ لأعطى كلاً منها مرامه ولم يقل ذلك كثير ، وكتابه هذا سائر إلى تلك المواهب التي يضيّق عنها صدرُ الأرض باتساعه ، وليس الذي يسأله ممنعاً ، فيحال على النظر إلى الجبل في امتناعه ، وكما أن عبيد الديوان العزيز أطوار ، فكذلك مطالبهم أطوار ، وقد جعل الله الأشياء متفاوتة في مراتبها ، وكل شيء عنده بمقدار » .

وهذا الفصل من أحسن ما يُكتب في استنجاز مطلوب ، وفيه معاني ثلاثة أخبار نبوية ، ومعنى آيتين من القرآن الكريم ، وليس هذا موضع الإخبار وإنما جاء ضمناً وتبعاً ، فالآية الأولى في سورة « الأعراف » والآية الثانية في سورة « الرعد » (١٠٧) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب ، وهو :

« إذا دَجَا ليلُ قلّمه ، وطلّعت فيه نجومُ كلمه ، لم يقعد لها شيطان بلاغةً مقعداً ، إلا وجد له شهاباً مرصداً ، فأسرأها مصونة عن كل خاطف ، مطوية عن كل قائف » .

وهذا المعنى مأخوذ من سورة « الجن » (١٠٨) .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كاتب أيضاً . فقلت :

« له بنت فكر ما تمخضت بمعنى إلا أنتجت من غير ما تهمله . وأنت به قومها

(١٠٧) سورة الرعد : الآية ٨ .

(١٠٨) انظر سورة الجن : الآية ٩ .

تَحْمِلُهُ . ولم يُعْرَضْ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا الْقَوَا أَقْلَامَهُمْ أَيْهِمْ يَسْتَعِيرُهُ . لَا أَيْهِمْ
يَكْفُلُهُ .

فِي هَذَيْنِ السَّطْرَيْنِ آيَاتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : الْأُولَى فِي سُورَةِ « مَرْيَمَ » وَقَصَّتْهَا
وَقِصَّةٌ وَلِذَا عَلَيْهَا السَّلَامُ . وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ » (١٠٩) .
وَالثَّانِيَةِ فِي سُورَةِ « آلَ عِمْرَانَ » فِي قَوْلِهِ : « إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيْهِمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ » (١١٠) .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي فِصْلِ مِنْ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ وَصْفَ الْقَلَمِ ، فَلَقْتُ :

« وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَلْبِهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَى النَّحْلِ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَأْوِي إِلَى الْمَكَانِ
الْوَعْرِ ، وَهِيَ تَأْوِي إِلَى الْبَيَانِ السَّهْلِ ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْتَنِيَ مِنْ ثَمَرَاتِ ذَاتِ أَرْوَاحٍ
لَا ذَاتِ أَكْثَامٍ ، وَيُخْرِجُ مِنْ نَفْثَاتِهِ شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ طَعْمُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلْأَفْهَامِ . وَأَيْنَ مَا
تَنْبَتْهُ كَثَافَةُ الْخَشَبِ مِمَّا تَنْبَتْهُ لَطَافَةُ الْمَعْنَى ؟ وَلَا تَسْتَوِي نَصَارَةُ هَذَا الثَّمَرِ وَهَذَا الثَّمَرِ ، وَلَا
طِيبُ هَذَا الْمَجْنَى وَهَذَا الْمَجْنَى ، وَقَدْ أَرْخَصَ اللَّهُ مَا يَكْثُرُ وَجُودُهُ فَيَذْهَبُ فِي لَهَوَاتِ
الْأَفْوَاهِ ، وَأَعْلَى مَا يَعْرِضُ وَجُودُهُ ، فَيَبْقَى خَالِدًا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْصَافِ
لَا تَصِحُّ إِلَّا فِي قَلَمِ سَيِّدِنَا الَّذِي إِذَا خَلَا بِخَاطِرِهِ امْتَلَأَتْ بِحَدِيثِهِ الْحَقَائِلُ ، وَإِذَا خَلَا كِتَابُهُ
وَجَدَتْ الْكُتُبَ الْحَالِيَةَ مِنْ قَبْلِهِ وَهِيَ عَوَاطِلُ ، فَلَهُ حَيْثُ شِئْنَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى غَيْرِهِ بَعِينَ
الِاحْتِقَارِ ، وَلَوْ أَصَفَهُ أَنْ يُسَهِّبَ وَهُوَ قَائِمٌ مَقَامَ الْاِخْتِصَارِ .

هَذَا الْفِصْلُ غَرِيبٌ عَجِيبٌ ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَضْدَادِ فَمُنَالَهُ بَعِيدٌ . وَفَهْمُهُ قَرِيبٌ ،
وَهَذَا مَأْخُذٌ مِنْ سُورَةِ « النَّحْلِ » .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي ذِمِّ نَحْلٍ ، وَهُوَ :

« لَهُ شِيْمَةٌ فِي الْجُودِ لَا يُشَامُ نَائِلُهَا ، وَإِذَا هَزَّهَا سَأَلْتُهَا قَالَ : إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .
وَهَذَا مَأْخُذٌ مِنْ سُورَةِ « الْمُؤْمِنِينَ » (١١١)

(١٠٩) سورة مريم : الآية ٢٧ . (١١٠) سورة آل عمران : الآية ٤٤ .

(١١١) سورة المؤمنين : الآية ١٠٠ .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب ، وهو :

« وصل كتابه ، فوقف منه على اللَّفْظِ الرَّحِيمِ ، والمعنى الذي هو في كل واحدٍ يهيم .
وقال : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي إِعْلَائِهِ قَدْرَهُ ، وَتَوْبِهِ ذِكْرَهُ ،
وَلَمْ يَسْتَفْتِ الْمَلَأَ فِي الإِذْعَانِ لِأَمْرِهِ ، وَلَا أَهْدَى فِي قُبَالَتِهِ سِوَى هَدْيِهِ لِسَانِهِ وَصَدْرِهِ ، لَا
جَرَمَ أَنَّهَا تُقْبَلُ وَلَا تَرَدُّ ، وَيُعْتَدُّ بِهَا وَلَا تُعَدُّ ، فَإِنَّهَا مَالٌ لَا يُنْفَدُهُ الإِنْفَاقُ ، وَجَوْهَرٌ
تَحُلَّى بِهِ الْأَخْلَاقُ ، لَا الْأَعْنَاقُ » .

وهذا مأخوذٌ من قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِتَابِهِ إِلَى بَلْقَيْسَ ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي
سُورَةِ « النَّمْلِ » (١١٢) وَفِي هَذَا مِنْ شَرَفِ الصَّنِيعَةِ أَنَّهُ خُولِفَ بَيْنَ مَعَانِيهِ وَمَعَانِي مَا أَتَى بِهِ
الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب يتضمن ذكر معركة حرب بين المسلمين
والكفار . وهو :

« إِذَا خُطِبَ الْقَلَمُ عَنِ الرَّمْحِ الَّذِي هُوَ نَدِيدُهُ قَامَ مُحْتَفِلًا ، وَأَسْهَبَ مَتَرَوِيًّا
وَمُرْتَجِلًا ، حَتَّى يَأْتِيَ فِي خُطَابَتِهِ بِالْمَعَانِي الْأَخْثَارِ ، وَأَصْدَقُ الْقَوْلِ مَا صَدَرَ عَنْ شَهَادَةِ
الضَّرَائِرِ لِلضَّرَائِرِ . وَكُنَّا هَذَا يَصِفُ مَعْرَكَةً أَحْمَرَتْ ضَبَابُهَا ، وَضَاقَتْ بِالْأَسْوَدِ
غَابَتُهَا ، فَالطَّعْنَ بِهَا مُحْتَضِرٌ ، وَالْمَوْتُ مُحْتَقَرٌ وَالنَّصْرُ مِنْ كُلِّ الْفَرِيقَيْنِ مُقْتَسَرٌ ، وَكَانَ
الإِسْلَامُ هُنَاكَ زَجْرَ السَّيِّحِ (١١٣) ، وَفُوزَ الْقِدْحِ الْمَنِيحِ (١١٤) . وَلَيْسَ الَّذِي يَرْقُبُ
الْمَوْتَةَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْمَسِيحِ كَمَنْ يَرْقُبُهَا مِنَ الْمَسِيحِ ، وَلَقَدْ نَفَذَتْ الرَّمَاحُ فِي
أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى اعْتَدَلَتْ مِنْ جَانِبَيْ الصُّدُورِ وَالظُّهُورِ ، وَتَرَكْتَ النَّاجِيَ مِنْهُمْ وَهُوَ
لَا يَنْظُرُ إِلَى الصَّلِيبِ إِلَّا نَظَرَ الْحَائِثِ الْمَذْعُورِ ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهَا جَيْشٌ يُجْمَعُ . وَلَا

(١١٢) سورة النمل : انظر الآية (٢٩) وما بعدها من الآيات .

(١١٣) السنيح والنايح : ما ولاك ميامنه . وكانوا يتغاملون به . ومنه قولهم « من لى بالسائح بعد البارح »
أى بالبارك بعد الشؤم .

(١١٤) المنيح على وزن أمير فدهج بلا نصيب . قد يستعار تيمنا بفوزه . أو قدح له سهم (انظر القاموس
المحيط ٢٥٩/١) .

لواء يُرفع ، وقد كانت بلادهم من قبل مائة ، وهى الآن لا تَدْبُ عنها ولا تَمْنَع .
وهذه معركة قُلتَ بها الرقابُ المأسورة ، وكثرت النفوسُ المقتولة ، وقُرِيتَ بها القرايينُ
التي تأكلها النار ، لأنها مقبولة .

ومعنى الآية فى هذا الفصل مأخوذٌ من سورة «آل عمران» إلا أنها تخالفه ، وذلك
أنَّ القربانَ كانَ يُقبَلُ ، فَتَرُلُ النارُ تأكله ، وأجسادُ هؤلاء الكُفَّارِ قربانٌ تأكله النار ،
ولكنها لا تأكله لأنه مقبول ، وباقى الفصل يتضمن معنى حسناً رقيقاً .

**ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق بعض
الإخوان ، وهو :**

« ولقد صبرتُ على أخلاقه العاتية ، وعاملته بالخلقة الرائية ، وعالجته بضروب
المعالجات ، فلم تنفع فيه رُقَى الرّاقية ، ولا نَفَثُ النافثة ، ولما أعيأ على إصلاحه
أَخَذْتُ بمقالة الخِضِرِ لموسى فى المِرَّةِ الثالثة .

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخِضِرِ فى سورة
«الكهف» (١١٥) .

ومن ذلك ما ذكرته فى فصل من كتاب ، وهو :

« نَجْمَعُوا فى نارِ النَّدَمِ يُعْرَضُونَ عليها غدواً وَعَشِيًّا ، وصار الأمرُ الذى كانوا يَرْجُونَهُ
مَخْشِيًّا ، وأضحوا كَأَهْلِ النارِ الَّذِينَ صارُوا أعداءً ، وكانوا شِيعاً ، وقال ضَعْفَاؤُهُمْ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً .

وهذا مأخوذ من سورة «حم المؤمن» (١١٦) «ومن سورة «سبا» (١١٧) .

(١١٥) لعله يشير إلى قوله تعالى «... لاتصاحبنى قد بلغت من لدنى عدلاً» - الآية ٧٦ من سورة
الكهف . وكان ذلك بعد المرة الثانية . بعد سؤاله عن خرق السفينة ، وعن قتل الغلام .
(١١٦) سورة غافر : الآية ٤٦ «النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد
العذاب» .

(١١٧) انظر سورة سبا : الآيات ٣٩، ٣٨، ٣٧ .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم غلام أبله :

كنت أقاسى من بَلَّه نكداً ، فكبتُ يوماً من الأيام إلى بعض إخواني كتاباً .
وعرَّضْتُ فيه بذكره ، فقلت :

ولقد ملكهُ السَّيَّانُ ، حتى كأنه بَقْطٌ في صُورَةِ نائمٍ ، وحتى حَقَّقَ قولَ التَّناسُخِ في
نقلِ أرواحِ الأناسي إلى البهائم ، فما أُرْسِلَ في حاجةٍ إلا ذهبَ عن قلبه يَمَنَةٌ وَيَسْرَةٌ ،
ولا طُلِبَ منه ما اسْتَحْفَظَه إلا قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ .

وهذا فصلٌ يشتملُ على عدة معانٍ منها ما هو مأخوذٌ من القرآن الكريم من سورة
« الكهف » (١١٨) .

ومن ذلك ما ذكرته في تقليد قاضي ، وهو فصل منه ، فقلت .

« والفضائلُ ما بقيت موجودة ولم تفقد ، وهي حيَّةٌ وإن أودى أربابُها ولا يموتُ مَنْ
لَمْ يُولَدْ ، وبينَ أكرم ما أُوتيه منها فضيلةُ التَّقْوَى التي الكرمُ من شِعَارِها ، والعاقبةُ
والحسني كلاهما من آثارِها . وما نقولُ إلا أَنَّهُ اتخذها حارساً يمنع الخضمَّ من تَسُورِ
محرابه ، ويؤمنُ قلبه من الفتنةِ الداعيةِ إلى استغفاره ومُتَابِهِ ، وقد قرَنَ الله له هذه
الفضيلةَ بالعلم الذي أَعْلَمَهُ بعلامته ، وَوَسَّمَهُ بِوَسَامَتِهِ ، وَقَذَفَ فِي رُوعِهِ مَا لَا يُسألُ مَعَهُ
عن السَّيِّئَةِ وَخَرَقَهَا ، وَالْغَلَامَ وَقَتْلَهُ ، وَالْجِدَارَ وَإِقَامَتِهِ ، وعلى ما بلغه مِنْهُ فَإِنَّهُ فِيهِ أَحَدُ
الْمُنْهَوِّمِينَ الَّذِينَ لَا يَشْبَعَانِ » (١١٩) ، وَإِذَا كَانَ لِغَيْرِهِ فِيهِ نَظَرٌ وَاحِدٌ وَمَسْمَعٌ ، فَلَهُ فِيهِ
نَظَرَانِ وَمَسْمَعَانِ » .

في هذا الفصل المختصر معاني عدَّة آيات وخبر من الأخبار النبوية :
أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » (١٢٠) .

(١١٨) انظر سورة الكهف : الآية ٦٣ .

(١١٩) إشارة إلى الخبر المأثور « من هويا ولا يشيعان : طالب علم وطالب مال » .

(١٢٠) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » (١٢١)
 وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الصَّخْرَ » (١٢٢) .
 وَأَمَّا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا » (١٢٣) .
 وَكَذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْبَابِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي جُمْلَةِ كِتَابِ يَتَضَمَّنُ عُنَايَةَ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ فَقُلْتُ بَعْدَ
 الْإِبْتِدَاءِ بِصَدْرِ الْكِتَابِ :

« وَقَدْ عَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَحْدُ لَطَالِبِ فَضْلِهِ فَضْلاً ، وَيَرَى التَّوْبِعَ بِمَعْرُوفِهِ قَرَضاً ، إِذَا رَأَاهُ
 غَيْرُهُ مَعَ الْمُسَاءَلَةِ نَفْلاً ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَزِيَّةِ خُلُقِي تَوَحَّدَ بِطِيبِ التُّرْبَةِ وَشَرَفِ الرَّبَّةِ ، وَأَوْتِيَتْ
 مِنْ كُنُوزِ الْكَرَمِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ، وَلِهَذَا خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي
 زِينَتِهِ ، وَفَضَّلَ الْخُلُقَ بِطِينَةٍ غَيْرِ طِينَتِهِ ، وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ يَسْأَلُ عَنِ السَّائِلِينَ ، وَيَحْتَالُ فِي
 اسْتِنْبَاطِ أَمَلِ الْآمِلِينَ » .

ثُمَّ مَضَيْتُ عَلَى هَذَا التَّنْهِجِ حَتَّى أَنْهَيْتُ الْكِتَابَ .
 وَالْغَرَضُ أَنْ تَعْلَمَ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ كَيْفَ تَضَعُ يَدَكَ فِي أَخْذِ مَا تَأْخُذُهُ مِنْ بَعْضِ الْآيَةِ ،
 ثُمَّ تُضِيفُ إِلَيْهِ كَلَاماً مِنْ عِنْدِكَ ، وَتَجْعَلُهُ مَسْجُوعاً ، كَمَا قَدْ فَعَلْتُ أَنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .
 أَلَا تَرَى أَنِّي أَخَذْتُ بَعْضَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قِصَّةٍ مِنْ سُورَةِ (الْقَصَصِ) وَهِيَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ
 لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » (١٢٤) . فَهَذِهِ
 الْآيَةُ أَخَذْتُ مِنْ بَعْضِهَا ، وَأَضَفْتُ إِلَيْهِ كَلَاماً مِنْ عِنْدِي ، حَتَّى جَاءَ كَمَا تَرَاهُ مَسْجُوعاً .
 وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بِالْآيَةِ الْأُخْرَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضاً وَهِيَ قَوْلُهُ : « فَخَرَجَ عَلَى

(١٢١) سورة طه : الآية ١٣٢ .

(١٢٢) سورة (ص) : الآية ٢١ .

(١٢٣) سورة الكهف : الآية ٧١ .

(١٢٤) سورة القصص : الآية ٧٦ .

قَوْمِهِ فِي زَيْتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾

وهذا ينبغي لك إذا أردت أن تسلك هذه الطريق ، وقدّرت على سلوكها ، وهي من محاسن الصناعة البلاغية ، وليست فوقها من الكلام ما هو أعلى درجة منها ، لأنها مزوجة بالقرآن ، لا على وجه التضمن ، بل على وجه الانتظام به ، والله يختص بها من يشاء من عباده .

وفها ذكرته من نثر هذه الآيات كفاية للمتعلم .

وأما الأخبار النبوية فكالقرآن العزيز في حل معانيها .

فإن قلت : إن الأخبار النبوية لا يجرى فيها الأمر مجرى القرآن ، إذ القرآن له حاصر وضابط ، وكل آياته تدخل في الاستعمال ، كما قال بعضهم : لَوْ ضَاعَ مِنِّي عَقْلٌ لَوَجَدْتُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وأما الأخبار فليست كذلك لأنها كثيرة لا تنحصر ، ولو انحصرت لكان منها ما يدخل في الاستعمال ، ومنها ما لا يدخل . ولابد من بيان يمكن الإحاطة به والوقوف عنده ؟

قلت في الجواب عن هذا : إنك أول ما تحفظه من الأخبار هو كتاب « الشهاب » فإنه كتاب مختصر ، وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكماً وأدباً ، فإذا حفظته ، وتدرّبت باستعماله كما أريتك هاهنا حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك تصفح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، وأهل مكة أخبر بشعابها ، والذي تأخذه إن أمكنك حفظه والدرس عليه فهو المراد ، لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة ، وإن كان لك محفوظات كثيرة كالقرآن الكريم ، ودواوين كثيرة من الشعر ، وما ورد من الأمثال السائرة ، وغير ذلك مما أشرنا إليه ، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار ، والإكثار من استعمالها في كلامك ، حتى ترقم على خاطرك ، فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته ، وسهل عليك أن تأتي به انجبالاً . فتأمل ما أوردته عليك ، واعمل به .

وكنْتُ جَرَدَتْ من الأخبارِ النبويَّةِ كتاباً يشتملُ على ثلاثةِ آلافِ خبرٍ ، كُلُّها تدخلُ في الاستعمالِ ، ومازلْتُ أواظُبُ مطالعته مدةَ تَزيد على عَشْرِ سنينَ ، فكنتُ أنهي مطالعته في كلِّ أسبوعٍ مرَّةً ، حتى دارَ على ناظرِي وخطاطِرِي ما يزيد على خَمْسِائِهِ مرَّةً . وصارَ محفوظاً لا يشُدُّ عني منه شيءٌ . وهذا الذي أوردته هاهنا في حلِّ معاني الأخبار هو من هناك .

وسأذكرُ ما دارَ بيني وبينَ بعضِ علماءِ الأدبِ في هذا الأسلوبِ الذي أنا بصددِهِ هاهنا

وذاك أنه استوعَّره وأنكره ، وقال : هذا لا يتبيَّنُ إلا في الشيءِ السَّيرِ من الأخبار النبويَّةِ .

فقلت : لا بل يتبيَّنُ في الأكثرِ منها .

فقال : قد ورَدَ عن النبي ﷺ أنه اختَصِمَ إليه في جَنينَ ، فَقَضَى على من أسْقَطَهُ بِغَرَّةٍ : عبدٌ أو أمَةٌ ، فَأَيُّنَ يُسْتَعْمَلُ هذا ؟

فأفكرتُ فيما ذكره ، ثم أنشأتُ هذا الفصلَ من الكلامِ ، وأودعته فيه .

وقد كثر الجهلُ حتى لا يقالَ فلانُ عالمٌ وفلانُ جاهلٌ ، وضربَ المثل

بِأَقْلٍ (١٢٦) ، وكَمَ في هذه الصُّورَةِ المثلَّةِ من باقِلٍ ، وَلَوْ عَرَفَ كُلُّ إنسانٍ قدرَهُ لما مَشَى بَدَنَ إلا نَحْتَ رأسِهِ ، ولا انتصبَ رأسٌ إلا على بَدَنِهِ ، ولكانَ صاحبُ العمامَةِ بعمامَتِهِ .

وصاحبُ الرِّمَنِ أحقُّ بِرِسِّهِ وكنْتُ سمعتُ بكاتبَ من الكتابِ كلمةً إلى غُثائِهِ ، وقلمُهُ

بُغائَةٍ لا يَسْتَنسِرُ (١٢٧) وأَيُّ بَطشٍ لِبَغائَةٍ ، وإذا وَجَبَ الوضوءُ على غيره بالخارجِ من

السَّيْلينَ وجبَ عليه من سَبَلٍ ثلاثة . هذا وهو يدَّعي أَنَّهُ في الفصاحةِ أمةٌ وحدهُ ، ومن

قُسِّ إِيادِ (١٢٨) وسَحَبانَ وأَثَلِ (١٢٩) عنده ؟ وإذا كُثِفَ عن خاطره وَجِدَ بليداً ، لا يَخْرِجُ

(١٢٦) رجلٌ مشهورٌ عندهم بالحقِّ . قالوا إنه اشترى ظليماً بأحدِ عشرَ درهماً . فسلَّ عن شرائِهِ . ففتحَ كفيه وأخرجَ لسانَهُ يشيرُ إلى غَمَّتِهِ . فانفَلَتَ الظُّلَمُ . وضربَ به المثلُ في العميِّ .

(١٢٧) البغاثُ من الطيرِ ما لا يصيدُ ولا يرغبُ في صيدهِ لأنَّهُ لا يؤكَلُ . وهو بطيءُ الطيرانِ . واستنسرَ البغاثُ صارَ نَسْراً . وعليهِ قولُهُم : إن البغاثَ بأَرْضنا يستنسرُ أَي أَن الضعيفَ يصيرُ قوياً بأَرْضنا .

(١٢٨) هوقس بن ساعدة الإيادي . أحدُ خطباءِ العربِ المشهورينَ . سمِعَ النبي ﷺ يخطبُ في الموسمِ .

(١٢٩) سحبانٌ وأَثَلٌ . مضربُ المثلِ في الخطابةِ والفصاحةِ والبيانِ .

عن العمِّ والكَمِّ ، وإنَّ رَامَ أَنْ يَسْتَنْجَهُ فِي حِينَ مِنَ الْأَحْيَانِ قَضَى عَلَيْهِ بَغْرَةٌ عَبْدٍ أَوْ أُمَةٍ ، وَكَثِيرًا مَا يَتَقَدَّمُ وَتَقِصُّهُ هَذِهِ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؟ وَقَدْ صَارَ النَّاسُ إِلَى زَمَانٍ يَعْلَمُونَ فِيهِ حَقِيقَتُ الْأَرْضِ عَلَى هَامِ السَّمَاءِ .

فلما أوردته عليه ظهرتْ أَمَارَةُ الْحَسَدِ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، مَعَ إعْجَابِهِ بِهِ ، وَاسْتِغْرَابِهِ إِيَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا الْحَدِيثُ وَهُوَ : « لَا تَدْخُلِ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا تَمَثَالٌ » فَهَذَا أَيْنَ يَسْتَعْمَلُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ ؟ فَزَوَّيْتُ فِي قَوْلِهِ تَرْوِيًا سِيرًا ، ثُمَّ قُلْتُ هَذَا يُسْتَعْمَلُ فِي كِتَابٍ إِلَى دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَأَمْلَيْتُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَجَاءَ هَذَا الْحَدِيثُ فِي فَصْلِ مِنْهُ ، وَهُوَ :

« إِذَا أَفَاضَ الْخَادِمُ فِي وَصْفِ وَلَانِهِ نَكَصَتْ هَمُّ الْأَوْلِيَاءِ عَنْ مَقَامِهِ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ أَخَذَ الْأَمْرَ بِزَمَانِهِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَلَيْسَ بَقَلْبِهِ سِوَى الْوَلَاءِ وَالْإِيمَانِ ، فَهَذَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي طَاعَةِ السَّرِّ ، وَهَذَا فِي طَاعَةِ الْإِعْلَانِ ، وَمَا عَدَاهُمَا فَإِنَّ دُخُولَهُ إِلَى قَلْبِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَحْظُورَةِ ، وَالْمَلَائِكَةُ تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ تَمَثَالٌ وَلَا صُورَةٌ ، فَلْيَعْوَاءِ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ عَلَى سَيْفٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ يَقْرَى بِلَ ضَارِبٍ ، وَيَسْرَى بِهَا حَامِلٍ ، وَلَا يَسْلُ إِلَّا بِبِدِّ حَقٍّ ، وَلَا يُعْمَدُ إِلَّا فِي ظَهَرٍ بَاطِلٍ . وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ كَرِشُهُ وَعَيْتُهُ فِي تَضَمُّنِ الْأَسْرَارِ ، وَأَنَّهُ أَحَدُ مُسْعِدِيهِ إِذَا عُدَّتْ مَوَاقِفُ الْأَنْصَارِ . »

فلما رَأَى هَذَا الْفَصْلَ بُهِتَ لَهُ ، وَأَعْجَبَ مِنْهُ ، ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَقْنَعُ بِإِيرَادِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ ، حَتَّى قَرَنْتُ بِهِ حَدِيثًا آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ « الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْتِي » . وَحَيْثُ عَرَفْتُكَ أَيُّهَا الْمُتَعَلِّمُ مَا تَقْتَدِي بِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَقَدْ ذَكَرْتُ لَكَ أَمْثَلَةً كَثِيرَةً تَتَدَرَّبُ بِهَا .

فَإِنَّ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي دَعَاءِ كِتَابِ مِنَ الْكُتُبِ ، وَهُوَ :

« أَعَاذَ اللَّهُ أَيَّامَهُ مِنَ الْغَيْرِ ، وَبَيْنَ يَخْطُرِ مَجْلَدِهِ نَقَصَ كُلِّ خَطَرٍ ، وَجَعَلَ ذِكْرَهُ زَادًا لِكُلِّ رَكْبٍ ، وَأَنْسَأَ لِكُلِّ سَمَرٍ ، وَمَنْحَهُ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ . »

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث في وصفِ نعم الجنة ، فنقلته إلى الدعاء .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الحلم . وهو :

« تركته حتى جال في الميدان ، وامتدَّ في الأَشْطَان (١٣٠) ، ولم أنتصر خوفاً من قيام الملك وقعود الشيطان ، والحليم لا يظهر أثر حِلْمه إلا عند تلدِّده (١٣١) ، والكظيم (١٣٢) هو أشدَّ ما يُخَافُ من تبدِّده » .

وهذا المعنى أخذته من قصة أبي بكر - رضى الله عنه - في خصامه ، فإنه بُغِيَ عليه ثلاث مرَّاتٍ وهو ساکت ، ففى الثالثة انتصر . فقال النبی ﷺ : « كان الملك جالساً إلى جانب أبي بكرٍ يكذبُ خصمه بما يقول ، فلما انتصر قام الملك وقعد الشيطان » .

ومن ذلك ما ذكرته في النصرة على العدو في موطن القتال ، وهو :

« أخذنا بسنة رسول الله ﷺ في النصر الذي نرجوه ، ونبذنا في وجه العدو كما من الزاب ، وقلنا : شأته (١٣٣) الوجوه ، فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا ، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا » .

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين ، وما فعله رسول الله ﷺ في أخذه قبضة من الزاب ، وألقاها في وجوه الكفار ، وقوله : « شأته الوجوه » والمعنى الآخر مأخوذ من حديث غزوة بدر ، وذلك أن رجلاً من المسلمين لا في رجلاً من الكفار ، وأراد أن يضربه ، فخرَّ على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه وهو يقول : « أقدم حيزوم (١٣٤) » فجاء إلى النبي ﷺ وأخبره ، فقال : « ذاك من مدد السماء الثالثة » .

(١٣٠) الأَشْطَان جمع شطن وهو جبل البئر .

(١٣١) تلدد تلفت ميتاً وشيئاً ، ونحير . وذلك عند اشتداد الحصرمة .

(١٣٢) الكظيم الذى يكظم الغيظ ، أى يبتى على ما في نفسه منه على صفع أو غيظ .

(١٣٣) شأته الوجوه قبحه .

(١٣٤) حيزوم : فرس جبريل عليه السلام ، كما في القاموس .

ومن ذلك ما ذكرته في ضيق مجال الحرب ، وهو :

« وضاقَ الضربُ بينَ الفريقينَ حتى اتصلتْ مواقعُ البيضِ الذكورِ ، وتضافعتِ
الغُورُ بالغُورِ » (١٣٥) ، والصُّدُورُ بالصُّدُورِ . واستظلَّ حينئذٍ بالسُّيوفِ لاشتباكِ مَجَالِهَا ،
وتبوَّئتْ مقاعدُ الجنَّةِ الَّتِي هِيَ تَحْتَ ظِلَالِهَا »
وهو مأخوذ من الحديث النبوي وهو قولُ النبي ﷺ « الجنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ
السُّيوفِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب آدم فيه الزمان ، فقلت :

« ولكنَّها الأيامُ تُبْدِي لنا من جَوهرِها كلَّ غَرِيبَةٍ ، وتَسوِّسُنا سياسةَ العَبْدِ المُجْدِعِ
الَّذِي كَانَ رَأْسُهُ زَيْبَةً ، وَلَيْسَ للمرءِ فيها يَلْقَاهُ من أَحَدِائها نَعْمَى كانتْ أَوْ بُوسَى ، إِلَّا
أَنْ يَكِلَ الأمورَ إِلَى وَلِيَّهَا فيقولُ حاجُّ آدمَ موسى » .
وهذا مأخوذ من الخبر النبوي في قوله ﷺ : « حاجُّ آدمَ موسى ، فقال لَهُ موسى :
أَنْتَ أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَشَقَّيْتَهُمْ . فقال لَهُ آدَمُ : أَنْتَ الَّذِي
اصْطَفَاكَ اللهُ تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ ، أَتُلَوِّمُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ
يَخْلُقَنِي ؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ : « فحجَّ آدمُ موسى » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف بعض الكتاب ، وهو فصل من كتاب كتبه إليه

فقلت :

« ولقد سُرِدَتْ عليه أَحاديثُ البَلَاغَةِ ، فاستغنى عن بَسْطِ رَدَائِهِ ، وَهَدَى إِلَى
جَوَامِعِ كَلِمِهَا ، فَاقْتَدَى النَّاسُ بِاهْتِدَائِهِ ، فَإِذَا اشْتَبَهَتْ عِنْدَهُ مَسَالِكُ طُرُقِهَا لَمْ يَمْلِكْهُ
سُلْطَانُ الْحَيَرَةِ ، وَإِنْ أَغْرَبَ فِي أَسَالِيبِهَا لَمْ يُقِلْ فِيهِ مَا قِيلَ فِي رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ » .
وهذا الفصلُ من أَحْسَنِ مَا يُؤَيِّى بِهِ فِي صِنَاعَةِ نَثْرِ الْمَعَانِي ، وَهُوَ مأخوذُ من حديثِ
أَبِي هُرَيْرَةَ ، قال : قلتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَسْمِعْ مِنْكَ أَشْيَاءَ فَلَا أَحْفَظُهَا ، فقال : أَبْسُطْ

(١٣٥) العور وبهاء وقد تهمز وبعج في رصف الفرس تنفش إذا مسحت وتجمع إذا تركت .

رداءك . فَبَسَطْتَهُ . فحدَّثَ حَدِيثًا كَثِيرًا ، فَانَسِيْتُ شَيْئًا حَدَّثَنِي بِهِ . وَأَمَّا رِوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَشَكَّ فِيهَا قَوْمٌ لِكَثْرَتِهَا .

وقد اجتمع في هذا الفصل معنى الحديث النبوي وغيره . ومثل هذا لا يتفطن له عند الوقوف عليه إلا مَنْ تبحر في الوقوف على الأخبار النبوية ومن أجلى ذلك جعلته ركناً من أركان الكتابة في الفصل التاسع .

ومن ذلك ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت :

« ومن صفاتها أنها مدرة (١٣٦) مستولة الطينة ، مجموع لها بين حرمة ولأواء (١٣٧) المدينة ، إلا أنها لم يَأْمَنْ حَرَمُهَا في الخطفة ، ولا نقلت حَمَاهَا إلى الجُحفة » . في هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم وخبران من الأخبار النبوية . فالآية من سورة العنكبوت ، وهي قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » (١٣٨) . وهذا موضع يختص بالأخبار لا بالآيات ، غير أن الآية جاءت ضمناً وتبعاً .

وأما الخبران ، فالأول منها قول النبي ﷺ : مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَأَوَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ . وأما الثاني فقولهُ ﷺ في دعائه للمدينة : « اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا لَنَا كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ ، وَانْقُلْ حَمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ » (١٣٩) .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات ، حتى تعلم أن عِدَّتَهَا مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء .

وهذا طريق لو ادَّعَيْتُ الانفراد بسلوكة لما اختلف على في الاعتراف به اثنان .

(١٣٦) المدرة واحدة المدر . وهي المدن والحواسر .

(١٣٧) الأواء والشلّة .

(١٣٨) سورة العنكبوت : الآية ٦٧ .

(١٣٩) الجحفة : كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة إلى مكة ، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يَمْرُوا على المدينة . وكان اسمها مهيعة . وسميت الجحفة لأن السيل جففها . وبينها وبين البحر ستة أميال .

ومن ذلك ما كتبه في كتاب إلى بعض الإخوان جواباً عن كتاب ورد منه :

وكان كتابه تأخر عني زماناً طويلاً ، فقلت :

« وَلَمَّا تَأَمَّلْتُهُ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ وَالتَزَمْتُهُ ، ثُمَّ اسْتَلَمْتُهُ وَالتَّسَمَّيْتُ ، وَعِلِمْتُ أَنَّ الْمَعَارِفَ -
وَإِنْ قَدَمْتُ أَيَّامَهَا - أَنْسَابٌ وَشَيْجَةٌ ، وَتَأَسَّيْتُ بِالْخَلْقِ النَّبَوِيِّ فِي الْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ
تَأْتِي فِي زَمَنِ خَدِيجَةٍ » .

وهذا مأخوذ من الخبر المنقول عن عائشة رضي الله عنها ، وهو أنها قالت : كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُعْضِيهَا ^(١٤٠) أَعْضَاءً ، وَيُقَسِّمُهَا فِي أَصْدِقَائِهِ خَدِيجَةٍ ،
وَكَانَتْ تَأْتِيهِ عَجُوزٌ فَيَكْرِمُهَا وَيَبْسُطُ لَهَا رِءَاءَهُ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ « هَذِهِ كَانَتْ
تَأْتِينَا فِي زَمَنِ خَدِيجَةٍ ، وَحُسِّنَ الْعَهْدُ مِنَ الْإِيمَانِ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كتاب ، وهو :

« كُلُّ سَطْرٍ مِنْهُ رَوْضَةٌ ، غَيْرُهَا لَيْلٌ فِي صَبَاحٍ ، وَكُلُّ مَعْنَى مِنْهُ دُمِيَّةٌ ، غَيْرُهَا
لَيْسَ عَلَى مُصَوِّرِهَا مِنْ جُنَاحٍ » .
وهذا مأخوذ من الحديث في تحريم الصور .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كرم وهو :

« فَأَغْنَى بِجُودِهِ إِغْنَاءَ الْمَطَرِ ، وَسَمَّا إِلَى الْعَالِي سُمُو الشَّمْسِ وَسَارَفَى مَنَازِلَهَا مَسِيرَ
الْقَمَرِ ، وَنَتِجَ مِنْ أَبْكَارِ فَضَائِلِهِ مَا إِذَا ادَّعَاهُ غَيْرُهُ قِيلَ : لِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ » .
وهذا المعنى من قول النبي ﷺ : « الْوَلَدُ لِلْفَرَّاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ » .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف الفصاحة ، فقلت :

« أَفْكَارُ الْخَوَاطِرِ لَا تُسْتَوْلَدُ عَلَى انْفِرَادِهَا ، وَغَابِئُهَا أَنْ يُتَنَاجَى فِي اسْتِنَاجٍ أَوَّلَادِهَا ،
وَأَنَا أَنْكِحُ فِكْرِي لِفِكْرِي نِكَاحَ الْأَنْسَابِ ، وَلَا أَخَافُ أَنْ أَضْوَى ، فَأَمِيلَ إِلَى
الْإِغْتِرَابِ » .

(١٤٠) عضيت الذبيحة بالشديد جعلتها أعضاء .

وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ في الأمر بترك البعيدة النسب ، فقال : « غُربُوا لا تَصْنُؤُوا » يريد بذلك أن الإنسان إذا نكح المرأة القريبة إليه حصل بينهما حياة يمنع من قضاء الشهوة كما ينبغي ، فيجىء الولد ضاويًا ، أى هزيلًا . وهذا معنى غريب لي استخرجته من الحديث النبوي .

ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب إلى بعض الإخوان :

جواباً عن كتاب ورد منه يتضمن الشكوى من شخص جرت بينه وبينه مُخاصمة ، فقلت :

« وصل كتابه وهو كتاب من أكثر الشكوى ، وطلب العدوى ^(١٤١) ، ونزل من التظلم بالعدوة ^(١٤٢) الدنيا ، وأنزل خصمه بالعدوة القصوى ، والقاضي لا يحكم لأحد الخصمين حتى يخضر صاحبه . وإن فُقيئت عينٌ أحدهما فرياً فُقيئت عينُ الآخر ، وهشمٌ حاجبه ، على أنه قد اعترف أن كليهما كان للحم أخيه آكلاً ، وعليه في حالٍ مخضره جاهلاً ، وسباب المؤمنين معدود من فسوقه ، وإطراقه عن تورث هذا المقام أولى من طروقه ، ولولا تغليظ النكير لما جعل اللسان واليد سواء فيما جرحا ، ولما أخر الله المغفرة عن الخائضين فيها حتى يصطليحا . فكن أنت ممن أطاع تقواه لا هواه ، واتبع من علم الحق فرآه . أوسمعه فرواه . واعلم أن تهاجر الآخرين فوق الثلاثة من منتهيات الحرام ، وأن الفائر بالأجر منها هو البادئ بالسلام ، ودفع السيئة بالحسنة يجعل العدو ولياً حمياً ، وقد جعل الله المتخلف بهذا الخلق صابراً ، وجعل له حظاً عظيماً ، والشيطان إنما يحوم على آثاره مواقع الشنآن . ولا يحمد من أعماله بنيه شيئاً إلا ما زيل ^(١٤٣) بين الإخوان » .

في هذا الفصل معاني آيات وأخبار ، وهذا الموضع مختص بذكر الأخبار دون الآيات .

(١٤١) العدوى هنا طلب القوة والنصرة . قال ابن فارس : البعدى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك . أى ينتقم منه باعتداله عليك .

(١٤٢) عدوة الوادى جانب . (١٤٣) زيل بينهم فرق .

فَأَوَّلُ الْمَعْنَى الْمَأْخُذَةِ . من الْأَخْبَارِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا أَنْتَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ .
 وَقَدْ قُتِلَتْ عَيْنُهُ ، فَلَا تُحْكَمْ لَهُ ، فَرِمَا أَنْيْ خَصْمَهُ وَقَدْ قُتِلَتْ عَيْنَاهُ .
 وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِي فَقَوْلُهُ ﷺ : « سِيَابُ الْمُؤْمِنِ فَسُوقٌ ، وَقَتَالُهُ كُفْرٌ » .
 وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّلَاثُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنَّ الْأَعْمَالَ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ
 الْخَمِيسِ ، فَيَغْفِرُ لِكُلِّ أَمْرٍ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا أَمْرًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَخَاءٌ » ،
 فيقول : اتركوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلَحَا » .

وَأَمَّا الْمَعْنَى الرَّابِعُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « لَا يَجِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » .
 وَأَمَّا الْمَعْنَى الْخَامِسُ فَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِذَا التَّقَى الْمُتَهَاجِرَانِ ، فَأَعْرَضَ هَذَا ،
 وَأَعْرَضَ هَذَا ، فَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ » .

وَأَمَّا الْمَعْنَى السَّادِسُ فَقَوْلُهُ ﷺ : « إِنَّ إِبْلِيسَ لَهُ عَرْشٌ عَلَى الْبَحْرِ ، فَيُبْتُ بَيْنَهُ فِي
 آفَاقِ الْأَرْضِ فَيَأْتِي أَحَدَهُمْ ، فيقول : فَعَلْتُ كَذَا ، وَفَعَلْتُ كَذَا . فيقول : مَا فَعَلْتُ
 شَيْئًا ، وَيَأْتِي أَحَدَهُمْ فيقول : زَيْلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ ، فيقول :
 نَعَمْ الْوَلَدُ أَنْتَ ! » .

فَانْظُرْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَسْطَرِ الْيَسِيرَةِ مِنْ مَعْنَى خَبَرِ نَبِيِّ . هَذَا سِوَى مَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي
 الْآيَاتِ ، وَإِذَا عَدَدْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْأَسْطَرِ وَجَدْتَهَا جَمِيعَهَا مُنْتَظِمَةً
 مِنَ الْآيَةِ وَالْخَبَرِ .

وهذا مما يدل على الإِكْتِثَارِ مِنَ الْمُحْفُوظِ وَاسْتِحْضَارِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا عَلَى الْفَوْرِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي صَدْرِ كِتَابِي ، وَهُوَ جَوَابٌ عَنْ كِتَابٍ يَتَضَمَّنُ تَهْدِيدًا
 وَتَحْوِيلًا ، فَقُلْتُ :

« وَرَدَ الْكِتَابُ مُضْمِنًا مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَا آتَى نَفْسَ الْمَلُوكِ وَأَوْحَشَهَا ، وَتَقَعَ
 ضُلُوعُهُ وَأَعْطَشَهَا ، وَأَقَامَ لَهُ مِنَ الظُّلُمِ السَّيِّئَةِ جُنُودًا تُقَاتِلُهُ ، وَتَأْخُذُ عَلَيْهِ شُعَبَ الْأَفْكَارِ
 فَلَا تَزُولُهُ . وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ طَوِيلًا ، وَأَوْرَاقُهُ ثَقِيلًا ، وَمَا أَفَلْتُ سَطْرًا مِنْ سَطُورِهِ إِلَّا كَانَ
 الْآخِرُ لَهُ عِيَالًا ، وَلَمَّا اسْتَكْمَلَ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ ثَقُلَتْ أَطْوَارُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ مِنْ أَطْوَارِهِ ،
 وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فِي قِرطَابِهِ ، كَمَا عُرِضَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَرَضَيْنِ
 ١٥٧ »

جداره ، ولولا وثوقه بأننا لذهبت نفسه فرقا ، وابتغى في السماء سلما ، وفي الأرض نفقا ، لكنه قد توسم في كرمه غثايل الصنغر الوسيم ، وغره منه ما غره من ربه الكريم ، وعلم أن خلق حلمه يغلب خلق غضبه ، إذ هذا حادث وذاك قديم .
في هذا الفصل معنى خير من الأخبار النبوية ، وهو أنه كان - صلوات الله عليه - بخطب ، فإل بيده إلى الجدار ، وقال : « عُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَرْضَ هَذَا الْجِدَارِ ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ » .

ومن ذلك ما ذكرته في صدر كتاب إلى بعض الإخوان ، وهو :

« الخادمُ يواصلُ بالدعاءِ الَّذِي لَا يَزَالُ لِقَلْبِهِ زَمِيلًا ، وَلِلسَّائَةِ رَمِيلًا^(١٤٤) ، وَإِذَا رَفَعَ أَذَنَّهُ الْمَلَأَتْهُ قُرْبًا إِذَا تَبَاعَدَتْ عَنْ غَيْرِهِ مِيلًا ، وَلَا اعْتِدَادَ بِالْدُعَاءِ إِلَّا إِذَا صَدَرَ عَنْ أَكْرَمِ مَقْصِدٍ ، وَوَجَدَ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَظْهَرًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ مَظْهَرٍ ، وَوَصَفَ بَاطِنَهُ بِأَنَّهُ الْأَبْيَضُ النَّاصِعُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْ ظَاهِرِ الْأَشْعَثِ الْأَغْبَرِ ، وَلَا يَعْمَلُ الْخَادِمُ أَهْلَ وُدِّهِ إِلَّا بِهَذِهِ الْمَعَامَلَةِ ، وَمِنْ خَلْقِهِ الْمَاجِزَةُ فِي بَدَلِ الْمَوَدَّةِ إِذَا أَخَذَ النَّاسُ نِسْبَةَ الْمَكَائِلَةِ » .

في هذا معنى خيرين :

أحدهما : قولُ النبي ﷺ : « إِنَّهُ إِذَا كَذَبَ الْكَاذِبُ تَبَاعَدَ الْمَلِكُ عَنْهُ مِيلًا لِيَتَرَى كَذِبَهُ » .

والآخر : قوله ﷺ : « رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأُبْرَهُ » .

ومن هذا الباب ما ذكرته في كتاب يتضمن خطبة مودة :

فابتدأت الكلام فيه بعد تصدّره بالدعاء ، فقلت :

« لولا العادة لرفع الخادم كتابه هذا أن يسطر في ورقة ، وليس ذلك إلا لإرساله في خطبة مودة رأى صورتها في سرقة^(١٤٥) ، ولما تأملها قال : إن يكن ذلك من عند الله

(١٤٤) يقال إرساله في عمله إذا تابعه فيه فهو راسل .

(١٤٥) السرقة شقة حرير بيضاء ، قال أبو عبيدة : كأنها كلمة فارسية ، والجمع سرق مثل قصبة وقصب .

يُغْفِيه ، وَأَبْدَى لَهَا صَفْحَةَ الرِّضَا ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّ مَوْدَّةٍ لَمْ تُرْضِهِ ، وَخَيْرَ الْمَوَدَّاتِ مَا لَيْسَ لَهَا ضَرَّةٌ تَشَارِكُهَا فِي وَسَامَتِهَا ، وَلَا تَضَاهِيهَا فِي دَرَجَةِ كَرَامَتِهَا . فَبَلَكَ الَّتِي تَزْدَهِي ذَا الْهَمَّةِ أَبْوَةً وَجَمَالًا ، وَلَمْ يَغْلِهِ مَهْرَهَا وَلَوْ بَدَلَكَ فِيهِ نَفْسًا لَا مَالَ ، وَمَا يَظُنُّهَا الْخَادِمُ إِلَّا هَذِهِ الْمَوَدَّةَ الَّتِي خَطَبَهَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنْ تَكُونَ رَاغِبَةً وَلَكِنْ هُوَ الَّذِي أُرْغِبَا ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَرَشَّحْ لَهَا إِلَّا مِنْ هُوَ مِنْ أَكْفَائِهَا ، وَلَيْسَتْ الْكِفَاءَةُ هَاهُنَا إِلَّا مَا تَبْدُلُهُ الضَّائِرَاتُ مِنْ صَفَائِهَا ، وَقَدْ أَتَاكَ اللَّهُ هَاكُفَّتَا يُكْثِرُ مِنْ إِيْنَانِهَا ، وَيَضَعُهَا مِنَ الْبِرِّ فِي مَحَلَّةٍ نَاسِيهَا . وَيَجْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَبَائِهَا عَرَسًا ، حَتَّى تَتَّصَلَ مَوَاسِمُ أَعْرَاسِهَا .

ثُمَّ مَضَيْتُ عَلَى هَذَا التَّنْهِجِ إِلَى آخِرِ الْكِتَابِ ، وَالْمَعْنَى الْمَأْخُوذُ فِيهِ مِنَ الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ فِي مَوَاضِعٍ :

الأول : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « إِنْ جَبِرِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ عَلَيَّ صَوْرَتَكَ فِي سَرَقَةٍ - وَالسَّرَقَةُ حَرِيرَةٌ بِيضَاءُ - وَقَالَ : هَذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقُلْتُ : إِنْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُغْفِيه . فَأَخَذْتُ أَنَا هَذَا الْمَعْنَى ، وَنَقَلْتُهُ إِلَى خُطْبَةِ مَوْدَةٍ ، وَلَا بَأْسَ فِي خُطْبَةِ الْمَوَدَّاتِ شَيْءٌ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَلَا أَلْطَفُ ، وَلَا أَشَدُّ مَقْصِدًا .

الخبر النبوي الثاني : قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : « إِنَّا تَنَكَّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ : لِحَسَبِهَا ، أَوْ لِدِينِهَا ، أَوْ لِمَالِهَا ، أَوْ لِحَمَالِهَا . فَقُلْتُ أَنَا « فَتِلْكَ الَّتِي تَزْدَهِي ذَا الْهَمَّةِ أَبْوَةً وَجَمَالًا » أَيْ قَدْ جَمَعْتَ الْحَسَبَ وَالْحَمَالَ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتَهُ فِي سَبَبِ حُبِّ الْمَالِ ، وَهُوَ : « بَيْنَ الْمَالِ عِلَاقَةٌ وَكِيدَةٌ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَهِيَ لَهُ بِمِثْلَةِ الْحُبِّ وَهُوَ لَهَا بِمِثْلَةِ الْمَحْبُوبِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ اللَّهَ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَخَلَقَ آدَمَ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ ، وَيُوشِكُ حَيْثُئِلَ أَنْ صُورَةَ قَلْبِهِ تَكُونُ مِنْ مَعْدَنِ الذَّهَبِ وَالْقَبْضَةِ ، وَلَوْلَا أَنَّ يَكُونُ مِنْهَا عُنْصُرُ إِبْدَانِهِ ، لَمَا جَعَلَهَا الْأَطْيَاءُ دَوَاءً مِنْ دَائِهِ ، فَلَا تَسْتَعْرِبُ إِذَنْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حُبِّهَا مَطْبُوعًا ، إِذْ كَانَ مِنْهُمَا مَصْنُوعًا .

وهذا المعنى من قول النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضُهَا مِنْ جَمِيعِ

الأرض ، فجاءَ بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود . وبين ذلك ، والحرن والسَّهل والحَبِث والطَّيب ، غير أنَّى استَبَطْتُ أَنَا حُبُّ المالِ من هذا الحديثِ ، وهو . معنى غريبٌ لم أَسْبَقْ إليه .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف كلام ، وهو :

« ليس السَّحَرُ ما أُودِعَ في جُفٍّ طَلَمَةٌ ^(١٤٦) ، بل ما أُودِعَ في صَوْنٍ مَعْنَى أو نظمٍ سَجَمَةٍ ، ولذلك لَيْدٌ ^(١٤٧) في شِعْرِهِ أُسْحَرُ من لَيْدٍ ^(١٤٨) في سِحْرِهِ ، وكلا صُنْعِهِمَا مِنَ الْغَرِيبِ الْعَجِيبِ ، غير أن ما يُسْتَبَطُ مِنَ الْقَلْبِ أَعْجَبُ مما يُدْفَنُ في الْقَلْبِ » . وهذا المعنى مأخوذٌ من قِصَّةِ لَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ في سِحْرِه النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَنْ عَرَفَ الْقِصَّةَ وَصَوَّرَهَا عَلِمَ ما قدَّ ذكرته في نثر هذه الكلمات البديعة .

ومن ذلك ما ذكرته في وصف المنجنيق من جملة كتاب ، فقلت :

« وَنُصِبَ السَّجَّاقُ فَجُمِعَ بين يدي السُّورِ مَنَاصِيبًا ، وَسَطَ كَفَّهُ إِلَيْهِ مُؤَانِيَةً ، ثُمَّ تَوَلَّى عُقُوبَتَهُ بِعَصَاهُ الَّتِي تَفْتِكُ بِأَحْجَارِهِ ، وَإِذَا عَصَى عَلَيْهَا بَلَدٌ أَخَذَتْ في تَأْدِيبِ أَسْوَارِهِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ اسْتَمَرَّتْ عُقُوبَتُهَا عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ قَائِمُهُ حَصِيدًا ، وَعَاصِيهِ مُسْتَقِيدًا ، وَقَالَ : أَلَمْ يَكُنْ نَهَى عَنِ الْمَدِّ وَالتَّجْرِيدِ فَمَا لِي لَا أَرَى إِلَّا مَدًّا وَتَجْرِيدًا . وَعِنْدَ ذَلِكَ أَدْعَنُ لِفَتْحِ الْأَبْوَابِ ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » ^(١٤٩) وكذلك لَمْ نَأْتِ صَعْبًا

(١٤٦) الحف بالفهم وعاء الطلع . والحف أصل النخلة .

(١٤٧) هو ليد بن ربيعة العامري أحد أصحاب الملققات .

(١٤٨) هو ليد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ . وفي حديث عائشة قول النبي ﷺ : أناني رجلان فقد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي . فقال أحدهما لصاحبه . ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : ليد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر . قال : وأين هو ؟ قال : في بئر دروان . فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه . فجاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نفاقة الحناء . أو كان رموس نخلها رموس للشياطين . قلت : يا رسول الله أفلا استخرجته ؟ قال : قد عافاني الله . فكرهت أن أتود على الناس فيه شرًا . فأمر بها فدفنت .

(١٤٩) سورة الرعد : الآية ٣٨ .

إِلَّا اسْتَشْهَلَ ، وَلَا حَسَنًا مَطِيًّا إِلَّا اسْتَعْجَلَ ، وَلطالَمَا وَقَفَ غَيْرُنَا عَلَى هَذَا الْبَلَدِ . فَشَفَّهُ طُولُ الْإِنْتَظَارِ ، وَلَمْ يَحْظَ مِنْهُ إِلَّا بِمَسَاءَلَةِ الْمُنْصَبِ أَحْجَارَ الدِّيَارِ .

فِي هَذَا الْفَصْلِ مَعْنَى خَيْرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي النَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ الْمَحْدُودِ : « لَا مَدَّ وَلَا تَجَرِيدٌ » أَيْ لَا يَمْدُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَا يُجَرَّدُ عَنْهُ ثَوْبُهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي صَدْرِ كِتَابِ إِلَى الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ ، وَهُوَ :

« خَلَّدَ اللَّهُ دَوْلَةَ الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ ، وَلَا زَالَتْ أَكْنَافُهَا وَادِعَةُ ، وَعَلِيَاؤُهَا جَامِعَةٌ ، وَجُدُودُهَا كَالنَّجْمِ الَّتِي تَرَى فِي كُلِّ حِينٍ طَالِعَةً ، وَأَيَّامُهَا كَالْيَالِي سَاكِنَةٍ . وَلِبَالِهَا كَالْأَيَّامِ نَاصِعَةٌ ، وَأَبْوَابُهَا كَأَبْوَابِ الْجَنَّةِ الَّتِي يَقَالُ فِيهَا ثَامِنٌ وَثَامِنَةٌ ، إِذَا قِيلَ فِي أَبْوَابِ غَيْرِهَا سَابِعٌ وَسَابِعَةٌ . وَهَذَا الدُّعَاءُ قَدْ اسْتَجَابَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ تُرْفَعَ إِلَيْهِ يَدُ ، أَوْ يُنْطَقَ بِهِ ضَمِيرٌ ، فَإِذَا دَعَا بِهِ الْخَادِمُ وَجَدَ صُنْعَ اللَّهِ قَدْ سَبَقَهُ أَوَّلًا ، وَجَاءَ هُوَ فِي الزَّمَنِ الْآخِرِ فَلَيْسَ لَهُ حِينٌ إِلَّا أَنْ يَدْعُو لِمَا خَوْلَهُ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ بِالْدَوَامِ ، وَأَنْ يُعِيدَهُ مِنَ النَّقْصِ بَعْدَ التَّمَامِ ، ثُمَّ يَسْتَهْدِي مَا يُؤْهِلُ لَهُ مِنَ الْمَخْدَمِ الَّتِي يَعْتَدُّهَا مِنْ لَطَائِفِ الْإِحْسَانِ ، وَإِذَا نُذِبَ لِلتَّكْلِيفِ أَوَامِرُهَا قَالَ وَالْحَمْدُ وَالشُّكْرُ يَسْجُدَانِ . وَلَا شَكَّ أَنْ دَرَجَاتِ الْأَوْلِيَاءِ تَتَفَاوَتْ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ ، فَهِيَ مَا يَكُونُ بَيْطُنُ الْأَرْضِ ، وَمِنْهَا مَا يُرَى كَالْكَوْكَبِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا النَّهْيُ عَنْ تَرْكِيبَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَادَّعَى الْخَادِمُ أَنَّ لَهُ أَعْلَاهَا ، وَجَاءَ بِالْأَوْلِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ : « وَالشَّمْسُ وَضَحَاها وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا » (١٥٠) . لَكِنَّهُ لَا يَمُنُّ بِمَا يَعْتَدُّهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ذَخَرِهِ ، وَسِرِّهِ الْوَلَايَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَكْرَمُ مِنْ جَهَرِهِ ، وَلَيْسَ الَّذِي يَمُنُّ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ كَالَّذِي يَمُنُّ بِسَرٍّ وَفَرَفِي صَدْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَعْمَالِ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْمُطْمَعِ بِمَحْضَرِ الشَّهَادَةِ ، وَبَيْنَ الْمُطْمَعِ بِظَهْرِ النَّيِّبِ ، وَلَوْ اطَّلَعَ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ عَلَى ضَمِيرِ الْخَادِمِ فِي الطَّاعَةِ لَسَرَّهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ الْأَشْعَثُ الْأَغْيَرُ الَّذِي لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِابْرَهُ . »

في هذا الفصل من الآيات والأخبارِ عدّة مواضع . وهذا الموضعُ مختصّ بالأخبارِ
فلنذكرُها دونَ الآياتِ .

وأما الأولُ منها فقولُ النبيِّ ﷺ : « إنكم ترون أهلَ الدَّرَجَاتِ العُلَى في الجنةِ كما
تَرَوْنَ الكواكبَ في أفقِ السماءِ » .

وأما الخبرُ الثاني فقولُه ﷺ : « ما فَضَّلَكُمُ أبو بكرٍ بِصلاةٍ وصيامٍ ، ولكن فَضَّلَكُمُ
بِسيرٍ وَفَرٍّ في صَدْرِهِ » .

وأما الخبرُ الثالث فقولُه ﷺ : « رَبُّ أَشْمَتِ أَعْيَرِ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ
لَأُبْرَهُ » .

وفيما أوردته من حلِّ المعاني الشعرية ، وحلِّ آياتِ القرآن والأخبارِ النبوية ، طريقٌ
واضحٌ لمن يَقْوَى على سُلُوكِهِ ، واللهُ الموفق للصَّوابِ .

المقالة الأولى في الصناعة اللفظية

وهي تنقسم قسمين :

القسم الأول

في اللفظة المفردة

أعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء :

الأول منها : اختيار الألفاظ المفردة :

وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم .

الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشكلة لها :

لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤ منه بأختها المشكلة لها .

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه :

وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وارة يجعل قلادة في العنق ، وارة يجعل شفاً^(١) في الأذن . ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

فهذه ثلاثة أشياء ، لا بد للخطيب والشاعر من العناية بها ، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر .

(١) الشف : القرط .

فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة . والثلاثة يجمعتها هي المراد بالبلاغة .

وهذا الموضع يضلُّ في سلوك طريقة العلماء بصناعة صَوْنِ الكلام من النظم والنثر ، فكيف الجهال الذين لم تتفتحهم راحة ، ومن الذي يؤتبه الله فطرة ناصعة ، يكادُ زيتها يُضَيءُ ولو لم تمسسه نار ، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ ، فيضعها في مواضعها .

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يُفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه ، وجل نظره .

فن ذلك قوله تعالى : « ما جعل الله لرجلٍ من قَليْنِ في جَوْفِهِ »^(٢) وقوله تعالى : « ربِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا »^(٣) . فاستعمل « الجوف » في الأولى ، و« البطن » في الثانية ، ولم يستعمل « الجوف » موضع « البطن » ولا « البطن » موضع « الجوف » . واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عددٍ واحدٍ ، ووزنهما واحدٌ أيضًا . فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل .

وبما يجري هذا الجرى قوله تعالى : « ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى »^(٤) . وقوله : « إن في ذلك لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »^(٥) فالقلبُ والفؤادُ سواءٌ في الدلالة ، وإن كانا مختلفين في الوزن ، ولم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع الآخر

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٣٥ ومعنى « محررا » مخلصا للعبادة .

(٤) سورة النجم : الآية ١١ .

(٥) سورة (ق) : الآية ٣٧ .

وعلى هذا وَرَدَ قولُ الأَعْرَجِ^(٦) من أبياتِ الحِمْصَةِ :
نَحْنُ بَنُو المَوْتِ إِذَا المَوْتُ نَزَلَ لَا عَارَ بِالمَوْتِ إِذَا حُمَّ الأَجَلُ
المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ العَمَلِ^(٧)

وقال أبو الطَّيِّبِ المَتَنِيُّ :

إِذَا بِي مَشَتْ حَقَّتْ عَلَى كُلِّ سَابِعٍ رَجَالُ كَأَنَّ المَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ^(٨)
فَهَاتَانِ لَفْظَانِ هُمَا «العَمَلُ» وَ«الشَّهْدُ» وَكِلَاهُمَا حَسَنٌ مُسْتَعْمَلٌ ، لَا يُشَكُّ فِي
حُسْنِهِ وَاسْتِمَالِهِ . وَقَدْ وَرَدَتْ لَفْظَةُ «العَمَلُ» فِي القُرْآنِ دُونَ لَفْظَةِ «الشَّهْدِ» لِأَنَّهَا أَحْسَنُ
مِنْهَا ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ لَفْظَةَ «الشَّهْدِ» وَرَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ ، فَجَاءَتْ أَحْسَنُ مِنَ
لَفْظَةِ «العَمَلِ» فِي بَيْتِ الأَعْرَجِ .

وَكثيراً مَا نَجِدُ أَمْثَالَ ذَلِكَ فِي أَقْوَالِ الشُّعْرَاءِ المُفَلِّقِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بَلْغَاءِ الكِتَابِ
وَمِصْقَافِي الخُطْبَاءِ ، وَتَحْتَهُ دَقَائِقُ وَرُمُوزٌ إِذَا عُلِمَتْ وَقِيَسَ عَلَيْهَا أَشْبَاهُهَا وَنَظَائِرُهَا كَانَ
صَاحِبُ الكَلَامِ فِي النِّظْمِ والنَّثْرِ قَدْ انْتَهَى إِلَى الغَايَةِ القُصُوفِي فِي اخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ ،
وَوَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا .

(٦) قال التِّرْمِذِيُّ : قِيلَ الصَّحِيحُ أَنَّهَا لِعَمْرِو بْنِ يَرْبُوعٍ . وَكِلَاهُمَا مِنْ شُعْرَاءِ الإِسْلَامِ . وَالأَعْرَجُ مَنْسُوبٌ إِلَى
مَعْنٍ طَلِيٍّ . وَقَدْ أَدْرَكَ الدُّوَلَتَيْنِ . وَكَانَ أَحَدَ الخَوَارِجِ فِي زَمَنِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي العَبَّاسِ .

(٧) لَعَلَّ ابْنَ الأَثِيرِ اخْتَصَرَ الشَّعْرَ عَلَى هَذَا النُّحْوِ . وَالشُّعْرُ كَمَا وَرَدَ فِي الحِمَاةِ (١١٠/١) عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ :

أَنَا أَبُو بَرَزَةَ إِذَا جَدَّ الوَهْلُ خَلَقْتَ غَيْرَ زَمَلٍ وَلَا وَكَلْ
ذَا قُوَّةً وَذَا شَبَابٍ مُقْتَبِلْ لَا جَزَعَ اليَوْمُ عَلَى قَرَبِ الأَجَلِ
المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ العَمَلِ نَحْنُ بَنِي ضِيَّةِ أَصْحَابِ الجَمَلِ
نَحْنُ بَنُو المَوْتِ إِذَا المَوْتُ نَزَلَ نَعْنَى ابْنَ عَفَّانٍ بِأَسْرَافِ الأَسَلِ
رَدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا نَحْمُجِلْ .

الْوَهْلُ : الفَرْغُ . وَالزَّمَلُ : الضَّعِيفُ . وَالوَكَلُ : الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَلَى غَيْرِهِ . وَالْأَسَلُ : الرِّمَاحُ . وَجَمَلٌ بِمَعْنَى

حَسْبٍ .

(٨) هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ الأَثِيرِ . وَروَايَةُ الدُّبَيَّانِ (٣٧٤/١) :

إِذَا شَتَّ حَقَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِعٍ . رَجَالُ كَأَنَّ المَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ
وَالسَّابِعُ : القُرْسُ السَّرِيعُ الجَرَى . كَأَنَّهُ يَسْبَحُ فِي سِيرِهِ . وَالشَّهْدُ : العَمَلُ .

واعلم أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، لأن التركيب أغسر وأشق .

ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم - من حيث انفراؤها - قد استعملتها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم ، ويعلو عليه ؟ وليس ذلك إلا لفصيلة التركيب .

وهل تشك أيها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويامساء أفلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » (٩) ، أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع إلى تركيبها ، وأنه لم يعرض لها هذا الحس إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وكذلك إلى آخرها .

فإن ارتبكت في ذلك فتأمل ، هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها ، وأقردت من بين أخواتها كانت لابسة من الحس ما ليست في موضعها من الآية ؟ وما يشهد لذلك ويؤيده أنك ترى اللفظة تروك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر ، فتكرهها ، فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة ولا عرف أسرار الألفاظ في تركيبها وانفرادها (١١) .

وسأضرب لك مثلاً يشهد بصحة ما ذكرته ، وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة في آية من القرآن وبيت من الشعر ، فجاءت في القرآن جزلة متينة ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة ، فأنثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين .

(٩) سورة هود : الآية ٤٤ .

(١٠) الرأي الذي قاله ابن الأثير في أن مجال التفاوت إنما هو في التركيب دون الألفاظ هو رأي عبد القاهر الجرجاني الذي بسطه في كتابه « دلائل الإحجاز » بل إن ابن الأثير الذي يباهي دائماً بانتكاره نقل رأي عبد القاهر بأكثر كلماته ، وهو ما زال عنه هو الذي مثل به عبد القاهر وعلق عليه هذا التعليق بتفصيل أكثر - انظر دلائل الإحجاز : صفحة ٣٦ وما بعدها .

(١١) عبارة عبد القاهر الجرجاني : « وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتونسك في موضع ، ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر . انظر دلائل الإحجاز صفحة ٣٨ .

أما الآية فهي قوله تعالى : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبَى فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » (١٣) .

وأما بيت الشعر فهو قول أبي الطيب المتنبي :

تَلَدُّ لَهُ المِروءةُ وهى تُؤْذَى وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الغِرامُ (١٣)

وهذا البيت من أبيات المعاني ، الشريفة ، إلا أن لفظة « تؤذى » قد جاءت فيه وفي الآية من القرآن ، فحطت من قدر البيت ، لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية .

فانصف أيها المتأمل لما ذكرناه واغرضه على طبعك السليم ، حتى تعلم صحته . وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة ، وإمعان نظر وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلى (١٤) .

وهذه اللفظة التي هي « تؤذى » إذا جاءت في الكلام فينبغي أن تكون متدرجاً مع ما يأتي بعدها ، متعلقة به ، كقوله تعالى : « إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبَى » وقد جاءت في قول المتنبي منقطعة . ألا ترى أنه قال : « تَلَدُّ لَهُ المِروءةُ وهى تُؤْذَى » ثم قال : « وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَدُّ لَهُ الغِرامُ » فجاء بكلام مستأنف .

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي ، وأضيف إليها كاف الخطاب ، فأزال ما بها من الضعف والرككة . وذلك أنه اشتكى النبي ﷺ ، فجاءه جبريل عليه السلام ، ورفاه ، فقال : « بِاسْمِ اللَّهِ أَزِيدُكَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ » .

فانظر إلى السر في استعمال اللفظة الواحدة ، فإنه لما زيد على هذه اللفظة حرف واحد أصلحها وحسنها .

ومن هاهنا تراءى الهاء في بعض المواضع ، كقوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ : هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ » (١٥) ثم قال : « مَا أَغْنَى

(١٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٣ . (١٣) ديوان المتنبي ٧٥/٤ .

(١٤) كذب ابن الأثير وغلط . ولحن فيما قال رأى جليد لم يسبق إليه . بل إنه نقل كلام عبد القاهر ورأيه وأمثله كما سبقت الإشارة إلى ذلك . (١٥) سورة الحاقة : الآيات ١٩ - ٢٠ .

عَنْ مَالِيهِ ، هَلَكَ عَنْ سُلْطَانِيَّةِ^(١٦) » فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي هَذِهِ الْأَفْظَانِ كِتَابِي ، وَحِسَابِي ، وَمَالِي ، وَسُلْطَانِي ، فَلَمَّا أُضِيفَتِ الْمَاءُ إِلَيْهَا - وَتُسَمَّى « هَاءُ السَّكْتِ » - أَضَافَتْ إِلَيْهَا حُسْنًا زَائِدًا عَلَى حُسْنِهَا ، وَكَسَتْهَا لَطَافَةٌ وَلِبَاقَةٌ .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : « إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَمَجَةً وَلِيَ نَعِيجَةٌ وَاحِدَةٌ »^(١٧) فَلَفْظَةُ « لِي » أَيْضًا مِثْلُ لَفْظَةِ « يُؤْذِي » وَقَدْ جَاءَتْ فِي الْآيَةِ مَنْدَرَجَةً مُتَعَلِّقَةً مَا بَعْدَهَا ، وَإِذَا جَاءَتْ مُنْقَطِعَةً لَا تَجِيءُ لَاتِقَةً ، كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ أَيْضًا :
تَمْسِي الْأَمَانِي صُرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لَشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي^(١٨)
وَرَبَّمَا وَقَعَ بَعْضُ الْجَهَالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَدْخَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، كَقَوْلِهِ أَبِي الطَّيِّبِ :

مَا أَجْدَرَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي^(١٩)

فَإِنَّ لَفْظَةَ « لِي » هَاهُنَا قَدْ وَرَدَتْ بَعْدَ « مَا » وَقَبْلَهَا « مَالَهُ » ثُمَّ قَالَ : « وَمَالِي » فَجَاءَ الْكَلَامُ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ . وَلَوْ جَاءَتْ لَفْظَةُ « لِي » هَاهُنَا كَمَا جَاءَتْ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لَكَانَتْ مُنْقَطِعَةً عَنِ النَّظِيرِ وَالشَّيْءِ ، فَكَانَ يَمْلِكُهَا الضَّعْفُ وَالرَّكَّةُ .

وَيَنْ وَرُودَهَا هَاهُنَا وَوُجُودَهَا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فَرَقَ بِحُكْمٍ فِيهِ الذَّوْقُ السَّلِيمُ .
وَهَاهُنَا مِنْ هَذَا النَّوعِ لَفْظَةٌ أُخْرَى قَدْ وَرَدَتْ فِي آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَفِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ الْفَرَزْدَقِ ، فَجَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ حَسَنَةً ، وَفِي الْبَيْتِ الشَّعْرَ غَيْرَ حَسَنَةً ، وَتِلْكَ اللَّفْظَةُ هِيَ لَفْظَةُ « الْقَمَلِ » أَمَا الْآيَةُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَآبَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ »^(٢٠) . وَأَمَا بَيْتُ الشَّعْرِ فَقَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :
مِنْ عِزِّهِ احْتَجَرَتْ كُلِّيبٌ عِنْدَهُ زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقَمَلُ^(٢١)

(١٦) سورة الحاقة : الْآيَاتَانِ ٢٨ ، ٢٩ .

(١٧) سورة (ص) : الْآيَةُ ٢٣ .

(١٩) ديوان المتنبي ٣/٣١١

(٢٠) سورة الأعراف : الْآيَةُ ١٣٣ .

(٢١) هَكَذَا فِي الْمَثَلِ السَّائِرِ ، وَرَوَايَةُ دِيوَانَ الْفَرَزْدَقِ (٧١٥) :

مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلِّيبٌ بَيْتَهَا زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقَمَلُ

وَمَعْنَى جَحَرَتْ دَخَلَتْ جِجْرَهَا ، وَاجْتَحَرَ لَهَا جِجْرًا أَثْقَلَهُ ، وَاجْتَحَرَ الْأَرْضَ ضَرَبَ عَلَيْهَا مَتَارًا ، وَاجْتَحَرَ بِهِ التَّجَارَ وَاسْتَعَاذَ ، وَالزَّرْبُ مَوْضِعُ الْغَنَمِ ، وَالْقَمَلُ اللَّدْبِيُّ ، وَهُوَ أَوْلَادُ الْجَرَادِ قَبْلَ نَبَاتِ أَجْنَحَتِهَا ، أَوْ الْبَرَاغِيثِ ، أَوْ كِبَارِ الْقَرَدَانِ .

وإنما حَسُنَتْ هذه اللفظة في الآية دونَ هذا البيت من الشعر لأنها جاءت في الآية مُندرجة في ضِمْنِ كلام ، ولم يَنْقَطِعِ الكلامُ عندها ، وجاءت في الشعر قافية ، أَيْ آخرًا انقَطَعَ الكلامُ عندها .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى حِكْمَةِ أَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ غُضْنَا مِنْهُ فِي بَجَرٍ عَمِيقٍ لِأَقْرَارٍ لَهُ .

فَمِنْ ذَلِكَ الْآيَةِ الْمَشَارُ إِلَيْهَا ، فَإِنِهَا قَدْ تَصَمَّنَتْ خَمْسَةَ أَلْفَاظٍ ، وَهِيَ : الطَّوْقَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقَمَلُ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالْدَّمُ . وَأَحْسَنُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ هِيَ الطَّوْقَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْدَّمُ . فَلَمَّا وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ الْخَمْسَةُ بِمَحْمَلِهَا قُدِّمَ مِنْهَا لَفْظُ « الطَّوْقَانِ » وَ « الْجَرَادِ » وَأُخِّرَتْ لَفْظَةُ « الدَّمِ » آخِرًا ، وَجُعِلَتْ لَفْظَةُ « الْقَمَلِ » وَالضَّفَادِعُ « فِي الْوَسْطِ » لِيَطْرُقَ السَّمْعُ أَوَّلًا الْحَسَنُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْخَمْسَةِ ، وَيَنْتَهِيَ إِلَيْهِ آخِرًا . ثُمَّ إِنْ لَفْظَةُ « الدَّمِ » أَحْسَنُ مِنْ لَفْظِي « الطَّوْقَانِ » وَ « الْجَرَادِ » وَأَخْفَى فِي الِاسْتِعْمَالِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جِيءَ بِهَا آخِرًا . وَمُرَاعَاةُ مِثْلِ هَذِهِ الْأَسْرَارِ وَالِدَقَائِقِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَلْفَاظِ لَيْسَ مِنَ الْقُدْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ تَقْدِيمِنِي مِنْ عِلْمَاءِ الْبَيَانِ لِلأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ خِصَاصِ وَهَيْئَاتِ تَنْصِفُ بِهَا . وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، وَاسْتَحْسَنَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا ، فَخُولَفَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ اسْتَقْبَحَ الْآخَرُ شَيْئًا ، فَخُولَفَ فِيهِ .

وَلَوْ حَقَّقُوا النَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى السَّرِّ فِي اتِّصَافِ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ بِالْحَسَنِ وَبَعْضِهَا بِالْقُبْحِ لَمَا كَانَ يَبْتَهِمُ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا .

وَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى ذَلِكَ فِي الْفَصْلِ الثَّامِنِ^(٢١) مِنْ مَقْدِمَةِ كِتَابِي الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الْفَصَاحَةِ ، وَفِي الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ غِنًى عَنْ غَيْرِهِ ، لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ نَذْكُرَ هَاهُنَا تَفْصِيلًا لِمَا أَجْمَلْنَاهُ هُنَاكَ ، لِأَنَّا ذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ الْفَصْلِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ دَاخِلَةً فِي حِيزِ الْأَصْوَاتِ ، لِأَنَّهَا مَرْكَبَةٌ مِنْ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، فَمَا اسْتَلْذَهَ السَّمْعُ مِنْهَا فَهُوَ الْحَسَنُ ، وَمَا كَرِهَهُ وَنَبَأَ عَنْهُ فَهُوَ الْقَبِيحُ .

(٢١) انظر صفحة ٩٠ من هذا الكتاب .

وإذا ثبتَ ذلكَ فلا حاجةَ إلى ما ذُكِرَ من تلكَ الخصائص والهيئات التي أوردَها علماءُ البيان في كتبهم ، لأنه إذا كان اللفظ للديناء في السَّمْع كان حسنًا ، وإذا كان حسنًا دخلت تلك الخصائص والهيئات في ضمنِ حسنه .

وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيلَ لأحدهم : إنَّ هذه اللفظة حسنة . وهذه قبيحة ، أنكر ذلك ، وقال : كلُّ الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسنًا ! ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة « الفصن » ولفظه « العسلوج » وبين لفظة « المدامة » ولفظة « الإسقيط » وبين لفظة « السيف » ولفظه « الخنثليل » وبين لفظة « الأسد » ولفظة « القدوكس » فلا ينبغي أن يخاطبَ بخطاب ، ولا يجاوبَ ، بل يُترك شأنه ، كما قيل : اتركوا الجاهل تجهله . ولو ألقى الجعثر^(٢٢) في رحله ! وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السوداء شوهاة الخلق ، ذات عين حمرة ، وشفة غليظة كأنها كلوة ، وشعر قطط^(٢٣) كأنه زبيبة ، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ، ذات خذ أسيل^(٢٤) ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نظم من أقاح^(٢٥) ، وطرة^(٢٦) كأنها ليل على صباح .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه . ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام ، فإنه هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

فإن عائد معاند في هذا . وقال : أغراض الناس مختلفة فيما يجتازونه من هذه الأشياء ، وقد يشق الإنسان صورة الزنجية التي ذممتها ، ويفضلها على صورة الرومية التي وصفتها !

قلت في الجواب : نحن لانحكم على الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال . بل

(٢٢) الجعثر مايس من العذرة في البحر أى الدبر ، أو نحو كل ذات عذب من السباع .

(٢٣) شعر قطط شديد الجودة . وفي التهذيب : القطط شعر الزنجي .

(٢٤) الأسيل من الحدود الطويل المسرسل . (٢٥) الأقاح والأقاسى جمع الأقحوان وهو البابونج .

(٢٦) الطرة الناصية .

نَحْكُمُ عَلَى الْكَثِيرِ الْغَالِبِ . وكذلك إِذَا رَأَيْنَا شَخْصاً يَجِبُ أَكْلُ الْفُخْمِ مِثْلًا ، أَوْ أَكْلُ
الْجِصِّ وَالتَّرَابِ . ويختار ذلك على ملاذ الأَطْعَمَةِ . فهل نَسْتَجِدُّ هَذِهِ الشَّهْوَةَ ، أَوْ نَحْكُمُ
عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مَرِيضٌ ، قَدْ فَسَدَتْ مِعْدَتُهُ ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى عِلَاجٍ وَمُدَاوَاةٍ ؟
وَمَنْ لَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ يَعْلَمُ أَنَّ لِلْأَلْفَاظِ فِي الْأُذُنِ نِعْمَةً لَذِيذَةً كَنِعْمَةِ أَوْتَارٍ ، وَصَوْتًا
مُتَشَكِّرًا كَصَوْتِ حِمَارٍ ، وَأَنَّ لَهَا فِي الْفَمِ أَيْضًا حَلَاوَةً كَحَلَاوَةِ الْعَسَلِ ، وَمَرَارَةً كَمَرَارَةِ
الْحَنْظَلِ . وَهِيَ عَلَى ذَلِكَ تَجْرَى بِجَرَى النِّفَاثِ وَالطَّعُومِ .

وَلَا يَسْبِقُ وَهْمُكُ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ غِظُّ الطَّبِيعِ وَفَجَاجَةُ
الذَّهْنِ بِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمَلُ مِنَ الْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ ،
بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الَّذِي نَسْتَحْسِنُهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ
مُسْتَحْسَنًا ، وَالَّذِي نَسْتَقْبِحُهُ هُوَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ مُسْتَقْبَحًا .

وَالِاسْتِعْمَالُ لَيْسَ بِدَلِيلٍ عَلَى الْحُسْنِ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَعْمَلُ الْآنَ مِنَ الْكَلَامِ مَا لَيْسَ
بِحَسَنٍ ، وَإِنَّمَا نَسْتَعْمَلُهُ لِفَرُوضَةٍ . فَلَيْسَ اسْتِعْمَالُ الْحَسَنِ بِمُمْكِنٍ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ .
وَهَذَا طَرِيقٌ يَضِلُّ فِيهِ غَيْرُ الْعَارِفِ بِمَسَالِكِهِ . وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ صِنَاعَةَ النُّظْمِ وَالنَّثْرِ ، وَمَا
يَجِدُهُ صَاحِبُهَا مِنَ الْكَلَامِ فِي صَوْنِ الْأَلْفَاظِ وَاخْتِيَارِهَا فَإِنَّهُ مَعْدُورٌ فِي أَنْ يَقُولَ مَا قَالَتْ :

لَا يَعْرِفُ الشُّوقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يُعَانِدُهَا

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ بِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمَلُ مِنَ الْأَلْفَاظِ كَذَا وَكَذَا ، وَهَذَا
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ ، قَوْلٌ فَاسِدٌ ، لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ ، فَإِنَّ اسْتِحْسَانَ الْأَلْفَاظِ
وَاسْتِقْبَاحَهَا لَا يُؤْخَذُ بِالتَّقْلِيدِ مِنَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ شَيْءٌ لَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ فِيهِ مَجَالٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ
شَيْءٌ يُولَدُ خُصَائِصٌ وَهَيْئَاتٌ وَعَلَامَاتٌ إِذَا وَجِدَتْ عِلْمٌ حُسْنُهُ مِنْ قِبَعِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ
الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ .

وَأَمَّا الَّذِي تَقْلِدُ الْعَرَبَ فِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ فَأَيُّهَا هُوَ الِاسْتِشْهَادُ بِأَشْعَارِهَا عَلَى مَا يُنْقَلُ مِنْ
لُغَتِهَا ، وَالْأَخْذُ بِأَقْوَامِهَا فِي الْأَوْضَاعِ النُّحَوِيَّةِ ، فِي رَفْعِ الْفَاعِلِ ، وَنَصْبِ الْمَفْعُولِ ، وَجَرِ
الْمُضَافِ إِلَيْهِ ، وَجُزْمِ الشَّرْطِ ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ ، وَمَاعِدَاهُ فَلَا .

وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافياً إلى زيد دون عمرو ، أو إلى عمرو دون زيد .
لأنه وصف ذووى لا يتغير بالإضافة .

ألا ترى أن لفظة « المُرْنة » مثلاً حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ، وهلمَّ
جراً . لا يختلف أحد في حسنها . وكذلك لفظه « البُعاق » فإنها قبيحة عند الناس كافة
من العرب وغيرهم . فإذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم إياها مُخرِجاً لها عن
القبح . ولا يُلْتَفَتُ إذن إلى استعمالهم إياها بل يعاب مُستعملها ، ويُغْلَظُ لَهُ التَّكْيِيرُ حيثُ
استعملها .

وقد ذكر ابنُ سنان الخفاجي ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ، وقسمها إلى
بعدة أقسام : كتباعد مخارج الحروف ، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي
غير شاذة . وأن تكون مصغرة في موضع يُعبّر به عن شيء لطيف أو خفي أو ماجرى
عجراه . وأن لا تكون مبتذلة بين العامة ، وغير ذلك من الأوصاف . وفي الذي ذكره مالا
حاجة إليه .

أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه . لأن الواضع قسمها في وضعه
ثلاثة أقسام : ثلاثياً ، ورباعياً ، ونحاسياً .

والثلاثي من الألفاظ هو الأكثر . ولا يوجد فيه ما يُكره استعماله إلا الشاذ النادر .
وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والنحاسي في الكثرة عدداً واستعمالاً .
وأما النحاسي فإنه الأقل ، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر .

وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه . ولا تقتضي حكمة هذه
اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك . ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في
تأليف بعضها مع بعض استقلاً واستكراهاً ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالهاء
والحاء والعين . وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ولا بين اللام والراء ولا بين الزاء
والسين . وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المَخارج دون المتقارب . ومن
العجب أنه كان يُخِلُّ بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة ، وقد اعتنى بأمور آخر
جزئية . كماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق

كالتَّكْلِيَانِ ، والضَّرْبَانِ ، والتَّقْدَانِ ، والتَّرْوَانِ ، وغير ذلك مما جَرَى مجراه ، فإن حُرُوفَهُ
جميعها متحرّكاتٌ ، وليس فيها حرفٌ ساكنٌ ، وهي ماثلةٌ لحركاتِ الفعلِ في
الوُجُودِ .

ومنَ نظري حِكْمَةٍ وَضَعَ هذه اللغة إلى هذه الدقائق ، التي هي كالأطرافِ
والحواشي ، فكيف كان يَجَلَّ بالأصل المَعُولُ عليه في تأليفِ الحروفِ بعضها إلى بعضٍ ،
على أنه لو أراد الناظمُ أو الناثرُ أن يعتبرَ مخارجَ الحروفِ عند استعمالِ الألفاظِ ، وهل هي
متباعدة أو متقاربة ، لطالَ الخطبُ في ذلك وعُسِرَ ، ولَمَّا كان الشاعرُ ينظمُ قصيداً ،
ولا الكاتبُ ينشئُ كتاباً إلا في مدّةٍ طويلةٍ تمضي عليها أيامٌ وليالي ذواتُ عددٍ كثيرٍ .
ونحنُ نرى الأمرَ بخلافِ ذلك ، فإن حاسّةَ السَّمْعِ هي الحاكمةُ في هذا المقامِ بحسبِ
ما يَحْسُنُ من الألفاظِ ، وقُبْحِ ما يَبْقِيحُ .

وسأضربُ لك في هذا مثلاً ، فأقولُ : إذا سُئِلْتُ عن لفظَةٍ من الألفاظِ ، وقيلَ
لَكَ : ماتقولُ في هذه اللفظة ، أَحَسَنَةٌ هي أم قَبِيحَةٌ ؟ فإني لأأراكَ عند ذلك إلا تُفْهِي
بُحْسِنُها أو قُبْحُها على القُورِ ، ولو كنتَ لا تُفْهِي بذلكَ حتّى تقولَ للسائلِ : اضْبِرْ إلى أنْ
أعتبرَ مخارجَ حُرُوفِها ، ثم أَفْتِيكَ بعد ذلكَ بما فيها من حُسْنٍ أو قُبْحٍ ، لصَحَّ لأبْنِ سنانٍ
مادَّهَبَ إليه من جَعَلَ مخارجَ الحُرُوفِ المتباعدةِ شرطاً في اختيارِ الألفاظِ ، وإنما شَدَّ عنه
الأصلُ في ذلكَ ، وهو أنَّ الحَسَنَ من الألفاظِ يكونُ متباعدَ المخارجِ . فَحَسُنُ الألفاظِ
إذنَ ليسَ معلوماً من تباعدِ المخارجِ ، وإنّا عَلمَ قَبْلَ العَلمِ بتباعدِها .

وكلُّ هذا راجعٌ إلى حاسّةِ السَّمْعِ . فإذا اسْتَحْسَنْتَ لفظاً أو اسْتَقْبَحْتَهُ وَجَدَ ما
تَبْتَغِيهِه متباعدَ المخارجِ ، وماتَسْتَقْبِهُه متقاربَ المخارجِ ، واستَحْسَنَها واستَقْبَحَها إنما
هو قَبْلَ اعتبارِ المخارجِ ، لا بَعْدَهُ .

على أن هذه قاعدة قد شَدَّ عنها شواذٌ كثيرةٌ ، لأنه قد يَجِيءُ في المتقاربِ المخارجِ ،
ما هو أحسنُ رائقٍ .

ألا ترى أن الجيِّمَ والشَّيْنَ والياءَ مخارجُ متقاربةٌ ، وهي من وسطِ اللسانِ بينَهُ وبينَ
الحنكِ ، وتسمّى ثلاثهما «الشَّجَرِيَّةُ» وإذا تَرَكَّبَ منها شيءٌ من الألفاظِ جَاءَ حسناً
رائقاً .

فإن قيلَ «جيش» كانت لفظة محمودة، أو قُدِّمت الشَّيْنُ على الجَمِّ، فـقِيلَ «شَجى» كانت أيضاً لفظة محمودة، وممَّا هو أقربُ مخرجاً مِنْ ذلك البَاءُ والمِيمُ والفاءُ، وثلاثُها من الشَّقَّةِ، وتسمَّى «الشفهية» فإذا نُظِمَ منها شيءٌ من الألفاظِ كانَ جميلاً حسناً كقولنا «فم» فهذه اللفظةُ من حرقين هما: الفاءُ والمِيمُ، وكقولنا «ذُقته بِفمى» وهذه اللفظةُ مؤلفةٌ من الثلاثةِ بجملتها، وكلاهما حَسَنٌ لا عيبَ فيه.

وقد وردَ من المتباعدِ الخارجِ شيءٌ قبيحٌ أيضاً، ولو كانَ التباعِدُ سبباً للحُسْنِ لَمَا كانَ سبباً للقُبْحِ، إذْ هُمَا ضِدَّانِ لا يَجْتَمِعَانِ. فمن ذلك أَنَّهُ يُقالُ «مَلَعٌ» إذا عدا، فالمِيمُ مِنَ الشَّقَّةِ، والعَيْنُ مِنْ حُرُوفِ الحَلْقِ، والأَلامُ مِنْ وَسْطِ اللِّسانِ، وكلُّ ذَلِكَ متباعِدٌ، ومعَ هذا فَإِنَّ هذه اللفظةَ مكروهةُ الاستعمالِ يَنْبُو عنها الذوقُ السَّليْمُ، ولا يَسْتعملُها مَنْ عندهُ معرفةٌ بفنِّ الفصاحَةِ.

وما هنا نكتةٌ غريبةٌ، وهو أَنَا إِذَا عكسْنَا حُرُوفَ هذه اللفظةِ صارتْ «عَلِمَ» وعند ذلك تكونُ حَسَنَةً لا مَزِيدَ على حُسْنِها.

وما ندرى كيف صارَ القُبْحُ حُسْناً؟ لأنَّهُ لم يَتَغَيَّرْ مِنْ مَخارجِها شيءٌ، وَذلك أَنَّ الأَلامَ لم تَزَلْ وَسْطاً، والمِيمُ والعَيْنُ يَكْتَفِيانِها مِنْ جَانِبَيْها، ولو كانَ مَخارجُ الحُرُوفِ مُعْتَبَراً فِي الحُسْنِ والقُبْحِ لَمَا تَغَيَّرَتْ هذه اللفظةُ فِي «ملع» و «علم».

فإن قيلَ: إن إخراجَ الحُرُوفِ مِنَ الحَلْقِ إِلَى الشَّقَّةِ أيسرُ مِنْ إدخالِها مِنَ الشَّقَّةِ إِلَى الحَلْقِ، فإن ذلك انحِدَارٌ، وهذا صُعُودٌ، والانحِدَارُ أسهلُّ.

فالجوابُ عن ذلك أَنى أقولُ: لو استمرَّ لك هذا لَصَحَّ ما ذَهَبَتْ إِلَيْهِ، لكنَّا نرى مِنَ الألفاظِ ما إِذا عكسْنَا حُرُوفَهُ مِنَ الشَّقَّةِ إِلَى الحَلْقِ، أو مِنْ وَسْطِ اللِّسانِ أو مِنْ آخِرِهِ إِلَى الحَلْقِ لا يَتَغَيَّرُ كقولنا «غلب» فَإِنَّ الغَيْنَ مِنْ حُرُوفِ الحَلْقِ، والأَلامُ مِنْ وَسْطِ اللِّسانِ، والباءُ مِنَ الشَّقَّةِ. وَإِذا عكسْنَا ذلك صارَ «بلغ» وكلاهما حَسَنٌ مليحٌ.

وكذلك تقول: «حلم» مِنَ الحَلْمِ، وهو الأَناةُ، وَإِذا عكسْنَا هذه الكلمةَ صارتْ «مَلَحَ» على وزنِ فَعَلَّ بِفَتْحِ الفاءِ وَضَمِّ العَيْنِ، وكلاهما أيضاً حَسَنٌ مليحٌ.

وكذلك تقول: «عقر» و «رَقع» و «عرِف» و «فرع» و «حلف» و «فلح»

و « قلم » و « ملق » و « كلم » و « ملك » ولو شئت لأوردت من ذلك شيئاً كثيراً تصبى عنه هذه الأوراق.

ولو كان ما ذكرته مطرداً لكتنا إذا عكسنا هذه الألفاظ صار حسنها قُبْحاً ، وليس الأمر كذلك .

وأما ما ذكره ابن سنان من جريان اللفظة على العرف العربي فليس ذلك مما يوجب لها حسناً . ولا قُبْحاً . وإنما يقدح في معرفة مُستعملها بما ينقله من الألفاظ ، فكيف يعد ذلك من جُملة الأوصاف الحسنة ؟

وأما تصغير اللفظة فيها يُعبر به عن شيء لطيف أو خفي أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة إلى ذكره . فإن المعنى يسوق إليه ، وليست معاني التصغير من الأشياء الغامضة التي يُفتقر إلى التنبيه عليها . فإنها مدونة في كتب النحو ، وما من كتاب نحو إلا والتصغير باب من أبوابه . ومع هذا فإن صاحب هذه الصناعة عيّر في ذلك ، إن شاء أن يورده بلفظ التصغير ، وإن شاء بمعناه ، كقول بعضهم .

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو لبد
فهل يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ، ويحقر من شأنهم بالألفاظ التصغير ، ويحيى هكذا ، كما جاء بينه هذا ؟ فالوضيعة به إذن مُلغاة ، لا حاجة إليها .
وأما الأوصاف الباقية التي ذكرت ، فهي التي ينبغي أن يُنبّه عليها .
فإنها أن لا تكون الكلمة وَحْشِيَّة .

[الوحشي] :

وقد خفي الوحشي على جماعة من المتتبعين إلى صناعة النظم والنثر ، وظنّوه المستقبح من الألفاظ ، وليس كذلك ، بل الوحشي ينقسم قسمين : أحدهما : غريب حسن . والآخر : غريب قبيح .

وذلك أنه منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار ، وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مانوسة الاستعمال . وليس من شرط الوحش أن يكون مُستقبحاً .

بلْ أَنْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ الْإِنْسَ . فتارة يكون حسنًا . وتارة يكون قبيحًا .
وعلى هذا فإنَّ أحدَ قِسْمَي الْوَحْشِيِّ - وهو الغريبُ الحسنُ - يَخْتَلِفُ باختلافِ
النَّسَبِ والإِضافاتِ .

وأما القسمُ الآخرُ من الوحشيِّ - الَّذِي هو قبيحٌ - فإنَّ النَّاسَ في استقباحِهِ سواءٌ .
ولا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَرَبِيٌّ بَادٍ . وَلَا قُرَوِيُّ مُتَحَضِّرٌ .

وأحسنُ الألفاظِ ما كَانَ مألُوفًا متداولًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مألُوفًا متداولًا إِلَّا لِمَكَانٍ
حُسْنِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي بَابِ الْفَصَاحَةِ . فَإِنَّ أَرْبَابَ الْخَطَابَةِ وَالشَّعْرِ
نَظَرُوا إِلَى الْأَلْفَاظِ . وَنَقَّبُوا عَنْهَا ، ثُمَّ عَدَّلُوا إِلَى الْأَحْسَنِ مِنْهَا فَاسْتَعْمَلُوهُ ، وَتَرَكُوا
مَا سِوَاهُ ، وَهُوَ أَيْضًا يَتفاوتُ فِي درجَاتِ حُسْنِهِ .

فَالْأَلْفَاظُ إِذَنْ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً أَقْسَامًا : قِسْمَانِ حَسَنَانِ . وَقِسْمٌ قَبِيحٌ .

فَالْقِسْمَانِ الْحَسَنَانِ :

أحدهما : ما تداولَ استعمالُهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنَ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا
يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ وَحْشِيٌّ .

وَالْآخَرُ : ما تداولَ استعمالُهُ الْأَوَّلُ دُونَ الْآخِرِ ، وَيُخْتَلَفُ فِي استعمالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى
الزَّمَنِ وَأَهْلِهِ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي لَا يِعَابُ استعمالُهُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ
وَحْشِيًّا . وَهُوَ عِنْدَنَا وَحْشِيٌّ . وَقَدْ تَضَمَّنَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْهُ كَلِمَاتٌ مَعْدُودَةٌ ، وَهِيَ الَّتِي
يُطْلَقُ عَلَيْهَا « غَرِيبُ الْقُرْآنِ » وَكَذَلِكَ تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ مِنْهُ شَيْئًا ، وَهُوَ الَّذِي
يُطْلَقُ عَلَيْهِ « غَرِيبُ الْحَدِيثِ » .

وحضر عِنْدِي فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ رَجُلٌ مُتَفَلِّسٌ ، فَجَرَى ذِكْرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .
فَأَخَذْتُ فِي وَصْفِهِ ، وَذَكَرْتُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ :
فَقَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : وَأَيُّ فَصَاحَةٍ هُنَاكَ ، وَهُوَ يَقُولُ « تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ فَيُزَيِّى » (٢٧) ؟
فَهَلْ فِي لَفْظَةِ « فَيُزَيِّى » مِنَ الْحُسْنِ مَا يُوصَفُ ؟

فقلتُ له : اعلمَ أنَّ لاستعمالِ الألفاظِ أسراراً لم تَقِفْ عليها أنتَ ولا أئمتُّكَ . مثل ابنِ سيناَ والقَارَاطِي . ولا مَنْ أَضَلَّهُمْ مثلُ أرسطاليس وأفلاطون . وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن . وهي لفظة « ضيزى » فإنها في موضعها لا يسدُّ غيرها مسدداً . ألا ترى أنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا التي هي سورة النِّجْمِ مسجوعةٌ على حرف الياء (٢٨) فقال تعالى « والنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ » ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وما عَاوَىٰ (٢٩) وكذلك إلى آخر السورة ، فلَمَّا ذَكَرْتَ الأصنامَ وقِسْمَةَ الأولاد ، وما كَانَ يَزْعُمُهُ الْكُفَّارُ قال : « الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ، تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ضِيزَى » (٣٠) فجاءتِ اللفظة على الحرفِ الْمَسْجُوعِ الَّذِي جَاءَتْ السُّورَةُ جَمِيعُهَا عليه . وغيرها لا يسدُّ مسدداً في مكانها .

وإذا نزلنا معك أيها المعاندُ على ما تريد قلنا إنَّ غير هذه اللفظة أحسنُ منها . ولكنها في هذا الموضع لأتدُّ ملائمةً لأخوانها ، ولاناسبة ، لأنها تكونُ خارجةً عن حَرْفِ السُّورَةِ .

وسأبين ذلك فأقول : إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا : قسمة جائرة ، أو ظالمة . ولاشكَّ أنَّ جائرة ، أو ظالمة أحسنُ من « ضيزى » إلا أنا إذا نظرنا الكلامَ ، قلنا : الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ، تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ظالمةً ، لم يكنِ النظمُ كالنظمِ الأوَّلِ ، وصارَ الكلامُ كالشيءِ الْمُغْوَزِ ، الذي يحتاجُ إلى تمامٍ ، وهذا لا يَخْفَى على من لَهُ ذَوْقٌ ومعرفةٌ بنظمِ الكلامِ .

فلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ما أوردته عليه رَبِّي لِسَانَهُ في فَمِهِ إفحاماً ، ولم يكنِ عندهُ في ذلك شَيْءٌ سِوَى الْعِنَادِ الَّذِي مُسْتَنَدُهُ تَقْلِيدُ بَعْضِ الزُّنَادِقَةِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ تَشْهِيًا ، ويقولونَ ما يَقُولُونَهُ جَهْلًا ، وإذا حُوقِقُوا عليه ظَهَرَ عَجْزُهُمْ وقُصُورُهُمْ .

وحيثُ انْتَهَى الْقَوْلُ إلى هاهنا فَأَبْنَى أَرْجَعُ إلى ما كنتُ بصددِ ذكره ، فأقول : وأما الْقَبِيحُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّذِي يَبْأُبُ اسْتِمَالُهُ ، فلا يَسْمَى « وَحْشِيًا » فقط بل يَسْمَى « الْوَحْشِيَّ الْغَلِيظَ » وسيأتى ذكره .

(٢٨) يعلم أن ابن الأثير نظر إلى الحرف المكتوب . والميرة في هذا بالحرف المنطوق . وهو هاءنا الألف المقصورة . (٢٩) سورة النجم . الآيات ١ - ٢ . (٣٠) سورة النجم : الآيات ٢١ - ٢٢ .

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ الْكَلَامِ وَجَدْنَاهُ سَهْلًا سَلِسًا ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْغَرِيبَةِ يَسِيرٌ جِدًّا .

هَذَا ، وَقَدْ أُتْرِلَ فِي زَمَنِ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ ، وَأَلْفَاظُهُ كُلُّهَا مِنْ أَسْهَلِ الْأَلْفَاظِ وَأَقْرَبِهَا اسْتِعْمَالًا ، وَكَفَى بِهِ قُدْوَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا نَزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلَ أَمِّ الْقُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي » ، يَرِيدُ بِذَلِكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَجَدْنَاهَا سَهْلَةً قَرِيبَةً الْمَأْخِذِ ، يَفْهَمُهَا كُلُّ أَحَدٍ حَتَّى صِبْيَانِ الْمَكَاتِبِ وَعَوَامِ السُّوقِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوا مَا تَحْتَهَا مِنْ أَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَإِنَّ أَحْسَنَ الْكَلَامِ مَا عَرَفَ الْخَاصَّةَ فَضْلُهُ ، وَفَهَمَ الْعَامَّةُ مَعْنَاهُ .

وَهَكَذَا فَاتَكُنْ الْأَلْفَاظُ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي سَهْلَةٍ فَهْمِهَا ، وَقَرَّبَ مَتَابَلِهَا ، وَالْمُقْتَدِرِ بِالْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيِّ يَكْفِي بِهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَلْفَاظِ الْمَثُورَةِ وَالْمَنْظُومَةِ .
وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنَ اللَّفْظِ الْوَحْشِيِّ فِي الْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ فَمِنْ جُمْلَةٍ ذَلِكَ حَدِيثُ طَهْفَةَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ الْهَنْدِيِّ (٣١) ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَتْ وَفُودُ الْعَرَبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ طَهْفَةُ بْنُ أَبِي زُهَيْرٍ ، فَقَالَ : أَتَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ غَوْرَى تِهَامَةٍ (٣٢) عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ (٣٣) تَرْغِي بَنَاتِ الْمَيْسِ ، نَسْتَجْلِبُ الصَّبِيرَ (٣٤) . وَنَسْتَجْلِبُ الْخَبِيرَ (٣٥) ، وَنَسْتَعْقِدُ الْبَرِيرَ (٣٦) . وَنَسْتَجْلِبُ الرَّهَامَ (٣٧) وَنَسْتَجْلِبُ الْجَهَامَ (٣٨) ، فِي أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَاءِ (٣٩) ، غَلِيظَةِ الْوَطَاءِ ، وَقَدْ نَشَفَ الْمُدْهَنُ (٤٠) ، وَيَبَسَ الْجَبْعَيْنِ (٤١) وَسَقَطَ الْأَمْلُوجُ (٤٢) ، وَمَاتَ

(٣١) نَهْدٌ إِحْدَى قِبَالِ الْيَمَنِ .

(٣٢) أَسْلُ الْغَوْرِ مَا تَدَاخَلَ مِنَ الْأَرْضِ وَانْهَطَ ، وَقِيلَ كُلُّ مَا انْخَدَرَ سِيلُهُ مَغْرِبًا فَهُوَ الْغَوْرُ .

(٣٣) الْمَيْسُ شَجَرٌ تَتَخَذُ مِنْهُ الرِّجَالُ لِلْيَتَةِ وَقَوْتِهِ . وَيُطْلَقُ عَلَى الرِّجَالِ نَفْسَهَا .

(٣٤) الْعَبِيرُ السَّحَابُ الْكَثِيفُ . (٣٥) الْخَبِيرُ : الْعُشْبُ .

(٣٦) اسْتَعْقَدَ الْفَرَّةَ اجْتَنَاهَا . وَالْبَرِيرُ ثَمَرُ الْأَرَاكِ ، وَكَانُوا يَأْكُلُونَهُ وَقَدْ الْجَدْبُ لِقَلَّةِ الزَّادِ .

(٣٧) الرَّهَامُ : جَمْعُ رَهْمَةٍ وَهِيَ الْمَطَرُ الضَّعِيفُ الدَّائِمُ . وَنَسْتَجْلِبُ نَحَالًا وَنَظَنًا .

(٣٨) الْجَهَامُ : السَّحَابُ قَدْ أَرَاقَ مَاءَهُ . (٣٩) النَّطَاءُ : الْجَيْدُ أَيْ بَعِيدَةٌ بَعْدًا مَهْلِكًا .

(٤٠) الْمُدْهَنُ : مُسْتَقْبَقُ الْمَاءِ ، أَوْ كُلُّ مَوْضِعٍ خَفَرَهُ سَبِيلُ .

(٤١) أَصْلُ النَّبَاتِ . (٤٢) وَرَقُ كُورَقِ السَّرْوِ لِشَجَرٍ بِالْيَادِيَةِ .

العُسلُوجُ (٤٣) وَهَلَكَ الْهَدْيُ (٤٤) وَفَادَ الْوَدَى (٤٥) بَرِّتْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَتَنِ وَالْعَتَنِ (٤٦) ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَى الْبَحْرُ ، وَقَامَ تَعَارٌ (٤٧) ، وَلَنَا نَعَمْ هَمَلٌ أَغْفَالٌ مَاتَبَضُّ بِيَلَالِ (٤٨) ، وَوَقِيرُ كَثِيرِ الرُّسُلِ قَلِيلِ الرُّسُلِ (٤٩) . أَصَابَتْنَا سُنِّيَةٌ حَمْرَاءُ مُؤَزَّلَةٌ لَيْسَ لَهَا عِلٌّ وَلَا نَهْلٌ (٥٠) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا ، وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا وَفَرْقِهَا (٥١) ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدُّنَى (٥٢) بِيَانِيعِ الثَّمَرِ ، وَافْجِرْ لَهُ الثَّمَدَ (٥٣) ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ . مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا ، وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، لَكُمْ يَابْنِي نَهْدٌ وَذَاتِجُ الشَّرْكِ (٥٤) ، وَوَضَائِجُ (٥٥) الْمَلِكِ ، لَا تَلْطَطُ (٥٦) فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تَلْجِدُ (٥٧) فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَأَقَّلُ مِنَ الصَّلَاةِ . وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى بَنِي نَهْدٍ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي نَهْدٍ : السَّلَامُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَكُمْ يَابْنِي نَهْدٌ فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ (٥٨) وَلَكُمْ الْفَارِضُ (٥٩) »

(٤٣) مَا لَانَ وَاخْضَرَ مِنَ الْقَضِيَانِ وَعَسَلَجَتِ الشَّجَرَةُ أَنْجَرَتِهِ .

(٤٤) الْهَدْيُ : مَا يَهْدَى إِلَى مَكَّةَ لِيَنْحَرُ . (٤٥) الْوَدَى : الْفَسِيلُ وَهُوَ التَّخْلُ الصَّغَارُ .

(٤٦) الْعَتَنُ الصَّخْرُ الصَّغِيرُ . (٤٧) جَبَلٌ بِيَلَادِ قَيْسٍ .

(٤٨) الْحَمَلُ لِلْمَهْمَةِ ، وَالْأَغْفَالُ جَمْعُ غَفْلٍ بِالضَّمِّ ، وَهُوَ مَالِاسَةٌ عَلَيْهِ مِنَ الدَّوَابِّ وَبِضِ الْمَاءِ يَبِضُ سَالٌ قَلِيلًا قَلِيلًا وَبِلَالٍ الْجَبَلُ ، وَالْمَرَادُ قَلَّةُ اللَّبَنِ .

(٤٩) الْوَقِيرُ الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ ، وَالرُّسُلُ الْقَطِيعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَالرُّسُلُ اللَّبَنُ .

(٥٠) سُنِّيَةٌ تَصْغِيرُ سَنَةٍ . وَهِيَ الْقَحْطُ وَالْجَاعَةُ . وَحَمْرَاءُ أَيْ شَدِيدَةٌ . وَمُؤَزَّلَةٌ ذَاتُ أَرْزُلٍ لَسُكُونِ الزَّأْيِ ، وَهُوَ الضَّيْقُ وَالشَّدَّةُ .

(٥١) الْخَضُّ اللَّبَنُ الْخَالِصُ وَخَضُّ اللَّبَنِ أَخَذَ زَبَدَهُ ، وَالْمُلَقَّ اللَّبَنُ الْمَزْجُجُ بِالْمَاءِ ، وَالتَّرْقُ الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ .

(٥٢) الدُّنَى : الْمَالُ الْكَثِيرُ . وَقِيلَ هُوَ الْكَثِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

(٥٣) الْبَدُّ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ لِامَادَةِ لَهُ . أَوْ مَا يَظْهَرُ فِي الشِّتَاءِ وَيَلْهَبُ فِي الصَّيْفِ .

(٥٤) أَيْ الْغَنَاتِمُ الَّتِي تَضُمُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَتَدْعُو بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، لِيَقْبُوا بِهَا عَلَى شَتُونِهِمْ .

(٥٥) الْوَضَائِعُ جَمْعُ وَضِيعَةٍ ، وَهِيَ مَا يَأْخُذُهُ السُّلْطَانُ مِنَ الْخَرَاجِ وَالْعَشُورِ .

(٥٦) يُقَالُ لَطَلْتُ عَنْهُ حَقَّهُ إِذَا جَعَلْتَهُ . (٥٧) يُقَالُ أَخَذَ إِذَا مَلَكَ وَامْرَأٌ وَجَادِلٌ .

(٥٨) الْوُظَيْفَةُ التَّنَصُّبُ فِي الزَّكَاةِ ، وَأَصْلُهُ الشَّيْءُ الرَّابُّ ، وَالْفَرِيضَةُ الْحَرَمَةُ الْمُسْنَةُ ، وَالْمَرَادُ أَنَّهَا لَا تُؤْخَذُ مِنْهُمْ فِي الزَّكَاةِ ، بَلْ تَكُونُ لَهُمْ ، وَيُرْوَى « عَلَيْكُمْ فِي الْوُظَيْفَةِ الْفَرِيضَةِ » أَيْ فِي كُلِّ نَصَابٍ مَافَرَضٍ فِيهِ .

(٥٩) الْفَارِضُ الْمُسْنَةُ كَالْفَرِيضَةِ ، وَيُرْوَى « الْعَارِضُ » بِالْمَعْنَى وَهِيَ الْمَرِيضَةُ ، أَوْ الَّتِي أَصَابَهَا كَسَرٌ .

والفريش^(٦٠) وذو العنان الركوب^(٦١) والفَلَوُ الضبيس^(٦٢) ، لَا يَمْنَعُ سَرْحَكُمْ^(٦٣) ،
وَلَا يَعْضُدُ طَلْحَكُمْ^(٦٤) ، وَلَا يُحْيِسُ دَرْكُمْ^(٦٥) ، وَلَا يُكَلُّ أَكَلَكُمْ ، مَا لَمْ تَضْمُرُوا
الإِمَاقَ^(٦٦) وتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ^(٦٧) . مَنْ أَقْرَبَا فِي هَذَا الْكِتَابِ فَلَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْوَفَاءُ
بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةِ ، وَمَنْ أَتَى فَعَلَيْهِ الرِّبَاةُ .

وفصاحة رسول الله ﷺ لَا تَقْتَضِي استعمالَ هذه الألفاظ ، ولا تكادُ توجدُ في
كلامه إلا جواباً لمن يُخَاطَبُ بِمِثْلِهَا ، كهذا الحديث ، وما جرى مجراه . على أنه قد
كَانَ فِي زَمَنِهِ مُتَدَاوِلًا بَيْنَ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ إِلَّا سِرًّا ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ
بِالْفَصِيحِ وَالْأَفْصَحِ .

وهذا الكلامُ هو الَّذِي نَعُدُّهُ نَحْنُ فِي زَمَانِنَا وَحِشِيًّا ، لِعَدَمِ الاستعمالِ .
فَلَا تَنْظُرْ أَنَّ الْوَحْشِيَّ مِنَ الْأَفْظَانِ مَا بَكَرَهُ سَمْعُكَ ، وَيَثْقُلُ عَلَيْكَ التَّنْقِيْ بِه ، وَإِنَّمَا
هُوَ الْغَرِيبُ الَّذِي يَقْلُ استعماله . فتارة يخفُّ على سَمْعِكَ ، ولاتَجِدُ به كراهَةً ، وتارة
يَثْقُلُ على سَمْعِكَ ، وتَجِدُ منه الكراهَةَ .

وذلك في اللفظ عيان :

أحدهما : أَنَّهُ غَرِيبُ الاستعمالِ .

والآخر : أَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَى السَّمْعِ ، كَرِيهٌ عَلَى الذُّوقِ

وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلَا مَزِيدَ عَلَى فُظَاظَتِهِ وَغَلَاظَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى

(٦٠) هي التي وضعت حبيلًا . فهي كالنساء من النساء . والفرس بعد نتاجها بيع ليال .

(٦١) ذو العنان الركوب الفرس الذلول .

(٦٢) الفلَو المهر الصغير . وقيل العظيم من جميع أولاد ذوات الحافر . والضبيس العسر الصعب الذي لم
يرض . (٦٣) السرح المواشي السائمة . أي أنها لاتمتع من المرعى .

(٦٤) يعضد يقطع . والطلع شجر عظام .

(٦٥) الدر اللبن . والمراد ذوات الدر من المواشي .

(٦٦) الإماق مخفف من الإماق . ترك الهمز منه ليوازن الرباق . والإماق نكت العهد من الأنفة .

(٦٧) الرباق جمع ربق بالكسر . وهو حبل فيه عدة عرى تشد به الهيمة من يدها أو عنقها . والمعنى تقطعوا
رباق العهد الذي في أعناقكم وتنفصوه . واستعار الأكل لذلك . لأن الهيمة إذا أكلت الربة خلطت من
الشدة .

« الوحشَى الغليظ » ويسمى أيضاً « المتوَعَر » . وليس وراءه في القبح درجة أخرى . ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يحطَ بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلاً .
فإن قيل : فما هذا النوع من الألفاظ ؟

قلت : قد ثبت لك أنه ما كرهه سمعك ، وثقل على لسانك النطق به .
وسأضرب لك في ذلك مثالا ، فنه ماورد لتأبط شراً في كتاب الحماسة :
يَظَلُّ بِمَوَاةٍ وَيُسمى بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرُوى ظُهُورَ الْمَسَالِكِ^(٦٨)
فإن لفظة : « جَحِيش » من الألفاظ المنكرة القبيحة ، وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى « فريد » وفريد لفظة حسنة راقية ، ولو وضعت في هذا البيت موضع « جَحِيش » لما اختل شيء من وزنه .

فتأبط شراً مَكُومٌ من وجهين في هذا الموضع :
أحدهما : أنه استعمل القبيح .
والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله ، فلم يعدل عنه .
ومما هو أقبح منها ما ورد لأبي تمام قوله :
قد قلت لما اطلحتم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريساً^(٦٩)
فلفظة « اطلحتم » من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين في أنها غريبة ، وأنها غليظة في السمع ، كرهية على الذوق ، وكذلك لفظة « دهاريس » أيضاً .

(٦٨) ديوان الحماسة ٣١/١ ورواية الديوان :

« ويعرُوى ظهور المالك »

واللواة المغازاة لاماء فيها ، والجحيش المنفرد ، ويعرُوى أى يرتكب المالك ، والمعنى أنه كثير الجولان في الأرض مستأنس بنفسه . يرتكب المالك لشدة حماسته وجراته .

(٦٩) ديوان أبي تمام ١٧١ وهو من قصيدة يمدح بها عياش بن لمعة . ومثلها :

أحيا حشاشة قلب كان غلوساً ورم بالصبر عقلا كان مألوفا

ومعنى اطلحتم أظلم ، والعشواء ضعيفة البصر ، والغبس جمع غباء وهي المظلمة ، والدهاريس الدواهي .

وعلى هذا وَرَدَ قوله من أبياتٍ يصفُ فرساً من جُمَلِها :
نَعَمْ متاعُ الدنيا حَبَاكَ به أَرْوَعُ لَا جَبْدَرُ وَلَا جَبَسُ (٧٠)
لفظة « جَبْدَر » غليظة . وأغلظُ منها قول أبي الطيب المتنبي :
جَصَحَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهِمُ شَيْمٌ عَلَى الْحَسْبِ الْأَغْرَدِ لَا يَلُ (٧١)
فإن لفظة « جَفَخ » مرة الطعم ، وإذا مرَّت على السَّمع اقشعرَّ منها . وأبو الطيب في استعمالها كاستعمالِ تَأَبَّطَ شَرًّا لفظة « جَحِيش » فإن تَأَبَّطَ شَرًّا كانت له مندوحة عن استعمالِ تلك اللفظة . كما أشرنا إليه فيما تقدَّم . وكذلك أبو الطيب في استعمالِ هذه اللفظة التي هي « جَصَحَتْ » فإن معناها فَخَرَتْ ، والجَفَخُ الفَخْرُ ، يقال « جَصَحَ فلان » إذا فَخَرَ . ولو استعملَ عوضاً عن « جَصَحَتْ » « فَخَرَتْ » لاستقامَ وزن البيت ، وحطِّيَ في استعماله بالأحسن .

وما أعلمُ كيفَ يذهبُ هذا وأمثاله على مثل هؤلاء الفحول من الشعراء ؟ !
وهذا الذي ذكرته وما يجري مجراه من الألفاظ هو الوحشُ اللفظ الغليظ الذي ليس له ما يدانيه في قُبْحِهِ وكراهَتِهِ . وهذه الأمثلة دليلٌ على ما أردناه ، .

والعربُ إذْ ن لا تَلَامُ على استعمالِ الغريبِ المحسنِ مِنَ الألفاظ ، وإنما تَلَامُ على الغريبِ القبيحِ . وأما الحَضَرِيُّ فإنه يُلامُ على استعمالِ القسمين معاً . وهو في أحدهما أشدُّ ملامَةً من الآخر .

على أن هذا الموضعَ يحتاجُ إلى قيدٍ آخر ، وذلكَ استخرجتهُ أنا دونَ غيري ، فإني

(٧٠) ديوان أبي تمام ١٦٧ وهو من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب . ومطلعا :
هل أثر من ديارهم دَعَسَ حيث تلاقى الأجزاء والوصس
ورواية الديوان « حيدر » بالحاء المهملة وهو القصير . والجيدار بمعناه . والأروع الذي يعجب الإنسان .
والجيس الجماد الثقيل الروح .

(٧١) ديوان المتنبي ٢٥٨/٣ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الله الأنطاكي . ومطلعا
لك يمانزل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أوامل
جفخت تكبرت وفخرت . وفي البيت تقديم وتأخير . وتقديره : جفخت بهم شيخ وفخرت . وهم لا يفخرون بها . وشيخهم دلائل على حبسهم الظاهر .

وجدت الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ، ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات .
وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة ، ولربما أنكره بعد ذلك إما
عناداً ، وإما جهلاً ، لعدم الذوق السليم عنده .

فن ذلك قول الفرزدق (٧٦) :

ولولا حياءُ زدتُ رأسك شجرةً إذا سِرتَ ظلتَ جوانبها تغل (٧٣)

شربة شماء من ير ما بها تشبه وكو بين الخاسي والطفل (٧٤)

ف قوله : « شربة » من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا
غير مستكرهه ، إلا أنها لو وردت في كلام مشور من كتاب أو خطبة لميت على
مستعملها .

وكذلك وردت لفظة « مشمخر » (٧٥) فإن بشراً قد استعمالها في أبياته التي يصف

فيها لقاء الأسد ، فقال :

وأطلقت المهند عن يميني فقدد له من الأضلاع عشرًا

فخر مضرجاً بدم كاني هدمت به بناء مشمخراً

وعلى هذا ورد قول البحتري في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى ، فقال :

مشمخر تعلق له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقديس (٧٦)

فإن لفظة « مشمخر » لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها هاهنا في
الشعر . وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب بن نباتة ، كقوله في خطبة يذكر فيها

(٧٢) ديوان الفرزدق ٧١٣/٢ من قصيدة مطلعها :

ألا استزأت مني هنية أن رأيت أسيراً ينادي خطوه حلق الجبل

(٧٣) رواية الديوان « هزمة » موضع « شجة » والحزمة الشق ، والسير تقدير الجراحة .

(٧٤) الشرنيت في الأصل الغليظ ، أراد أنها قبيحة منكورة . في الأصل « . . من يرعى بها يشبه . . » ويقال

« غلام نخاس » إذا كان طوله خمسة أشبار . ولا يقال سداسي ولا سباعي . لأنه إذا بلغ ستة أشبار فهو رجل ،
والطفل هو الصغير أو المولود .

(٧٥) المشمخر الجبل العالي .

(٧٦) شرفات القصر : ما أشرف من بنائه . ورضوى جبل . وقديس جبل بنجد ، يشبه القصر في ضخامته

وارتفاعه بهلين الجبلين .

أحوال يوم القيامة ، فقال : « اِقْمَطْ^(٧٧) وبألها ، اشمخَرْ نكألها ، فما طابَتْ .
ولا سَأَتْ » .

ومن هذا الأسلوب لفظه « الكَنُهور » في وصف السحاب ، كقول أبي الطَّيِّب^(٧٨) :

باليَتَ باكيةً شجاني دَمْعُها نظرت إليك كما نظرتُ فتَعَدَّرا
وَتَرَى الفضيلةَ لا تَرُدُّ فضيلة الشمسُ تُشْرِقُ والسَّحابُ كَنُهوراً^(٧٩)
غلظة « الكنهور » لا تُعَابُ نَظْماً ، وتُعَابُ نَثْراً .

وكذلك يَجْرَى الأمرُ في لفظِ « العَرِيس » وهي اسمُ الناقةِ الشديدة . فإن هذه
اللفظة يَسُوغ استعمالها في الشعر . ولا يعابُ مُستعملها ، كقول أبي الطيب أيضاً :
وَمَهْمَهِ جَبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعَجَّرُ عَنْهُ الْعَرَايسُ الدُّلَلُ^(٨٠)

فإنه جَمَعَ هذه اللفظة ، ولأبأس بها ، ولو استعملت في الكلام المَثُور لما طابت
ولا سَأَتْ . وقد جاءت مُوحدة في شعر أبي تمام^(٨١) كقوله :

هي العَرِيسُ الْوَجْنَاءُ وابنُ مُلَمَّةٍ وجأشُ على ما يُحَدِّثُ الدَّهْرُ خَافِضُ^(٨٢)
وكذلك وَرَدَ قوله أيضاً : « يامَوْضِعَ الشَّدْنِيَةِ الْوَجْنَاءِ »^(٨٣)

(٧٧) القطر : اشتد .

(٧٨) ديوان المتنبي ١٧١/٢ من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد . ومطلعها :

بادهواك صبرت أم لم تصيرا وبكالك إن لم يمر دمعك أو جرى
(٧٩) الكنهور : العظيم المتكاثف .

(٨٠) ديوان المتنبي ٢١١/٣ . والمهمة : ما بعد من الأرض واتسع . جبته : قطعه . العرايس : النوق
الصلاب الشديدة . الدلل : المذلة بالعمل ، والبيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار . ومطلعها
أبعد نيل المليحة البخل في البعد . مالا تكلف الإبل

(٨١) ديوان أبي تمام ١٨٤ من قصيدة يمدح بها دينار بن عبد الله . ومطلعها :

مهاة النقا لولا الشوى والمأبى وإن محض الإعراض لي منك ماحض

(٨٢) في الأصل « وحاش » . وفي الديوان « هي الحرمة الوجناء » والوجناء العظيمة الوجنتين .

(٨٣) صدر مطلع القصيدة « وعجزه » . ومصارع الإدلاج والإسراء . والإيضاع ضرب من السير أو التسيير .
والشدنة الناقة الكريمة . نسبة إلى شدن بلد مشهور بالأبل الكرام .

فإن « الشدنية » لأتعبُ شعراً ، وتُعبُ لو وردت في كتاب أو خطبة .

وهكذا يجرى الحكم في أمثال هذه الألفاظ المشار إليها .

وعلى هذا فاعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنشور من الألفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنشور .

وذلك شيء استنبطته ، وأطلعت عليه ، لكثرة ممارستى لهذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دلتني عليه ! فن شاء أن يقللني فيه ، وإلا فلينظر النظر حتى يطلع على ما أطلعت عليه ، والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت !

وقد رأيت جماعة من مدعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعز فهمه ، ويبعد متناوله ، وإذا رأوا كلاماً وحشياً غامض الألفاظ يُعجبون به ، ويصفونه بالفصاحة ، وهو بالضد من ذلك ، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، لا الغموض والخباء .

وسأبين لك ما تعتمد عليه في هذا الموضع ، فأقول : الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورققة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه .

فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك .

وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأنواق ، وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات ، وملابسات الاستعطاف ، وأشباه ذلك .

ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً ، عليه عنجبية البداوة ، بل أعني بالجزل أن يكون متيناً على علوته في الفم ، ولذا ذرته في السمع . وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً^(٨٤) وإنما هو اللطيف ، الرقيق

(٨٤) السفيف والفسان الردي من كل شيء .

الحاشية ، الناعمُ الملمس ، كقول أبي تمام (٨٥) :

ناعميات الأطراف لو أنها تُلَّ بسَّسَ اغتَنَّتْ عن الملاءِ الرِّفاقِ

وسأضربُ ، لك مثالا للجزل من الألفاظ والرقيق ، فأقول :

انظر إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب ، والعذاب ، والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا . وما جرى هذا المجرى ، فإنك لا ترى شيئا من ذلك وحشى الألفاظ ، ولا متوعرا .

ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرافة والمغفرة ، والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب المؤمنين ، والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى فإنك لا ترى شيئا من ذلك ضعيْف الألفاظ ، ولا سفسفا .

فثال الأول ، وهو الجزل من الألفاظ قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وَوُفِّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا نَفْسُ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ (٨٦)

فثامل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة .

وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة ؟

(٨٥) ديوان أبي تمام . من قصيدة يمدح بها إسماعيل بن شهاب ويشكره . ومثلها :

أَيُّمَا الْبَرِّقِ بَتَ بِأَعْلَى الْبَرِّاقِ وَاحِدٌ فِيهَا بِرَابِلٌ غِيدَاقُ
البرق أرض ذات حجارة ورمل وطنين . والغيداق المنسكب .

(٨٦) سورة الزمر : الآيات ٦٩ - ٧٤ .

وكذلك وَرَدَ قوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا
خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ
تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » (٨٧).

وأما مثال الثاني : وهو الرقيقُ من الألفاظ ، فَقَوْلُهُ تعالى في مخاطبةِ النَّبِيِّ ﷺ :
« وَالضَّحَى » والليل إذا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٨٨) . . . إلى آخر السُّورَةِ .
وكذلك قَوْلُهُ تعالى في ترغيبِ المسألة : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » (٨٩) .

وهكذا تَرَى سَبِيلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ في كِلَا هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ من الجزالة والرفقة .
وكذلك كَلَامُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ في الزَّمنِ الْقَدِيمِ ، مِمَّا وَرَدَ عَنْهَا نَثْرٌ ، وَيَكُنَى مِنْ ذَلِكَ
كَلَامُ قَيْصَةَ بْنِ نَعِمٍ لَمَّا قَدِمَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ في أَشْيَاخِ بَنِي أَسَدَ ، يَسْأَلُونَهُ الْعُفُوعَ
دَمَ أَبِيهِ ، فَقَالَ لَهُ :

« إِنَّكَ في الْحُلِّ وَالْقُدْرِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِتَصَرُّفِ الدَّهْرِ ، وَمَا تُعَدُّهُ أَيَّامُهُ ، وَتَسْتَقِلُّ بِهِ
أَحْوَالُهُ ، بَحِثْ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَذْكِيرٍ مِنْ وَاعِظٍ ، وَلَا تَبْصِيرٍ مِنْ مَجْرِبٍ . وَلَكِنْ مِنْ سُودِدِ
مَنْصِبِكَ ، وَشَرَفِ أَعْرَاقِكَ ، وَكَرَمِ أَصْلِكَ في الْعَرَبِ مَحْتَدِ (٩٠) ، يَحْتَمِلُ مَا حُمِّلَ عَلَيْهِ
مِنْ إِقَالَةِ الْعَثَرَةِ ، وَرُجُوعٍ عَنِ الْهَقْمَةِ . وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهَمَمُ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ ،
فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ مِنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ ، وَكَرَمِ الصَّفْحِ مَا يَطُولُ رَغْبَاتُهَا ،
وَيَسْتَفْرِقُ طَلِبَاتُهَا . وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي عَمَّتْ رَزِيئَتُهُ بَرَارًا
وَالْيَمْنَ ، وَلَمْ تُخَصَّصْ بِذَلِكَ كِنْدَةُ دُونِنَا ، لِلشَّرَفِ الْبَارِعِ الَّذِي كَانَ لِحُجْرٍ . وَلَوْ كَانَ
يُقْدَى هَالِكٌ بِالْأَنْفَسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخِلْتَ كَرَامَتَنَا بِهَا عَلَى مِثْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ مَضَى بِهِ سَبِيلُ
لَا يَرْجِعُ أَخْرَاهُ عَلَى أَوَّلَاهُ ، وَلَا يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَذْنَاهُ فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ في ذَلِكَ أَنْ تَعْرِفَ
الْوَاجِبَ عَلَيْكَ في إِحْدَى خِلَالِ ثَلَاثَ :

(٨٧) سورة الأنعام : الآية ٩٤ .

(٨٨) سورة الضحى : الآيات ١ - ٣ .

(٨٩) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(٩٠) المختار الأصل والطبع .

إِنَّمَا أَنْ اخْتَرْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا ، وَأَعْلَاهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرَمَاتِ ضَوْتًا ، فَقَدْ نَاهُ
إِلَيْكَ يَنْسَعِي^(٩١) تَذَهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِيَأْتِي قَصْرَتَهُ^(٩٢) ، فَتَقُولُ : رَجُلٌ
أَمْتَحِنَ بِهِ الْكَوْزَ عَزِيزٌ ، فَلَمْ يَسْتَلْ سَخِيمَتَهُ^(٩٣) إِلَّا تَمَكَّنَهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ .

أَوْ فِدَاءُ بِمَا يَرْوَحُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ مِنْ نَعِيمِهَا ، فَهِيَ أَلَوْفٌ تَجَاوِرُ الْحَسْبَةَ ، فَكَانَ ذَلِكَ
فِدَاءً رَجَعَتْ بِهِ الْقَصَبُ إِلَى أَجْفَانِهَا ، لَمْ يَرُدِّدْهَا تَسْلِيْطُ الْإِخْنِ عَلَى الْبِرَاءِ .
وَأَمَّا أَنْ وَادَعْتَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ ، فَتُسَدِّلَ الْأَزْرُ ، وَتُعَقَّدَ الْخُمُرُ فَوْقَ
الرَّيَابَاتِ^(٩٤) .

فَبَكَى أَمْرُو الْقَيْسِ سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ :
« لَقَدْ عَلِمْتُ الْعَرَبُ أَنَّهُ لَا كَفَّ لِحُجْرِي دَمٍ ، وَأَنِّي لَنْ أَعْتَاضَ جَمَلًا وَلَا نَاقَةً ،
فَأَكْتَسَبَ بِهِ سَبَّةَ الْأَبَدِ ، وَقَتَّ الْعَصْدُ .

وَأَمَّا النُّظْرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجَنَّةُ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِهَا ، وَلَنْ أَكُونَ لَعَطِبَهَا سَبِيًّا
وَسَتَعْرِفُونَ طَلَائِعَ كُنْدَةٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَحْمِلُ فِي الْقُلُوبِ حَقًّا^(٩٥) وَفَوْقَ الْأَبْسَةِ
عَلَقًا^(٩٦) :

إِذَا جَالَتْ الْحَرْبُ فِي مَازِقِي تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَائِمَا النُّفُوسَا
أَتَقِيمُونَ أَمْ تَنْصِرِفُونَ ؟^(٩٧)

قَالُوا : « بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَأِ الْإِخْتِيَارِ ، وَأَبْلَى الْاجْتِرَارِ ، بِمَكْرُوهِ وَأَذْيَةٍ ، وَحَرْبِ
وَيْلِيَّةٍ^(٩٨) .

ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ ، وَقَبِيصَةٌ يَتَمَثَّلُ :
لَهُلِكَ أَنْ تَسْتَوْجِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ كَتَائِبُنَا فِي مَازِقِي الْحَرْبِ تُنْطِرُ
فَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ : « لَا وَاللَّهِ ! وَلَكِنْ أَسْتَعْلِيهِ ، فَرُودًا يَنْفِرُجُ لَكَ دَجَاهَا مِنْ

(٩١) التَّسَعُّ بِالْكَسْرِ سِرٌّ يَنْسَجُ عَرِيضًا عَلَى هَيْئَةِ أَعْنَةِ النَّمَالِ تُشَدُّ بِهِ الرِّحَالُ . وَالْفَعْلِيَّةُ مِنْهُ لِسْعَةٌ .
(٩٢) الْقَصْرَةُ أَصْلُ الْمَنْقَرِ .

(٩٣) السَّخِيمَةُ الْحَقْدُ . (٩٤) الْحَقُّ الْغِلْظُ . أَوْ شِدَّتُهُ .

(٩٥) الْمَلَقُ حَرَكَةُ الدَّمِ عَامَةً . أَوْ الشَّدِيدُ الْحَمَرَةُ . أَوْ الْغَلِيظُ . أَوْ الْجَاهِدُ .
١٨٨

فرسان كندة وكتائب حسير ، ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى ، إذ كنت نزلت
بربى . ولكنك قلت فأجبت « فقال أمرؤ القيس : هو ذاك (٩٦) !

فلتنظر إلى هذا الكلام من الرجلين قبيصة وامرؤ القيس حتى يدع المتعمقون
تعمقهم في استعمال الوخشي من الألفاظ ، فإن هذا الكلام قد كان في الزمن القديم
قبل الإسلام بما شاء الله . وكذلك كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه
فليس بشيء.

وهذا المشار إليه هاهنا هو من جزل كلامهم ، وعلى مآثره من السلاسة والمؤوبة .
وإذا تصفحت أشعارهم أيضاً وجدت الوخشي من الألفاظ قليلاً بالنسبة إلى
المُسلك في الفهم والشعر ، ألا ترى إلى هذه الآيات الواردة للسموئل بن عاديا ،
وهي (٩٧) :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَذْنُسْ مِنَ اللَّوْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَأَنْ هُوَ لَمْ يَحْيِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرُهُ أَجَالُهُمْ قَتَلُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتَّى أَتَفُو (٩٨) وَلَا طُلُّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ (٩٩) وَحَطْنَا لَوْ قَتِرَ إِلَى خَيْرِ الْبَطُونِ يَزُولُ
فَنَحْنُ كَمَا الْمَوْنِ مَا فِي نَصَابِنَا كَهَامِ (١٠٠) وَلَا فِيمَا يُعَدُّ بِخَيْلُ
إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ قَتُولُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ

(٩٦) صححنا بعض ألفاظ هذا النص بمقابته على رواية القلقشندي [انظر صبح الأعشى ٢/٢٠٨]

(٩٧) الآيات في ديوان المهاسنة ٣٦/١ .

(٩٨) قال « مات فلان حتف أنفه » إذا مات من غير قتل ولا ضرب - والمعنى أنه لامتوت . ولكن تقتل .

ودم القاتل منا لا يذهب هدرا .

(٩٩) يشير إلى صريح نسيم وخلوصه بما يحيط بشرفهم .

(١٠٠) كهام المزن أى ماء السحاب - يشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر . والنصاب الأصل . والكهام

الكليل الحد .

وَأَيَّامَنَا مَشْهُورَةٌ فِي عَدُوَّنَا لَهَا عُرُرٌ مَشْهُورَةٌ^(١٠١) وَحُجُولٌ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ^(١٠٢) قُلُولٌ
مُعَوَّدَةٌ إِلَّا نَسَلٌ نَصَالُهَا فَتُغَمَّدُ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ
فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا قَضَمَتْهُ مِنَ الْجَزَالَةِ خَلْنَاهَا زُبْرًا مِنَ الْحَدِيدِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ سَهْلَةٌ
مُسْتَعْدَبَةٌ ، غَيْرُ فَظَةٍ ، وَلَا غَلِيظَةٍ .

وكذلك قد وردَ للعرب في جانب الرقة من الأشعار ما يكادُ يذوبُ لِرِقَّتِهِ ، كقول
عُرْوَةَ بْنِ أَذْيَنَةَ^(١٠٣) :

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ قُوَادَكَ مَلَهَا خَلِيتُ هَوَاكَ كَمَا خَلِيتَ هَوَى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكِرَهَا التَّيْمُ فَصَاغَهَا بِلِبَاقَةٍ فَأَدَقَهَا^(١٠٤) وَأَجَلَهَا
حَجَبَتْ نَجِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا
وَأَذًا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةً شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ^(١٠٥) فَسَلَّهَا
وكذلك وردَ قولُ الآخر^(١٠٦) :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعَيْسُ تَهْوَى^(١٠٧) بِنَائِينَ الْمِينَةِ الْفَضْمَارُ^(١٠٨)

(١٠١) رواية ديوان الحماسة « معلومة » . والحجول جمع حجل ، وهو هنا البياض يكون في قوائم الفرس ،
والكلام على التشبيه .

(١٠٢) القِرَاعُ والمقارعة للضاربة ، والدارعون أصحاب الدروع ، والقول جمع قل ، وهو التلم في حد
السيف .

(١٠٣) اسمه يحيى بن مالك أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة ، وهو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة ،
ومعتمد في الفقهاء والمحدثين ، روى عنه مالك بن أنس . والأبيات في ديوان الحماسة ٦٣/٢ وفي أمالي القالي
١٥٦/١ .

(١٠٤) رواية الأمالي « بلباقة فأرقها »

(١٠٥) الوسواس خطرات النفس - والمعنى أن النفس إذا حدثني بالسوأسها كان ضميري الشفيع إلى
إخراج وسواس السلو من نفسي . ورواية الأمالي « شفع الضمير لها إلى نسلها » .

(١٠٦) الأبيات الخمسة الأولى في أمالي القالي ٣٢/١ وفي حماسة أبي تمام ٦٥/٢ وهي غير منسوبة فيها

(١٠٧) رواية الأمالي « نخدئ »

(١٠٨) المنيقة ماء لبنى تميم ، والضمار اسم موضع ، قال التبريزي : وكان حق العطف في قوله « فالضمار » أن
يكون نالوار ، لأن « ين » لا تدخل إلا بين شيئين متباينين ، إلا إذا أريد بين أجزاء المنيفة .

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ (١٠٩)
أَلَا يَا حَبْدًا تَفَحَّاتُ نَجْدٍ وَرَبًّا رَوْضِهِ غِبَّ الْقَطَارِ (١١٠)
وَأَهْلَكَ إِذْ بِحُلِّ الْحَيِّ نَجْدًا وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرَ زَارٍ (١١١)
شُهُورٌ يَنْقُصِينَ وَمَا شَعَرْنَا بِإِنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارٍ (١١٢)
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرٌ لَيْلٍ وَأَطْيَبُ مَا تَكُونُ مِنَ النَّهَارِ
وَمِمَّا تَرَقُّصُ الْأَسْبَاحُ لَهُ ، وَبِرُّ عَلَى صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ قَوْلُ بَرِيدَ بْنِ الطَّرْفَةِ فِي مَحَبُّوبَتِهِ مِنْ جَرَمٍ :

بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرُّ يَرُدُّ بَنَانِي عَلَى كَبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلِي
وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَيْئَتِي فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَائِلِي

وَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُ سَاكِنٍ فِي الْفَلَاةِ لَا يَرَى إِلَّا شَيْخَةً أَوْ قَبُصُومَةً ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا ضَبًّا أَوْ يَرْبُوعًا ، فَمَا بَالُ قَوْمٍ سَكَنُوا الْحَضَرَ ، وَوَجَدُوا رَقَّةَ الْعَيْشِ يَتَعَاطَلُونَ وَخَشِيَ الْأَلْفَافِ وَشَطَطِ الْعِبَارَاتِ ؟ وَلَا يَحْذَرُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا إِمَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفَصَاحَةِ ، وَإِمَّا عَاجِزٌ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِمَّنْ شَدَّ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْأَدَبِ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوَحْشِيِّ مِنَ الْكَلَامِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَلْتَقِطُهُ مِنْ كُسْبِ اللَّغَةِ ، أَوْ يَتَلَقَّهَ مِنْ أَرْبَابِهَا . وَأَمَّا الْفَصِيحُ الْمُتَصِفُ بِصِفَةِ الْمَلَاخَةِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ قَدَّرَ عَلَيْهِ لَمَا عَلِمَ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ فِي تَأْلِيفِهِ وَسَبْكِهِ .

فَإِنْ مَارَى فِي ذَلِكَ مُمَارَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَشْعَارِ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ مِمَّنْ كَانَ مُشَارًّا إِلَيْهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ صَحَّةَ مَا ذَكَرْتُهُ : هَذَا ابْنُ دُرَيْدٍ (١١٣) قَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَشْعَرُ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ ، وَإِذَا نَظَرْتَ

(١٠٩) الشَّمْسُ مُصَدَّرٌ ، أَرَادَ بِهِ الْمَشْمُومَ ، وَالْمَرَادُ وَرْدَةٌ تَامِعَةٌ صَفْرَاءُ طَلِيَّةٍ الرَّاحَةِ .

(١١٠) الْقَطَارُ جَمْعُ قَطَرٍ ، وَالْفَحْجُ تَضَوُّعُ الرِّيَّاحِ بِالنِّسَمِ بِالطَّيِّبِ .

(١١١) زَرَى عَلَيْهِ عَابَهُ - وَالْمَعْنَى وَهَجَّوْبَ إِلَى أَيْضًا مِنْهَا زَمَانُ أَهْلَكَ حِينَ كَانُوا نَازِلِينَ بِنَجْدٍ . وَأَنْتَ رَاضٍ .

مَنْهُ لِمُسَاعَدَتِهِ إِيَّاكَ بِمَا تَهْوَاهُ وَتُرِيدُهُ .

(١١٢) سِرَارُ الشَّهْرِ آخِرُهُ .

(١١٣) هُوَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدِ الْأَزْدِيِّ - وَلَدَ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٢٢٣ هـ . وَكَانَ نَائِفَةً فِي اللَّغَةِ

وَالْأَدَبِ وَالْأَنْسَابِ ، وَبَرِعَ فِي الشُّعْرِ - حَتَّى قِيلَ فِيهِ أَشْهُرُ الْعُلَمَاءِ وَأَعْلَمُ الشُّعْرَاءِ . وَلَهُ عِدَّةُ تَصَانِيفٍ مِنْهَا كِتَابُ

الْجُمُحُورَةِ ، فِي اللَّغَةِ - تَوَفَّى سَنَةَ ٣٢١ هـ .

إلى شعره وجذته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين منحطاً مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عشرَ مِئْثَارٍ ماعِلِمَه .

هذا العباس بن الأحنف^(١١٤) قد كان من أوائل الشعراء المجيدين ، وشعره كمرّ نسيم على عذبات أغصان ، وكُلُوثٍ طَلَّ على طَرَرٍ رِيحَان ، وليس فيه لفظة واحدة غريبةٌ يُحْتَاجُ إلى استخراجها من كُتُبِ اللُّغَةِ ، فمن ذَلِكَ قَوْلُهُ :

وَإِنِّي لَيَرْضِي قَلِيلُ نَوَالِكُمُ وَإِنْ كَانَ لَا رِضَى لَكُمْ بِقَلِيلِ
بِحُرْمَةٍ مَاقَدَ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ مِنْ الْوَدِّ إِلَّا عُدْتُمْ بِجَمِيلِ
وَهَكَذَا وَدَّ قَوْلُهُ فِي «فُوز» الَّتِي كَانَ يُشَبِّهُ بِهَا فِي شِعْرِهِ :

بِأَفْوَزٍ بِأَمْنِيَّةِ عَبَّاسٍ قَلْبِي يُفَدِّي قَلْبَكَ الْقَاسِي
أَسْنَتٌ إِذَا أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
يُثْلِقُنِي شَوْقِي فَاتَيْكُمُ وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وهلْ أعذبُ من هذه الأبيات ، وأغلقَ بالحاطر ، وأسرى في السَّمْعِ ؟ ولعلها تخففُ رواجعُ الأوزانِ ، وعلى مثلها تسهرُ الأجنافُ ، وعن مثلها تتأخرُ السَّوابقُ عندَ الرِّهانِ . ولمْ أجْرِهاً يِلْسَانِي يوماً من الأيامِ إِلَّا ذَكَرْتُ قَوْلَ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِ^(١١٥) :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوْا بِلِحْجَةٍ أَحْمَقَ أَرَاهُ غَيْرِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقُّ^(١١٦)
وَمَنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي هِيَ سَهْلَةٌ وَعَرَّةٌ ، قَرِيبَةٌ بِمِידَةٍ !
وهذا أَبُو الْعَتَّاهِيَّةِ^(١١٧) كان في عِزِّهِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وشعراءُ الْعَرَبِ إِذْ ذَاكَ مُوجُودُونَ

(١١٤) العباس بن الأحنف من بني عدي بن حنيفة ، وهو شاعر غزل مطبوع ، وله مذهب في الشعر جيد ، ولعانيه عنوبة ، وكان من شعراء بني العباس ، وقدمه المبرد على نظرائه . وأطنب في وصفه ، ولم يتجاوز الغزل إلى غيره من أغراض الشعر . توفي سنة ١٩٢ هـ .

(١١٥) ديوان المتنبي ٣١٤/٢ من قصيدة مطلعها :

لينيكَ ما يلقى الفُزَادَ وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
(١١٦) أسكن الواو من القفل « يلهو » وهو منصوب ضرورة .

(١١٧) هو إسماعيل بن القاسم . نشأ بالكوفة يتالج الشعر مع بلاد المذاهب المتكلمين والفلاسفة ، ويغلب على شعره الزهد والسهولة . وقد توفي سنة ٢١١ هـ .

كثيراً ، وكانت مدائحهُ في المهديّ بن النصور ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ شَعْرَهُ وَجَدْتَهُ كَالْمَاءِ
الْجَارِي : رِقَّةُ الْفَاضِلِ ، وَلَطَافَةُ سَبْكِهِ ، وَلَيْسَ بِرَكِيكٍ وَلَا وَاهٍ .

وكذلك أَبُو نُؤَاسٍ ، وبهذا قَدَّمَ عَلَى شِعْرِهِ عَصْرَهُ ، وَنَاهَيْكَ بِعَصْرِهِ ، وَمَا جَمَعَهُ
مِنْ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ ، وَيَكْفِي مِنْهُمْ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ (١١٨) الَّذِي كَانَ فَارَسَ الشَّعْرِ ، وَلَهُ
الْأَسْلُوبُ الْعَجِيبُ غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَنَّجُهُ فِي أَكْثَرِ الْفَاضِلِ .

وَيَحْكِي أَنَّ أَبَا نُؤَاسٍ جَلَسَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ التَّجَارِبِغْدَادِ هُوَ وَجَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ ،
فَاسْتَسْقَى مَاءً ، فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ :

• عَذَبَ الْمَاءُ وَطَابَا •

ثُمَّ قَالَ أَجِزُوهُ ، فَأَخَذَ أُولَئِكَ الشُّعْرَاءُ يَتَرَدَّدُونَ فِي إِجَازَتِهِ ، وَإِذَا هُمْ بِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ
فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ مَعْضَمِينَ ؟ فَقَالُوا : هُوَ كَيْتَ ، وَكَيْتَ ، وَقَدْ قَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

• عَذَبَ الْمَاءُ وَطَابَا •

فَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

• حَبَلَا الْمَاءُ شَرَابَا •

فَعَجَبُوا لِقَوْلِهِ عَلَى الْفُورِ مِنْ غَيْرِ تَلَبُّثٍ .

وَكُلُّ شِعْرِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ كَذَلِكَ سَهْلُ الْأَلْفَاظِ ، وَسَأُورِدُ مِنْهُ هَاهُنَا شَيْئًا يُسْتَدَلُّ بِهِ
عَلَى سِلَاسَةِ طَبْعِهِ ، وَتَرْوِيقِ خَاطِرِهِ .

فَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي يَمْدَحُ فِيهَا الْمَهْدِيَّ ، وَيُشَبِّهُ فِيهَا بِجَارِيَتِهِ « عَتَبَ » :

أَلَا مَا لِسَيِّدَتِي مَالَهَا تَدِلُّ فَأَحْمِلُ إِذْ لَالَهَا

أَلَا إِنَّ جَارِيَةَ لِلإِمَامِ قَدْ سَكَنَ الْحُسْنَ سِرَّ بَالَهَا

لَقَدْ اتَّعَبَ اللَّهُ قَلْبِي بِهَا وَاتَّعَبَ فِي الْيَوْمِ عُدَالَهَا

كَأَنَّ بَعْثِي فِي حَيْثَمَا سَلَكَتُ مِنَ الْأَرْضِ نِمَاطَهَا

(١١٨) هُوَ صَرِيحُ الْغُرَافِيِّ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيُّ ، تَأَدَّبَ فِي الْكُوفَةِ ، وَنَبِهَ شَأْنَهُ فِي الشَّعْرِ . حَتَّى صَارَ مِنْ

مُتَقَدِّمِي عَصْرِهِ ، وَهُوَ مِنْ مُتَكَلِّفِي الْبَلَدِيعِ ، وَقَدْ تَوَفَّى بِمَرْجَانِ سَنَةِ ٢٠٨ هـ .

فلما وَصَلَ إلى المديح قال من جملته :

أَتَتْهُ الْخَلِيقَةُ مُتَقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالَهَا
قَلَمَ تَكَ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ الْقُلُوبِ (١١٩) لَمَّا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا
ويحكى أَنَّ بشاراً (١٢٠) كَانَ شَاهِداً عِنْدَ إِنْشَادِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، فَلَمَّا
سَمِعَ الْمَدِيحَ قَالَ : انْظُرُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ طَارَ عَنْ أَعْوَادِهِ ؟ يُرِيدُ هَلْ زَالَ عَنْ
سِرِّيَرِهِ طَرِباً بِهَذَا الْمَدِيحِ ؟

ولعمري إِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ بَشَارٌ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا أَسْكَرَ السَّامِعَ ، حَتَّى يَنْقُلَهُ عَنْ
حَالَتِهِ سَوَاءَ كَانَ فِي مَدِيحٍ أَوْ غَيْرِهِ .
وقَدْ أَشْرَفْتُ إِلَى ذَلِكَ فَبِمَا يَأْتِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَ ذِكْرِ (الاستعارة) فَلْيُؤَخِّذْ مِنْ
هَنَّاكَ .

واعلم أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَشَارِإِلَيْهَا هَاهُنَا مِنْ رَقِيقِ الشَّعْرِ غَزَلاً وَمَدِيحاً ، وَقَدْ أَدْعَنَ
لِمَدِيحِهَا الشُّعْرَاءَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّكَ تَرَاهَا مِنَ السَّلَاسَةِ وَاللِّطَاقَةِ عَلَى
أَقْصَى الْغَايَاتِ .

وهَذَا هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَسْمَى « السَّهْلُ الْمَمْتَنِعُ » فَتَرَاهُ يُطْعِمُكَ ، ثُمَّ إِذَا حَاوَلْتَ
مِثْلَتَهُ رَأَيْتَ رَاغاً عَنكَ كَمَا يَرُوعُ الثَّغْلَبُ .

ومكداً يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ خَاصِّ فِي كِتَابَةٍ أَوْ شِعْرِ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ مَا دَخَلَ
الْأُذُنَ بِغَيْرِ إِذْنٍ !

وَأَمَّا الْبَدَاوَةُ وَالْعَنْجَهِيَّةُ فِي الْأَلْفَاظِ فَتِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَّتْ ، وَمَعَ أَنَّهَا قَدْ خَلَّتْ

(١١٩) بَنَاتُ الْقُلُوبِ : حَيَاتُهَا . وَالْمَعْنَى مِنْ لَمْ يَطْلُصْ لِلْخَلِيفَةِ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَهُ .

(١٢٠) هُوَ أَبُو سَمَاعَةَ بَشَارُ بْنُ بَرْدِ الْعَقِيلِ وَوَلَدَهُ . الْفَارْسِيُّ أَصْلًا . أَخَذَ الْعَرَبِيَّةَ عَنْ أَهْرَابِ الْبَصْرَةِ . وَنَبِيغٌ فِي
الشُّعْرِ ، لَشِدَّةِ ذِكَاثِهِ ، وَسَمِعَهُ خِيَالَهُ . وَحَسَنَ ابْتِكَارِهِ . وَكَانَ هَجَاءً مَاجِنًا مَاتَ مَقْتُولًا سَنَةَ ١٦٧ هـ .

وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيّنت على مُستعملها في ذلك الوقت ، فكيف الآن وقد غلبَ على الناس رِقَّةُ الحَصَرِ ؟

وَيَهْدُ هَذَا فاعْلَمْ أَنَّ الألفاظَ تَجْرَى من السَّمْعِ بِجَرَى الأشخاصِ من البَصَرِ . فالألفاظُ الجزلةُ تُتَخَيَّلُ في السَّمْعِ كأشخاصٍ عليها مهابةٌ ووقارٌ .

والألفاظُ الرقيقةُ تُتَخَيَّلُ كأشخاصٍ ذَوِي دِمَائَةٍ ، ولين أخلاقٍ ، وَلَطَافَةٍ بِزَاجٍ . ولهذا تَرَى ألفاظَ أبي تَمَّامٍ كأنها رجالٌ قد ركبوا خيولَهُمْ ، واستلَمُوا سِلَاحَهُمْ ،

وتأهبوا للطرادِ . وترى ألفاظَ البُخْتَرِيِّ كأنها نساءٌ حِسَانٌ عليهنَّ غلائلُ مُصَبَّغَاتٍ ، وقد نَحَّيْنَهُنَّ بِأَصْنَافِ الحُلِيِّ .

وَإِذَا لَنَعَمْتَ نَفَرَكُ فَمَا ذَكَرْتَهُ هَاهُنَا وَجَدْتَنِي قَدْ دَلَّلْتُكَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَضَرَبْتُ لَكَ أَمْثالاً مُنَاسِبَةً .

واعلم أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّاطِلِ والنَّاتِرِ أَنْ يَجْتَنِبَ مَا يَضِيقُ بِهِ بِمَجَالِ الكَلَامِ في بعضِ الحُرُوفِ كالتاءِ والذالِ والحاءِ والشينِ والصادِ والطاءِ والظَّاءِ والغينِ . فَإِنَّ في الحروفِ الباقيةِ مندوحةً عن استعمالِ ما لا يَحْسُنُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْرَفِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا .

والناظمُ في ذلك أشدُّ ملامةً ، لَأَنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِأَنْ يَنْظِمَ قَصِيدَةً ذاتَ أَيْتَاتٍ متعدِّدةٍ ، فَيَأْتِي في أَكْثَرِهَا بِالشَّعْرِ الكَرِيهِ الَّذِي يَمُجُّهُ السَّمْعُ ، لَعَدَمِ اسْتِمَالِهِ ، كما فعلَ أَبُو تَمَامٍ في قَصِيدَتِهِ الثَّانِيَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا :

قِفْ بِالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عَلَاتًا ^(١٢١) .

وكما فعلَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنِيُّ في قَصِيدَتِهِ الشَّيْبَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا :

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشٍ ^(١٢٢) .

وكما فعلَ ابْنُ هَانِيٍّ المَغْرِبِيُّ ^(١٢٣) في قَصِيدَتِهِ الْخَاتِيَةِ الَّتِي مَطَّلَعُهَا :

سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَقْتَمُ أَقْتَحُ .

^(١٢١) ديوان أبي تمام ١٦٣ ، وعجز البيت : أضحى جبال ظهين رثانا .

^(١٢٢) ديوان المتنبي ٢٠٧/٢ وعجز البيت : حشا لي بحر حشاى حاش .

^(١٢٣) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي . أشهر شعراء الأندلس . والمقرب ينتهي للمغرب ، نشأ في أشبيلية وأنهم بسوء العقيدة ، فهرب إلى عدة المغرب . وكانت في قبضة الفاطميين الأولين . فمدح المعز = ١٩٥

والناظم لأيعابُ إذا لم ينظم هذه الأحرف في شعره ، بل يُعابُ إذا نظمها .
وجاءت كراهية مستبشرة .

وأما الناثر فإنه أقربُ حالاً من الناظم ، لأنَّ غاية ما يأتي به سجعتان ، أو ثلاثٌ .
أو أربعٌ على حرفٍ من هذه الأحرف ، وما يدمُّ في ذلك ما يروقُّ ، إذا كان بهذه العدةِ
اليسيرة .

فإنَّ كلَّفتُ أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف ، فقلَّ هذه الحروف هي
مقاتلُ الفصاحة ، وغدري واضحٌ في تركيها ! فإنَّ واضعَ اللغة لم يضعَ عليها ألفاظاً
تُعذِّبُ في القم ، ولا تلذُّ في السَّمع ، والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليلٌ جدًّا .
ولا يصاغُ منه إلا مقاطيعُ أبياتٍ من الشعر ، وأما القصائدُ المقصدة فلا تُصاغُ منه .
وإنَّ صيغتُ جاء أكرها بشعاً كرهاً .

على أنَّ هذه الحروف متفاوتةٌ في كراهية الاستعمال ، وأشدُّها كراهية أربعة
أحرفٍ ، وهي : الحاء ، والصاد ، والظاء ، والغين ، وأما التاء ، والذال والشين ،
والطاء ، فإنَّ الأمرَ فيهنَّ أقربُ حالاً .

وهذا موضعٌ ينبغي لصاحب الصناعة أن يُنعمَ نظرُهُ فيه . وفيما أشرنا إليه كفايةً
للمتعلم ، فليعرفه ، وليقفَ عنده !

المبتدل من الألفاظ

ومن أوصافِ الكلمة أن لا تكون مبتدلةً بين العامة .

وذلك ينقسمُ قسمين :

الأول : ما كان من الألفاظِ دالاً على معنى وُضِعَ له في أصل اللغة ، فغيرُهُ العامة ،
وجعلته دالاً على معنى آخر ، وهو ضَرْبان :

الأول : ما يكرهُ ذكرُهُ ، كقولِ أبي الطيب (١٢٤) :

= قبل فتح مصر ، وفي أثنائه . ولما فتحت مصر وذهب المزعزُع إليها تأهب للحاق به . فات في الطريق سنة ٣٦٢ هـ .
ولم يتأخر الأربعين . ويمتاز شعره بالغريب ، وضخامة اللفظ . والأساليب البدوية . وكثرة التشبيهات والمجاز .

(١٢٤) ديوان المتنبي ٥٥/٤ من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق الترخي . ومطلعه :

ملام التوى في ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي لي من الظلم

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَاقَنِي وَعَفَّ فُجَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصَّرْمِ (١٢٥)
 فَإِنْ [مَعْنَى] لَفْظَةُ «الصَّرْمِ» فِي وَضْعِ اللَّغَةِ هُوَ الْقَطْعُ . يُقَالُ «صَرَمَهُ» إِذَا قَطَعَهُ ، فَغَيَّرَهَا الْعَامَّةُ ، وَجَعَلَهَا دَالَّةً عَلَى الْمَحَلِّ الْمَخْصُوصِ مِنَ الْحَيَوَانِ دُونَ غَيْرِهِ . فَأَبْدَلُوا السِّينَ صَاداً . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ اسْتَكْرَهَ اسْتِمَالُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَمَا جَرَى بِجَرَاهَا لَكِنْ الْمَكْرُوهَ مِنْهَا مَا يُسْتَعْمَلُ عَلَى صِبْغَةِ الْأَسْمَاءِ ، كَمَا جَاءَتْ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلْتَ عَلَى صِبْغَةِ الْفِعْلِ كَقَوْلِنَا «صَرَمَهُ» وَ «صَرَمْتُهُ» وَ «تَصَرَّمَهُ» فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ كَرِيمَةً ، لِأَنَّ اسْتِمَالَ الْعَامَّةِ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ .

وهذا الضرب المشار إليه لأبغاب البدوي على استعماله ، كما يُعَابُ الْمُحْتَضِرُ ، لِأَنَّ الْبَدَوِيَّ لَمْ تَتَغَيَّرِ الْأَلْفَاظُ فِي زَمَنِهِ ، وَلَا تَصَرَّفَتِ الْعَامَّةُ فِيهَا كَمَا تَصَرَّفَتْ فِي زَمَنِ الْمُحْتَضِرَةِ مِنَ الشُّعْرَاءِ . فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عِيبُ اسْتِمَالِ لَفْظَةِ «الصَّرْمِ» وَمَا جَرَى بِجَرَاهَا عَلَى الشَّاعِرِ الْمُحْتَضِرِ ، وَلَمْ يُعَبَّ عَلَى الشَّاعِرِ الْمُتَبَدِّئِ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيِّ (١٢٦) :

قَدْ سَكَانَ صَرْمٌ فِي الْمَاتِ لَنَا فَعَجَلْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصَّرْمِ (١٢٧)

فَإِنَّ هَذَا لِأَبْغَابٍ عَلَى أَبِي صَخْرٍ كَمَا عِيبُ عَلَى الْمُتَنَبِّئِ قَوْلُهُ فِي الْبَيْتِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُ . وَقَدْ صَنَّفَ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ بْنُ أَحْمَدَ الْبَغْدَادِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْجَوَالِقِيِّ كِتَابًا فِي هَذَا الْفَنِّ ، وَوَسَمَهُ بِهِ «إِصْلَاحَ مَا تَغَلَطُ فِيهِ الْعَامَّةُ» فَهُنَا مَاهَذَا سَبِيلُهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَ اسْتِمَالَهُ لِكِرَاهِيَّتِهِ ، وَلِأَنَّهُ مِمَّا لَمْ يُنْقَلْ عَنِ الْعَرَبِ فَهَذَا عَيَانٌ .

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي :

وهو أَنَّهُ وُضِعَ فِي أَصْلِ اللَّغَةِ لِمَعْنَى ، فَجَعَلَتْهُ الْعَامَّةُ دَالَّةً عَلَى غَيْرِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقْبَحٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ .

(١٢٥) رَوَايَةُ الْبُيَّاتِ «وَعَفَّ فُجَازَاهُنَّ عَنِّي بِالصَّرْمِ» وَقَدْ أَسْكَنَ «الْغَوَانِي» ضَرُورَةً لِأَنَّهَا مَفْعُولٌ «أَذَاقَ» .
 (١٢٦) اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَمٍ السَّهْمِيُّ . أَحَدُ بَنِي هَذِيلَ بْنِ مَدْرَكَةَ . وَهُوَ شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ . وَكَانَ مَوْلَايَا لِبَنِي مَرْوَانَ . مُتَّصِبًا لَهُمْ . وَلَهُ فِي عِيدِ الْمَلِكِ مَدَائِحٌ . وَقَدْ كَانَ حَبِيبَهُ ابْنَ الزُّبَيْرِ إِلَى أَنْ شَفَعَ لَهُ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ . فَأَطْلَقَهُ بَعْدَ سَنَةٍ . فَلَمَّا وَلِيَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَجَّحَ لِقَائِهِ أَبُو صَخْرٍ . فَأَدْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَرَّبَهُ . فَدَحَاهُ وَتَالَ جَائِزَتَهُ .

(١٢٧) مِنْ أَيْيَاتِ ثُمَالِيَّةٍ فِي دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ ٦٧/٢

وذلك كسميتهم الإنسان « ظريفاً » إذا كان دميث الأخلاق ، حسن الصورة أو اللباس . أو ما هذا سبيله « والظرف » في أصل اللغة مختص بالنطق فقط .
وقد قيل في صفات خلق الإنسان ما أذكره هاهنا وهو : الصبابة في الوجه ،
الوضاعة في البشرة ، الجمال في الأنف ، الحلاوة في العينين ، الملاحة في الفم ،
الظرف في اللسان ، الرشاقة في القد ، اللبابة في الشمائل ، كمال الحسن في الشعر .
فالظرف إنما يتعلق بالنطق خاصة ، فغيرته العامة عن بابه . وممن غلط في هذا
الموضع أبو نواس حيث قال :

اختصم الجود والجمال فيك فصارا إلى جدال
فقال هذا يمينه لي للعرف والبدل والنوال
وقال هناك وجهه لي للظرف والحسن والكمال
فأشترقا فيك عن تراض كلاًهما صادق المقال
وكذلك غلط أبو تمام فقال (١٢٨) :

لك هضبة الحليم التي لو وازنت أجاً إذن ثقلت وكان خفيفا
وحلاوة الشم التي لو مازجت خلق الزمان القدم عاد ظريفاً
فأبو نواس غلط هاهنا في أنه وصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق ،
وأبو تمام غلط في أنه وصف الخلق بالظرف ، وهو من صفات النطق أيضاً ، إلا أن
هذا غلط لا يوجب في اللفظة قبحاً ، لكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة .

القسم الثاني مما ابتدئته العامة ، وهو الذي لم تغيره عن وضعه :

وانما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم . لا لأنه مستحب ، ولا لأنه مخالف لما بوضع
له .

وفي هذا القسم نظر عندى ، لأنه إن كان عبارة عما يكثر تداوله بين العامة فإن

(١٢٨) ديوان أبي تمام ٣٠٩ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف . ومطلما :

أطالهم سلبت دماها الميفا واستبدلت وحشاً بين عكوفها

من الكثير المتداول بينهم ألفاظاً فصيحة . كالبهاء ، والأرض ، والنار ، والماء ،
والحجر ، والطين ، وأشياء ذلك .

وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، وجاءت في كلام الفصحاء
نظماً ونثراً .

والذي ترجع في نظري أن المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة
الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة . فما جاء منه قول أبي الطيب المتنبي (١٢٩) :
وَمَلْسُومَةٌ سَيِّئَةٌ رَبْعِيَّةٌ يَصْبِيحُ الْحَصَى فَيُصَايِحُ اللَّقَائِي (١٣٠)

فإن لفظة « اللقائي » مبتذلة بين العامة جداً ، وكذلك قوله (١٣١) :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَجَوَّزَ إِلَيْهِمْ شِعْرَاءُ كَانَتْهَا الْخَازِيَا (١٣٢)

وهذا البيت من مُضْحَكَاتِ الْأَشْعَارِ ، وهو من جملة « البرسام » الذي ذكره في
شعره حيث قال (١٣٣) :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هَرَاءٌ لَيْسَ شَيْئًا وَبَعْضُهُ أَحْكَامٌ (١٣٤)

فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَهْمَ . وَفِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرْسَامَ (١٣٥)

(١٢٩) ديوان المتنبي ٣٧٥/٢ من قصيدة مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا وجرى السواقي

(١٣٠) الملوحة الكنية الجمجمة . وسيفية منسوبة إلى سيف الدولة . وربعية منسوبة إلى ربعه . وهي قبيلة سيف

الدولة . واللقائي جمع لقلق . وهو طائر كبير يسكن العُمران في أرض العراق .

(١٣١) ديوان المتنبي ١٨٣/٢ من قصيدة في مدح أبي بكر حل بن صالح . ومطلعها :

كفرندي فريد سقى الجرار لذة العين عدة للرباز

(١٣٢) رواية الديوان . ومن الناس من يجوز عليه . والخازياز حكاية صوت الذباب . ويسمى الذباب

« الخازياز » وقال الأصمعي هونيت . وقال قوم : الخازياز يأتخذ الإبل في حلقها الناس . والمعنى : أنت ناقد

الكلام تعرف الشعر . وغيرك يجوز عليه شعراء يهذون . كأنهم طنين الذباب في هذباتهم .

(١٣٣) ديوان المتنبي ١٠١/٤ من قصيدته التي مطلعها :

لا اختصار لمن لا يفهم مدرك أو محارب لا ينال

(١٣٤) رواية الديوان « هراء » والهاء والمهذبان مصدر هذى يهذى إذا قال قولاً لا فائدة

له . والأحكام جمع حكم بمعنى الحكمة .

(١٣٥) رواية الديوان « الفضل » موضع « الفهم » . والبرسام علة يهذى فيها .

ومثل هذه الألفاظ إذا وَرَدَتْ في الكلام وَضَعَتْ من قَدْرِهِ ، ولو كَانَ مَعْنَى شَرِيفًا .

وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكادُ يَخْلُو مِنْهُ شعرُ شاعرٍ ، لكنَّ مِنْهُمْ المقلُّ ومنهمُ الكثيرُ ، حتَّى أن العاربة قد استعملتْ هذا ، إلَّا أَنَّهُ في أشعارِها أَقلُّ فَمِنْ ذَلِكَ قولُ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي في قصيدته الَّتِي أولَها :

• مِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُعْتَدٍ • (١٣٦)

أَوْ دُمِيَّةٍ فِي مَرَمَرٍ مَرْفُوعَةٍ نَبِيْتُ بَاجِرٍ يُشَادُّ بِقُرْمِدٍ (١٣٧)

فلفظة «آجِر» مبتذلةٌ جدًا .

وإنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلَمَ شَيْئًا مِنْ سِرِّ الفصاحةِ الَّتِي تَضُمُّهَا الْقُرْآنُ فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا جِئَ بِهِ بِذِكْرِ «الْآجِرِ» لَمْ يَذْكُرْ بَلْفِظِهِ ، وَلَا بَلْفِظِ «الْقُرْمِدِ» أَيْضًا ، وَلَا بَلْفِظِ «الطُّوبِ» الَّذِي هُوَ لَوْنُهُ أَهْلُ مِصْرَ . فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ مَبْتَذِلَةٌ ، لَكِنْ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا» (١٣٨) فَعَبَّرَ عَنِ الْآجِرِ بِالْوُقُودِ عَلَى الطِّينِ .

ومن هذا القسمِ المبتذَلِ قولُ الْفَرَزْدَقِ في قصيدته الَّتِي أولَها :

عَرَفْتُ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتُ تَعْرِفُ (١٣٩)

وَأَصْبَحَ مَبِصُّ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ عَلَى سَرَوَاتِ النَّيْبِ قَطْنٌ مَنْدَفُ (١٤٠)

(١٣٩) ديوان النابغة بشرح الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي ص ٢٧ وعجز البيت

• هجلاًن ذا زاد وغير مزود •

(١٣٧) صفحة ٣٠ من الديوان . والدمية التمثال والصورة . والمرمر الزخام الأبيض . ويشاد يرفع بالشيد وهو الجص . والقرمد نحرف مطبوخ . (١٣٨) سورة القصص . الآية ٣٨ .

(١٣٩) ديوان الفرزدق ٥٥١/٢ . وهي إحدى نقائضه . وعجز البيت :

• وأنكوت من حدراء ما كنت تعرف •

وفي الأصل : «عرفت» و «تعرف» يالراء فيها . والصواب عن الديوان .

(١٤٠) في الأصل : «الضرب» موضع «الصقيع» و «البيت» موضع «النَّيْبِ» والصواب عن الديوان . وسروات النَّيْبِ أسنة الإبل . يقول : وقع التلج على أسنمتها كأنه قطن مندف والصقيع الحليد .

فقوله : «مُندَف» من الألفاظ العامية، ومن هذا القسم قول البحري :
وجوهٌ حُسَّادُكَ مَسْوَدَةٌ أَمْ صُبِفَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ
فلفظة : «الزَّاج» من أشدَّ ألفاظ العامة ابتذالا .

وقد استعمل أبو نواس هذا النوع في شعره كثيراً كقوله (١٤١) :

يَا مَنْ جَفَّانِي وَمَلَأَ نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا
وَمَاتَ مَرَّحِبُ لَمَّا رَأَيْتَ مَالِي قَلَا
إِنِّي أَظْنُكَ فِيهَا . فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْنَى (١٤٢)

وكقوله (١٤٣) :

وَأَنْعَمَ الْجِلْدَةُ صَيَّرَتْهُ فِي النَّاسِ رَاغًا وَشَقِيقًا (١٤٤)
مَا زِلْتُ أُجْرِي كُلَّكِلَى فَوْقَهُ حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقَا
وكقوله :

وَمُلِحَتْ بِالْعَدْلِ نَحْسُ أَنْتَى بِالْجَهْلِ أَتْرَكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ
وقد استعمل لفظة «الشاطر» «والشاطرة» «والشُّطَار» «والشُّطَارَة» كثيراً ، وهي من
الألفاظ التي ابتذلها العامة حتى سُمِّتْ من ابتذالها .
وهذه الأمثلة تمنع الواقف عليها من استعمال أشباهها وأمثالها .

• • •

ومن أوصاف الكلمة أن لا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يُكره ذِكْرُهُ ، وإذا
وَرَدَتْ وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قَبِحَتْ ، وذلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز
معناها عن القُبْح .

(١٤١) ديوان أبي نواس ١٥٣ في كتاب عمرو الوراق .

(١٤٢) القُرْل كرمكى طائر ذو حزم لا يرى إلا فرقا على وجه الماء على جانب يهوى بإحدى عينيه إلى تعري الماء
طمعاً . ويرفع الأخرى في الهواء حذراً ، ومنه المثل «أحزم من قُرْل» ، إن رأى خيراً تدل ، وإن رأى شراً تولى .

(١٤٣) ديوان أبي نواس ١٨٩ في هجاء زنبور .

(١٤٤) الأتغر مافيه نمرة أى نكتة بيضاء وأخرى سوداء ، والزَّاج غراب صغير ، والشراق بكسرتين وراء
مشددة أو كقراطس ويفتح طائر مرقط بمنصرة وحمرة وبياض . ويكون بأرض الحرم .

فَأَمَّا إِذَا جَاءَتْ وَمَعَهَا قَرِينَةٌ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ مَعِيَّةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (١٤٥) . أَلَا تَرَى أَنَّ لَفْظَةَ «التَّعْزِيرِ» مُشْرَكَةٌ تُطْلَقُ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالْإِكْرَامِ ، وَعَلَى الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ دُونَ الْحَدِّ ، وَذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ الْهَوَانِ ، وَهِيَ مَعْنِيَانِ ضِدَّانِ . فَحَيْثُ وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَ مَعَهَا قَرَائِنٌ مِنْ قَبْلِهَا وَمِنْ بَعْدِهَا ، فَخَصَّصَتْ مَعْنَاهَا بِالْحُسْنِ ، وَمَيَّزَتْهُ عَنِ الْقُبْحِ . وَلَوْ وَرَدَتْ مَهْمَلَةً بِغَيْرِ قَرِينَةٍ ، وَأُرِيدَ بِهَا الْمَعْنَى الْحَسَنَ لَسَبَقَ إِلَى الْوَهْمِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى الْقُبْحِيَّةِ .

مثال ذلك : لَوْ قَالَ قَائِلٌ : لَقَيْتُ فَلَانًا فَعَزَّزْتُهُ ، لَسَبَقَ إِلَى الْفَهْمِ أَنَّهُ ضَرَبَهُ وَأَهَانَهُ . وَلَوْ قَالَ : لَقَيْتُ فَلَانًا فَأَكْرَمْتُهُ وَعَزَّزْتُهُ ، لَزَالَ ذَلِكَ اللَّبْسُ .
واعلم أَنَّهُ قَدْ جَاءَ مِنَ الْكَلَامِ مَا مَعَهُ قَرِينَةٌ فَأَوْجِبَتْ قُبْحَهُ ، وَلَوْ لَمْ تَجْعَلْ مَعَهُ مَا اسْتَفْهِحَ ، كَقَوْلِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ :

أَعَزَّزْتُ عَلَى بَانَ أَرَاكَ وَقَدْ خَلَا عَنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدَ الْعَوَادِ
وقد ذكر ابن سنان الحفاجي هذا البيت في كتابه ، فقال : إِنَّ إِيْرَادَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ صَحِيحٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا يَكْرَهُ ذِكْرُهُ فِي مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ ، لَا سَبِيًّا وَقَدْ أَضَافَهُ إِلَى مَنْ يَحْتَمَلُ إِضَافَتَهُ إِلَيْهِ وَهُمْ الْعَوَادُ ، وَلَوْ انْفَرَدَ لَكَانَ الْأَمْرُ فِيهِ سَهْلًا . فَأَمَّا الْإِضَافَةُ إِلَى مَنْ ذَكَرَهُ فِيهَا قُبْحٌ لَا خُفَاءَ بِهِ . هَذَا حِكَايَةُ كَلَامِهِ (١٤٦) ، وَهُوَ مَرْتَضِيٌّ وَاقِعٌ فِي مَوْضِعِهِ .

ولندكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول : قَدْ جَاءَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ الْمَعِيَّةُ فِي الشَّعْرِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَجَاءَتْ حَسَنَةً مَرْضِيَّةً . وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَرَاذَ عَدَوَّتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّى الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْفِتَالِ » (١٤٧) . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا

(١٤٥) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

(١٤٦) انظر سر الفصاحة ٩٣ ونص عبارة ابن سنان : إِيْرَادَ «مقاعِد» في هذا البيت صحيح إلا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا يَكْرَهُ ذِكْرُهُ فِي مِثْلِ هَذَا الشَّانِ ، لِأَسْبَابٍ وَقَدْ أَضَافَهُ إِلَى مَنْ يَحْتَمَلُ إِضَافَتَهُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَوَادُ . وَلَوْ انْفَرَدَ كَانَ الْأَمْرُ فِيهِ سَهْلًا . فَأَمَّا إِضَافَتُهُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ فِيهَا قُبْحٌ لِاخْتِفَاءِ بِهِ .

(١٤٧) سورة آل عمران : الآية : ١٧١ .

مِلْتُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهِيًا ۖ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ
شِهَابًا رَصَدًا (١٤٨) ۝

أَلَا تَرَى أَنَّهُمَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ غَيْرُ مُضَافَةٍ إِلَى مَنْ تَقْبَحُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ كَمَا جَاءَتْ فِي
الشعر.

ولو قَالَ الشاعِرُ بدلًا من «مقاعِد العَواد» «مقاعِد الزِيارَةِ» أَوْ مَا جَرَى مجراه لذهبَ
ذَلِكَ الْقُبْحُ، وَزَالَتْ تِلْكَ الْهَجْنَةُ. وَلِهَذَا جَاءَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي الْآيَتَيْنِ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنْ
الْحُسْنِ، وَجَاءَتْ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ الْقُبْحِ فِي قَوْلِ الشَّرِيفِ الرُّضِيِّ.

وعلى هَذَا وَرَدَ قَوْلُ تَابُطِ شَرًّا:
أَقُولُ لِلْحَيَّانِ وَقَدْ صَفَرْتَ لَهُمْ وَطَائِي وَيَوْمِي ضَيْقُ الْجَحْرِ مُعَوَّرُ (١٤٩)
فَبِأَنَّهُ أَضَافَ الْجَحْرَ إِلَى الْيَوْمِ، فَازَالَ عَنْهُ هَجْنَةَ الْإِشْتِبَاهِ، لِأَنَّ «الجحر» يَطْلُقُ عَلَى
كُلِّ ثَقْبٍ كَتَقَبِ الْحَيَةِ وَالْبَرِّيْعِ، وَعَلَى الْمَحَلِّ الْمَخْصُوصِ مِنَ الْحَيَوَانِ، فَإِذَا وَرَدَ مُهْمَلًا
بِغَيْرِ قَرِينَةٍ مُخَصَّصَةٍ سَبَقَ إِلَى الْوَهْمِ مَا يَقْبَحُ ذِكْرُهُ، لِإِشْتِبَاهِهِ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ.

وَمِنْ هَاهُنَا وَرَدَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لَا يُسْعُ مِنْ جُحْرِ مَرْتَيْنِ»
وَحَيْثُ قَالَ: «يُسْعُ» زَالَ اللَّبْسُ، لِأَنَّ السَّعَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْحَيَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ ذَوَاتِ
السُّمُومِ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ مُهْمَلًا بِغَيْرِ قَرِينَةٍ فَقَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ (١٥٠):

أَعْطَيْتَ لِي دِيَّةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ (١٥١)
فَقَوْلُهُ: «لَيْسَ لِي عَقْلٌ» يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ «عَقَلَ الشَّيْءَ» إِذَا عَلِمَهُ. وَلَوْ قَالَ وَلَيْسَ لِي
عَلَيْكَ عَقْلٌ لَزَالَ اللَّبْسُ.

(١٤٨) سورة الجن: الآيات ٩ و ٨.

(١٤٩) ديوان الحامسة ٢٦/١. ولحيان بطن من هذيل، وصفرت جلت، والوطاب جمع وطب وهو سقاء
البن. وقوله «ضيق الجحر» مثل لضيق المنفلد، والمعور المكتشف المورة.

(١٥٠) ديوان أبي تمام ٣٠١ من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الميثم. ومطلعها:

أَسْقَى ظُلُومَهُمْ أَبْجَشَ هَزَمٍ وَغَدَتِ عَلَيْهِمْ نَفْثَةٌ وَنَعِمَ

(١٥١) رواية الديوان «أعطيتني» موضع «أعطيت لي» والعقل الدية.

فيجبُ إذاً على صاحبِ هذه الصناعة أن يُرَاعِيَ في كلامه مثلَ هذا الموضع ، وهو من جُمْلَةِ الألفاظِ المُشتركةِ الَّتِي يُحتَاجُ في إيرادِها إلى قَرْبِنَةٍ تُخصَّصُها ضَرُورَةٌ .

[عدد حروف الكلمة]

ومن أوصافِ الكلمةِ أن تكونَ مؤلَّفةً من أقلِّ الأوزانِ تركيباً . وهذا ممَّا ذكره ابنُ سنانٍ في كتابه ، ثمَّ مثَّله بقولِ أبي الطَّيِّبِ المَتَنِيِّ ^(١٥٢) :

إِنَّ الْكَرَامَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمْ مِثْلُ الْقُلُوبِ بِلَا سُوَيْدَاوَاتِهَا ^(١٥٣)

وقال : إن لفظة «سُوَيْدَاوَاتِهَا» طويلة ، فلهذا قُبِحت ^(١٥٤) .

وليس الأمر كما ذكره ، فَإِنَّ قُبْحَ هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وإنَّما هو لأنها في نفسها قبيحة ، وقد كانت - وهي مفردة - حسنة . فلَمَّا جُمِعَتْ قُبِحت ، لا بسبب الطول .

والدَّلِيلُ على ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ في القرآن الكريم ألفاظٌ طَوَالٌ ، وهي مع ذلك حسنة ، كقوله تعالى : «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ» ^(١٥٥) ، فَإِنَّ هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى : «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ» ^(١٥٦) ، فَإِنَّ هذه اللفظة عشرة أحرف ، وكِلْتَاهُمَا حسنة راققة .

ولو كان الطولُ مما يُوجبُ قبحاً لَقُبِحتْ هاتانِ اللفظتان ، وليس كذلك .
أَلَّا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أَسْقَطَ من لفظة «سويداواتها» . الهاء والألف اللَّتَيْنِ هَا عَرَضَ عن

(١٥٢) ديوان المتنبي ٢٣٠/١ وهو من قصيدة في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها ذاتي الصفات بيبعد موصوفتها .

(١٥٣) سويداء القلب حبه . وجمعه سويداوات . يقول : الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان من هؤلاء المملوحين كالقلب إذا لم يكن فيه . . . وياء .

(١٥٤) عبارة ابن سنان : فسويداواتها كلمة طويلة جداً ، ولذلك لا أنحارها ، وانظر سر الفصاحة ٩٥ -

٩٧ (١٥٥) سورة البقرة : الآية ١٣٧ . (١٥٦) سورة النور : الآية ٥٥ .

الإضافة لبقى منها ثمانية أحرف ؟ ، ومع هذا فإنها قبيحة . ولفظة « لَيْسَتْخَلْفَهُمْ » عشرة أحرف ، وهى أطول منها بحرفين ، ومع هذا فإنها حسنة رائقة .

والأصل فى هذا الباب ما أذكره : وهو أن الأصول من الألفاظ لا تحسن إلا فى الثلاثى ، وفى بعض الرباعى ، كقولها « عذب » و « عسجد » . فإن هاتين اللفظتين إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية . وأما الخماسى من الأصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن ، كقولنا « جحمرش » . و « صهصليق » . وما جرى مجراهما .

وكان ينبغي على ما ذكره ابن سنان أن تكون هاتان اللفظتان حسنتين ، واللفظتان الوردتان فى القرآن قبيحتين . لأن تلك تسعة أحرف وعشرة ، وهاتان خمسة وخمسة . وترى الأمر بالضد مما ذكره . وهذا لا يعتبر فيه طول ولا قصر ، وإنما يعتبر نظم تأليف الحروف بعضها مع بعض . وقد تقدم الكلام على ذلك ولهذا لا يوجد فى القرآن من الخماسى الأصول شيء إلا ما كان اسم نبي عرّب اسمه ، ولم يكن فى الأصل عربياً ، نحو « إبراهيم » و « إسماعيل » .

وبما يدخل فى هذا الباب أن تجنب الألفاظ المؤلفة من حروف يشغل النطق بها ، سواء كانت طويلة أو قصيرة . ومثال ذلك قول امرئ القيس فى قصيدته اللامية ، التى هى من جملة القصائد السبع الطوال (١٥٧) :

غَدَاثُهُ مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى الْعَلَا تَفِيلُ الْمَدَارَى فِى مُثْنَى وَمُرْسَلٍ (١٥٨)
 فلفظة « مُسْتَشْرِزَاتٌ » مما يقبح استعمالها ، لأنها تثقل على اللسان ، ويشغل النطق بها ، وإن لم تكن طويلة ، لأننا لو قلنا « مُسْتَنْكِرَاتٌ » أو « مُسْتَنْفِرَاتٌ » على وزن « مُسْتَشْرِزَاتٌ » لما كان فى هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة .
 ولربما اعترض بعض الجهال فى هذا الموضع ، وقال : إن كراهة هذه اللفظة إنما هو لطولها .

(١٥٧) هى المشهورة باسم (الطقات) .

(١٥٨) الغدائر جمع الغديرة ، وهى الخصلة من الشعر ، والاستنزاع الارتفاع ، والمدارى جمع مدرى وهى

الشط - ويرى « تفضل المقاص » والمقاص جمع عقيقة ، وهى الخصلة المصبوعة من الشعر .

وليس الأمر كذلك، فإننا لو حذفنا منها الألف والناء، وقلنا «مُسْتَشْرِف» لكان ذلك ثقيلا، وسببه أن الشين قبلها تاء وبعدها زاي، فنقل النطق بها، وإلا فلو جعلنا عوضا من الزاي راء، ومن الراء فاء، فقلنا «مُسْتَشْرِف» لزال ذلك الثقل.

ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيبُ على امرئ القيس هذه اللفظة المُشار إليها، فأكبر ذلك، لوقوفه مع شهرة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء، فعمجت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له: لا يمنعُ إحسانُ امرئ القيس من استقبح ماله من القبح، ومثالُ هذا كمثالُ غزالِ المسك، فإنه يخرجُ منه المسكُ والبخر، ولا يمنعُ طيبُ ما يخرجُ من مسكه من خبث ما يخرجُ من بخره، ولا تكونُ لذادةُ ذلك العُطْب حاميةً للخبث من الاستكراه، فأسكت الرجلُ عند ذلك.

وحضر عندي في بعض الأيام رجلٌ من اليهود، وكنتُ إذ ذاك بالديار المصرية، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد، لكان علمه في دينهم وغيره، وكان لعمري كذلك، فجرى ذكرُ اللغات، وأن اللغة العربية هي سيدة اللغات، وأنها أشرفهن مكانا، وأحسنهن وضعًا. فقال ذلك الرجل: كيف لا تكونُ كذلك. وقد جاءت آخرًا، فنفت القبيح من اللغات قبلها، وأخذت الحسن، ثم إن واضعها تصرف في جميع اللغات السالفة، فاختصر ما اختصر، وخفف ما خفف، فمن ذلك اسمُ الجمل، فإنه عندنا في اللسان العِزاني «كوميل» ممالا على وزن «فوعيل» فجاء واضعُ اللغة العربية، وحذف منها الثقل المُستبشع، وقال «جمل»، فصار خفيفًا حسنًا، وكذلك فعل في كذا وكذا، وذكر أشياء كثيرة، ولقد صدق في الذي ذكره وهو كلامٌ عالم به.

[خفة الحركات]

ومن أوصاف الكلمة أن تكون مهيئة من حركات خفيفة، ليخف النطق بها. وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستقل، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استقلَّت.

ومن أجل ذلك اسْتَقْبَلَتِ الفُصْمَةُ على الواوِ، والكسرة على الياءِ، لأنَّ الفُصْمَةَ من جنسِ الواوِ، والكسرة من جنسِ الياءِ، فتكون عند ذلكَ كأنها حركتانِ ثقيلتانِ. وتُمَثِّلُ لك مثلاً لتَهْدِي به في هذا الموضعِ، وهَوَاتنا نقول: إذا أتينا بلفظةٍ مؤلفة من ثلاثةِ أحرفٍ وهى - ج ز ع - فإذا جعلنا الجيمَ مفتوحةً، فقلنا «الجَزَعُ» أو مكسورةً، فقلنا «الجِرْعُ» كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيمَ مضمومةً فقلنا «الجِرْعُ»، وكذلك إذا والَبْنَا حركةَ الفتح فقلنا «الجِرْعُ» كان ذلك أحسن من موالاةِ حركةِ الضم عند قولنا «الجَزَعُ» ومن المَعْلُومِ أنَّ هذه اللفظةَ لم يَكُنْ اختلاف حركاتها مغيراً لِمَخَارِجِ حُرُوفِها، حتَّى يُنسَبَ ذلك إلى اختلافِ تَأْلِيفِ المَخَارِجِ، بل وَجَدْنَاهَا تارةً تَكْسِي حُسْنًا، وتارةً يُسَلِّبُ ذلك الحُسْنَ عنها، فَعَلِمْنَا أنَّ ذلك حادثٌ عن اختلافِ تَأْلِيفِ حَرَكَاتِها.

واعلم أنه قد تواليت حركةَ الضَمِّ في بعض الألفاظِ. ولم يحدث فيها كراهة ولا ثِقَلًا، كقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنذَرُهُمْ بَطْشَتْنَا قَتَمَارًا بِالْأُنْدُرِ» (١٥٩) وكقوله تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسْوَءٍ» (١٦٠). وكقوله تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ قَلْبُهُ فِي الزُّبُرِ» (١٦١) فحركة الضَمِّ في هذه الألفاظِ متواليَّةٌ، وليس بها من ثِقَلٍ وَلَا كَرَاهَةٍ. وكذلك وَرَدَ قولُ أَبِي نَمَامٍ (١٦٢):

نَفْسٌ يَحْتَهُ (١٦٣) نَفْسٌ وَدُمُوعٌ كَيْسٌ تَحْتَبِسُ
وَمَخَانٍ لِلْكَرَى دُورٌ عَطَلٌ مِنْ عَهْدِهِ دُورٌ (١٦٤)
تَهَوَّتْ مَا كُنْتُ أَكْمُهُ نَاطِقَاتُ بِالْهَوَى خُرسُ

(١٥٩) سورة القمر: الآية ٣٦. (١٦٠) سورة القمر: الآية ٤٧. (١٦١) سورة القمر: الآية ٥٢.

(١٦٢) ديوان أبي تمام ٤٤٨ وهى أبيات في السيب.

(١٦٣) يحته على الخروج.

(١٦٤) اللطائف المنازل. والكرى التماس. والدثر البالية. والعطل الخالية. والدرس المحو.

فانظر كيف جاءت هذه الألفاظ الأربعة مضمومات كلها ، وهي مع ذلك حسنة
لا تقل بها ، ولا ينبو السمع عنها ؟
وهذا لا ينقص ما أشرنا إليه ، لأن الغالب أن يكون توالي حركة الضم مستقلاً ،
فاذا شذ عن ذلك شيء يسير ، لا ينقص الأصل المقيس عليه .

القسم الثاني

في الألفاظ المركبة

قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي شَرْحِ أَحْوَالِ اللَّفْظَةِ الْمَفْرَدَةِ ، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا . وَأَمَّا إِذَا صَارَتْ
مَرْكَبَةً ، فَإِنَّ لتركيبها حُكْمًا آخَرَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ يَحْدُثُ عَنْهُ مِنْ فَوَائِدِ التَّأْلِيفَاتِ وَالامْتِزَاجَاتِ
مَا يَجِبُ لِلْسَّامِعِ أَنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَيْسَتْ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ مَفْرَدَةً .

وَمِثَالُ ذَلِكَ كَمَنْ أَخَذَ لِالِيجِ لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ الْقِيَمِ الْعَالِيَةِ . فَالْفَهْمُ ، وَأَحْسَنُ
الْوَضْعِ فِي تَأْلِيفِهَا ، فَخِيلَ لِلنَّاظِرِ بِحُسْنِ تَأْلِيفِهِ ، وَاتَّقَانِ صَنْعَتِهِ ، أَنَّهَا لَيْسَتْ تِلْكَ الَّتِي
كَانَتْ مَشْهُورَةً مَبْدُودَةً .

وَفِي عَكْسِ ذَلِكَ مَنْ يَأْخُذُ لِالِيجِ مِنْ ذَوَاتِ الْقِيَمِ الْعَالِيَةِ ، فَيَفْسِدُ تَأْلِيفُهَا . فَإِنَّهُ
يَضَعُ مِنْ حُسْنِهَا ، وَكَذَلِكَ يَجْرِي حُكْمُ الْأَلْفَاظِ الْعَالِيَةِ مَعَ فَسَادِ التَّأْلِيفِ . وَهَذَا مَوْضِعٌ
شَرِيفٌ يَنْبَغِي الْإِتِّفَاتُ إِلَيْهِ ، وَالْعِنَاةُ بِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ الْأَلْفَاظِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَنْوَاعٍ هِيَ :
السَّجْعُ ، وَيَخْتَصُّ بِالْكَلَامِ الْمَشْهُورِ .

وَالْتَصْرِيعُ ، وَيَخْتَصُّ بِالْكَلَامِ الْمَنْظُومِ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي بَابِ السَّجْعِ ، لِأَنَّهُ فِي
الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ كَالسَّجْعِ فِي الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ .

وَالْتَجْنِيسُ ، وَهُوَ يَعْمُ الْقِسْمَيْنِ جَمِيعًا .

وَالْتَرْصِيعُ . وَهُوَ يَعْمُ الْقِسْمَيْنِ أَيْضًا جَمِيعًا .

وَالزُّوْمُ مَا لَا يَلْزَمُ : وَهُوَ يَعْمُ الْقِسْمَيْنِ أَيْضًا .

وَالْمَوَازِنَةُ : وَتَخْتَصُّ بِالْكَلَامِ الْمَشْهُورِ .

وَاخْتِلَافُ صَيَغِ الْأَلْفَاظِ ، وَهُوَ يَعْمُ الْقِسْمَيْنِ جَمِيعًا .

وَتَكَرُّرُ الْحُرُوفِ ، وَهُوَ يَعْمُ الْقِسْمَيْنِ جَمِيعًا .

النوع الأول : المسجع

وحدهُ أَنْ يَقَالَ : تَوَاطَوْا الْفَوَاصِلَ فِي الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ .
وقد ذُكِرَ بعضُ أصحابنا من أربابِ هذه الصناعة ، ولَا أَرَى لذلِكَ وَجْهًا سِوَى
عَجْزِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِهِ ، وَالْأَفْلَوكَانَ مَذْمُومًا لَمَّا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَى مِنْهُ
بِالْكَثِيرِ ، حَتَّى أَنَّهُ لِيُؤْتَى بِالسُّورَةِ جَمِيعًا مَسْجُوعَةً ، كَسُورَةِ الرَّحْمَنِ ، وَسُورَةِ الْقَمَرِ ،
وغيرهما . وبالحِجْلَةِ فَلَمْ تَخُلْ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ السُّورِ .
فَن ذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ^(١) .

وكقوله تَعَالَى فِي سُورَةِ (طه) : « طه » مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا
تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى . تَرْجِيًّا لِمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا . الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِنْ تَجَهَّرَ
بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ^(٢) .
وكذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ق) : « بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ
مَرِيجٍ » أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ^(٣) .
وكقوله تَعَالَى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا » فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا »
فَأَنْزِلْنِي بِرِنْعًا » فَوْسَطُنْ بِهِ جَمْعًا ^(٤) . وَأَمْثَالُ ذلِكَ كَثِيرَةٌ .

قد وَرَدَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْءٌ كَثِيرٌ أَيْضًا .
فَمِنْ ذلِكَ مَا رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قُلْنَا : إِنَّا لَنَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : « لَيْسَ

(١) سورة الأعراب : الآيات ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) سورة طه : الآيات ١ - ٨ .

(٣) سورة ق : الآيات ٥ - ٧ .

(٤) سورة العاديات : الآيات ١ - ٥ .

ذلك ! ولكن الاستعجاء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن سلام ، فقال : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فاجتث في الناس لانتظار إلهه ، فلما تبينَتْ وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء تكلم به أن قال : « أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

فإن قيل : إن النبي ﷺ قال لبعضهم منكرأ عليه وقد كلمه بكلام منسجوع : « أسجعا كسجع الكهان ؟ » ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي ﷺ ؟ .
فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبي ﷺ السجع مطلقا لقال : أسجعا ؟ ثم سكّت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان ، فلما قال : « أسجعا كسجع الكهان » صار المعنى معلقا على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه .
فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق . وقد ورد في القرآن الكريم ، وهو ﷺ قد نطق به في كثير من كلامه ، حتى أنه غير الكلمة عن وجهها أتباعا لها بأخواتها من أجل السجع ، فقال لابن أبيه عليهما السلام : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » وإنما أراد « ملمة » لأن الأصل فيها من « ألم » فهو « ملمة » .

وكذلك قوله ﷺ « أرجعن مأزورات غير مأجورات » . وإنما أراد « مؤزورات » من الوزر ، فقال : « مأزورات » لمكان « مأجورات » طلبا للتوازن والسجع ، وهذا مما يدل على فضيلة السجع .

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر ، فإن الوهم يسبق إلى إنكاره ، يقال : فما سجع الكهان الذي يتعلق الإنكار به ، ونهى عنه رسول الله ﷺ ؟

والجواب عن ذلك أن النهي لم يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهي عن حُكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع ألا ترى أنه لما أمر رسول الله ﷺ في الجنين بقرعة عبد

أو أَمَةٍ ، قال الرجلُ : أَدَى مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ ، ومثل ذلك يطل ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ : « أسجعاً كسجعِ الكُهانِ » أى اتَّبَعَ سَجْعاً كَسَجْعِ الكُهانِ ؟

وكذلك كَانَ الكَهنة كُلُّهم فَإِنَّهم كَانُوا إِذَا سُئِلُوا عَنْ أَمْرِ جَاءُوا بِالْكَلَامِ مَسْجُوعاً ، كَمَا فَعَلَ الْكَاهِنُ فِي قِصَّةِ هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ لَمَّا امْتَحِنَ قَبْلَ السَّوَالِ عَنْ قِصَّتِهَا : « ثَمَرَةٌ فِي كَمَرَةٍ . فَبَيْلٌ لَهُ نُرِيدُ أَتَيْنَ مِنْ هَذَا ! فَقَالَ : « حَبَّةٌ بُرٌّ فِى إِحْلِيلٍ مُهَرٌّ » والحكاية مشهورة ، فلهذا اختصرناها هنا .

وكذلك قَالَ سَطِيعُ^(٥) ، فَإِنَّهُ قَالَ : « عَبْدُ الْمَسِيحِ ، جَاءَ إِلَى سَطِيعِ ، وَهُوَ مُوفٍ عَلَى الصَّرِيحِ ، لِرُؤْيَا الْمُؤْبَدَانِ ، وَارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ » وَأَتَمَّ الْكَلَامَ إِلَى آخِرِهِ مَسْجُوعاً . والحكاية مشهورة أيضاً ، فلهذا اختصرناها .

فَالسَّجْعُ إِذَا لَيْسَ بِمَنْهَى عَنْهُ ، وَإِنَّا الْمَنْهَى عَنْهُ هُوَ الْحَكْمُ الْمَتَّبَعُ فِي قَوْلِ الْكَاهِنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَسْجَعاً كَسَجْعِ الْكُهانِ » ؟ أى أَحْكَمًا كَحَكْمِ الْكُهانِ ، وَإِلَّا فَالسَّجْعُ الَّذِى أَتَى بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ لَا بَأْسَ بِهِ ، لِأَنَّهُ قَالَ : « أَدَى مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ ، وَلَا نَطَقَ^(٦) ، وَلَا اسْتَهَلَ ، ومثل ذَلِكَ يُطَلُّ^(٧) » ؟ وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ مِنْ حَيْثُ السَّجْعُ ، وَلَيْسَ بِمَنْكِرٍ لِنَفْسِهِ . وَإِنَّا الْمُنْكَرُ هُوَ الْحَكْمُ الَّذِى تَضَمَّنَهُ فِي امْتِنَاعِ الْكَاهِنِ أَنْ يَدَى الْجَنَيْنَ بِغُرَّةِ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ^(٨)

واعلم أَنَّ الْأَصْلَ فِي السَّجْعِ إِنَّمَا هُوَ الْاعْتِدَالُ فِي مَقَاطِعِ الْكَلَامِ ، وَالْاعْتِدَالُ مَطْلُوبٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالنَّفْسُ تَمِيلُ إِلَيْهِ بِالطَّبِيعِ .

وَمِنْ هَذَا فَلَيْسَ الْوُقُوفُ فِي السَّجْعِ عِنْدَ الْاعْتِدَالِ فَقَطْ ، وَلَا عِنْدَ تَوَاطُؤِ الْفَوَاصِلِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ - إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ السَّجْعِ لَكَانَ كُلُّ أَدِيبٍ مِنَ الْأَدِبَاءِ سَجْعَاجًا ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ - وَلَوْ شَدَّ شَيْئًا يَسِيرًا مِنَ الْأَدَبِ - إِلَّا وَبِعَيْنِهِ أَنْ يُؤْلَفَ

(٥) سَطِيعُ أَحَدِ كُهَّانِ الْعَرَبِ . وَهُوَ ابْنُ رَيْحَةَ بْنِ مَسْعُودَ بْنِ مَازِنَ بْنِ ذُنُبٍ .

(٦) رَوَايَةُ الْبَيَّانِ « وَلَا صَاحَ وَاسْتَهَلَ » . (٧) يُطَلُّ أَيْ يَهْدَرُ دَمُهُ .

(٨) قَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عِيْسَى الرَّقَاشِيُّ : لَوْ أَنَّ هَذَا لِلتَّكَلُّمِ لَمْ يَرِدْ إِلَّا الْإِنَّمَاءُ لِهَذَا الْوِزْنِ لَمَا كَانَ عَلَيْهِ بَأْسٌ . وَلَكِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَرَادَ إِطْلَالَ حَقِّ - فَتَشَادَقَ فِي الْكَلَامِ وَانْظُرَ الْبَيَّانُ وَالتَّيْنِ ٢٨٧/١ .

الفاظاً مسجوعة ، ويأتى بها فى كلامه . بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طائفة رائحة ، لا غثصولا باردة وأغنى بقول : « غثة باردة » أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أبواباً من الكرسف^(٩) ، أو ينظم عقداً من الخزف الملوّن .

وهذا مقام تزل عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعدد الواحد ، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً .

فإذا صُغى الكلام المسجوع من الغثاة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجرى عند ذلك كظواهر موموه ، على باطن مشوه ، ويكون مثله كخمر من ذهب على فصل من خشب . وكذلك يجرى الحكم فى الأنواع الباقية الآتى ذكرها من التجنيس والترصيع ، وغيرهما .

وسأبين لك فى هذا مثلاً تتبعه ، فأقول : إذا صوّرت فى نفسك معنى من المعانى ، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ، ولم يأتك ذلك إلا بزيادة فى ذلك اللفظ ، أو نقصان منه ، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا إلى النقصان ، وإنما تفعل ذلك لأن المعنى الذى قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه ، وإذا دلت بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً إلا أن تُضيف إليه شيئاً آخر ، أو تنقص منه ، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذى يُدْم من السجع ، ويُستعج ، لما فيه من التكلف والتعسف .

وأما إذا كان محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يجىء فى غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام ، وإذا تمها للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم ، يستعيد كرائمها ، ويستولد عقائدها وفى مثل ذلك فليتنافس ، وعن مقامه فليتقاعس ، ولصاحبه أولى بقول أبى الطيب المتنبي^(١٠) :

(٩) الكرسف القطن . (١٠) من قصيدة يمدح بها أبى الفضل محمد بن العميد ، وبطلها :

باد هواك صيرت أم لم تصيرا وبكاك إن لم يبرد معك أو جرى

أَتَتِ الْوَحِيدُ إِذَا رَكِبَتْ طَرِيقَهُ وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبَتْ غَضَنَفَرًا^(١١).
فإن قيل : فإذا كَانَ السَّجْعُ أعلى درجاتِ الكلامِ على ما ذهبتَ إِلَيْهِ فَكأنَ يَنْبَغِي أنْ يَأْتِيَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَسْجُوعًا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ مِنْهُ الْمَسْجُوعُ ، وَمِنْهُ غَيْرُ الْمَسْجُوعِ ؟
قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : إِنَّ أَكْثَرَ الْقُرْآنِ مَسْجُوعٌ ، حَتَّى أَنَّ السُّورَةَ لَتَأْتِي جَمِيعُهَا مَسْجُوعَةً . وَمَا مَنَعَ أَنْ يَأْتِيَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مَسْجُوعًا إِلَّا أَنَّهُ سَلَكَ بِهِ مَسْلَكَ الْإِبْهَازِ وَالْإِخْتِصَارِ ، وَالسَّجْعُ لَا يَأْتِي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَدِّ الْإِبْهَازِ وَالْإِخْتِصَارِ ، فَتَرَكْتُ اسْتِعْمَالَهُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ لِهَذَا السَّبَبِ .

وهاهنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثَبِتَ أَنَّ الْمَسْجُوعَ مِنَ الْكَلَامِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِ الْمَسْجُوعِ ، وَإِنَّا نَتَضَمَّنُ الْقُرْآنَ غَيْرَ الْمَسْجُوعِ لِأَنَّهُ وَرُودٌ غَيْرُ الْمَسْجُوعِ مُعْجِزًا أَبْلَغُ فِي بَابِ الْإِعْجَازِ مِنْ وَرُودِ الْمَسْجُوعِ . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَتَضَمَّنُ الْقُرْآنَ الْقِسْمَيْنِ جَمِيعًا .

واعلم أنَّ للسَّجْعِ سرًّا هو خلاصته المطلوبة ، فإن عُرِيَ الكلامُ الْمَسْجُوعُ مِنْهُ فَلَا يَعتَدُّ بِهِ أَصْلًا .

وهذا شيء لم ينبه عليه أحدٌ غيري ، وسأبينه هاهنا ، وأقولُ فيه قولًا هو أَقْبَنُ ممَّا تَقَدَّمَ ، وَأَمْثَلُ لَكَ مَثَلًا إِذَا حَدَّثْتَهُ أَمِنْتَ الطَّاعِنَ وَالْعَائِبَ ، وَقِيلَ فِي كَلَامِكَ : لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ .

والذي أقولُه في ذلك هو أنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّجَعَتَيْنِ الْمُزْدَوَجَّتَيْنِ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أُخْتُهَا . فَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى فِيهَا سَوَاءً فَذَلِكَ هُوَ التَّطْوِيلُ بَعْنَهُ ، لِأَنَّ (التَّطْوِيلَ) إِنَّمَا هُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْمَعْنَى بِالْفَافِظِ يُمْكِنُ الدَّلَالَةُ عَلَيْهِ بِذَوْنِهَا . وَإِذَا وَرَدَتْ سَجَعَتَانِ تَدْلَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدَةٍ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا كَافِيَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، وَجَلَّ كَلَامُ النَّاسِ الْمَسْجُوعِ جَارٍ عَلَيْهِ .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ كِتَابَةَ الْمُفْلِقِينَ مَعْنَى تَقَدَّمَ ، كَالصَّابِي وَابْنِ الْعَمِيدِ وَابْنِ عَبَّادٍ . وَفُلَانٍ

(١١) الديوان ١٦٧/٢ وروايته « ارتكبت » موضع « ركبته » يقول : أنت في كل أمر تفعله فرد لا يقدر أحد أن يتبعك فيه . كرايب الأسد لا يقدر أحد أن يتبعه . ولا أن يكون رديفًا له .

وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك . والأقل منه على ما أشرت إليه .
ولقد تصفحت المقامات الحريّة والخطب النبائيّة على غرام الناب بها وإكبابهم
عليها ، فوجدت الأكثر من السجع فيها على الأسلوب الذي أنكرته .

فالكلام المسجوع إذا محتاج إلى أربع شرائط :
الأولى : اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم .
الثانية : اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم .
الثالثة : أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى ، لا المعنى تابعاً للفظ .
الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى
الذي دلت عليه أختها .

فهذه أربع شرائط لا بد منها .
وسأورد هاهنا من كلامي أمثلة يُحذَى حذوها ، فإنى لما سلكت هذه الطريق ،
وأيت بكلامي مسجوعاً توخيت أن تكون كل سجع منه محصّة بمعنى غير المعنى الذى
تضمنته أختها ، ولم أخل بذلك فى مكاتباتي كلها ، وإذا تأملت ما علمت صحّة ما قد
ذكرته .

فإن ذلك ما كتبه فى صدر كتاب عن بعض الملوك إلى دار الخلافة ، وهو :

الحادم واقف موقف راجع هائب ، لازم بكتابه هذا وقار حاضر عن شخص
غائب ، موجه وجهه إلى ذلك الجنب الذى تقسم فيه أرواق العباد ، ويتأدّب به
الزمان تأدّب ذوى الاستعداد ، وتستمد الملوك من خدمته شرف الجدود ، كما تستغنى
بنسبها إليه عن شرف الأجداد ، ولو ملك الحادم نفسه لقصرها على خدمة قصره ،
وأخطأها من النظر إليه ببرد العيش الذى عمرها محسوب من عمره ، وهذا القول يقوله
وكل ماجد فيه حاسد ، ويتأمله راعى ساجد . والديوان العزيز محمود الاغتراب ، وهو
موطن الرغبات الذى الاغتراب إليه ليس بالاغتراب ، وما ينافس فى القرب من أبوابه

الكرمية إلا ذُوو الهِمَمِ الكريمة ، وقد وَدَّتِ الكواكبُ بأسْرِها أن تكونَ له مُنادِمةً فضلا
عن نَدَماني جَلِيلَةٍ « (١٢)

ومن ذلك ما كتبه من كتاب يتضمن العناية ببعض الناس ، وهو :

« الكريمُ مَنْ أَوْجَبَ لِمَائِلِهِ حَقًّا ، وَجَعَلَ كَوَاذِبَ آمَالِهِ صِدْقًا ، وَكَانَ خَرَقُ
الْعَطَايَا مِنْهُ خُلُقًا ، وَلَمْ يَرَّ يَنْزِيلَ ذِمَّتِهِ وَبَيْنَ رَجِيهِ قَرَفًا . وَكُلُّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي كَرَمِ مَوْلَانَا
أَجْرَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى وَتِيرَةٍ ، وَجَعَلَ هِمَمِيهِ عَلَى تَمَامِ كُلِّ نَقْصٍ قَدِيرَةٍ ، وَأَوْطَأَهُ مِنْ
كُلِّ مَجْدٍ سِرًّا كَمَا يُوَاهُ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ سَرِيرَةٍ ، وَلَا زَالَتْ يَدُهُ بِالْمَكَارِمِ جَدِيرَةٍ ، وَمِنْ الْأَيَّامِ
مُجِيرَةٍ ، وَلَضَرَّائِهَا مِنَ الْبَحَارِ وَالسَّحَابِ مُعِيرَةٍ ، وَلَا بَرَحَتْ تَسْتَوْلِدُ عَقَائِمَ الْمَعَانِي .
وَتَسْتَجِدُّ أُنْيَتَهَا ، حَتَّى تَشْهَدَ النَّاسَ مِنْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَقِيْقَةً أَوْ وَكِيْرَةً (١٣) ، وَمِنْ صِفَاتِ
كَرَمِهِ أَنَّهُ يَسْبِيْكُ الْأَمْوَالَ مَائِزًا ، وَيَتَّخِذُهَا عِنْدَ السُّؤَالِ ذَخَائِرًا ، فَهِيَ تَفْنَى لَدَيْهِمْ
بِالْإِنْفَاقِ ، وَذَكَرَهَا عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ بَاقِي ، وَمَنْ أَزْيَجَ مِنْهُ صَفَقَةٌ وَقَدْ بَاعَ صَامِتًا بِنَاطِقٍ ،
وَمَا هُوَ مُرْسٍ لِحَادِثِ السَّرَقَاتِ بَمَا لَا تَعْمَلُ إِلَيْهِ يَدُ سَارِقٍ ؟ وَمِثْلُهُ مَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا ،
فَرَغِبَ عَنْ اقْتِنَائِهَا ، وَجَدَّ فِي ابْتِنَاءِ الْحَامِلِ يَهْدُمُ بِنَائِهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ مَالَهَا لَيْسَ عِنْدَ
الصُّنَيْنِ بِهِ إِلَّا أَحْجَارًا ، وَأَنْ غِنَاهُ مِنْهَا لَا يَزِيدُهُ إِلَّا افْتِقَارًا ، فَهُوَ لِمَالِهِ عَبْدٌ يُجَادِمُهُ وَلَا
يَسْتَخْلِمُهُ ، وَأُمُّ تُرْضِعُهُ بِسَعِيْهَا وَلَا تَقْطَعُهُ :

(١٢) نَدِيمًا جَدِيلَةً ، يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي طَوْلِ الصَّحْبَةِ ، كَمَا يَضْرِبُ بِالْفَرْقَدَيْنِ وَابْنِ شِمَامٍ - جَبَلَانِ فِي دِيَارِ
بَنِي تَغِيمٍ - وَتَحْلِي خُلُوقًا ، وَكَانَ جَدِيلَةُ الرِّضَاحِ الْمَلِكُ لَا يَتَادَمُ أَحَدًا ذَهَابًا بِنَفْسِهِ وَكَانَ يَقُولُ : أَنَا أَعْظَمُ مِنْ أَنْ
أَتَادَمَ أَحَدًا إِلَّا الْفَرْقَدَيْنِ ، وَكَانَ يَشْرَبُ كَأْسًا ، وَيَسْبِكُ لِكُلِّ مِنْهَا كَأْسًا . فَلَمَّا أَنَاهُ مَالِكٌ وَعَقِلُ بَابِنِ أُخْتِهِ عَمْرُو ،
صَاحِبِ الطُّوْقِ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الْجَنُّ ، قَالَ لَهَا : مَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَا : مَتَادِمْتُكَ ؟ فَتَادِمَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، كَانَا
يَعَادِلَانِهِ ، وَمَا أَحَادَا عَلَيْهِ حَدِيثًا قَطُّ ، حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الدَّهْرُ ، وَفِيهَا يَقُولُ الشَّاعِرُ :

أَلَمْ تَعْلَمِ أَنَّ قَدْ تَفَرَّقَ قَيْلَتَا نَدِيمَا صَفَاءَ مَالِكٍ وَعَقِيلِ
وَيَقُولُ تَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ فِي أُخِيهِ مَالِكٍ وَهُوَ مِنَ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ :

وَكُنَّا كَتَدْمَانِي جَدِيلَةٍ حَقِيَّةٍ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّقَا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِنَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعًا

(١٣) الْحَقِيقَةُ الشَّاةُ الَّتِي تَلْبَحُ عِنْدَ حَلْقِ شَعْرِ الْمَوْلُودِ ، أَوْ الطَّعَامُ الَّذِي يَدْعَى إِلَيْهِ حَيْثُ دَا ، وَالْوَكِيْرَةُ طَعَامُ
يَعْمَلُ لِفِرَاقِ الْبَنِيَانِ .

ومنه ما كتبه في جواب كتاب يتضمن إباق غلام . وهو أول كتاب ورد من المکتوب عنه إلى المکتوب إليه ، فقلت :

« وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآتي عن الخدمة فقد يفرُّ المهر من عليقه ، ويطير الفراش إلى حريقه ، وغير بعيد أن ينوبه مضجعه ، أو يكبر به مطمعه ، فيرجع وقد حيد من رجوعه مادته من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة في إياه ، فاكل شجرة تحلر لذائقها ، ولا كل دار ترحب بطارقها ، ومن أبى عن مولاه مغاضبا ، وجانب محل إحسانه الذي لم يكن له مجانيا ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة معاهد الأوطان . وهل أضل سعيًا ممن دفع في صدر العافية ، وغدا يسأل عن الأسقام ، والتي الثروة من يده ومضى في طلب الإعدام ؟ ومع هذا فإن الخادم يشكره على ذنب الإباق الذي أقدم على اجتراحه ، وليس ذلك إلا لأنه صار سبباً لافتتاح باب المكاتبه الذي لم يطمع في افتتاحه ، ولا جزاء له عنده إلا السعي في إعادته إلى الخدمة التي تقلب في إنشائها ، وهي أبر به من أمه التي تقلب في أحشائها ، ومن فضلها أنها تلقاه من حليمها بوسيلة الشافع ، ومن كرمها بالوجه الضاحك والفضل الواسع » .

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها ، وأعطها حق النظر ، حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها . وكذلك فليكن السجع ، والأفلا !

[من سجع الصابي]

وسأورد هاهنا من كلام الصابي ما ستره .

فن ذلك تمهيد في كتاب ، فقال (١٤) :

« الحمد لله الذي لا تدركه الأعين بالحاظها ، ولا تعدّه الألسن بألفاظها ، ولا تخلفه العصور بمروورها ، ولا تهزمه الدهور بمرورها » (١٥) .

(١٤) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ١٣/١ .

(١٥) اختصر ابن الأثير كلاما كثيرا ، وفي المختار « الفاعل لا عن مادة استمدحا ، الصانع لا بآلة استعملها .

الذي لا تدركه الأعين ... الخ .

ثم انتهى إلى الصلاة على النبي ﷺ ، فقال : « لم ير للكفر أثرًا إلا طمسُه ومحاه ، ولا رسمًا إلا أزاله وعفاه » .

ولا فرق بين مرور العصور وكُرُور الدهُور . وكذلك لا فرق بين محو الأثر وعفائه الرسم .

ومن كلامه أيضًا في كتاب ، وهو (١٧) :

« وقد علمت (١٨) أَنَّ الدولة العباسية لم تزل على سالف الأيام ، ومتعاقب (١٩) الأعرام تغتزل طُورًا وتصح أطوارًا ، وتلتاث (٢٠) مرة ، وتستقل مرة ، من حيث أصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنائها ثابت لا يتضعع » .
وهذه الأسجاع كلها متساوية المعاني ، فإن الاعتلال ، والائتاث ، والطور ، والمرة ، والرُسُخ ، والثبات ، كل ذلك سواء .

وكذلك ورد له في جملة كتاب كتبه عن عز الدولة بن بويه جواباً عن كتاب وصله من الأمير عبد الكريم بن المطيع لله . فقال :

« وصلني كتابه مفتتحاً من الاغتراء إلى إمامة المؤمنين ، والتقلد لأمر المسلمين بما أعرفه الزكية مجوزة لاستمراره ، وأرومته العلية مسوغة لاستقراره . له ولكل نجيب أخذ يحفظه من نسبه ، وضارب بسهم في منصبه . إذ كان ذلك جاريًا على الأصول المنهودة فيه ، والأسباب العاقدة له من إجماع المؤمنين كافة ، فإن تعدد اجتماعهم مع انبساطهم في الأرض ، وانتشارهم في الطول والعرض . فلا بد من اتفاق أشراف كل قطر وأفاضله ، وأعيان كل صُقع وأمائله » .

وهذا الكلام كله متائل المعاني في أسجاعه ، فإن إمامة المؤمنين ، والتقلد لأمر

(١٦) المختار ١٧/١ . وفيه . . . ولا يرى للكفر أثرًا . . . الخ .

(١٧) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي ٢١٦/١ .

(١٨) حذف ابن الأمير بعض العبارات . وفي المختار « وقد علمت وعلم غيرك ببيان ما أدركته الأعمار . وسامع مانقلته الأخبار . أن الدولة العباسية التي رفع الله عباد الحق بها . وخفض منار الباطل . . الخ .

(١٩) في الأصل « معاقب » والصواب عن المختار . (٢٠) تلتاث تختلط .

المسلمين سواء في المعنى. وكذلك الأعراق والأرومة، والتجويز والتسوية، والأشراف والأفاضل، والأعيان والأمثال، والفطر والصنع، كل ذلك سواء.

وعلى هذا جاء كلامه في كتاب آخر. فقال:

«يسافر رأيه وهو دان لم يتزح. ويسير تديره وهو قاي لم يبرح». وكلاً هذين سواء أيضاً. وما أحسن هذا المعنى لو قال: «يسافر رأيه وهو دان لم يبرح، ويُنخِن الجراح في عدوه وسيفه في الغمد لم يجرح». فإنه لو قال مثل هذا سلم من هُجّة التكرار.

وأمثال ذلك في كلام الصائبي كثير، وعلى منواله نسج صاحب بن عباد [من سجع صاحب بن عباد]

فإن ذلك ما ذكره في وصف مهزومين، فقال:

«طاروا وأقبن بظهورهم صدورهم، وأصلابهم نحورهم». وكلا المعنيين سواء.

وكذلك قوله في هذا الكتاب بصف ضيق مجال الحرب:

«مكان ضنك على الفارس والراجل، ضيق على الرامح والنابل»^(٢١)

ومن كلامه في كتاب وهو:

«لا توجه هيمته إلى أعظم مرقوب إلا طاع ودان، ولا تمتد عزيمته إلى أقبح مطلوب إلا كان واستكان». وكل هذا الذي ذكره شيء واحد.

وله من كتاب وهو:

«وصل كتابه جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقاً، وأتمها للحمد استغراقاً

(٢١) الرامح ذو الرمح. والنابل الذي يسمى بالنبل.

وتَعَرَّفْتُ مِنْ إِحْسَانِ اللَّهِ فِيهَا وَفَرَهُ مِنْ سَلَامَتِهِ . وَهَنَّا مِنْ كَرَامَتِهِ . أَنْفَسَ مُوْهُوبٌ
وَمَطْلُوبٌ ، وَأَحْمَدُ مَرْقُوبٌ وَمَخْطُوبٌ .

وهذا كله متاثل المعاني ، متشابه الألفاظ .

وفيما أوردته هاهنا مُقْتَبِعٌ .

فَأَتَيْتُكَ بِهَا الْوَاقِفُ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ فِيهَا يَبْتَهِ لَكَ . وَوَضَعْتُ يَدَكَ عَلَيْهِ .
حَتَّى تَعْلَمَ كَيْفَ تَأْتِي بِالْمَعَانِي فِي الْأَلْفَاظِ الْمَسْجُوعَةِ . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّكَ اشْتَرَطْتَ أَنْ تَكُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْفِقْرَتَيْنِ فِي الْكَلَامِ الْمَسْجُوعِ
دَلَالَةً عَلَى مَعْنَى غَيْرِ الْمَعْنَى الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهِ أَخْتَهَا ، وَإِنَّا اشْتَرَطْتَ هَذِهِ الشَّرِيطَةَ فِرَاراً مِنْ
أَنْ يَكُونَ اللَّعْنَانِ شَيْئاً وَاحِداً ، وَنَرَى قَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَفْظَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي
آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ الْمَسْجُوعَتَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ
صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا » (٢٢) . وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ؟ !

قُلْتُ فِي الْجَوَابِ : لَيْسَ هَذَا كَالَّذِي اشْتَرَطْتَهُ أَنَا فِي اخْتِصَاصِ كُلِّ فِقْرَةٍ بِمَعْنَى غَيْرِ
الْمَعْنَى الَّتِي اخْتَصَصْتُ بِهِ أَخْتَهَا ، وَإِنَّا هَذَا هُوَ إِيرَادُ لَفْظَتَيْنِ فِي آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ بِمَعْنَى
وَاحِدٍ . وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ ، لِمَكَانِ طَلَبِ السَّجْعِ .

أَلَا تَرَى أَنَّ أَكْثَرَ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ سُورَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَسْجُوعَةٌ عَلَى حَرْفِ
الْيَاءِ ، وَهَذَا يَجُوزُ لِصَاحِبِ السَّجْعِ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ ، وَهُوَ بِخِلَافِ مَا ذَكَرْتُهُ أَنَا ؟
أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ غَيَّرَ اللَّفْظَةَ عَنْ وَضْعِهَا طَلَباً لِلْسَّجْعِ . فَقَالَ « مَازُورَاتٌ »
وَإِنَّا هِيَ « مَوزَوَرَاتٌ » ؟ وَقَالَ : « الْعَيْنُ اللَّامَةُ » وَإِنَّا هِيَ « الْمُئِمَّةُ » ؟ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِي
ذَلِكَ زِيَادَةٌ بِمَعْنَى . بَلْ يُفْهَمُ مِنْ لَفْظَةِ « مَازُورَاتٌ » أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِمَقَامِ « مَوْذُورَاتٍ » .
وَكَذَلِكَ يُفْهَمُ مِنْ لَفْظَةِ « لَامَةٌ » أَنَّهَا بِمَعْنَى « مُئِمَّةٌ » ؟

فَالسَّجْعُ قَدْ أُجِيزَ مَعَهُ تَغْيِيرُ وَضْعِ اللَّفْظَةِ ، وَأُجِيزَ مَعَهُ أَنْ يُورَدَ لَفْظَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ
فِي آخِرِ إِحْدَى الْفِقْرَتَيْنِ . وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يُجَزَّ فِي اسْتِعَالِهِ أَنْ يُورَدَ فِقْرَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ .
لَأَنَّهُ تَطْوِيلٌ مَحْضٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ .

وَبَيْنَ الَّذِي ذَكَرْتَهُ أَنْتَ وَبَيْنَ الَّذِي ذَكَرْتُهُ أَنَا فَرْقٌ ظَاهِرٌ .

وَالَّذِي قَدَّمْتَهُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْمُسْجُوعَةِ لِلصَّابِي وَالصَّاحِبِ بْنِ عِبَادٍ رَمَا كَانَتْ يَسِيرَةً أَتَمُّهُمْ فِيهَا بِالتَّعَصُّبِ ، وَيُقَالُ إِنِّي تَقَطَّطْتُهَا تَقَاطُطًا مِنْ جُمْلَةِ رَسَائِلِهَا !
وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ عَهْدَةِ هَذِهِ التَّهْمَةِ ، وَذَاكَ أَنِّي وَجَدْتُ لِلصَّابِي تَقْلِيدًا بِنَقَابَةِ الْأَشْرَافِ الْعُلَوِيِّينَ بِنِغْدَادٍ ، وَكُنْتُ أَنْشَأْتُ تَقْلِيدًا بِنَقَابَةِ الْأَشْرَافِ الْعُلَوِيِّينَ بِالْمَوْصِلِ ، وَقَدْ أَوْرَدْتُ التَّقْلِيدَيْنِ هَاهُنَا ، لِيَتَأَمَّلَهَا النَّاطِرُ فِي كِتَابِي هَذَا ، وَيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ عَارِفًا ، أَوْ يَسْأَلُ عَنْهَا الْعَارِفَ إِنْ كَانَ مُقَلِّدًا .

[تَقْلِيدُ الصَّابِي] .

وَقَدْ أَوْرَدْتُ تَقْلِيدَ الصَّابِي أَوَّلًا ، لِأَنَّهُ الْمَقْدَمُ زَمَانًا وَفَضْلًا ، وَهُوَ :
وَهَذَا مَا عَهَدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى الْعُلَوِيِّ الْمَوْسَوِيِّ حِينَ وَصَلْتُهُ بِهِ الْأَنْسَابَ ، وَتَأَكَّدْتُ لَهُ الْأَسْبَابَ ، وَظَهَرَتْ دَلَالُ عَقْلِهِ وَلِبَاقَتِهِ ، وَوَضَحَتْ مَخَابِلُ فَضْلِهِ وَنَجَابَتِهِ . وَمَهَّدَ لَهُ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وَضِيَاءُ الْمَلَةِ أَبُو نَصْرٍ بْنُ عَصَدٍ الدَّوْلَةَ وَتَاجِرُ الْمَلَّةِ ، مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَكَانَ لَهُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَحَلِّ الْمَكِينِ ، وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ الْجِلْمِ الرَّزِينِ ، وَأَشَارَ بِهِ فِيهِ مِنْ رَفْعِ الْمَنْزِلَةِ ، وَتَقْدِيمِ الْمَرْتَبَةِ وَالتَّأْهِيلِ لَوْلَايَةِ الْأَعْمَالِ ، وَالْحَمَلِ لِلْأَعْيَاءِ الثَّقَالِ ، وَحَيْثُ رَغِبَ فِيهِ سَابِقَةُ الْحُسَيْنِ أَبِيهِ فِي الْخِدْمَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَالْمَوَاقِفِ الْحَمُودَةِ ، وَالْمَقَامَاتِ الْمَشْهُودَةِ ، الَّتِي طَابَتْ بِهَا أَخْبَارُهُ ، وَحُسُنَتْ فِيهَا آثَارُهُ . وَكَانَ مُحَمَّدٌ مُتَخَلِّقًا بِخَلَائِقِهِ ، وَذَاهِبًا فِي طَرَائِقِهِ ، عِلْمًا وَدِيَانَةً ، وَوَرَعًا وَصِيَانَةً ، وَعِفَّةً وَأَمَانَةً ، وَشَهَامَةً وَصَرَامَةً ، بِالْحِفْظِ الْجَزِيلِ مِنَ الْفَضْلِ الْجَمِيلِ ، وَالْأَدَبِ الْجَزَلِ ، وَالتَّوَجُّهِ فِي الْأَهْلِ ، وَالِإِيْقَافِ بِالْمَنَاقِبِ عَلَى لِدَائِهِ وَأَثَرِيهِ ، وَالِإِثْرَارِ عَلَى قَرَائِبِهِ وَأَضْرَابِهِ ، فَقَلَدَهُ مَا كَانَ دَاخِلًا فِي أَعْمَالِ أَبِيهِ مِنْ نَقَابَةِ نِقْبَاءِ الطَّالِبِينَ أَجْمَعِينَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْأَمْصَارِ ، شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا وَقُرْبًا . وَاخْتَصَصَهُ ذَلِكَ جَذْبًا بِصُنْعِهِ ، وَإِنَاقَةً بِقُدْرِهِ ، وَقَضَاءً لِحَقِّ رَجَائِهِ ، وَتَرْفِيًا لِأَبِيهِ ، وَاسْتِعْافًا لَهُ ، بِإِيثارِهِ فِيهِ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاسْتِخْلَافَهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْمَظَالِمِ ، وَتَسْيِيرِ الْحَجَّاجِ فِي الْمَوَاسِمِ . وَاللَّهُ يُعْقِبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَمْرًا وَدَبْرًا حَسَنًا

العاقبة فيها فُصِّى وَأَمْصَى . وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل ، وإليه يُنِيب
وَأَمْرُهُ يَقْتَوِي اللَّهُ أَلَى هِيَ شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَاءَ الصَّالِحِينَ ، وَعَصْمَةُ عِبَادِ اللَّهِ
أَجْمَعِينَ ، وَأَنْ يَعْتَمِدَهَا سِرًّا وَجَهْرًا ، وَيَعْتَمِدَهَا قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَيَأْخُذَ بِهَا وَيُعْطَى ،
وَيُسَرَّ بِهَا وَيَنْوَى ، وَيَأْتِي وَيَذَر ، وَيُورِدُ وَيَصْدِر ، فَإِنَّهَا السَّبَبُ الْمُتَيْنُ ، وَالْمَعْقِلُ
الْحَصِينُ ، وَالزَّادُ النَّافِعُ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَالْمَسْلُكُ الْمُفْضِي إِلَى دَارِ الثَّوَابِ . وَقَدْ
حَضَّ اللَّهُ أَوْلِيَائَهُ عَلَيْهَا ، وَهَدَاهُمْ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ إِلَيْهَا ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلِي :
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » (٢٣) .

وَأَمْرُهُ بَتْلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ . مواظبًا ، وَتَصَفِّحِهِ مُدَاوَمًا مُلَازِمًا ، وَالرَّجُوعَ إِلَى
أَحْكَامِهِ فِيهَا أَحْلَ وَحَرَم ، وَنَقْصَ وَأَبْرَم ، وَأَثَابَ وَعَاقَب ، وَبَاعَدَ وَقَارَب . فَقَدْ
صَحَّحَ اللَّهُ بَرَاهِنَهُ وَحُجَّتَهُ ، وَأَوْضَحَ مِنْهَا جَهَّةً وَمَحَجَّتَهُ ، وَجَعَلَهُ نَجْمًا فِي الظُّلُمَاتِ
طَالِعًا ، وَنُورًا فِي الْمُسْكَلَاتِ سَاطِعًا ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ نَجَا وَسَلَم ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهُ
هَوَى وَتَدَم . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا
مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٢٤) .

وَأَمْرُهُ تَنْزِيهِ نَفْسِهِ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الشُّبُهَات ، وَتَطْلُعُ إِلَيْهِ التَّجَنُّات ، وَأَنْ يَضْبِطَهَا
ضَبْطَ الْحَلِيم ، وَيَكْفُهَا كَفَّ الْحَكِيم ، وَيَجْعَلَ عَقْلَهُ سُلْطَانًا عَلَيْهَا ، وَتُمَيِّزُهُ آمْرًا نَاهِيًا لَهَا
وَلَا يَجْتَمِعَ لَهَا عُذْرًا إِلَى صَبْوَةٍ وَلَا هَفْوَةٍ ، وَلَا يَطْلُقَ مِنْهَا عِنَانًا عِنْدَ تَوَرُّقٍ وَلَا قَوْرَةٍ ،
فَإِنَّهَا أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ، مُنْصَبَةٌ إِلَى الْفَى ، فَمَنْ رَفَضَهَا نَجَا ، وَمَنْ أَتْبَعَهَا هَوَى . فَالْحَازِمُ
مَتَّهِمْ عِنْدَ غَرْكٍ وَطَرٍ وَأَرْبِهِ ، وَاهْتِاجٍ غَيْظِهِ ، وَلَا يَدْعُ أَنْ يَغْضَبَهَا بِالشَّكِيم ،
وَيَعْرِكُمَا عَرْكَ الْأَدِيم ، وَيُقَوِّدَهَا إِلَى مَصَالِحِهَا بِالْخِزَائِم ، وَيَقْتَنِدَهَا مِنْ مَفَارِقِ الْمَآثِمِ
وَالْمَحَارِم ، كَمَا يَغْرِزُ بِنَدْلِيلِهَا وَتَأْدِيبِهَا وَيَجِلُّ ، بِرِيَاضِهَا وَتَقْوِيمِهَا ، وَالْمُفَرِّطُ تَطْمَحُ بِهِ إِذَا
طَمَحَتْ ، وَيَجْمَحُ مَعَهَا إِذَا جَمَحَتْ ، وَلَا يَلْبِثُ أَنْ تُورِدَهُ حَيْثُ لَا يُصْدِر ، وَتَلْجِئُهُ
إِلَى أَنْ يَعْتَذِر ، وَتَقِيْمُهُ مَقَامَ النَّادِمِ الْوَاجِم ، وَتَنْكَبُ بِهِ سَبِيلَ الرَّاشِدِ السَّالِم .

(٢٣) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

(٢٤) سورة فصلت : الآيات ٤١ ، ٤٢ .

وأحقُّ مَنْ نحلى بالمحاسنِ . وتصدى لاكتسابِ المحامدِ مَنْ ضربَ بِمِثْلِ سَهْمِهِ فِي
نسبِ أميرِ المؤمنينَ الشريفِ . ومنصبِهِ المنيفِ . واجتمع معه في دُؤَابَةِ العِزَّةِ الطَّاهِرَةِ .
واستظلَّ بأوراقِ الدُّوْحَةِ الفَاحِرَةِ . فذلكَ الَّذِي تتضاعفُ بِهِ المآثرُ إِنْ أثرَا . والمثالبُ
إِنْ أَسَفَتْ إِلَيَا . ولا سِيئًا مَنْ كَانَ مندوبًا بِالسِّيَاسَةِ . ومرشحًا للتقليدِ عَلَى أَهْلِهِ . إِذْ لَيْسَ
يَهْيَى بِالصَّلَاحِ مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ . ولا يَفِي بِإِصْلَاحِ مَا بَيْنَ جَنِيهِ . وَبَيْنَ أَكْظَمِ الهُجْنَةِ عَلَيْهِ
أَنْ يَأْمُرَ وَلَا يَنْهَى . وَيَزَجِرَ وَلَا يَزْدَجِرَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢٥) » .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَصَفَّحَ أَحْوَالَ مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِمْ ، مِنْ اسْتِقْرَاءِ مَذَاهِبِهِمْ . وَالبَحْثِ عَنْ
بَوَائِجِهِمْ وَدَخَائِلِهِمْ . وَأَنْ يَعْرِفَ مَنْ تَقَدَّمَ قَدَمُهُ مِنْهُمْ وَتَظَاهَرَ فَضْلُهُ فِيهِمْ مِثْلَتُهُ ،
وَيُوفِيَهُ حَقَّهُ وَزِينَتَهُ . وَيَنْتَهَى فِي إِكْرَامِ جَمَاعَتِهِمْ إِلَى الْخُدُودِ الَّتِي تُوجِبُهَا أَنْسَابُهُمْ
وَأَقْدَارُهُمْ . وَتَقْتَضِيهَا مَوَاقِعُهُمْ وَأَخْطَاؤُهُمْ . فَإِنَّ ذَلِكَ يَلْزَمُهُ لِشَيْئَيْنِ :

أَحَدُهُمَا بَحْثُهُ . وَهُوَ النَّسَبُ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ .

وَالْآخَرُ بَحْثُهُ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » (٢٦) . فَالْمُوَدَّةُ لَهُمُ الْإِعْظَامُ لِأَكْبَارِهِمْ . وَالْإِشْتِهَالُ عَلَى أَصَاغِرِهِمْ
وَاجِبٌ مُتَضَاعَفُ الْوُجُوبِ عَلَيْهِ . مُتَأَكِّدُ الزُّوْمِ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي دَوْنِ تِلْكَ
الطَّبَقَةِ مِنْ أَحْدَاثٍ لَمْ يَحْتَنِكُوا عَلَيْهِ . وَجَذَعَانِ لَمْ يَقْرَحُوا ، وَمُجْرِبِينَ إِلَى مَا يُزْرى
بِأَنْسَابِهِمْ . وَيَغْضُ مِنْ أَحْسَابِهِمْ عَدْلُهُمْ . وَأَنْبَهُمْ . وَنَهَاهُمْ . وَوَعظُهُمْ ، فَإِنْ نَزَعُوا
وَأَقْلَعُوا فَذَلِكَ الْمَرَادُ بِهِمْ ، وَالْمَقْصِدُ فِيهِمْ . وَإِنْ أَصْرُوا وَتَتَابَعُوا أَتَالَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ بِقَدْرِ
مَا يَكْفِي وَيُرَدِّعُ . فَإِنْ نَفَعَ وَلَا تَجَاوَزَهُ إِلَى مَا يَلْذَعُ وَيُوجِعُ ، مِنْ غَيْرِ تَطَرُّقٍ لِأَعْرَاضِهِمْ ،
وَلَا امْتِنَانٍ لِأَحْسَابِهِمْ . فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْهُمْ الصِّيَانَةَ لَا الْإِهَانَةَ ، وَالْإِدَالَةَ لَا الْإِذَالَهَ . وَإِذَا
وَجِبَتْ عَلَيْهِمُ الْحَقُوقُ . أَوْ تَعَلَّقَتْ بِهِمْ دَوَاعِي الْخُصُومِ فَادَّهَمَتْ إِلَى الْإِغْفَاءِ بِمَا بَصَحَ مِنْهَا
وَيَجِبُ . وَالْخُرُوجُ إِلَى سِنَنِ الْحَقِّ فِيمَا يَشْتَبِهُ وَيَلْتَبِسُ . وَمَتَى لَزِمَتْهُمْ الْخُدُودُ أَقَامَهَا عَلَيْهِمْ
بِحَسَبِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ الْجَرَائِمُ وَتَصَحَّحَ . وَتَبَيَّنَ وَتَقَضَّحَ ، وَتَتَجَرَّدَ

(٢٥) سورة البقرة : الآية ٤٤ . (٢٦) سورة الشورى : الآية ٢٢ .

عن الشك ، وتنجلي من الظنِّ والنَّهْمَةِ ، فإنَّ الَّذِي يُسْتَحَبُّ فِي حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَذَرًا مَعَ نَقْصَانِ الْيَقِينِ وَالصَّحَّةِ ، وَأَنْ تَمْضِيَ عَلَيْهِمْ مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ وَالْيَقِينَةِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ « وَمَنْ يَبْعُدْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٢٧) .

وَأَمْرُهُ بِحِجَابَةِ أَهْلِ النَّسَبِ الْأَطْهَرِ ، وَالشُّرْفِ الْإِفْخَرِ عَنْ أَنْ يَدْعِيَهُ الْأُدْعِيَاءُ ، أَوْ يَدْخُلَ فِيهِ الدُّخْلَاءُ ، وَمَنْ انْتَمَى إِلَيْهِ كَاذِبًا ، أَوْ انْتَحَلَ بِاطِلًا ، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ بَيْتٌ فِي الشَّجَرَةِ ، وَلَا مِصْدَاقٌ عِنْدَ النَّسَائِينَ الْمَهَرَّةِ ، أَوْ قَعَّ بِهِ كَذِبُهُ وَفُسَقَ ، وَشَهَرُهُ شُهْرَةٌ يَنْكَشِفُ بِهَا غِشُّهُ وَلِبْسُهُ ، وَيَزَعُ بِهَا غَيْرُهُ مِمَّنْ تَسُؤَلُ لَهُ ذَلِكَ نَفْسُهُ .

وَأَنْ يُحْصِنَ الْفُرُوجَ عَنْ مُتَاكَحَةٍ مِنْ لَيْسَ كَفْوًا لَهَا فِي شَرَفِهَا وَقَمَرِهَا ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ فِي الْمَرْأَةِ الْحَسِيَّةِ النَّسِيبَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلًا لَهَا مُسَاوِيًا ، وَنَظِيرًا مُوَازِيًا ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » (٢٨) وَأَمْرُهُ بِمِرَاعَةِ مُتَبَتَّلِ أَهْلِهِ وَمَتَجَدِّبِهِمْ ، وَصَلَحَاتِهِمْ وَتَجَارِيهِمْ ، وَأَرْأَمِلِهِمْ وَأَصَاغِرِهِمْ ، حَتَّى تَسْتَدَّ الْخَلَّةُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ ، وَتَلْدِرِ الْمَوَادُّ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَادَلَ أَنْسَاطُهُمْ فِيمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَجْهِ أَمْوَالِهِمْ ؛ وَأَنْ يَزُوجَ الْآيَامِي ، وَيُرَبِّي الْيَتَامَى ، وَلِيُزْمِعَهُمُ الْمَكَاتِبَ ، فَيَتْلَقُوا الْقُرْآنَ ، وَيَعْرِفُوا قَوَائِصَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، وَيَتَأَدَّبُوا بِالْآدَابِ اللَّائِقَةِ بِذَوِي الْأَحْسَابِ ، فَإِنَّ شَرَفَ الْأَعْرَاقِ مَحْتَاجٌ إِلَى شَرَفِ الْأَخْلَاقِ ، وَلَا حَمْدَ لِمَنْ شَرَّفَهُ حَسَبُهُ ، وَسَخَفَ أَذَبُهُ ، إِذْ كَانَ لَمْ يَكْتَسِبِ الْفَخْرَ الْحَاصِلَ بِفَضْلِ سَعْيِهِ ، وَلَا طَلَبَ وَلَا اجْتِهَادَ ، بَلْ بَصَّنَعَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَزِيدَ الْمُنَّةِ عَلَيْهِ ، وَيَحْسَبِ ذَلِكَ لَزُومًا مَا يَلْزَمُهُ مِنْ شُكْرِهِ سِجَانَهُ عَلَى هَذِهِ الْعَطِيَّةِ ، وَالْإِعْتِدَادِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَزِيَّةِ ، وَاعْمَالِ النَّفْسِ فِي حَيَازَةِ الْفَضَائِلِ وَالْمُنَاقِبِ ، وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الرَّذَائِلِ وَالْمَثَالِبِ .

وَأَمْرُهُ بِإِجَالَةِ النَّبَاةِ عَنْ شَيْخِهِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى فِيمَا أَمَرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِخْلَافِهِ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ ، وَالْأَخْذِ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ ، وَأَنْ يَجْلِسَ لِلْمُتَرَفِّعِينَ إِلَيْهِ جُلُوسًا عَامًا ، وَيَتَأَمَّلَ كَلَامَهُمْ تَأَمُّلًا تَامًا ، فَمَا كَانَ مِنْهَا مُتَعَلِّقًا بِالْحَاكِمِ دَرَهُ إِلَيْهِ لِيَحْمِلَ الْخُصُومَ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ طَرِيقَةِ الْغَشْمِ وَالظُّلْمِ وَالتَّغْلِبِ وَالْغَضَبِ قَبْضَ عَنِّهِ الْيَدِ الْمُبْطَلَةِ . وَكَيْتَ

فيه اليد المسخّفة ، وتحرى في قضاياهُ أن تكونَ موافقة للعدل ، ومُجانبة للخذل ، فإن عَادَةَ الحكام وصاحب المظالم واحدة ، وهى إقامة الحقّ ونُصْرَتُهُ ، وإيَّانَتُهُ وإثَّارَتُهُ ، وإنما يختلفُ سبيلهما في النظر إذا كَانَ الحاكمُ يعملُ بما بُتَّ عنده وظهر ، وصاحبُ المظالم يفضّصُ عما غَمَصَ واستترَ . وليس له مع ذلك أن يردَّ للحاكم حُكُومَهُ ، ولا يعلَّ له قضيةٌ ، ولا يتعقَّب ما يُنفِذه ويمضيه ، ولا يتتَبَّع ما يحكمُ به ويقضيه ، والله يهديه ويوقفه ، ويُسدِّده ويُرشدّه .

وَأَمْرُهُ أَنْ يُسِيرَ حَجِيجَ بَيْتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَقْصِدِهِمْ ، وَيُخَيِّمَهُمْ فِي بَدَائِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ ، وَيُرْتَبِّعَهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ وَمَسْلَكِهِمْ ، وَيُرْعَاهُمْ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، حَتَّى لَا تَنَالَهُمْ شِدَّةٌ ، وَلَا تَصِلَ إِلَيْهِمْ مَضَرَّةٌ ، وَأَنْ يُرِيحَهُمْ فِي الْمَنَازِلِ ، وَيُورِدَهُمُ الْمَنَاقِلَ ، وَيُنَازِبَ بَيْنَهُمْ فِي النَّهْلِ وَالْعَلَلِ ، وَيَمَكِّنَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْإِكْتِفَاءِ ، مُجْتَهِدًا فِي الصِّيَانَةِ لَهُمْ ، وَمُعَدِّلًا فِي اللَّذِّ عَنْهُمْ ، وَمَتَلُوًّا عَلَى مُتَاخِرِهِمْ وَمُتَحَلِّفُهُمْ ، وَمَنْهَضًا لَصَغِيرِهِمْ وَمَهْضِيهِمْ ، فَأَيُّهُمْ حُجَّاجُ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ . وَزُورَاقِبِرُ رَسُولِهِ ﷺ ، قَدْ هَجَرُوا الْأَهْلَ وَالْأَوْطَانَ ، وَفَارَقُوا الْجَبِرَةَ وَالْإِخْوَانَ ، وَتَجَشَّمُوا الْمَغَارِمَ الثَّقَالَ ، وَتَسَقَّوْا السَّهُولَةَ وَالْجِبَالَ ، يَلْبُونَ دُعَاءَ اللَّهِ ، وَيُطِيعُونَ أَمْرَهُ . وَيُؤَدُّونَ قَرْضَهُ ، وَيَرْجُونَ ثَوَابَهُ وَحَقِيقَتَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرُسَهُمْ مُتَبَرِّعًا ، وَيَحُوطَهُمْ مُتَطَوِّعًا . فَكَيْفَ مَنْ تَوَلَّى ذَلِكَ وَضَمِنَهُ ، وَتَقَلَّدَهُ وَاعْتَقَبَهُ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَكَانَ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (٢٩)

وَأَمْرُهُ أَنْ يُرَاعِيَ أُمُورَ الْمَسَاجِدِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَأَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا وَأَكْنَافِهَا ، وَأَنْ يَجْعَلَ أَمْوَالَ وَقْفِهَا ، وَيَسْتَقْصِيَ جَمِيعَ حَقُوقِهَا ، وَأَنْ يَلْمَّ شَعْنَهَا ، وَيُسَدِّ خَلْلَهَا بِمَا يَتَحَصَّلُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ قَبْلَهُ ، لَا يُزِيلُ رَسْمًا جَرَى ، وَلَا يَنْقُصُ عَادَةً كَانَتْ لَهَا ، وَأَنْ يَكْتُبَ اسْمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَعْمُرُهُ مِنْهَا ، وَيَذْكُرَ اسْمَهُ بَعْدَهُ ، بِأَنْ عِمَارَتَهَا جَرَتْ عَلَى يَدِهِ ، وَصَلَاحُ أَذَاهُ قَوْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، تَنْوِيًّا بِاسْمِهِ ، وَرَاشَادَةً لِدَظْنِهِ وَأَنْ يُوَلِّىَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ حَسُنَتْ أَمَانَتُهُ ، وَظَهَرَتْ عِفَّتُهُ وَصِيَانَتُهُ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ مِنْ قَاتِلٍ : « إِنَّمَا

يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ
فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٣٠﴾

وأمره أن يستخلف على ما يرى استخلافه عليه من هذه الأعمال في الأُمصار الدانية
والثانية ، والبلاد القريبة والبعيدة من يتق به من صلحاء الرجال ذوى الوفاء
والاستقلال ، وأن يعهد إليهم مثل ما عهد إليه ، ويعتمد عليهم مثل ما اعتمد عليه ،
ويستقصى في ذلك آثارهم ، ويتعرف أخبارهم ، فمن وجدته محموداً قربه ، ومن
وجدته مذموماً صرفه ولم يمهله ، واعتاض من ترجى الأمانة عنده ، وتكون الثقة
معهودة منه ، وأن يختار لكتابته وحجابه والتصرف فيها قرب منه وبعد عنه من يزيه ولا
يشبهه ، وينصح له ولا يشبهه ، ويحمله ولا يهينه ، من الطبقة المعروفة باللفظ ،
المتصونة عن النطف (٣١) ، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية والأجرة الوافية ما يصد لهم
عن المكاسب الذميمة ، والمأكول الوخيمة . فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء
الحاجة ، قال الله تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى . ثُمَّ
يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٣٢﴾

وأمره أن يكتب لمن تقوم بينته عنده ، وتنكشف له حجة إلى أصحاب المعارف
بالشد على يده . واتصال حقه إليه ، وحسم الطمع الكاذب فيه ، وقبض اليد الظالمة
عنه ، إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه ، والوقوف عند رسمه وحده .
وهذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته لك وعليك ، قد أبان منه سبيلك ، وأوضح
دليلك ، وهداك لرشدك . وجعلك على بينة من أمرك فاعمل به ، ولا تخالفه . وأنت
إليه ، ولا تجاوزه ، وإن عرض لك عارض يعجزك الوفاء به ، ويشبه عليك الخروج
منه أنتهية إلى أمير المؤمنين مبادراً ، وكنت إلى ما يأمرك به صائراً . إن شاء الله تعالى .

(٣٠) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٣١) يقال تلف أى اتهم برياً وتلفح بعب وشد ، ويقال تلف فلاناً تلفه فجور أو لطفه بعب .

(٣٢) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

[التقليد بأسلوب ابن الأثير]

وأما التقليد الذي أنشأته أنا فقد أوزدته بعد هذا التقليد ، وهو :

« أَمَّا بَعْدُ . فَإِنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِمُحَمَّدٍ اللَّهُ فَهُوَ أَحَدُهُمْ ، وَكُلُّ كِتَابٍ لَا يُرْقَمُ بِاسْمِهِ فَلَيْسَ بِمُعَلِّمٍ . وَعَلَى هَذَا فَإِنْ حَمَدُهُ يَنْتَزَلُ مِنَ الْكَلَامِ مِثْلَةَ الْأَعْضَاءِ مِنَ الْأَجْسَامِ ، وَاسْمُهُ يَنْتَزَلُ مِنَ الْكِتَابِ مِثْلَةَ الرُّقُومِ مِنَ الثِّيَابِ ، وَقَدْ جَمَعْنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا بَيْنَ التَّسْمِيَةِ وَالتَّحْمِيدِ ، وَجَعَلْنَا إِحْدَاهُمَا مِفْتَاحًا لِلتَّيْمَنِ ، وَالْآخَرُ سَبَبًا لِلزَّمِيدِ ، ثُمَّ رَدَفْنَاهُمَا بِالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَيْدَهُ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَجَعَلَ شَهَادَتَهُ قَبْلَ كُلِّ شَهِيدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ . وَمِمَّا يَفْتَرِحُ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ فِي تَوَابِهَا ، وَيُجَيِّدُ عَلَى أَعْقَابِهَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ الْأُسْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي وَصَلَ وَوَدَّهَا بُوْدُهُ ، وَجَعَلَهَا إِحْدَى الثَّقَلَيْنِ الْمُخْلِفينَ مِنْ بَعْدِهِ (٢٣) : وَقَدْ تَقَادَمَ الْآنَ زَمَانُهَا . وَتَشَعَّبَتْ أَغْصَانُهَا ، وَنَسِيَ مَالَهَا فِي الرِّقَابِ مِنْ عَهْدَةِ الْأَمَانَةِ ، وَلَمْ تَوْضَعْ فِيهَا وَضَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ مِنَ الْمَكَانَةِ ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِهَا مِنْ أَضْمَرٍ وَلَا عَاهَا حَقًّا . وَأَوْجَبَ أَنْ يَرِدَ مَعَهَا الْخَوْضُ حِينَ يَقَالُ لَوَارِدِهِ سُحْقًا ، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْهَا بَارًّا رَفِيقًا ، حَتَّى لَا يَسْأَلَهُ بَرًّا وَلَا رَفَقًا . وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَفُوزَ بِفَضِيلَةِ هَذِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَنْ يَسْبِقَ إِلَيْهَا سَبْقَ الْمُتَقَرَّبِ فِي الْجُمُعَةِ يَدْنَةً .

وَمِنْ أَهَمِّ أُمُورِهَا أَنْ يَخْتَارَ لَهَا زَعِيمٌ يَرَأْفُ بِهَا رَأْفَةَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ ، وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا قِيَامُ الرَّأْسِ بِجَسَدِهِ ، حَتَّى تَأْتِلَفَ أَصُولُهَا كُلُّهَا فِي مَغْرِبِهَا ، وَلَا يَحْكُمَ عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَنْفُسِهَا . وَقَدْ اخْتَرْنَا لَهَا مَنْ وَفَّقْنَا فِي اخْتِيَارِهِ ، وَأَخَذْنَا فِيهِ بَيَانَ الرَّأْيِ وَخَزَمِهِ ، لَا بِشِبْهِةِ الْهَوَىِّ وَاغْتِرَارِهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَلَّوْهَا لَكَانَ اسْتِحْقَاقُهَا لَنَا بَيْنًا ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَيْهَا مُتَعَيِّنًا ، فَكَيْفَ وَقَدِمَهُ فِيهَا قَدِيمَةُ الْمِبْلَاحِ ، وَوَرِاثَتُهُ إِيَّاهَا عَنْ سِيَادَةِ الْجُلُودِ سُودُودِ الْأَجْدَادِ ، وَهُوَ أَنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ الشَّرِيفُ الْحَسِيبُ النَّسِيبُ : « فَلَانُ بْنُ فَلَانِ

(٢٣) رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِ عَمْرِهِ : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعَقْلِي » قَالُوا : وَسَيَاهَا ثَقَلَيْنِ إِعْظَامًا لِقُدْرَتِهِمَا ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِكُلِّ شَيْءٍ نَفِيسٍ مَصُونٍ ثَقْلًا ، وَأَصْلُهُ فِي بَيْضِ التَّمَامِ لِلصُّوْنِ ، وَيَقَالُ لِلْسَّيِّدِ الْعَزِيزِ ثَقْلًا .

الحُسَيْنِ ؑ ولو شِئْنَا لَأَسْتَدْنَا هذه النسبة كَابِرًا عن كَابِرٍ، وَفَضَلْنَاهَا آخِرًا بعدَ أَوَّلِ عَزِّ أَوَّلِ قَبْلِ آخِرٍ، حتى وصلنا هذا القَرْعَ بشجرته الطيبة، وهذا القَطْرَ بسحابه الصَّيْبَةِ وشرف الأنسابِ أَصْلَهُ ما كان الدهرُ به شهيدًا، وأجلُّه ما كان قديمًا، وأخلقه ما كان جديدًا، وما تولى الروح الأمينُ مدحه قرآنًا أَكْرَمَ مما تولى الشعراءُ مدحه قصيدًا، ولا فضلَ للمعترَى إلى هذا النسبِ حتى تلحقَ البُوءَةُ بالأبُوَّةِ. وَيُضَيَّفُ درجةَ الفضيلةِ إلى مَحْنِدِ النُّبُوَّةِ، وَحَيْثُ يُقَالُ: ما أَقْرَبَ الشَّبهَ على قَدَمِ عَهْدِهِ، وهذا ماءُ الْوَرْدِ بعد ذهابِ وَرْدِهِ.

وَأَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي تَرَدَّدَ الشَّرْفُ فِي مَنَاسِبِهِ، تَرَدَّدَ الْقَمَرُ فِي مَنَازِلِهِ، وَزَهَا المَجْدُ بِمَنَاقِبِهِ زَهْوُ الرُّؤُوسِ فِي خِمَائِلِهِ، فَلَا لَيْعَ حَسَبِكَ تُغْنِيكَ عَنْ سُؤَالِ مَنْ وَمَا، وَتَمْلَأُ بِوَدِّكَ وَحَمْدِكَ قَلْبًا وَقَمًّا. وَالْحَسْبُ مَا حَفِظْتَ أَوَاخِرَهُ أَوَائِلُهُ؛ وَأَوْضَحْتَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ دَلَالَتَهُ، وَأَقْرَبْتَ بِهِ الْأَعْدَاءَ لِمَا رَدَّتْ فُضَائِلُهُ. وَهَذِهِ هِيَ الْمَأْتَرُ الَّتِي إِذَا نَظِمْتَ غَارَاتِ الشُّعْرَاءِ عَلَيْهَا مِنَ الشُّعْرِ، وَإِذَا نَثَرْتَ وَجِدْتَ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ، وَأَنْتَ صَاحِبُهَا وَابْنُ صَاحِبِهَا، وَمَنْ لَمْ يَرِثْهَا عَنْ أَبَائِهَا بَلْ عَنْ أَقَارِبِهَا، وَلَوْ جَانَبَتْ رِيَاسَتَهَا مُصَانَعًا، وَمَشَيْتْ بِهَا الضَّرَاءُ مُتَوَاضِعًا، لَدَلَّكَ عَلَيْكَ وَضْفُهَا، وَعُرِفَ مِنْكَ عَرَفُهَا. وَلَوْ قَلَدْنَاكَ أَمْرَ هَذِهِ الْأَسْرَةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي هِيَ أَسْرَتُكَ، وَأَمْرُنَاكَ عَلَيْهَا، وَأَمْرُهَا إِمْرَتُكَ، فَتَوَلَّاهَا تَوَلَّى مَنْ خَفَضَ لَهَا جَنَاحَهُ، وَأَفَاضَ عَلَيْهَا مَسَاحَهُ، وَأَنْصَى فِيهَا غَدُوهُ وَرَوَّاحَهُ، حَتَّى يَقَالَ إِنَّكَ الرَّاعِي الَّذِي تَنَازَلَ لُثْمُهُ، فَأَرَّاحَ حَسِيرَهَا، وَجَبَّرَ كَسِيرَهَا، وَأَرَادَ لَهَا خِصْبًا، وَأَوْرَدَهَا رَفْعًا لَاغِيًّا، وَأَذْكَى فِي كَلَاءَتِهَا عَيْنًا وَقَلْبًا.

وَمِنْ حَقِّهَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى ذَاتِ شِمَالِهَا، وَذَاتِ يَمِينِهَا، وَتَصَفِّحَ أَحْوَالَهَا فِي أَمْرِ دُنْيَاهَا وَدِينِهَا، فَأُولَ ذَلِكَ أَنْ تَعْلَمَهَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي فِي تَعْلِيمِهِ نَهْجُ الصَّوَابِ، وَفِي تِلَاوَتِهِ مُضَاعَفَةُ حَسَنَاتِ الثَّوَابِ، وَقَدْ مَثَّلَ قَارِئُهُ بِالْبَيْتِ الْعَامِرِ، وَتَارِكُهُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ. وَهُوَ كِتَابٌ اِمْتَنَزَ عَنِ الْكُتُبِ بِنُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَتَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَافْتَحَهُ بِالسَّيِّعِ الْمُنَافِي الَّذِي لَمْ يُنْزَلْ مِثْلُهَا فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ. وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ النُّورُ الْمُسْتَضَاءُ بِهِ فِي غِيَابَةِ الظُّلُمِ، وَالْحَبْلُ الْمَمْدُودُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ

والبحرُ الذى لا يستخرجُ لؤلؤةً ومَرَجَانَهُ إِلَّا الراسخونَ من العلماء.

وكذلك فَخَذُ هذه الأسرة بتعليم الفضائل التى تتفاوتُ بها القيم، وسُنْمُها برياضة الآدابِ وتهذيبِ الشِّمِّ، ولا تركها فوضى لا يَتَّسِمُ أحدها بِسَمَةِ القَدْرِ المُنِيِّ، ولا يرجع إلى حسب تليد، ولا إلى سعى طريف، وتكون غاية ما عنده من الفضيلة أن يُقال فلانٌ الشريف.

ومن حِفْظِ رسولِ الله ﷺ فيها أن تُوفى فَضْلَ مكانِها، وتخالِفَ بين شأنِ غيرها من المسلمينَ وَبَيْنَ شَأْنِها، فلا تبتذلُ بمجالسِ الزُّلَّةِ فى انتزاعِ ظُلامَةٍ، ولا فى إقامةِ حدٍّ يُسَلَّبُ معه رداءُ الكرامة، وأنتَ تتولى ذلكَ مِنْها، فما وَجَبَ عليها من حقٍّ فَخُذْها باقتضائه، وأْمُضِ فيها حُكْمَ الله الذى أَمَرَ بِأَمْضَائِهِ. وليكنْ ذلكَ على وَجْهِ الرِّفْقِ الذى يُسَلِّسُ له القِيَادَ، ويتَوَطَّأُ له المهاد، وإنْ أَمَكَّتْكَ افتدَاءُ شيءٍ من هذه الظُّلُمَاتِ التى تتوجَّهَ عليها ففَادَ، وقدْ أتمَّ اللهُ فضلَها بمنعِ كرائِمِها إلاَّ مِنْ كَفٍّ لا دَنَاءَةَ فى عُصْرِهِ، ولا غَضاضَةَ فى عُصْرِهِ، وهو الذى إنْ فَاتَهُ شَرَفُ النُّبُوَّةِ فى مَغْرِبِهِ فلمْ يَفْتَهُ شَرَفُ النُّبَاهَةِ فى مَغْرِبِهِ، وإذا تبايَنَتِ الأَقْدَارُ فلا فَرْقَ بينَ المَنَاصِحِ المَخْطُوبَةِ، وَبَيْنَ الأسلابِ المَسْلُوبَةِ.

فاحفظ لأسرتك حُرْمَةَ هذه المترلة، واجعلْها فى كتابِ الوصايا التى وُصِّيتَ بها مكانَ البِسملة.

وكما أَمَرناكَ بالنظرِ فى صَوْنِ أَقْدَارِها، فكذلكْ نَأْمُرُكَ بالنظرِ فى حفظِ مادَّةِ دِرْهِمِها ودينارِها. وقدْ عَلِمْتَ أَنَّ لها أوقافاً وَقَفَّها قومٌ فحفظوا بِأَجْرِها واسْمِها، وسَتَحْظِي أَنْتَ بالعدلِ فى قسمِها، فأَجِرْ على كُلِّ منها رِزْقَهُ، وأَعْطِ كُلَّ ذى حقٍّ حَقَّهُ.

وفى الناسِ طائفةٌ أَدْعِياءُ يرومونَ إلحاقَ الرأسِ بالذَّنْبِ، والتَّشْبِيعَ بِالْعَرَبِ (٣٤) ويلحقونَ أباً لغيرِ ابنٍ، وابناً لغيرِ أب. كُلُّ ذلكِ رَغْبَةٌ فى سَحْتِ (٣٥) بِأَكْلُونَهُ، لا فى

(٣٤) التبع شجر اللقى وللهمام ينبت فى قلة الجبل، والثابت منه فى السفح الشريان، وفى الحفيض الشوخط، ويقال أصابه سهم غرب أى لا يدري راميهِ.

(٣٥) السحت هو كل حرام قبيح الذكر، أو ما خبث من المكاسب وحرَم، فلزم عنه الباطل.

نسبُ يوصلونه . فنقبُ عن حالِ هؤلاء تنقيباً ، واجعلُ النسيبَ نسيباً ، والغريبَ غريباً ، حتى تخلصَ السُّلالةَ من طرائقها ، وتبقى الشجرةُ قائمةً على أعرافِها . ومن علمتْ كذبه فازجرهُ باليمِرِ الأزديجارِ ، وأعلمهُ بأنه قد تبرأَ مَقْعَدُهُ من النَّارِ ، واشهره في الناسِ حتى ينتهى وينتهى غيرهُ بذلك الاشتهار .

وماهنا وصيةٌ هي أهمُّ من هذه الوصيةِ أمراً ، وأعظمُ أجراً ، وأجدرُ بأن تكونَ هي الأولى ، وتكونَ هذه الأخرى ، وهي الأخذُ على السنةِ السُّفهاءِ من الخوضِ فيما شَجَرِين آلِ النبی ﷺ وأصحابه ، وإظهارِ العصبيةِ التي تُزَخِرُ الحقَّ عن نصابه ، وترجمه على أعقابهِ ، وليسَ مُستندَها إلا مقالاتِ ذوى الجَهلِ . ورُبَّما نشأ منها فتنةٌ ، والفتنةُ أشدُّ من القتلِ . فوكلُ هؤلاءِ عرباً قاطعاً ، ونهياً قائماً ، وكُنْ في ذلك شارِعاً لِمَا كَانَ اللَّهُ شارِعاً . فاولئك الساداتُ هم النجومُ الذين بأيهم كانَ الاقتداءُ كانَ بهِ الاهتداءُ ، وقُصارىِ المحسينِ في هذا الزَّمانِ أَنْ يَتَمَلَّقَ منها سيباً ، ويأخذَ عنهم ديناً أو أدباً ، ولا يبلغُ مدَّ أحدهم ولا نصيفه (٣٦) ، ولو أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً .

ونحنُ نعلمُ أنك واقفٌ على سُنَنِ اقتصادِكَ ، وأن هذه الوصيةَ هي محضُ اعتقادِكَ ، والمُنْصِفُ في هذا المقامِ من رَمَقَهُ بنظرِ جَلِيٍّ ، ووقى أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عنهما حقهما ، وإن كانَ مِنْ نَسْلِ عَلِيٍّ ، فكلُّ قَدْ ذَكَرَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ بِفَضْلِهِ ، وهؤلاءِ من صحابته ، وهذا مِنْ أَهْلِهِ ونعوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْأَهْوَاءِ الزَّائِفَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الَّتِي لَيْسَتْ بِسَائِغَةٍ . ولا حُجَّةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .

وقَدْ جَعَلْنَا لَكَ فِي مَالِنَا عَطَاءً دَارًا تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى لَوَازِمِ النِّفَقَاتِ ، وَتُخْرِجُ نَافِلَتَهُ فِي وَقَايَةِ عَرِضِكَ الَّتِي هِيَ مَحْسُوبَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ مِنْ سَادَةٍ قَوْمًا يَفْتَقِرُ إِلَى نَحْمِلِ أَقْلَاهُمْ ، وَالْإِفَاضَةِ مِنْ حَالِهِ عَلَى أَحْوَالِهِمْ ، وَهَذَا بَرٌّ يَكُونُ مِنَّا أَصْلُهُ ، وَمِنْكَ قَرَعُهُ ، وَثَوَابٌ يَكُونُ لَكَ قَصْدُهُ ، وَلَنَا شَرَعُهُ ، وَصَاحِبُ الْإِحْسَانِ مِنْ سَنِّ سَبِيلِ الْإِحْسَانِ ، وَلَمْ نَرْضَ أَنْ أَرِيْنَاكَ مَكَانَهُ حَتَّى أَمْدَدْنَاكَ فِيهِ بِالْإِمْكَانِ ، فَأَعْطِ مَا لَنَا ، وَتَعْلَمُ مِنْ سُنَّةِ أَفْضَالِنَا ، وَلَدَوْلَتِنَا بِذَلِكَ ثَوْبٌ جَمَالٍ كُلُّهُ لَيْسَ زَادَ جِلْدُهُ ، وَعُمَرُ ذَكَرَكَ كُلَّمَا مَضَتْ عَلَيْهِ

(٣٦) للهِ المَدَى ، يَقَالُ قَدْرُ مَدِّ الْبَصَرِ أَى مَلَاهُ ، وَالتَّصْيِيفُ هُوَ التَّصْفِيفُ أَحَدُ شَيْءٍ شَيْئاً .

مُتَدِّدِ الْأَيَّامِ طَالَ مُدَّةُ ، وَلَا مُلْكَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَجْعَلْ مَلِكُهُ حَدِيثًا حَسَنًا ، وَيَشْتَرِ
 الْحَمْدَ فَيَجْعَلُهُ هَالِكًا وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَ الثَّنَاءِ جَدَّ فِي تَحْصِيلِهِ ، وَلَوْ أَنْفَقَ الْكَثِيرَ فِي قَلْبِهِ ،
 فَكَمْ مِنْ دَوْلَةٍ أُعْلِمَتْ مِنْهُ قَدَرَمَتْ آثَارُ مَعَالِمِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْهُ مُثْرِيَةً لَمَا ذَهَبَتْ مَعَ
 بَقَايَ مَكَارِمِهَا ۝

وَأَذْ ذَكَرْنَا هَذَا فَلْنَحْتِمِهِ بِمَا يَكُونُ قَلَادَةً لَصَاحِبِ هَذَا التَّقْلِيدِ ، وَهُوَ أَنْ نَجْرِدَ الْعَنَاءَةَ
 بِوَجَاهَتِهِ ، حَتَّى يَلْبَسَ تَقْدِمًا بِذَلِكَ التَّجْرِيدِ - وَفَحَوَى ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ مَا لَهُ فِي
 الدَّوْلَةِ مِنْ مِثْلَةِ الْكِرَامَةِ ، وَيَعْرِفُوا أَنَّهُ فِيهَا ابْنُ جَلَا (٣٧) ، غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى وَضْعِ الْعِمَامَةِ ،
 وَنَحْنُ نَأْمُرُ نَوَابِنَا وَوَلَاتِنَا وَأَصْحَابِنَا أَنْ يُؤْفِقُوهُ حَقَّ أَبَوْتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي رَدَّتْهَا
 فَاضْطَحَّتْ وَهِيَ لَهَا رَذِيفَةٌ ، وَأَنْ يُعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ إِعْلَاءِ شَأْنِهِ ، وَيُمْضُوا فِعْلَ يَدِهِ وَقَوْلَ
 لِسَانِهِ . إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

• • •

وَقَدْ وَجَدْتُ لِلصَّابِيِّ أَيْضًا تَقْلِيدًا أَنْشَأَهُ لِفَخْرِ الدَّوْلَةِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي
 عَلِيٍّ بْنِ بُيُوتِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ الطَّائِعِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ مَثْبُتٌ هَاهُنَا عَلَى صُورَتِهِ ، وَكَانَ
 عَرْضُ عَلِيٍّ تَقْلِيدَ كُتُبِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ مِنَ الْخَلِيفَةِ
 الْمُسْتَقْبِيِّ بِاللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، فَوُجِدْتُ فِيهِ كَلَامًا
 نَازِلًا بِالْمَرَّةِ ، وَسَأَلْنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ أَنْ أَعَارِضَهُ ، فَعَارِضْتُهُ بِتَقْلِيدٍ فِي
 مَعْنَاهُ ، وَهُوَ مَثْبُتٌ هَاهُنَا أَيْضًا . وَكِلَا التَّقْلِيدَيْنِ بِاسْمِ مَلِكٍ كَبِيرٍ ، وَفِيهَا يَظْهَرُ مَا يَظْهَرُ
 مِنْ فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ .

[تَقْلِيدُ آخِرٍ لِلصَّابِيِّ]

فَأَمَّا التَّقْلِيدُ الَّذِي أَنْشَأَهُ الصَّابِيُّ فَهُوَ :

هَذَا مَا عَهَدَ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَعْرِ الدَّوْلَةِ أَبِي
 الْحَسَنِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ أَبِي عَلِيٍّ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ عَرَفَ غَنَاهُ وَبَلَاهُ ، وَاسْتَصَحَّ

(٣٧) ابْنُ جَلَا الْبَاضِحُ الْأَمْرَ ، وَفِي نَسْخَةِ الْحِجَابِ لِلشُّهُورَةِ فِي أَهْلِ الْعِرَاقِ :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاحُ الْغَفَايَا مَتَى أُنْصَحَ الْعِمَامَةُ تَمْرُقُونُ

دينه وبقيته، ورعى قديمه، وحديثه واستنجب عوده ونجاره، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين عليه، وأشار باليزيد في الصنعة إليه، وأعلم أمير المؤمنين اقتدائه به في كل مذهب ذهب فيه من الخدمة، وغرض رمى إليه من النصيحة، دخولاً في زمرة الأولياء المنصورة، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة، وتصرفاً على موجبات البيعة التي هي بعز الدولة أبي منصور منوطة، وعلى سائر من يتلوها ويتبعه مأخوذة مشروطة، فقلده الصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والحراج والأعشار والضيايع والجهدة^(٣٨) والصدقات والجواري^(٣٩)، وسائر وجوه الجبايات والعرض والعطاء، والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همدان، واستراياد، والدينور، وتوريز، والأمعارين، وأعمال أذربيجان، وأران، والسحانين، وموقان^(٤٠)، واتقا منه باستقبال استدامتها، والاستزادة بالشكر منها^(٤١)، والتجنب لغمطها وجحودها، والتجنب لإعاشها وتغييرها، والتعمد لما يمكن له الخطوة والزلفى، وحرس عليه الأثرة والقرى، بما يظهره ويضميره من الوفاء الصحيح، والولاء الصريح، والغيب الأمين، والصدر السليم، والمقاطعة لكل من قطع العصمة، وفارق الحملة، والمواصلة لكل من حصى البيضة، وأخلص النية، والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته، مع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته. والله جل اسمه يعرف لأمر المؤمنين حسن العنى فيما أبرم ونقص، وسداد الرأي فيمن رفق وخفف، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة، محجوبة عن موارد الندامة، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة، والجنة الحصينة، والطود الأرفع، والمعاد

(٣٨) الجهدية: الحيرة، والجهد هو التناد الحثير.

(٣٩) الجواي: جمع جالية، وهي جزية أهل الذمة، وأصلها أن الإمام عمر رضى الله عنه جلى أهل الذمة عن جزيرة العرب، فسموا جالية، ثم لزمهم هذا الاسم أين حلوا، وأطلق على الجزية للمأخوذة منهم.

(٤٠) الذى فى المختار ٩٩ بكور همدان واستراياد والدينور وقرماسين والأيعارين وأعمال اذربيجان والسحانين

وموقان ٥.

(٤١) الذى فى المختار ٥ واتقا منه باستيقاء النعمة واستدامتها، والاستدامة بالشكر منها ٥.

الأمْنَع ، والجانبُ الأعزُّ ، والملجأُ الأحرزُ ، وأنَّ يَسْتَشْعِرَهَا سِرًّا وَجْهَهَا . ويستعملها قولاً وفِعْلاً ، ويتخذها دُخْرًا ، دافعاً لنوائبِ القَدَر ، وكهفًا حاميًا من حوادثِ الْغَيْر ، فإنَّها أوجبُ الوَسَائِلِ ، وأقربُ الذَّرَائِعِ ، وأَعُوذُها على العبدِ بمصالحِهِ ، وأدْعاها إلى كُلِّ مناجحِهِ ، وأولَاهَا بالاستمرارِ على هدايته ، والنَّجاةِ من رَوَايَتِهِ ، والسلامَةِ في دنياهِ حينَ تُوْبِقُ مُوبِقَاتُهَا ، وتُرْدَى مُرْدِيَاتُهَا ، وفي آخرتهِ حينَ تَرْوَعُ رَائِعَاتُهَا ، وتُخَفِّفُ مُخِفَاتُهَا .
وأنَّ يتأدَّبَ بأدبِ الله في التواضعِ والإخباتِ والسكينةِ ، وصدقِ اللهجةِ إذا نطقَ .
وغيَضَ الطَّرْفَ إذا رَمَى ، وكظَمَ الغَيْظَ إذا أَحْفِظَ ، وضبطَ اللسانَ إذا أَلْصَبَ . وكفَّ اليدَ عن المآثمِ ، وصَوَّنَ النفسَ عن المحارِمِ .

وأنَّ يذكرَ الموتَ الذي هو نازلٌ به ، والموقفَ الذي هو صائرٌ إليه ، ويعلمَ أنه مسئولٌ عما اكتسبَ ، مجزئٌ عما تَزَمَل واحتَقَبَ^(٤٢) ، ويتزوَّدُ مِنْ هذا المَعْرِ لَذلك المَقَرِّ ، ويستكثرُ مِنْ أَعْمَالِ البرِّ لِنَتْفَعَهُ ، ومن مَسَاعِيِ الْخَيْرِ لِنَتَقِذَهُ ، ويأتمِرَ بِالصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِهَا ، ويُرَدِّجِرَ عَنِ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْجُرَ عَنْهَا ، ويبتدئُ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ قَبْلَ إِصْلَاحِ رَعِيَّتِهِ ، فلا يبيعنهم على ما يأتِي ضِدَّهُ ، ولا ينهائهم عما يقترِفُ مثله ، ويعملَ رَبِّهِ رَقِيًّا عَلَيْهِ فِي خُلُوعَاتِهِ ، ومُروءته مَانِعًا لَهُ مِنْ شَهَوَاتِهِ ، فَإِنَّ أَحَقَّ مِنْ غَلَبِ سُلْطَانِ الشَّهْوَةِ ، وَأَوْلَى مِنْ ضَرْعِ لِفْذَاءِ الْحِمِيَةِ مِنْ مَلِكِ أَزْمَةِ الْأُمُورِ ، واقتنَدِرَ عَلَى سِيَاسَةِ الْجُمْهُورِ ، وَكَانَ مَطَاعًا فِيمَا يَرَى ، مُتَّبِعًا فِيمَا يَشَاءُ ، يَلِي عَلَى النَّاسِ وَلَا يُلُونُ عَلَيْهِ ، وَيَقْتَصُّ مِنْهُمْ ، وَلَا يَقْتَصُّونَ مِنْهُ ، فَإِذَا اطَّلَعَ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى نَقَاءِ جَنَّتِهِ ، وَطَهَارَةِ ذَنْبِهِ ، وَصَحَّةِ سِرِّرَتِهِ ، وَاسْتِقَامَةِ سِيرَتِهِ ، أَعَانَهُ عَلَى حَفِظِ مَا اسْتَحْفَظَهُ ، وَأَنْهَضَهُ بِثِقَلِ مَا حُمِّلَهُ ، وَجَعَلَ لَهُ مَخْلَصًا مِنَ الشَّيْءِ ، وَمَخْرَجًا مِنَ الْحَيْرَةِ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(٤٣) . وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »^(٤٤) وَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ وَكُنُوا مَعَ

(٤٢) احتقب : ارتكب .

(٤٣) سورة الطلاق : الآية ٣ .

(٤٤) سورة آل عمران : الآية ١٠٢ .

الصَّادِقِينَ ۝ (٤٥) إلى آي كثيرة حُصِّنَا بها على أكرم الخلق، وأسلم الطرق، فالسَّعِيدُ مَنْ نَصَبَهَا إِزَاءَ نَاطِرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ نَبَذَهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَشَقُّیْ مِنْهُمَا مَنْ بَعَثَ عَلَيْهَا، وَهُوَ صَادَفَ عَنْهَا، وَأَهَابَ إِلَيْهَا، وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْهَا، وَلَمْ يَلَمْزْهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٤٦)

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا مُتَّبِعًا وَطَرِيقًا مُتَوَقَّعًا، وَيَكْثُرُ مِنْ تِلَاوَتِهِ إِذَا خَلَا بِذِكْرِهِ، وَيَمْلَأُ بِتَأْمِيلِهِ أَرْجَاءَ صَدْرِهِ، فَيَذْهَبُ مَعَهُ فِي أَبْحَابِ وَحْطِهِ، وَيَقْتَدِي بِهِ إِذَا نَهَى وَأَمَرَ، وَيَسْتَبِينُ بِبَيَانِهِ إِذَا اسْتَعْلَقَتْ دُونَهُ الْمُعْضَلَاتُ، وَيَسْتَضِيءُ بِمَصَابِيحِهِ، إِذَا عَظُمَتْ عَلَيْهِ الْمَشْكَلَاتُ، فَإِنَّهُ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ الْوُثْقَى، وَحِجَّتُهُ الْوُسْطَى، وَدَلِيلُهُ الْمُضْنَعُ، وَيُرْهَانُهُ الْمُرْشِدُ، وَالْكَاشِفُ لُظْلُمِ الْخُطُوبِ، وَالشَّافِي مِنْ مَرَضِ الْقُلُوبِ؛ وَالْمُهَادِي لِمَنْ ضَلَّ وَالْمُتَلَفِّي لِمَنْ زَلَّ، فَمَنْ نَجَاهُ فَقَدْ فَازَ وَسَلِمَ، وَمَنْ لَهَا عَنْهُ فَقَدْ خَابَ وَتَدِمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ (٤٧) »

وَأَمْرُهُ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَيَدْخُلَ فِيهَا فِي حَقَائِقِ الْأَوْقَاتِ، قَائِمًا عَلَى حُدُودِهَا، مُتَّبِعًا لِرُسُومِهَا، جَامِعًا فِيهَا بَيْنَ نَيْتِهِ وَلَفْظِهِ، مُتَوَقَّعًا لِمَطَامِعِ سَهْوِهِ وَلِحُظَيْهِ، مُنْقَطِعًا إِلَيْهَا عَنْ كُلِّ قَاطِعٍ لَهَا، مُشْغُولًا بِهَا عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ عَنْهَا، مُتَّبِعًا فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، مُسْتَوْفِيًا عِدَدَ مَقْرُوضِهَا وَمُسْتَوْنًا، مُوقِفًا عَلَيْهَا ذِهْنَهُ، صَارِفًا إِلَيْهَا هَمَّهُ، عَالِمًا بِأَنَّهُ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ، وَمُحِيٍّ وَمُحْيِيٍّ، وَمُعَاقِبٍ وَمُتَّبِعٍ، لَا تُسْتَرْدُونَهُ خَائِنَتُهُ الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ. فَإِذَا قَضَاهَا عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، مُنْذُ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ إِلَى خَاتَمَةِ التَّسْلِيمِ أَتْبَعَهَا بِدَعَاءٍ يَرْتَفِعُ بَارْتِفَاعِهَا، وَيُسْمَعُ بِاسْتِجَابِهَا، لَا يَتَعَدَّى فِيهِ مَسَائِلَ الْأَبْرَارِ وَرَغَائِبِ الْأَخْيَارِ، مِنْ اسْتِصْفَاحٍ وَاسْتِغْفَارٍ وَاسْتِقَالَةٍ وَاسْتِرْحَامٍ وَاسْتِدْعَاءٍ

(٤٥) سورة التوبة: الآية ١١٩.

(٤٦) سورة البقرة: الآية ٤٤.

(٤٧) سورة فصلت: الآيتين ٤١، ٤٢.

لمصالح الدين والدنيا، وعوائد الآخرة والأولى، فقد قال الله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» (٤٨). وقال تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٤٩)

وأمره بالسعى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية، بعد التقدم في قرشها وكسوتها، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها، واستيعاء الناس إليها، وحضهم عليها، آخذين الأهبة، منتظفين في البرة، مؤدبين لفرضة الطهارة، وبالنسب في ذلك أقصى الاستقصاء، معتقدين خشية الله وخيفته. مدرعين نقواء ومراقبين، مكثرين من دعائه عز وجل وسؤاله، مصلين على محمد ﷺ وعلى آله، بقلوب على اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مصروفة، والسني بالتقديس والتسبيح فصيحة، وآمال في المغفرة والرحمة فسيحة، فإن هذه المصليات والمنعبدات بيوت الله الذي فضلها، ومناسكها التي شرفها، وفيها يتلى القرآن الكريم ويتعود العائدون، ويتعبد المتعبدون، ويتجد المتجدون. وحقيق على المسلمين أجمعين من والٍ ومؤلى عليه أن يصونها ويعمرها، ويواصلها ولا يهجرها، وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمر المؤمنين، ثم نفسه على الرسم الجارى فيها، قال الله تعالى في هذه الصلاة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ» (٥٠) وقال في عمارة المساجد: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» (٥١).

وأمره أن يرعى أحوال من يليه من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه، ويطلق لهم الأرزاق، في أوقات الوجوب والاستحقاق، وأن يحسن في معاملتهم ويجميل في

(٤٨) سورة النساء: الآية ١٠٣.

(٤٩) سورة النكبات: الآية ٤٥.

(٥٠) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٥١) سورة التوبة: الآية ١٨.

اسْتِخْدَامِهِمْ ، وَبِتَضَرُّفِ فِي سِيَاسَتِهِمْ بَيْنَ رَفَقٍ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَخَشُونَةٍ فِي غَيْرِ عُنْفٍ ،
 مُثْبِتًا لِمُحْسِنِهِمْ مَا زَادَ بِالْإِثَابَةِ فِي حُسْنِ الْأَثَرِ ، وَسَلِّمَ مَعَهَا مِنْ دَوَائِي الْأَثَرِ ، وَمَتَعَمِّدًا
 لِمُسِيئِهِمْ مَا كَانَ التَّغَمُّدُ لَهُ نَافِعًا ، وَفِيهِ نَاجِيًا ، فَإِنْ تَكَرَّرَتْ زَلَّاتُهُ ، وَتَنَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ ،
 تَنَاوَلَتْ مِنْ عُقُوبَتِهِ مَا يَكُونُ لَهُ مُصْلِحًا ، وَلِغَيْرِهِ وَاعْظًا وَأَنْ يَخْتَصَّ أَكْبَارَهُمْ وَأَمَّا ثَلَاثُهُمْ وَأَهْلُ
 الرَّأْيِ وَالْخَطَرِ مِنْهُمْ بِالمُشَاوَرَةِ فِي الْمُلِيمِ ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى بَعْضِ الْمُهْمِ ، مُسْتَخْلَصًا خَائِلَ
 صُدُورِهِمْ بِالْبَسِطِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَمُسْتَشْجِلًا بِصَائِرِهِمْ بِالْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِبَاءِ ، فَإِنَّ فِي
 مُشَاوَرَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ اسْتِدْلَالَ عَلَى مَوَاقِعِ الصُّوَابِ ، وَتَحَرُّزًا عَنْ غُلُطِ الِاسْتِبْدَادِ ، وَأَخْذًا
 بِمَجَامِعِ الْحَزَامَةِ ، وَآمِنًا مِنْ مُفَارَقَةِ الِاسْتِقَامَةِ . وَقَدْ حَضَّ اللَّهُ عَلَى الشُّورَى حَيْثُ قَالَ
 لِرُسُولِهِ ﷺ « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » (٥٢) .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَصْنُدَ بِمَا يَتَّصِلُ بِنَوَاحِيهِ مِنْ تُغُورِ الْمُسْلِمِينَ وَرِبَاطِ الْمُرَابِطِينَ ، وَيَقْسِمَ لَهَا
 قِسْمًا وَافِرًا مِنْ عَنَائِهِ ، وَيَصْرِفَ لَهَا طَرَفًا بَلْ شَطْرًا مِنْ رِعَايَتِهِ ، وَيَخْتَارَ لَهَا أَهْلَ الْجَلَدِ
 وَالشَّدَّةِ ، وَذَوِي الْبَاسِ وَالنَّجْدَةِ ، مِمَّنْ عَجَمَتَهُ الْخُطُوبُ ، وَعَرَكَتَهُ الْحُرُوبُ ، وَاكْتَسَبَ
 دُرْبَةً يَخْدَعُ الْمُتَنَازِلِينَ ، وَتَجَرِبَةً بِمَكَايِدِ الْمُتَقَارِعِينَ ، وَأَنْ يَسْتَظْهَرَ بِكَشْفِ عَدَدِهِمْ
 وَاعْتِبَارِ عَدَدِهِمْ ، وَاتِّخَاذِ خِيَلِهِمْ ، وَاسْتِجَادَةِ أَسْلِحَتِهِمْ غَيْرَ مُجْمِرٍ (٥٣) بِمَثَلٍ إِذَا بَعَثَهُ ،
 وَلَا مُسْتَكْرِهَهُ إِذَا وَجَّهَهُ ، بَلْ يُنَاوِبُ بَيْنَ رِجَالِهِ مُنَاوِبَةً تُرَبِّحُهُمْ وَلَا تَعُدُّهُمْ ، وَتُرَفِّهُهُمْ
 وَلَا تُثَوِّدُهُمْ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ فَائِدَةِ الْإِجَامِ ، وَالْعَدَلِ فِي الِاسْتِخْدَامِ زِينًا ، فَلْيُسَوِّينَ
 رِجَالُ النَّوْبِ فِيهَا عَادَةً عَلَيْهِمْ بَعْزُ الظُّفْرِ وَالنَّصْرِ ، وَبُعْدُ الصَّيْتِ وَالذِّكْرِ ، وَاحِرَازُ النَّفْعِ
 وَالْأَجْرِ ، مَا يَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْوَلَاةُ بِهِ عَامِلِينَ ، وَلِلنَّائِسِ عَلَيْهِ حَامِلِينَ ، وَأَنْ يَكْرَرَ فِي
 أَسْمَاعِهِمْ ، وَيُثَبَّتَ فِي قُلُوبِهِمْ مَوَاعِيدُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ صَبَرَ وَرَاطَبَ ، وَسَامَحَ بِالنَّفْسِ ، مِنْ
 حَيْثُ لَا يَقْدُمُونَ عَلَى تَوَرُّطِ غَرِّهِ ، وَلَا يُخْجِمُونَ عَنْ انْتِهَازِ فُرْصَتِهِ ، وَلَا يَنْكُصُونَ عَنْ
 تَوَرُّدِ مَعْرَكَةٍ ، وَلَا يُلْقُونَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى خَلْقِهِ ، وَالْمَرَّةُ
 أَمِينٌ عَلَى دِينِهِ .

(٥٢) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ : آيَةُ ١٥٩ .

(٥٣) التَّجْمِيرُ : حِسْ الْجَيْشِ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ .

وَأَنْ يُرِيحَ الْعَمَلَةَ فَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ رَاتِبٍ نَفَقَاتِ هَذِهِ الثُّغُورِ وَحَادِنَهَا ، وَبِنَاءِ حُصُونِهَا وَمَعَالِقِهَا ، وَاسْتِطْرَاقِ طَرِيقِهَا وَمَسَالِكِهَا ، وَافَاضَةِ الْأَقْوَاتِ وَالْعُلُوفَةِ فِيهَا لِلْمُتَرَتِّبِينَ بِهَا ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ إِلَيْهَا ، وَالْحَامِلِينَ لَهَا .

وَأَنْ يَبْدُلَ أَمَانَةَ مَنْ طَلَبَهُ ، وَيَعْرِضَهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ ، وَيَتَّقِيَ بِالْعَهْدِ إِذَا عَاهَدَ ، وَبِالْعَقْدِ إِذَا عَاقَدَ ، غَيْرَ مُخْفِرِ ذِمَّةٍ ، وَلَا جَارِحِ أَمَانَةٍ ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » (٥٤) وَنَهَى عَنِ النِّكَثِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا يَنْكَثُ عَلَى نَفْسِهِ » (٥٥) .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْرِضَ مَنْ فِي حُبُوسِ عَمَلِهِ عَلَى جَرَائِمِهِمْ ، فَمَنْ كَانَ إِقْرَارُهُ وَاجِبًا أَقْرَهُ ، وَمَنْ كَانَ إِطْلَاقُهُ سَائِفًا أَطْلَقَهُ ، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي الشَّرْطَةِ وَالْأَحْدَاثِ نَظَرَ عَدَلٍ وَانْصَافٍ ، وَيَخْتَارَ لَهَا مِنْ يَخَافُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ ، وَلَا يَحْيَايَ وَلَا يَرَاقِبَ فِيهِ ، وَيَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِقَمْعِ الْجَهْلِ ، وَرَدْعِ الضَّلَالِ ، وَتَتَبِعِ الْأَشْرَارَ ، وَطَلِبِ الزُّعَارَ (٥٦) ، مُسْتَدِلِّينَ عَلَى أَمَاكِنِهِمْ ، مُتَوَعِّلِينَ إِلَى مَكَامِنِهِمْ ، مُتَوَلِّجِينَ عَلَيْهِمْ فِي مِظَانِّهِمْ ، مُتَوَقِّفِينَ مِمَّنْ يَحْدُونَهُ مِنْهُمْ ، مُنْفِذِينَ أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، بِحَسَبِ الَّذِي يَتَبَيَّنُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَيَصُحُّ مِنْ فِعْلِهِمْ ، فِي كَبِيرَةِ ارْتِكَابِهَا ، وَعَظِيمَةِ احْتِقَابِهَا (٥٧) ، وَمُهِجَةِ إِنْ أَغَاظُوهَا وَاسْتَهْلَكُوهَا ، وَخَرْمَةِ إِنْ اسْتَبَاحُوهَا وَانْتَهَكُوهَا . فَمَنْ اسْتَحَقَّ حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ الْمَعْلُومَةِ أَقَامُوهُ عَلَيْهِ ، غَيْرَ مُخَفِّفِينَ مِنْهُ ، وَأَحْلُوهُ بِهِ غَيْرَ مُقْصِّرِينَ عَنْهُ ، بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونَ عَلَيْهِمْ فِي الَّذِي يَأْتِزُهُ حُجَّةٌ ، وَلَا يَعْرِضُهُمْ فِي وَجُوهِهِ شُبْهَةٌ ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ فِي الْحُدُودِ أَنْ تُقَامَ بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْ تُدْرَأَ بِالنُّشُبَاتِ ، فَأَوَّلَى مَا تَوَخَّاهُ رُعَاةُ الرُّعَايَا فِيهَا أَنْ لَا يُقْلِعُوا عَلَيْهَا مَعَ نَقْصَانٍ ، وَلَا يَتَوَقَّفُوا عَنْهَا مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ ، وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِتْلُ احْتَاطَ بِمَا يُحْتَاطُ بِهِ عَلَى مِثْلِهِ مِنَ الْحَبْسِ الْحَصِينِ ، وَالتَّوَقُّفِ الشَّدِيدِ ، وَكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِخَيْرِهِ ، وَشَرَحَ جَنَائِثَهُ

(٥٤) سورة المائدة : ١ الآية .

(٥٥) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٥٦) الزُّعَارُ : ذُو وَالْشَّرَامَةِ وَسُوهُ الْخَلْقِ .

(٥٧) احْتَبَايَا : ارْتَكَبَا .

وَتَوْبَتِهَا بِإِقْرَارِ يَكُونُ مِنْهُ ، أَوْ بِشَهَادَةِ تَقَعُ عَلَيْهِ ، وَلِيَنْتَظَرَ مِنْ جَوَابِهِ مَا يَكُونُ عَمَلُهُ بِحَسَبِهِ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُطْلَقُ سَفْكُ دَمٍ مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهَدٍ إِلَّا مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، وَأَتَقَنَّهُ فَهَمًّا ، وَكَانَ مَا يُنْصِيهِ فِيهِ عَنْ بَصِيرَةٍ لَا يَخَالِجُهَا شَكٌّ ، وَلَا يَشُوْهُا رَيْبٌ . وَمَنْ أَلَمَ بِبَصِيرَةٍ مِنَ الصَّغَائِرِ ، وَبَسِيرَةٍ مِنَ الْجَزَائِرِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَعْرِفْ لَهُ مَثَلُهَا ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ أُخْتُهَا ، وَعَظَمَهُ ، وَزَجَرَهُ ، وَنَهَاهُ ، وَحَذَرَهُ ، وَاسْتَبَاهُ ، وَأَقَالَهُ ، مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ خَصْمٌ فِي ذَلِكَ بِطَالِبِ بَقِصَاصٍ مِنْهُ ، وَجَزَاءٍ لَهُ ، فَإِنَّ عَادَ تَنَاوَلَهُ مِنَ التَّقْوِيمِ وَالْتِهَادِيبِ ، وَالتَّزْيِيرِ وَالتَّأْيِيبِ ، بِمَا يَرَى أَنْ قَدْ كَفَى فِيهَا اجْتِرَمَ ، وَوَفَّى بِمَا قَدَّمَ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَمَنْ يَتِمَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٥٨) .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْطَلَ مَا فِي أَعْمَالِهِ مِنَ الْخَانَاتِ وَالْمَوَاقِيرِ ، وَأَنْ يَطْهَرَهَا مِنَ الْقَبَائِحِ وَالْمُنَاقِبِ ، وَيَتَّعَ مِنْ يَجْمَعُ أَهْلَ الْخَنَا فِيهَا ، وَيُؤَلَّفَ شَمْلَهُمْ بِهَا ، فَإِنَّهُ شَمْلٌ يَصْلَحُهُ التَّشْيِيتُ ، وَجَمْعٌ يَحْفَظُهُ التَّفْرِيقُ ، وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْمَوَاطِنُ الدَّمِيمَةُ وَالْمَطَارِحُ الدَّنِيَّةُ دَاعِيَةً مِنْ يَأْوِي إِلَيْهَا ، وَيَعَكِفُ عَلَيْهَا إِلَى تَرْكِ الصَّلَوَاتِ ، وَإِهْمَالِ الْمُفْتَرَضَاتِ ، وَرُكُوبِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَاقْتِرَافِ الْمُحْظُورَاتِ ، وَهِيَ بَيُوتُ الشَّيْطَانِ الَّتِي فِي عِمَارَتِهَا اللَّهُ مَعْصِيَةٌ ، وَفِي إِخْرَاقِهَا لِلْخَيْرِ مَجْلَبَةٌ ، وَاللَّهُ يَقُولُ لَنَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ : « كُتِبَتْ خَيْرٌ أُمَّةٌ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (٥٩) وَيَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلِ لَغِينِنَا مِنَ الْمَذْمُومِينَ : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا » (٦٠)

وَأَمْرُهُ أَنْ يُؤَلَّى الْحِمَايَةَ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ أَهْلَ الْكِفَايَةِ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِمْ كُلُّ مَنْ خَفَّ رِكَابُهُ ، وَأَسْرَعَ عِنْدَ الصَّرِيخِ ، مَرْتَبًا لَهُمْ فِي الْمَسَالِكِ (٦١) ، وَسَادًّا بِهِمْ ثَغْرَ الْمَسَالِكِ ، وَأَنْ يُوصِيَهُمُ بِالتَّيَقُّظِ ، وَيَأْخُذَهُمُ بِالتَّحْفِظِ ، وَيُرِيحَ عَلَيْهِمْ فِي عُلُوفَةِ

(٥٨) سورة البقرة : الآية ٢٢٩ .

(٥٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٦٠) سورة مريم : الآية ٥٩ .

(٦١) المسالك : الثغور واحدها مسلحة ، والمرب يكون فيه أرساد يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة .

خيلهم ، والمقرر من أزواجهم وميرهم ، حتى لا تنقل لهم عن البلاد وطاعة ، ولا يدعوههم إلى تحنقهم وثلهم حاجة ، وأن يحوطوا السابلة بادنّة وعائدة ، ويبدّرقوا^(٦١) القوافل صادرة واردة ، ويحرسوا الطريق ليلا ونهاراً ، ويتقصّوها رواحاً وغدواً ، وينصبوا لأهل العبيث الأرزاد ، ويتكمنوا لهم بكلّ واد ، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم . ومؤدياً إلى انفضاضهم ، ويجمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم ، وصادعاً لرؤيتهم ؛ ولا يحلوا هذه السبل من حجارة لها ، وسيارة فيها ، يردّدون في جوادها ، ويتعسفون في عوادياها ، حتى تكون الدماء محقونة ، والأموال مصونة ، والفنن محسومة ، والغارات مأمونة . ومن حصّل في أيديهم من لصوص خاتلي ، وصعلوك خارب ، ومخيف لسيل ، ومتهك لحريم ، امتثل في أمره أمر أمير المؤمنين الموافق لقلوبهم الله عز وجل : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »^(٦٢)

وأمره بوضع الرصد على من يجتاز في أعماله من أباقي العبيد ، والاحتياط عليهم ، وعلى ما يكون معهم ، والبحث عن الأماكن التي فارّقوها ، والطرق التي استطرقوها ، ومواليهم الذين أبقوا^(٦٣) منهم ، ونشروا عنهم ، وأن يردّوهم عليهم قهراً ، ويعيدوهم إليهم صفراً ، وأن ينشدوا الضالة ما أمكن أن تنشد ، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ ، ويتجنبوا الامتناء لظهورها ، والانتفاع بأوبارها ، وألبان ما يجر ويحلب ، وأن يعرفوا اللقطة ، ويتبعوا أثرها ، ويشيعوا خبرها ، فإذا حضر صاحبها ، وعلم أنه مستوجبها سلمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه ، والله عز وجل يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا »^(٦٤) ويقول رسوله ﷺ : « ضالة المؤمن حرق النار »^(٦٥) .

(٦٢) يبلرقوا : البلرقة الخفارة ، فارسية معربة معناه والبلرقة الخفير .

(٦٣) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

(٦٤) في الأصل « أنفوا » والصواب عن المختار ١٠٨ .

(٦٥) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٦٦) قاله النبي ﷺ لمن سأله عن ضوال الإبل ، فنهاه عن أخذها ؛ وحذره النار إن تعرض لها .

وأمره أن يُوصىَ عماله بالشدِّ على يد الحكَّام ، وتنفيذ ما يصدُرُ عنهم من الأحكام ، وأنَّ يحضروا مجالسهم حضورَ المؤرِّقين لها ، الذَّائِبِينَ عنها ، المقيمين لرُسومِ الهيَّةِ ، وحدود الطَّاعة فيها ، ومن خرجَ عن ذلك من ذى عقلٍ ضَعِيفٍ ، وحُلمٍ سَخِيفٍ ، نالوه بما يَرَدُّعُه ، وأحلُّوا به ما يَزَعُّه ^(٦٧) ، ومتى تقاعَسَ متقاعِسٌ عن حضورٍ مع خَصَمٍ يَسْتَدْعِيه ، وأمرَ بوجَّه الحاكِمُ إليه فيه ^(٦٨) ، أو التَّوى ملْتَوٍ بحقٍّ يحصلُ عليه ، ودَيْنٍ يستقرُّ في دِمَتِه ، قَادُوهُ إلى ذلك بأزْمَةِ الصَّغار ، وخِزَانِم ^(٦٩) الاضطرار ، وأنَّ يُحْبَسُوا ويُطْلَقُوا بأقوالِهِمْ ، وَيُثْبِتُوا الأَيْدَى في الأملاكِ والفُرُوجِ ، ويتزَعُّوا بقضايَاهُمْ ، فإنَّهُمْ أَمْنَاءُ الله في فصلٍ ما يَقْضُونَ ، وبِتِّ مَا يَتَوَنُّونَ ^(٧٠) ، وعن كتابِه وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ يوردون ويُصدِرُون . وقد قال الله عزَّ وجلَّ : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَفْضِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ » ^(٧١) .

وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمَّالَ الخَراجِ في استيفاءِ حُقُوقٍ ما اسْتَعْمَلُوا عليه ، واستِنْتَظَافِ بقايَاهُمْ فيه ، والرِّيَاضَةِ لِمَنْ تَسُوءُ طَاعَتُهُ من معاملِهِمْ ، وإحْضَارِهِمْ طَائِعِينَ أَوْ كَارِهِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فوَيْنَ آدَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ الَّذِي يَحَقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهَا ، ويجعلها لِلرَّضَا عنه سبباً قولُه تَعَالَى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ^(٧٢) .

وأمره أن يجلسَ للرعيَّةِ جلوساً عامّاً ، وينظرَ في مظالِمِهَا نظراً تامّاً ، يساوى في الحقِّ بَيْنَ خَاصَّهَا وَعَامَّهَا ، ويوازى في المجالسِ بَيْنَ عَزِيزِهَا وَذَلِيلِهَا ، ويُنْصَفَ المَظْلُومَ من

(٦٧) في الأصل « ما يَزَعُّه » .

(٦٨) في الأصل « بأمر يوجبه الحكم إليه » .

(٦٩) في الأصل « وخِزَانِم » بالخاء المهملة وهو تصحيف ، والخِزَانِم جمع خِزَامَة ، وأصل الخِزَامَة حلقة من شعر نجمل في ورة أنف البعير يشد بها الخِزَام .

(٧٠) في المختار « ما يَفْضِلُونَ » .

(٧١) سورة (ص) : الآية ٢٦ .

(٧٢) سورة المائدة : الآية ٢ .

ظالمه ، والمغصوب من غاصبه ، بعد الفحص والتأمل ، والبحث والتبين ، حتى لا يحكم إلا بعذر ، ولا ينطق إلا بفصل ، ولا يثبت بدءاً إلا فيما وجب تثبिता فيه ، ولا يقبضها إلا عمداً وجب قبضها عنه ، وأن يسهل الإذن لجامعتهم ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حصانة الكنف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصون والرعاية ، ما تتعادل به أقسامهم ، وتتوازى منه أقساطهم ، ولا يصل الركبن منهم إلى استيضامه ما تأخر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هضيمه من حلّ دونه ، وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ، ويحضهم على أحمد المذاهب والطرائق ، ويخيل عنهم كله ، ويمد عليهم ظله ، ولا يسومهم عسفاً ، ولا يلحق بهم خيماً ، ولا يكلفهم شططاً ، ولا يجشهم مضليلاً ، ولا يثلم لهم معيشة ، ولا يداخلهم في جريمة (٧٣) ، ولا يأخذ بريئاً بسقيم ، ولا حاضراً بعيديهم (٧٤) ، فإن الله عز وجل ينهى أن ترز وأزره وزر أخرى ، ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سناً عليها من سنة ظلمة ، وسلك بها من محجة جائرة ، ويستفري آثار الولاة قبله عليها ، فيما رجوه من خير أو شر إليها ، فيقر من ذلك ما طاب وحسن ، ويزيل ما خبث وقبح ، فإن من غرس الخير يحظى بمعسول ثمره ، ومن زرع الشر يصلى بممرور ريعه ، والله تعالى يقول : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » (٧٥) .

وأمره بأن يصون مال الخراج ، وأمان الغلات ، ووجه الجبايات موقراً ، ويزيد ذلك مثمراً مما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها ، فإنه مال الله الذي به قوة عبادته ، وحماية بلاده ، ودور حليّه ، واتصال مكدّه وبه يحاط الحریم ، ويذوق العظیم ، ويخمي الذمار ، ويذاذ الأشرار . وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصفائه ، وعند حضور مواقفه وأحيانه ، غير متسلف شيئاً قبلها ، ولا مؤخر لها عنها . وأن ينص أهل الطاعة والسلامة بالترفيه لهم ، وأهل

(٧٣) رواية المختار « ولا يداخلهم في حرفة » .

(٧٤) رواية المختار « ولا حاضراً بقاتب » .

(٧٥) سورة الأعراف : الآية ٥٨ .

الاستضعاب والامتناع بالتشديد عليهم ، لئلا يقع إرهابٌ لِمُدْعِينِ ، أو إهمالٌ لطامع .
وعلى المتوكِّل لذلك أن يضع كُلاً من الأمرين موضعه ، ويوقفه موقعه ، متجنباً إخلال
الغلظة فيمن لا يستحقها ، وإعطاء الفسحة من ليس أهلها ، والله تعالى يقول :
« وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا هَا سَعَى • وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى • ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الْأَوْفَى » (٧٦) .

وأمره أن يتخير عُماله على الخراج والأعشار والضيايع والجهنزة والصدقات
وأنجولى من أهل الظلف (٧٧) والترامة ، والفضبط والضيانة ، والجزلة والشهامة ، وأن
يَسْتَظْهَر مع ذلك عليهم بوصية نبياً أسأهمهم ، وعهود يقدِّمها أعناقهم ، بأن لا
يضيئوا حقاً ، ولا يأكلوا سحتاً ، ولا يستعملوا ظُلماً ، ولا يُقَارِفُوا غَشَماً (٧٨) ، وأن
يقيموا المارات ، ويحاطوا [على الغلات] (٧٩) ويترحزوا من إتواء (٨٠) حق لازم ،
أو تعطيل رشم عادلٍ ، مؤدِّين في جميع ذلك الأمانة ، مجتنبين للخيانة ، وأن
يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه ، واستجادة نقده على عياره ،
واستعمال الصحة في قبض ما يقبضون ، وإطلاق ما يُطلقون ، وأن يُوعِزُوا إلى سَعَاةِ
الصدقات في أخذ الفرائض من سائمة مواشى المسلمين ، دون عاملتها ، وكذلك
الواجب فيها ، وأن لا يجمعوا فيها متفرقاً ، ولا يفرقوا مجتمعاً ، ولا يُدْخِلُوا فيها خارجاً
عنها ، ولا يُضيئوا إليها ما ليس منها من فحل إبل ، وأكولة راعٍ ، أو عقيلة مال ،
فإذا اجتنبوها على حقها ، واستوفوها على رسمها ، أخرجوها في سبيلها ، وقسموها
على أهلها الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه العزيز إلا المؤلفة قلوبهم الذين ذكرهم
الله عز وجل في كتابه الكريم ، وسقط سهمهم (٨١) ، فإن الله تعالى يقول : « إِنَّا

(٧٦) سورة النجم : الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . (٧٧) الظلف : منع النفس وكلها عما لا يحسن .

(٧٨) النشم : الظلم . (٧٩) زيادة عن المختار . (٨٠) الإِتواء : الإهلاك .

(٨١) للمؤلفة قلوبهم قوم من سادات العرب أمر الله نبيه في أول الإسلام بتألفهم أى بمقاربتهم وإعطائهم
ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، فلا تحملهم الحمية مع ضعف نيابتهم أن يكونوا ألبا مع الكفار على المسلمين ،
فلما دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وظهر أهل دين الله على جميع أهل الملل سقط سهمهم ، كما في نص هذا
المهد .

الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (٨٢)

وإلى جِبَاةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ فِي الْمُحَرَّمِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي الْأَحْوَالِ ، وَذَاتِ أَيْدِيهِمْ فِي الْأَمْوَالِ ، وَعَلَى الطَّبَقَاتِ الْمَطْبُوقَةِ فِيهَا ، وَالْحُدُودِ الْمَعْهُودَةِ لَهَا ، وَأَنْ لَا يَأْخُذُوهَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَا مَجْنُونٌ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَا مِنْ ذِي سِنَّ عَالِيَةٍ ، وَلَا ذِي عِلَّةٍ بَادِيَةٍ ، وَلَا فَقِيرٌ مُعْدِمٌ ، وَلَا مَرْتَهَبٌ مُتَبَلٌّ .

وَأَنْ يُرَاعَى جَمَاعَةُ هَؤُلَاءِ الْعُمَّالِ مِرَاعَاةً يُسَرِّهَا وَيُظْهِرُهَا ، وَيَلَاظُهُمْ مِلَاحَظَةً يُخَفِّضُهَا وَيُزِيلُهَا عَنِ الْحَقِّ الْوَاجِبِ ، أَوْ يَعْدِلُوا عَنِ السَّنَنِ اللَّاحِبِ (٨٣) ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » (٨٤) .

وَأَمْرُهُ بِأَنْ يَنْدَبَ لِعَرْضِ الرِّجَالِ وَإِعْطَائِهِمْ ، وَحَفَظِ جَرَائِنِهِمْ وَأَوْقَاتِ إِطْعَامِهِمْ مَنْ يَعْرِفُهُ بِالثَّقَةِ فِي مَتَصَرِّفِهِ ، وَالْأَمَانَةِ فِيهَا يَجْرَى عَلَى يَدِهِ ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْإِسْفَافِ إِلَى الدُّنْيَةِ ، وَالِاتِّبَاعِ لِلدِّعَاءِ ، وَأَنْ يَتَّبَعَتْهُ عَلَى ضَبْطِ الرِّجَالِ ، وَشِيَاثِ الْخَيْلِ ، وَتَحْدِيدِ الْعَرْضِ بَعْدَ الْاِسْتِحْقَاقِ ، وَإِبْقَاعِ الْاِحْتِيَاطِ فِي الْإِنْفَاقِ ، فَمَنْ صَحَّ عَرْضُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ شَكٍّ يَعْزِضُ لَهُ ، أَوْ رِيْبَةٍ يَتَوَهَّمُهَا ، أَطْلَقَ أَمْوَالَهُمْ مَوْفُورَةً ، وَحَصَّلَهَا فِي أَيْدِيهِمْ غَيْرَ مَقْلُومَةٍ ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ أَرْزَاقَ مَنْ سَقَطَ بِالْوُفَاةِ وَالْإِخْلَالِ ، نَاسِبًا ذَلِكَ إِلَى جِهَتِهِ ، مُورِدًا لَهُ حَقِيقَتَهُ ، وَأَنْ يَطَالِبَ الرِّجَالُ بِإِحْضَارِ الْخَيْلِ الْمُخْتَارَةِ ، وَالْآلَاتِ الْمُسْتَكْمَلَةِ ، عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِمَبَالِغِ أَرْزَاقِهِمْ وَنَحْسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ ، فَإِنْ أَخَّرَ أَحَدُهُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، قَاصَّهَ بِهِ مِنْ رِزْقِهِ ، وَأَزَمَهُ بِمِثْلِ قِيَمَتِهِ ، فَإِنْ الْقَصْرَ فِيهِ خَافَتْ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالَفَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : « وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَلَّوُا اللَّهُ وَعَدُّوكُمْ » (٨٥) .

(٨٤) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

(٨٢) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(٨٣) السنن لللاحب ، الطريق الواضح . (٨٥) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

وأمره أَنْ يعتمدَ في أسواقِ الرقيقِ ودُورِ الضربِ والطرزِ والحِسبةِ على من يجتمعُ فيه آلاتُ هذه الولاياتِ من ثقةٍ ودرايةٍ ، وعلمٍ وكتابه ، ومعرفةٍ وروايةٍ ، وتجربةٍ وحُكْمَةٍ وحِصانةٍ ومُسَكَّةٍ ، فإنَّها أحوالٌ تضارعُ الحكمَ وتناسبُه ، وتدانيه وتقارِبُه . وأنَّ يتقدَّم إلى ولَاةِ أسواقِ الرقيقِ بالتحفُّظِ فيمن يطلِّقونَ بيعه ، ويمضونَ أمره ، والتحرُّزِ من وقوعِ تخوُّنٍ فيه ، أو إهمالٍ له ، إذ كان ذلك عاقداً بتحسينِ الفُرُوجِ ، وتطهيرِ الأنسابِ ، وأنَّ يُبعدوا عنه أهلُ الرِّيبةِ ، ويقربوا أهلَ العفَّةِ ، ولا يُنصَّبوا بيعاً على شُبْهةٍ ، ولا عَقْداً على تَهْمَةٍ .

وإلى ولَاةِ العيارِ بتخليصِ عَيْنِ الدرهمِ والدينارِ ، ليكونا مضروبتين على البراءةِ من الغشِّ ، والزَّهارةِ من المَشِّ ^(٨٦) وبحسبِ الإمامِ المقدَّرِ بمدينة السلامِ ، وحِرَاسَةِ السككِ من أن تتداولها الأيدي للدغلة ^(٨٧) ، وتتناقلها الجهاتُ الظنينةُ ^(٨٨) ، وإثباتِ اسمِ أميرِ المؤمنين على ما يُضْرَبُ ذهباً ، واجراء ذلك على الرِّسمِ والسَّنةِ وإلى ولَاةِ الطرزِ ^(٨٩) أن يُجرَّوا الاستعمالَ في جميعِ المناسجِ على أنتمُ النِّيقةِ ^(٩٠) وأسلمِ الطريقةِ ، وأحكمِ الصَّنعةِ ، وأثبتِ الصَّحَّةَ ^(٩١) ، وأنَّ يَكْتُبُوا اسمَ أميرِ المؤمنينَ على طرزِ الكُسا والقرش والأعلامِ والبنودِ .

وإلى ولَاةِ الحِسبةِ بتصفُّحِ أحوالِ العوامِ في حِرْفَتِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ ، ومجتمعِ أسواقِهِمْ ومعاملاتهم ، وأنَّ يعايرُوا المَوازِينَ والمكاييلَ وَيَقْرَؤُها على التعديلِ والتَّكْيِيلِ ، ومن أطلعوا منه على حليةٍ أو تلبَّيسٍ ، أو غيلةٍ أو تَدْلِيسٍ ، أو يَخْسُ ما يوفيه ، واسْتَفْصَالِ فيما يَسْتَوْفِيهِ ، نالوه بغليظِ العقوبةِ وعظمتها ، وَخَصَّوْهُ بِوَجْيعِها وأَلْيَها ، وأَقْفَيْنِ في ذلك عند الحدِّ الذي يَرَوْنَهُ لذنبه ، مُجَازِياً ، وَفَى تَأْديبه كافياً ، فقد قال الله تعالى :

(٨٦) المش : هو أخذ المال شيئاً بعد شيء .

(٨٧) للدغلة : من الدغل وهو الفساد ، وفي الأصل « المزغة » بالزاي .

(٨٨) الظنينة المتهمة ، وفي الأصل « المينة » .

(٨٩) الطرز : الموضع الذي تنسج فيه الثياب الجيدة ، والنط ، وثوب ينسج للسلطان .

(٩٠) النيقة : التجويد والمبالغة .

(٩١) في الأصل « وأفضل » والصواب عن المختار ١١٣ .

« وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ » الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ • وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (٩٢) .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وَحَجَّتُهُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ ، وَأَرَشَدَكَ إِلَى وَاضِحِ الدَّلِيلِ ، وَأَوْسَعَكَ تَعْلِيمًا وَتَفْهِيمًا ، وَلَمْ يَأْتِكَ جَهْدًا فِيهَا عَصَمَكَ ، وَعَصَمَ عَلَى يَدِكَ ، وَلَمْ يَدْخِرْكَ مُمَكِّنًا فِيهَا أَصْلَحَ بِكَ وَأَصْلَحَكَ وَلَا تَرَكَ عُذْرًا فِي غَلَطٍ تَغْلُطُهُ ، وَلَا طَرِيقًا إِلَى تَوَرُّطِهِ تَتَوَرَّطُهُ ، بِالْقَائِكَ فِي الْأَوَامِرِ وَالزُّوَاجِرِ إِلَى حَيْثُ يَلْزِمُ الْأَمَّةُ أَنْ يَنْدَبُوا النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيَعْتَوُّهُمْ عَلَيْهِ ، مَقْبًا لَكَ عَلَى مُنْجِبَاتِ الْمَسَالِكِ ، صَارِقًا لَكَ عَنْ مُرْدِيَاتِ الْمَهَالِكِ ، مَرِيدًا فِيكَ مَا يَسْلَمُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ وَيَعُودُ بِالْخَطِّ عَلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ وَأَوَّلِكَ ، فَإِنْ اعْتَدَلْتَ وَعَدَلْتَ فَقَدْ قُزْتَ وَغِنِمْتَ وَإِنْ تَحَانَفْتَ وَأَعْوَجَجْتَ فَقَدْ فَسَدْتَ وَنَدِمْتَ ، وَالْأَوَّلَى بِكَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَغْرَسِكَ الزَّوَاكِي ، وَمَنْبَتِكَ النَّامَى ، وَعُودِكَ الْأَنْجَبِ ، وَعُصْرُوكِ الْأَطْيَبِ ، أَنْ نَكُونَ لَظَنَّهُ حَقًّا . وَلِمَخِيلَتِهِ فِيكَ مُصَدِّقًا ، وَأَنْ تَسْتَرِيدَهُ بِالْأَثَرِ الْجَمِيلِ قَرِيبًا وَثَوَابًا يَوْمَ الدِّينِ وَزُلْفَى عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَثَنَاءً حَسَنًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

فَخُذْ مَا نَبَذَ إِلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ ، وَأَمْسِكْ بِيَدِكَ عَلَى مَا أُعْطِيَ مِنْ مَوَائِقِهِ ، وَاجْعَلْ عَهْدَهُ مَثَلًا تَحْتَذِيهِ ، وَإِمَامًا تَقْتَضِيهِ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ يُعْنِكَ ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ ، وَأَخْلَصْ إِلَيْهِ فِي طَاعَتِهِ يُخْلِصْ لَكَ الْخَطَّ فِي مَعُونَتِكَ وَمَعَهَا أَشْكُلَ عَلَيْكَ مِنْ خَطْبٍ ، أَوْ أَعْصَلَ عَلَيْكَ مِنْ صَعْبٍ ، أَوْ بَهْرَكَ مِنْ بَاهِرٍ ، أَوْ يَهْطَلَكَ مِنْ بَاهِظٍ ، فَاتَّكِبْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [بِهِ] مُنْهِيًا ، وَكُنْ إِلَى مَا يَرُدُّ مِنْ جَوَابِهِ مُتَطَلِّعًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

[التَّقْلِيدُ بِأَسْلُوبِ ابْنِ الْأَثِيرِ]

وَأَمَّا التَّقْلِيدُ الَّذِي أَنْشَأْتَهُ أَنَا فَهُوَ هَذَا :
« أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَبْدَأُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي يَكُونُ لِكُلِّ خُطْبَةٍ قِيَادًا ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَهَادًا ، وَيَسْتَرِيدُهُ مِنْ نَجْوَاهِ الَّتِي جَعَلَتْ التَّقْوَى لَهُ زَادًا ، وَحَمَلَتْهُ عِبَاءَ الْخَلَاةِ

قلم يَضَعُ عَنْهُ طَوْقًا ، ولم يَأَلُ فِيهِ اجْتِهَادًا ، وصَغُرَتْ لَدَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا فَمَا تَسَوَّرَتْ لَهُ
مِخْرَابًا ، وَلَا عَرَّضَتْ عَلَيْهِ جِيَادًا ، وَحَقَّقَتْ فِيهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا » (٩٣) . ثُمَّ يَصَلَّى عَلَى مَنْ أُنْزِلَتْ
الْمَلَائِكَةُ لِنَصْرِهِ إِمْذَادًا وَأَسْرَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى ارْتَقَى سَبْعًا شِدَادًا ، وَنَجَّى لَهْ رَبِّهِ فَلَمْ
يُزِغْ مِنْهُ بَصِيرًا وَلَا أَكْذَبَ فَوَادًا ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى أَسْرَتِهِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي زَكَّتْ أَوْرَاقًا
وَأَعْوَادًا ، وَوَرَّتْ النُّورَ الْمَيِّنَ تِلَادًا ، وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ هِدَايَةَ وَإِرْشَادًا ،
وَعَصَوصًا عَمَهُ الْعَبَاسِ الْمُدْعُو لَهُ بِأَنْ يَحْفَظَ نَفْسًا وَأَوْلَادًا ، وَأَنْ تَبْقَى كَلِمَةُ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ
خَالِدَةً لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى نَفَادًا . وَإِذَا اسْتَوْفَى الْقَلَمُ مَدَادَهُ مِنْ هَذِهِ الْحَمْدِ كَلِمَةً ،
وَأُسْنَدَ الْقَوْلِ فِيهَا عَنْ فَصَاحَتِهِ الْمُرْسَلَةِ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ فِي إِنْشَاءِ هَذَا التَّقْلِيدِ الَّذِي جَعَلَهُ
حَلِيقًا لِقَرطاسِهِ ، وَاسْتَدَامَ سَجُودَهُ عَلَى صَفْحَتِهِ حَتَّى لَمْ يَكِدْ يَرْفَعُ مِنْ رَأْسِهِ ، وَلَيْسَ
ذَلِكَ إِلَّا لِإِقَاضَتِهِ فِي وَصْفِ الْمُنَاقِبِ الَّتِي كَثُرَتْ ، فَحَسُنَ لَهَا مَقَامُ الْإِكْتَارِ ، وَاشْتَبَهَ
التَّطَوُّيلُ فِيهَا بِالْإِخْتِصَارِ وَهِيَ الَّتِي لَا يَقْتَفِرُ وَاصِفُهَا إِلَى الْقَوْلِ الْمُعَادِ . وَلَا يَسْتَوْعِرُ سُلُوكُ
أَطْوَادِهَا وَمِنْ الْعَجَبِ وَجُودَ السَّهْلِ فِي سُلُوكِ الْأَطْوَادِ . وَتِلْكَ مُنَاقِبُكُ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِرُ
الْأَجَلُ السَّيِّدُ الْكَبِيرُ الْعَالِمُ الْعَادِلُ الْمُجَاهِدُ الْمُرَابِطُ صَلَاحُ الدِّينِ أَبُو الْمُظَفَّرِ يَوْسُفُ بْنُ
أَيُّوبَ وَالدِّيَّانُ الْعَزِيزُ يَتْلُوهَا عَلَيْكَ مُحَدِّثًا بِشُكْرِكَ ، وَيُبَاهِي بِكَ أَوْلِيَائِهِ تَنْزِيهًا بِذِكْرِكَ ،
وَيَقُولُ أَنْتَ الَّذِي نَسْتَكِي فَتَكُونُ لِلدَّوْلَةِ سَهْمًا الصَّائِبَ ، وَشَهَابًا الثَّاقِبَ ، وَكَتَرَهَا
الَّذِي تَذْهَبُ الْكَتُونُ وَلَيْسَ بِدَاهِبَ ، وَمَاضِرَهَا وَقَدْ حَضَرَتْ فِي نُصْرَتِهَا إِذَا كَانَ غَيْرُكَ
هُوَ الْغَائِبَ ، فَاشْكُرْ إِذَا مَسَاعِيكَ الَّتِي أَهْلَتَكَ لَمَّا أَهْلَتَكَ ، وَفَضَّلَتْكَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ بِمَا
فَضَّلَتْكَ وَلَئِنْ شُورَكَتْ فِي الْوَلَاةِ بِعَقِيدَةِ الْإِضْهَارِ ، فَلَمْ تُشَارَكَ فِي عَزَمِكَ الَّذِي انْتَصَرَ
لِلدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُ بَسْطَةُ الْإِنتِصَارِ ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ أَمَدَ بَقْلُهُ وَبَيْنَ مَنْ أَمَدَ يَدُهُ فِي
دَرَجَاتِ الْإِمْدَادِ ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْقَاعِلِينَ كَالَّذِينَ قَالُوا : لَوْ أَمَرْنَا بِنَا لَنَصَرْنَا أَكْبَادَهَا إِلَى
بِرْلِكَ الْعَمَادِ (٩٤) .

(٩٣) سورة القصص: الآية ٨٣. قال صاحب القاموس: ويرك الفهاد بالكسر ويفتح موضع
بالين، أو وراه مكة بنفسه ليلا، أو أنصى معصور الأرض.

وقد كفّك من المسامحة أنك كفيت الخلافة أمر متنازعيها ، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها ، ولقد مضى عليها زمنٌ ومحرابٌ حقها مغفوفٌ من الباطل بمحارين ، ورأت ما رآه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولها كذايين ، فبمصر منها واحدٌ تاهَ بمجرى أنهارها من تحته ، ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجيته ، ولعبَ بالدين حتى لم يذر يومَ جمعة من يومٍ أحذه ولا يومَ سبته ، وأعانهُ على ذلك قومٌ رمى الله بصائرهم بالعمى والصمم ، واتخذوه صنماً بينهم ، ولم تكن الضلالة هناك إلا يعجلُ أو صَنَم ، فقامت أنت في وجه باطله ، حتى قعد وجعلت في جيده حبلاً من مسد ، وقلت ليده تبت ، فأصبح وهو لا يسعى بقدم ولا يبطش بيد ، وكذلك فعلت بالآخر الذي نَجَمَت باليمنِ ناجمته ، وسامت فيه سائمته ، فوضع نيتة موضع الكعبة البجائية ، وقال هذا ذو الخلاصة الثانية (٩٥) ، فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ، أم أيها يقوم بأداء حقه ؟

وما هنا فليصبح القلم للسيف من الحساد ، وليقتصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد ولم يحفظ بهذه الزية إلا لأنه أصبح لك صاحباً ، وفخر بك حتى طال فخرًا عما عز جانباً ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً ، لما كان حده قاضياً . وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمينية غوراً ونجداً ، وما اشتملت عليه رعيةً وجنداً ، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً ، وما يستنقذ من مجاورها مسألة وقهراً ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وما تحوى عليه من المدن المدننة ، والمراكز المحصنة مستثنياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ، وهو « حلب » وأعمالها ، فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين ، وتغلفه في عقبه في الغابرين ، وولده هذا قد هدبته الفطرة في القول والعمل ، وليست هذه الرتبة إلا من ذلك الجبل . فليكن له منك جارٍ يدنونه وداداً كما دنا أرضاً ، ويصبح وهو له كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوز بك درجة الاقتصاد ، ولفتك عن

(٩٥) ذو الخلاصة حركة بفتحين وبضمين بيت كان يدعى الكعبة البجائية لخم كان فيه صنم اسمه الخلاصة.

فضيلة الازدياد ، فَإِنَّكَ أَنْ تَنْظُرَ سَعْيَكَ بِالْإِعْجَابِ ، وَتَقُولَ هَذِهِ بِلَادُ أَنَا فَتَحْتَهَا بَعْدَ أَنْ أَضْرَبَ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَضْرَابِ ، وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، ثُمَّ خَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَا مَنَّةَ لِلْعَبِيدِ بِإِسْلَامِهِ ، بَلِ الْمَنَّةُ لِلَّهِ بِهِدَايَةِ عِبْدِهِ ، وَكَمْ سَلَفٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ لُؤْرَامٍ مَا رُمَتْهُ لَدُنَا شَأْسِعُهُ ، وَأَجَابَ مَا نَعُهُ ، لَكِنْ ذَخَرَهُ اللَّهُ لَكَ لَتَحْطَى فِي الْآخِرَةِ ، بِمَفَاذِهِ وَفِي الدُّنْيَا بِرَقْمِ طِرَازِهِ ، فَالْتَمِسْ بِيَدِكَ عِنْدَ هَذَا الْقَوْلِ إِلقاءَ التَّسْلِيمِ ، وَقُلْ : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

وَقَدْ قَرَنَ تَقْلِيدَكَ هَذَا بِخِلْعَةٍ تَكُونُ لَكَ فِي الْأَسْمَاءِ شِعَارًا ، وَفِي الْوَسْمِ فَخَارًا ، وَتَتَأَمَّبُ مَحَلَّ قَلْبِكَ وَبَصِيرِكَ ، وَخَيْرُ مَلَابِسِ الْأَوْلِيَاءِ مَا نَاسَبَ قُلُوبًا وَأَبْصَارًا ، وَمَنْ جَمَلَتْهَا طَوَقٌ يَوْضَعُ فِي عُنُقِكَ مَوْضِعَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَيُشِيرُ إِلَيْكَ بِأَنَّ الْإِنْعَامَ قَدْ أَطَافَ بِكَ إِطَافَةَ الْأَطْوَاقِ بِالْأَعْنَاقِ ثُمَّ إِنَّكَ خَوَّطْتِ بِالْمُلْكِ ، وَذَلِكَ خَطَابٌ يَقْضِي لَصَدْرِكَ بِالْإِنْسِرَاحِ ، وَلَأَمْلِكَ بِالْإِنْفِسَاحِ ، وَتُؤَمِّرُ مَعَهُ بِمَدِيدِكَ إِلَى الْعَالِيَا لَا بَضْمَهَا إِلَى الْجَنَاحِ .

وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة ، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان ، فيقال إنها الحُسنى وزيادة ، فإذا صارت إليك فأنصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب ، واجعله لها عيداً ، وقل هذا عيدُ الخِلةِ والتقليد والخطاب .

هذا ولكَ عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضراً وأنت ناء عن الحضور ، وَتَقْضِي أَنْ تَكُونَ مَشْرُكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، وَالضَّمْنَةُ مِنْ شَيْمِ الْغَيُورِ . وهذه المكانة قد عرفتكَ نفسها وما كنت تعرفها ، وما نقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتمها .

واعلم أنك قد تقلدت أمراً تعين به نفى الخلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدِهِ المُلوم ، وكثيراً ما يرى حسنة يوم القيامة وهي مقسمة بأيدي الخصوم ، ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أُمِّيَةَ الْحِذَارِ ، وَأَشْفَقَ مِنْ شَهَادَةِ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْوَلَايَةَ مِيزَانٌ إِحْدَى كِفَّتَيْهِ فِي الْجَنَّةِ وَالْأُخْرَى فِي النَّارِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« يا أبادر ، إني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولين مالَ بيتي »
فانظر إلى هذا القول النبويَّ نظراً من لم يُخدعْ بحديث الحرس والآمال ، ومثل الدنيا
وقد سِقتْ إليك بِحَذافيرها ، أليس مصيرُها إلى الزوال ؟ والسعيدُ إذا جاءته قضى بها
أربُّ الأرواح لا أربَّ الجُسوم ، وأتخذ منها - وهى السَّم - دواء . وقد تتخذ الأدويةُ
من السُّموم . وما الاغتباط بما يَخْتَلِفُ على تلاشيهِ المساء والصُّباح . وهوكاء أنزلناه من
السَّماء . فاختلطَ به نباتُ الأرض ، فأصبحَ هشيماً تذروه الرياح .
واللهُ يعصمُ أميرَ المؤمنين وولاءَ أمره من تباعتها التى لا يَسْتَهُم ولا يَسُوها ، وأحصاهَا
اللهُ عليهم ونسوها ، ولك أنتَ من هذا الدُّعاء حظٌّ على قدر محلِّك من العناية التى
جذبت بصنيعك ^(٩٦) ، ومحلَّك من الولاية التى بسطت من دُرْعك . فخذُ هذا الأمر
الذى تقلدته أخذَ من لم يتعقبه بالنسيان ، وكُنْ فى رعايته ممن إذا نامت عيناه كان
قلبه يَقْظان .

وملاكُ ذلك كلُّه فى إسباغ العدل الذى جعله الله ثالثَ الحديث والكتاب ،
وأغنى بشوايه وحده عن أعمالِ النَّوَاب ، وقدر يوماً منه بعبادة ستين عاماً فى الحساب ،
ولم يأمر به أمرٌ إلا زيدَ قُوَّة فى أمره ، وتخصَّ به من عدوه ومن دهره ، ثم يُجاء به يوم
القيامه وفى يديه كتاباً أمان ، ويجلس على منبرٍ من نور عن يمين الرحمن . ومع هذا
فإنَّ مركبه صعبٌ لا يستوى على ظهره إلا مَنْ أمسكَ عنانَ نفسه قبل إمساكِ عنانه ،
وغلبت لمةُ ملكه على لمةِ شيطانه ، ومن أوكد قُرُوضِه أن يَمْحَى السَّن السَّيئة التى
طالت مدد أيامها ، وَيَسَّسَ الرُّعايا من رفع ظلاماتها ، فلم يجعلوا أمداً لانحسارِ ظلامِها
وتلك السَّن هى المكوس التى أنشأتها الهممُ الحفيرة ، ولا غنى للأيدى الغنية إذا
كانت ذاتَ نفوسٍ فقيرة . وكلما زيدت الأموالُ الحاصلة منها قدراً زادها الله محقاً ،
وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة ، فسموها حقاً ، ولولا
أنَّ صاحبها أعظمُ الناس جرماً لما أغلظ فى عقابه ، ومثلت توبة المرأة الغامضة

(٩٦) الفسح المضد كلها ، وأوسطها يلحمها ، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه .

بمتابة وهل أشتى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً ويُصبحُ وهو مطالبُ بهم بما يعلم
وَمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْماً ؟ وأنت مأمورٌ بأن تأتى هذه الظلماتِ فتُنجيَ على إبطالها .
وتلجِ أَسْماءها في المحرِّبَافعالها . حتى لا يَبْقَى لها في العيانِ صُورٌ منظورة . ولا في
الألسنةِ أحاديثٌ مذكورة . فإذا فعلتَ ذلكَ كنتَ قد أزلتَ عن الماضي سَنَةَ سُوءِ
سُنتها يدها . وعن الآتى متابعة ظلمٍ وجده نهجاً مسلوكة . فجَرى على مدها . فبادِرْ
إلى ما أَمَرْتَ به مبادرة من لم يَصِقْ به ذَرْعاً . ونظرَ إلى الحياةِ الدُّنيا بعينه قرآها في
الآخرةِ متاعاً . واخمد الله على أن قِيَصَ للإمام هدى يقفُ بك على هُذُك . ويأخذ
بحُجْرَتِكَ عن خطواتِ الشَّيطان . الذى هو أعدى عِدَاكَ . وهذه البلادُ المنوطة
بطرفك تشتملُ على أطرافِ متباعدة . وتفترق في سياستها إلى أيدي متساعدة . ولهذا
يكثرُ بها قضاة الأحكام . وأولو تدبيراتِ السيوف والأقلام . وكل من هؤلاء ينبغي أن
يقفَ على باب الاختبار . ويسلُطَ عليه شَاهِداً عَدْلٍ من أمانة الدرهم والدينار . فما
أضلَّ الناسَ شَيْءٌ كَحُبِّ المَالِ الذى فُورِقَتْ من أَجلِهِ الأديانُ . وهُجِرَتْ بسببه الأولاد
والإخوان . وكثيراً ما نرى الرجل الصائمَ القائمَ وهو عابِدٌ له عبادة الأوثان فإذا استعنت
بأحد منهم على شَيْءٍ من أَمْرِكَ فاضربَ عليه بالأرصَاد . ولا تَرْضَ بما عرفته من مَبْدَأٍ
حالهِ فَإِنَّ الأحوالَ تَنَقَّلُ مُنْتَقِلَ الأجساد . وإياكَ أن تُخَدَعَ بِصَلاحِ الظاهرِ كما خُدِعَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - بِالرَّيْبِيعِ بْنِ زِيَادٍ . وكذلك أُمِرُّ هَؤُلاءِ على
اختلافِ طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروفِ مَواطِنِ . وينهوا عن المنكرِ مَهايِيزِ . ويعلمُوا
أن ذلكَ من دَأْبِ حِزْبِ الله الذين جعلهم الله الغالين . وليبدؤوا أولاً بأنفسهم .
فيعدلُوا بها عن هواها . ويأمروها بما يأمرونَ به سِوَاهَا . ولا يكونُوا ممن هَدَى إلى طريقِ
البر وهو عنه حائذ . وانتصبَ لطلبِ المرضى وهو محتاجٌ إلى طيبِ وعائذ . فما تنزل
بركاتُ السماءِ إِلَّا على من خافَ مقامَ رَبِّهِ . وألزمَ التَّقْوَى أعمالَ يده ولسانه وقلبه .
وإذا صَلَحَتِ الولاية صَلَحَتِ الرعيَّةُ بِصَلاحِهِمْ . وهم لَمْ يَمْتَرَلِ المصاييحُ . ولا
يَسْتَفِي كُلُّ قَوْمٍ إِلَّا بِمَصباحِهِمْ ، وما يُؤْمَرُونَ به أَنْ يكونُوا لمن تحتَ أيديهم إخواناً في
الاصطحابِ ، وجيراناً في الاقترابِ ، وأعاوناً في توزُّعِ الجملي الذى يتقل على

الرقاب ، فالمسلم أخو المسلم ، وإن كان على أمير . وأولى الناس باستعمال الرق من كان فضل الله عليه كثيرا ، وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة الليف ، ويتولأها بالوطء العنيف ، ولكنها لمن يمال على جوانبه ، ويؤكل من أطايبه ، ولن إذا غصب لم ير للغصب عنده أثر ، وإذا الحيف في سؤاله لم يلق الإلحاف بخلق الصجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر ، فذلك الذي يكون في أصحاب اليمين ، والذي يدعى بالحفيظ العليم ، والقوى الأمين .

ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متدينين بدينه ، وجارين على نهج صوابه . وإذا تظايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنة مبنية في كتابه .

وبعد هذه الوصية فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود ، ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجنود ، وتيقظت لنصره والعيون رقدت ، وهي التي تسبغ لها الآلاء ، ولا يتخطأها البلاء .

ولأمير المؤمنين بها عناية تبعثها الرحمة الموضوعة في قلبه ، والرغبة في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه ، وتلك هي الصدقة التي فضل الله بها بعض عباده لمزية أفضالها ، وجعلها سببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ، وهو يأمر أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قد رت عليهم مادة الأرزاق ، وألبسهم التعفف ثوب الفنى وهم في ضيق من الإملاق ، فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذ نظروا ، وينبى أن يجمع لهم من أمرهم مرققا ، ويضرب بينهم وبين الفقير موبقا .

وما أطنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاما بأننا من المهمل الذي يستقبل ولا يستدير ، ويستكثر منه ولا يستكثر ، وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال ، وتولؤه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال ، وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما تجعل السيف في ملازمته أحبا ، وتسخره بنفسك إن كان أحد بنفسه سحا ، ومن صفاته أنه العمل المحبوب بفضل الكرامة الذي ينمى أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق ، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها برتبة

الخلوق ، ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الإيمان ، ولما جعل الله الجنة له ثمنا وليس لغيره من الأثمان ، وقد علمت أن العدو وهو جارئك الأدنى ، والذي يبلغك وتبلغه عيناً وأذناً ، ولا تكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له ينس الجار ، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك وما لك إذا قامت لغيرك الأعذار . وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحاً ، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصده البلاد التي في يده قصد المستنفذ لأقصد المؤير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بنى قريظة والنضير ، وعلى التصويص البيت المقدس ، فإنه تلال الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم والذي توجهت إليه الوجوه من قبل السجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته ، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته ، فانهض إليه نهضة توغل في قرحه ، وتبدل صعب قيادة بسنحه ، وإن كان له عام حربية فاتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة وإنما تكون بعد سداد ما في اليد من ثمر كان مهملاً فحميت موارده ، أو مستهدماً فرفعت قواعد ، ومن أهمها ما كان حاضراً بالبحر فإنه عورة مكشوفة ، وخطة مخوفة ، والعدو قريب منه على بُعد ، وكثيراً ما يأتيه فجأة حتى يسبق برقه برعده ، فينبغي أن يرتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجاعته ، وتقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله هي العليا ، لا لأن يرى مكانها ، وحيث يصبح كل منها وله من الرجال أسوار ، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنع من بناء الأحجار ، ومع هذا لا بد لها من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العدو الذي تستعين بها على كشف العماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السلياني ، فذاك يسير على متن الريح ، وهذا على متن الماء ، ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والطار^(٩٧) ، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار ، فإذا أشرعت قبل جبال متلفعة بقطع من الغيوم ، وإذا نظرت إلى أشكالها قيل إنها أهلة غير أنها تهدي في مسيرها بالنجوم ، ومثل هذه الخيل ينبغي أن يقال في جياها ، ويستكثر من قيادها ، وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثلها من

(٩٧) العوم سير الإبل ، والطار سرعة سير الخيل .

سَعَةِ صَدْرِهِ ، وَيَسْلُكُ طَرَقَهُ سُلُوكَ مَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ بِجَهْلِهَا ، وَلَكِنْ قَتَلَهَا بِخُبْرِهِ ، وَكَذَلِكَ فَلَئِنْ مَنَّ أَفْنَتَ الْأَيَّامِ تِجَارِيَتُهُ : وَزَحَمَتِهَا مَنَاجِبُهُ ، وَمَنْ يَذُلُّ الْصَّعْبُ إِذَا هُوَ سَاسَتْهُ وَإِنْ لَانَ جَانِبُهُ ، وَهَذَا هُوَ الرَّجُلُ يُرَأْسُ عَلَى الْقَوْمِ فَلَا يَجِدُ هَزَّةَ بِالرِّيَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ (٩٨) ، فِي السَّاقَةِ أَوْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَلَقَدْ أَفْلَحَتْ عِصَابَةُ اعْتَصَبَتْ مِنْ وَرَائِهِ ، وَأَيَقَنْتَ بِالنَّصْرِ مِنْ رَأْيِهِ كَمَا أَيَقَنْتَ بِالنَّصْرِ مِنْ رَأْيِهِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَخْلَى مِنَ الْجِهَادِ بَرَكْنَ بِقَدْحٍ فِي عَمَلِهِ ، وَهُوَ تَمَامُهُ الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِهِ ، كَمَا أَنَّ صِدْقَ النَّيَّةِ تَأْتِي فِي أَوَّلِهِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ قَسَمُ الْغَنَائِمِ ، فَإِنَّ الْأَيْدِيَ قَدْ تَنَاوَلَتْهُ بِالْإِجْحَافِ ، وَخَلَطَتْ جِهَادَهَا فِيهِ بَغْلُهَا فَلَمْ تَرْجِعْ بِالْكَفَافِ . وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الظُّلْمَ فِي تَعْدِي حُدُودِهِ الْمَحْدُودَةِ ، وَجَعَلَ الْإِسْتِثْنَاءَ بِالْغَنَمِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودَةِ . وَنَحْنُ نَعُوذُ بِهِ أَنْ يَكُونَ زَمَانُنَا هَذَا زَمَانَهُ ، وَبِأَسَةِ شَرِّ بَابِ ، وَلَمْ يَسْتَخْلِفْنَا عَلَى حِفْظِ أَرْكَانِ دِينِهِ ثُمَّ نَهْمَلَهُ إِهْمَالًا مُضِيعًا ، وَلَا إِهْمَالًا نَاسِ .

وَالَّذِي نَأْمُرُكَ بِهِ نَجْرِي هَذَا الْأَمْرَ عَلَى الْمَنْصُوصِ مِنْ حُكْمِهِ ، وَتُبْرِي ذِمَّتَكَ مِمَّا يَكُونُ غَيْرَكَ الْفَائِزَ بِفَوَائِدِهِ وَأَنْتَ الْمَطْلَبُ بِأَمْرِهِ ، وَفِي أَرْزَاقِ الْمَجَاهِدِينَ بِالذِّبَارِ الْمَصْرِفَةِ وَالشَّامِيَّةِ مَا يُغْنِيهِمْ عَنْ هَذِهِ الْإِكْلَةِ الَّتِي تَكُونُ غَدًا أَتْكَالًا وَجَحِيمًا ، وَطَعَامًا ذَا غَضَبَةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا .

فَتَصَفَّحْ مَاسْطَرْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي هِيَ عَزَائِمُ مُبَرَّمَاتٍ ، بَلْ آيَاتُ مُحْكَمَاتٍ ، وَنَحْبِبُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِاقْتِضَاءِ كَلِمَاتِهَا ، وَإِنَّ لَكَ مِنْهَا مَجْدًا يَبْقَى فِي عَقَبِكَ إِذَا أُصِيبَتِ الْبُيُوتُ فِي أَعْقَابِهَا . وَهَذَا التَّقْلِيدُ يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَأَلُ فِي الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاها ، وَأَنَّهُ لَمْ يَغَايِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاها . ثُمَّ أَنَّهُ قَدْ خَتَمَ بِدَعَوَاتٍ دَعَا بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ خَتَامِهِ ، وَسَأَلَ فِيهَا خَيْرَةَ اللَّهِ الَّتِي تَنْتَزِلُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ بِمَنْزِلَةِ نِظَامِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « اَللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَى مَنْ قُلِدْتَهُ شَهَادَةٌ تَكُونُ عَلَيْهِ رَقِيبَةً ، وَلَهُ حَسِيبَةٌ . فَإِنِّي لَمْ أَمْرِهِ إِلَّا بِأَوَامِرِ الْحَقِّ الَّتِي فِيهَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى ، وَهِيَ لِمَنْ تَبِعَهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ

وَبَشَرَى ، وَإِذَا أَخَذَ بِهَا بَلَجَ بِحُجَّتِهِ يَوْمَ يُسْأَلُ عَنِ الْحُجَجِ ، وَلَمْ يَخْتَلِجْ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَوْضِ فِي جُمْلَةٍ مِنْ يَخْتَلِجُ ، وَقِيلَ لَاحْرَجَ عَلَيْكَ وَلَا إِيْمَ إِذْ نَجَوْتَ مِنْ وَرَطَاتِ الْإِيْمِ وَالْحَرَجِ ، وَالسَّلَامُ .

[ثناء على الصَّابِي ، ومترته من فن الكتابة]

وهذا الذي ذكرته من كلامي وكلام الصَّابِي في هذه التقاليد الأربعة لم أقصد به الوضع من الرَّجُل ، وَإِنَّا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتَهُ لِيَبَانَ مَوْضِعُ السَّجْعِ الَّذِي يَنْبَغُ عَلَى الْمَحَلِّ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ الْمَشَارِإِلِيَّ فِي فِقْرِ الْأَسْجَاعِ لَمْ يَكُنْ مَقْصُوداً فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، إِنَّمَا الْمَكَانُ حُسْرَةٌ ، أَوْ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَبِهْ لَهُ .

وَكَيْفَ أَضْعُ مِنَ الصَّابِي وَعِلْمُ الْكِتَابَةِ قَدْ رَفَعَهُ وَهُوَ إِمَامُ هَذَا الْفَنِّ ، وَالوَاحِدُ فِيهِ ؟ ، وَلَقَدْ اعْتَبَرْتُ مَكَاتِبَهُ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ أَجَادَ فِي السُّلْطَانِيَّاتِ كُلِّ الْإِجَادَةِ ، وَأَحْسَنَ كُلِّ الْإِحْسَانِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَى كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ عَنْ عَزِّ الدَّوْلَةِ بِخِيَارِ ابْنِ بُيُوتِهِ^(٩٩) إِلَى سَبِكْتِكَيْنِ^(١٠٠) عِنْدَ خُرُوجِهِ عَلَيْهِ ، وَمَجَاهِرَتِهِ إِثْبَاهَ بِالْعَصِيانِ ، لَا سَتَحِقُّ بِهِ فَضِيلَةُ التَّقَدُّمِ ، كَيْفَ وَلَهُ مِنَ السُّلْطَانِيَّاتِ مَا أَتَى فِيهِ بِكُلِّ عَجِيْبَةٍ ؟ لَكِنَّهُ فِي الْإِخْوَانِيَّاتِ مَقْصَرٌ ، وَكَذَلِكَ فِي كُتُبِ التَّعَاوِي .

وَعِنْدِي فِيهِ رَأْيٌ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ غَيْرِي ، وَلِي فِيهِ قَوْلٌ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ سِوَايَ : وَذَلِكَ أَنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ فِي كِتَابَتِهِ زَائِدٌ عَلَى فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ ، وَسَائِبِي ذَلِكَ فَأَقُولُ : لِيَنْظُرِ النَّاطِرُ فِي هَذَيْنِ التَّقْلِيدَيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْرَدْتُهُمَا لَهُ ، فَإِنَّهُ يَرَى وَصَايَا وَشُرُوطاً وَاسْتِدْرَاكَاتٍ

(٩٩) هو أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة بن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي ، ولي مملكة أبيه يوم موته ، وتزوج الإمام الطالع ابنته « شاه زمان » على صداق مبلغة مائة ألف دينار ، وكان عز الدولة ملكاً سورياً ، شديد القوى ، يمسك الثور العظيم بقرنيه قيصره . وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة منافسات في الممالك أدت إلى التنازع والحاربة ، فالتقيا يوم الأربعاء ثامن عشر شوال سنة ٣٦٧ هـ فقتل عز الدولة ، وحمل رأسه في طست ووضع بين يدي عضد الدولة ، فلما رآه وضع منديل على عينيه وبكى ، رحمه الله .

(١٠٠) نص الكتاب في المختار من رسائل الصَّابِي ٢٢٧/١ .

وأوامر مائتين أصل وفرع ، وكلّ وجزء ، وقليل وكثير ، ولا ترى ذلك في كلام غيره . من الكتاب ، إلا أنه عيّر عن تلك الوصايا والأوامر والشروط والاستدراكات بعبارة في بعضها مافية من الضعف والركّة وقد قيل : إن زيادة العلم على المنطق هُجْنَةٌ ، وزيادة المنطق على العلم خُدْعَةٌ .

ومع هذا فإني أقر للرجل بالتقدّم ، وأشهد له بالفضل .

[أقسام السجع]

وإذا فرغت مما أردتُ تحقيقه في هذا الموضع فإني أرجعُ إلى ما كنتُ بصددهُ ذكره من الكلام على السجع ، وقد تقدّم من ذلك ما تقدّم ، وبقي ما أنا ذاكره هاهنا ، وهو أن السجع قد ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيدُ أحدهما على الآخر ، كقوله تعالى : « فَأَمَّا النَّبِيُّ فَلََّا تَقْهَرْ » . وأمّا السائل فلا تنهر^(١٠١) . وقوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » فالعوريات قدحًا . فالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَنْزِلْنِي نَقْعًا . فَوْسَطِنَ بِهِ جَمْعًا^(١٠٢) .

ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء ، حتّى كأنها أفرغت في قالب واحد ؟ وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة ، وهو أشرفُ السجع منزلة ، للاعتدال الذي فيه .

القسم الثاني : أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طويلاً يخرجُ به عن الاعتدالِ خروجاً كثيراً ، فإنه يقبح عند ذلك ، ويُستكره ، ويعدُّ عيباً ، فمّا جاء من ذلك قوله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ » واعتدنا لمن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً . إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا^(١٠٣) .

(١٠١) سورة الضحى : الآيات ٩ و ١٠ .

(١٠٢) سورة العاديات : الآيات ١ - ٥ .

(١٠٣) سورة الفرقان : الآيات ١١ و ١٢ و ١٣ .

أَلَا تَرَى أَنَّ الْفَصْلَ الْأَوَّلَ ثَمَانِ لَفْظَاتٍ ، وَالْفَصْلَ الثَّانِي وَالثَّلَاثَ تِسْعَ تِسْعٍ .
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ
شَيْئًا إِدًّا » . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا (١٠٤) »
وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ .

وَيُسْتَنَى مِنْ هَذَا الْقِسْمِ مَا كَانَ مِنَ السَّجْعِ عَلَى ثَلَاثٍ فَقَرَّ ، فَإِنَّ الْفَقْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ
يُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ بَاقِي الثَّلَاثَةِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةٌ طَوِيلًا يَزِيدُ عَلَيْهَا ،
فَإِذَا كَانَتْ الْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ تَكُونُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَ لَفْظَاتٍ ، أَوْ
إِحْدَى عَشْرَةَ .

مِثَالُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ فِي وَصْفِ صَلِيبِي ، فَقُلْتُ : « الصَّدِيقُ مَنْ لَمْ يَمْتَنِعْ عَنْكَ
بِخَالِفٍ ، وَلَمْ يَعَامِلْكَ مَعَامَلَةَ خَالِفٍ ، وَإِذَا بَلَغَتْهُ أُذُنُهُ وَشَايَةَ أَقَامَ عَلَيْهَا حَدَّ سَارِقٍ أَوْ
قَاضٍ » .

فَالْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةُ هَاهُنَا أَرْبَعُ لَفْظَاتٍ أَرْبَعَ لَفْظَاتٍ ، لِأَنَّ الْأَوَّلَى : « لَمْ يَمْتَنِعْ عَنْكَ
بِخَالِفٍ » وَالثَّانِيَةُ « وَلَمْ يَعَامِلْكَ مَعَامَلَةَ خَالِفٍ » وَجَاءَتِ الثَّلَاثَةُ عَشْرَ لَفْظَاتٍ ، وَهَكَذَا
يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .

وَإِنْ زَادَتْ الْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةُ عَنْ هَذِهِ الْعِدَّةِ فَتَرَادُ الثَّلَاثَةُ بِالْحِسَابِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا
نَقَصَتْ الْأَوَّلَى وَالثَّانِيَةُ عَنْ هَذِهِ الْعِدَّةِ . فَافْهَمْ ذَلِكَ ، وَقَيِّسْ عَلَيْهِ .

إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَهُ قِيَاسًا مُعْطَرِدًا فِي السَّجْعَاتِ الثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعَتْ مِنْ
الْكَلَامِ ، بَلْ تَعْلَمْ أَنَّ الْجَوَازَ يَعْمُ الْجَانِبَيْنِ مِنَ التَّسَاوِي فِي السَّجْعَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنْ
زِيَادَةِ السَّجْعَةِ الثَّلَاثَةِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجْعَاتٍ مُتَسَاوِيَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :
« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » فِي سِدْرِ مَحْضُودٍ . وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ
مَمْدُودٍ (١٠٥) .

(١٠٤) سُورَةُ مَرْيَمَ : الْآيَاتُ ٨٨ وَ ٨٩ وَ ٩٠ .

(١٠٥) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ : الْآيَاتُ ٢٧ وَ ٢٨ وَ ٢٩ وَ ٣٠ .

فهذه السجعات كلها من لفظتين لفظتين ، ولو جعلت الثالثة منها خمسَ لفظاتٍ أو سِتَلَمًا كان ذلك مَعِييًا .

القسم الثالث : أن يكونَ الفصلُ الآخرُ أَقْصَرَ من الأول ، وهو عندى عَيْبٍ فاحِشٍ وسببُ ذلك أن السَّجْعَ يكونُ قد استوفى أمدَه من الفصلِ الأولِ بحكمِ طُوله ، ثم يَجِيءُ الفصلُ الثانى قصيراَ عن الأول ، فيكونُ كالشئِ المَبْتُورِ ، فيبقى الإنسانُ عند سماعه كمن يريدُ الانتهاءَ إلى غايةٍ فيَعْتَرُ دُونَهَا .

• • •

وإذا اتبنا إلى هاهنا وبيننا أقسامَ السَّجْعِ ولَبَّهْ وقُشُورُه فسنقولُ فيه قولاً كَلْبًا ، وهو أن السَّجْعَ على اختلافِ أقسامِهِ ضربان :

أحدهما : يسمى (السَّجْعُ القصيرُ) وهو أن تكونَ كُلُّ واحدةٍ من السَّجْعَتَيْنِ مؤلفَةً من ألفاظٍ قليلةٍ ، وكلما قَلَّتْ الألفاظُ كانَ أَحْسَنَ ، لِقُرْبِ الفواصِلِ المسجوعةِ من سَمْعِ السَّامِعِ .

وهذا الضربُ أَوْعَرَ السَّجْعِ مذهبًا ، وأبعَدُه متناولًا ، ولا يكادُ استعمالُه يقعُ إلا نادرًا والضربُ الآخرُ : يسمى (السَّجْعُ الطويلُ) وهو ضدُّ الأولِ لَّأنَّه أسهلُّ متناولًا . وإنما كانَ القصيرُ من السَّجْعِ أَوْعَرَ مُسَلِّكًا من الطويلِ لأنَّ المعنى إذا صيغَ بِألفاظٍ قصيرةٍ عَزَّ مَوَاتاةُ السَّجْعِ فيه . لِقصَرِ تلكِ الألفاظِ ، وضيقِ المجالِ في استجلابه ، وأما الطويلُ فَإِنَّ الألفاظَ تطولُ فيه ، وَيُسْتَجْلَبُ له السَّجْعُ من حيثٍ وليس كما يقالُ ، وكان ذلك سهلًا .

وكل واحد من هذين الضريين تنفاوتُ درجاتُهُ في عدةِ ألفاظٍ :
أما السَّجْعُ القصيرُ فَأَحْسَنُه ما كانَ مُؤَلَّفًا من لفظَتَيْنِ لفظَتَيْنِ ، كقوله تعالى :
وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝ فَالْعَاصِفَاتِ غَضَبًا ^(١٠٦) ۝ وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجِرْ ۝ ^(١٠٧) .

(١٠٦) سورة المرسلات: الآيات ١ و ٢ . (١٠٧) سورة المدثر: الآيات ١ - ٥ .

ومنه ما يكون مؤلفاً من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة ، وكذلك إلى العشرة ، وما زاد ، على ذلك فهو من السجع الطويل ، فما جاء منه قوله تعالى : « والنجم إذا هوى » ماضلٌ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى » (١٠٨) وقوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكلٌ أمرٌ مستقرٌ » (١٠٩)

وأما السجع الطويل فإن درجاته تتفاوت أيضاً في الطول .
فنه ما يقرب من السجع القصير ، وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة لفظة إلى اثني عشرة لفظة ، وأكثره خمس عشرة لفظة ، كقوله تعالى : « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ منا رحمة لم نرغها منه إنه ليتوَسَّ كفور » ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السَّيِّئات عني إنه لفرحٌ فخورٌ » (١١٠) فالأولى إحدى عشرة لفظة ، والثانية ثلاث عشرة لفظة ، وكذلك قوله تعالى : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عِثْتُمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ » فإن تولّوا فقلّ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو ربُّ العرش العظيم » (١١١) .

ومن السجع الطويل ما يكون تأليفه من العشرين لفظة فما حولها كقوله تعالى :
« إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراهم كثيراً لفشيتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سَلَمٌ إِنَّهُ عَلِيمٌ بذات الصدور » وإن يريكم وهم إذ اتفقتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور » (١١٢)

ومن السجع الطويل أيضاً ما يزيد على هذه العدة المذكورة ، وهو غير مضبوط .

[التصريح في الشعر]

واعلم أن (التصريح) في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المشور ،

(١٠٨) سورة النجم : الآيات ٣ و ١ و ٢ .

(١٠٩) سورة القمر : الآيات ١ و ٢ و ٣ .

(١١٠) سورة هود : الآيات ٩ و ١٠ .

(١١١) سورة التوبة : الآيات ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ .

(١١٢) سورة الأنفال : الآيات ٤٣ و ٤٤ .

وفائده في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة نعلم قافيتها ، وشبه البيت
المُصرَّع بباب له مصرعان متشاكلان ، وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون ، وفيه
دلالة على سعة القدرة في أفانين الكلام .

فأما إذا كثرت التصريح في القصيدة فليست أراه مختاراً إلا أن هذه الأصناف من
التصريح والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها في الكلام ما قل وجري مجرى
الفرقة من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب .

فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية ، لما فيها من أمارات الكلفة (١١٣) .
وهو عندي (١١٤) ينقسم إلى سبع مراتب ، وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه
أحد غيري !

المرتبة الأولى : - وهي أعلى التصريح درجة - أن يكون كل مصراع من البيت
مستقلاً بنفسه في فهم معناه ، غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه ويسمى « التصريح
الكامل » وذلك كقول امرئ القيس :

أفأطم مهلاً بقص هذا التدلي وإن كنت قد أزمعت هجرأ فأجمل
فإن كل مصراع من هذا البيت مفهوم المعنى بنفسه ، غير محتاج إلى ما يليه ،
وعليه ورد قول المتنبي :

إذا كان مدحاً فالنسب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم (١١٥)
المرتبة الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه ، غير محتاج إلى الذي يليه
فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به ، كقول امرئ القيس :

فإنبك من ذكرى حبيب ومزله يسقط اللوى بين الدخول فحوملي

(١١٣) نقل ابن الأثير في كلامه عن (التصريح) رأى ابن سنان الحفاجي ، قال « في سر الفصاحة ٢٢٢ » .
فأما إذا تكرر التصريح في القصيدة فليست أراه مختاراً ، وهو عندي يجري مجرى تكرار الترصيع والتجنيس والطباق
وغير ذلك . . وإن هذه الأشياء إنما يحسن منها ما قل وجري منها مجرى اللمعة واللمحة ، وأما إذا تواتر وتكرر ،
فليس ذلك عندي مرضياً . .

(١١٤) يقصد التصريح .

(١١٥) ديوان المتنبي ٣/٣٥٠ وهو مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة .

فالمصراع الأول غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه ، لكن لما جاء الثاني صار مرتبطاً به ، وكذلك وردَ قولُ أبي تمام :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرَوَّى الظَّاءُ الْحَوَائِمُ وَأَنْ يُنْظَمَ الشَّمْلُ الْمُبَدَّدَ نَاطِلُمُ (١١٦)
وعليه وردَ قولُ المتنبي :

الرأى قبلَ شجاعةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهَى الْمَحِلِّ الثَّانِي (١١٧)
المرتبة الثالثة : أن يكونَ الشاعرُ مُحَيَّرًا في وضعِ كلِّ مصراعٍ موضعَ صاحبه ، ويسمى « التصريح الموجه » وذلك كقولِ ابنِ الحجاج البغدادي (١١٨) :

مِنْ شُرُوطِ الصُّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ خِفَةُ الشَّرْبِ مَعَ خَلْوِ الْمَكَانِ
فإن هذا البيتُ يجعلُ مصراعه الأولُ ثانيًا ، ومصراعه الثاني أولاً ، وهذه المرتبة كالثانية في الجودة .

المرتبة الرابعة : أن يكون المصراع الأولُ غيرَ مستقلٍّ بنفسه . ولا يفهمُ معناه إلا بالثاني ، ويسمى « التصريح الناقص » ، وليس بمرضى ولا حسن ، فَمَا وَرَدَ مِنْهُ قَوْلُ الْمَتْنِيِّ :

مَقَانِي الشَّعْبِ طِيْبَا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ (١٢٠)
فإن المصراعَ الأولَ لا يستقلُّ بنفسه في فهم معناه دونَ أن يذكر المصراعُ الثاني .

(١١٦) ديوان أبي تمام ٢٨٥ ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد .

(١١٧) ديوان المتنبي ١٧٤/٤ وهو مطلع قصيدة في مدح سيف الدولة .

(١١٨) هو أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج ، ذكره التتائي في بنية الدهر ، قال : وقد اتفق من رأيته وسمعت به من أهل البصرة في الأدب وحسن المعرفة بالشعر على أنه فرد زمانه في فنه الذي شهر به ، وأنه لم يسبق إلى طريقته ، ولم يلحق شأوه في غطه ، ولم يركأقذاره على مايرده من المعاني التي تقع في طرزه . مع سلاسة الألفاظ وعلوها ، وانتظامها في سلك الملاحه والبلاغة ، وإن كانت مفسحة عن السخافة . ولكنه على علته تنفكه الفضلاء بآثار شعره ، وتستمتع الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمته ، ويحتمل المحتمسون فرط رفه وقذعه ، ومنهم من يفلو في الميل إلى مايفضحك ويمتنع من نواذره .

(١١٩) بنية الدهر ٦٥/٣ ، ورواية التتائي للشطر الثاني « خفة الشغل مع خلو المكان » .

(١٢٠) ديوان المتنبي ٢٥١/٤ وهو مطلع قصيدة يمدح بها عضد الدولة وولديه أبا القوارس وأبا دلف ،

ويذكر طريقته بشعب ديوان ، وهو موضع كثير الشجر والمياه يعد من جنان الدنيا .

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريحُ في البيتِ بلفظة واحدةٍ وسطاً وقافيةً .
ويسمى « التصريحُ المكرر » ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما أقربُ حالا من الآخر :
فالأول : أن يكونَ بلفظةٍ حقيقيةٍ لا مجازٍ فيها ، وهو أنزلُ الدرجتين كقول عبيد بن
الأبرص (١٢١) .

فكلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَتَوْبُ وَغَائِبِ الْمَوْتِ لَا يَتَوْبُ
القسمُ الآخر : أن يكونَ التصريحُ بلفظةٍ مجازيةٍ يختلفُ المعنى فيها ، كقول أبي تمام :
فَتَيَّ كَانَ شَرِباً لِلْعُقَاةِ وَمَرْتَمَى فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْضَ مِرْثَمًا (١٢٢)
المرتبة السادسة : أن يذكرَ المصراعُ الأولُ ، ويكونُ معلقاً على صفةٍ يأتي ذكرُها
في أولِ المصراعِ الثاني ، ويسمى « التصريحُ المعلق » فَمَا وَرَدَ مِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ
الْقَيْسِ :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ بِصَبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ
فإنَّ المصراعَ الأولَ معلقٌ على قوله : « بِصَبْحٍ » ، وهذا معيَّبٌ جداً ، وعليه
وَرَدَ قَوْلُ الْمُتَنَبِّئِي :

قَدْ عَلِمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا تَدْمِي وَالْفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا (١٢٣)
فإنَّ المصراعَ الأولَ معلقٌ على قوله : « تَدْمِي » .

المرتبة السابعة : أن يكونَ التصريحُ في البيتِ مخالفاً لقافيته ، ويسمى « التصريحُ
المشطور » وهو أنزلُ درجاتِ التصريح وأقبحُها ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١٢١) أحد شعراء الجاهلية ، وهو معدود عند بعض الرواة من أصحاب المقلات ومطلع معلقته :

أَفْزَحَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٍ فَالْقَطِيبَاتِ فَالذَّنُوبِ

(١٢٢) ديوان أبي تمام ٣٧٤ من قصيده يرثى بها أبا نصر محمد بن حميد الطائي ، ومطلعها :

أَهْمُ بِلَكَ النَّاحِي وَإِنْ كَانَ أَهْمًا وَأَصْبَحَ مَخْفَى الْجُودِ بِمَدِّكَ بَلَقًا

والعفاة : السائلون ، والمرتمى موضع الرعى ، والهنديَّة السيوف ، ولترتج المسرح .

(١٢٣) ديوان المتنبي ٢٢٠/٤ وهو مطلع قصيدة في مدح أبي سهل سعيد بن عبد الله ، ومعناها أن الفراق قد

علم أجفاننا الفراق ، فما تلقى سهراً ، وجعل الفراق يؤلف الحزن .

أَقْلَنِي قَدْ نَبِئْتُ عَلَى ذُنُوبٍ وَإِلَّا قَرَّارِ عُدْتُ مِنَ الْجُحُودِ (١٧٤)
فَصَرَّعَ بِحَرْفِ الْبَاءِ فِي وَسْطِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ قَفَّاهُ بِحَرْفِ الدَّالِ ، وَهَذَا لَا يَكَادُ يُسْتَعْمَلُ
إِلَّا قَلِيلًا نَادِرًا (١٧٥) .

النوع الثاني في التجنيس

اعلم أَنَّ التَّجْنِيسَ غَرَّةٌ شَادِخَةٌ وَجْهَ الْكَلَامِ ، وَقَدْ تَصَرَّفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ فِيهِ ، فَغَرَّبُوا وَشَرَّفُوا ، لَا سِيَّامَا الْمُحَدِّثِينَ مِنْهُمْ ، وَصَنَّفَ النَّاسُ فِيهِ كِتَابًا كَثِيرَةً ،
وَجَعَلُوهُ أَبْوَابًا مُتَعَدِّدَةً ، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، وَأَدْخَلُوا بَعْضُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ فِي بَعْضٍ ،
فَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِ ، وَأَبُو عَلِيٍّ الْحَاتِمِيُّ ، وَالْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ (١) الْجَرَّجَانِيُّ ، وَقَدَّامَةُ
ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ ، وَغَيْرُهُمْ
وَإِنَّمَا سُمِّيَ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْكَلَامِ مُجَانَسًا لِأَنَّ حُرُوفَ أَلْفَاظِهِ يَكُونُ تَرْكِيبُهَا مِنْ جَنْسٍ
وَاحِدٍ .

وَحَقِيقَتُهُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ وَاحِدًا وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفًا .
وَعَلَى هَذَا فَإِنَّهُ هُوَ اللَّفْظُ الْمَشْتَرَكُ ، وَمَا عَدَاهُ فَلَيْسَ مِنَ التَّجْنِيسِ الْحَقِيقِيِّ فِي شَيْءٍ ،
إِلَّا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ مَا يُسَمَّى تَجْنِيسًا ، وَتِلْكَ تَسْمِيَةٌ بِالشَّابَهَةِ ، لَا لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى
حَقِيقَةِ الْمُسَمَّى بَعِيْنِهِ .

وَعَلَى هَذَا فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي التَّجْنِيسِ وَمَا شَبَّهَ بِهِ فَأَجْرَى مَجْرَاهُ ، فَوَجَدْتُهُ يَنْقَسِمُ إِلَى
أَسْبَعَةِ أَقْسَامٍ ، وَاحِدٌ مِنْهَا يُدَلُّ عَلَى حَقِيقَةِ التَّجْنِيسِ ، لِأَنَّ لَفْظَهُ وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ ، وَسِتَّةٌ
أَقْسَامٌ مُشَبَّهَةٌ .

(١٧٤) ديوان أبي نواس ١٧٩ وهو أحد بيتين كتب بهما إلى الفضل بن الربيع ، والبيت الآخر :

وإن تصفح فلإحسان جديد سبقت به إلى شكر جديد

وفي الأصل « اللوب » و « عن » موضع « من » .

(١٧٥) هذا عيب من عيوب القوافي سواء قدامة بن جعفر (التجميع) وعرفه بأن تكون قافية المصراع الأول

من البيت على روى منتهى لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه ، فتأتي بخلافه .

(١) في الأصل « أبو الحسين » . وهو القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب « الوساطة بين المنتهى

وخصومه » .

[التجنيس الحقيقي]

فأما القسم الأول : فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها ، كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتَا غَيْرَ سَاعَةٍ »^(١) وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية ، فاعرفها .

ويروى في الأخبار النبوية أن الصحابة نازعوا جرير بن عبد الله البجلي زمّامه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلّوا بين جرير والجري » أى : دعوا زمّامه . وما جاء منه في الشعر قول أبى تمام :

فَأَصْبَحَتْ غُرُرُ الْأَيَّامِ مُشْرِقَةً بِالنَّصْرِ تَضَحُّكَ عَنْ أَيَّامِكَ الْغُرُرُ
« فالغُرُرُ » الأولى استعارة من غُرِر الوجه ، « والغُرُر » الثانية مأخوذة من غُرّة الشيء أكرمته ، فاللفظ إذاً واحد والمعنى مختلف . وكذلك قوله :

مِنْ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَيْضُ الْوَجْهِ وَالنَّدَى وَلَيْسَ بِنَانٌ يُجْتَنَدَى مِنْهُ بِالْجَعْدِ^(٢)
فالجعد : السيد ، والنّانُ الجعد : ضدّ السّبط^(٣) ، فأحدهما يوصف به السّخى والآخر يوصف به البخل . وكذلك قوله :

بِكُلِّ فَتَى ضَرْبٍ يُعَرِّضُ لِلْقَنَا مُحِبًّا مُحَلًى حَلِيَّةِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ^(٤)
فالضرب : الرجل الخفيف ، والضرب بالسيف : في الحرب ، وكذلك قوله :
عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصْبِ^(٥)

(٢) سورة الروم : الآية ٥٥ .

(٣) ديوان أبى تمام ١٣٩ من قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدى ، ومطلعا :

عَفَتْ أَرْبَعُ الْحَلَاتِ لِلأَرْبَعِ الْمَلَدِ لِكُلِّ هَضْمٍ الْكَشْحُ مَجْدُولَةُ الْقَدِ
(٤) في الأصل « البسيط » والبسط للرسل .

(٥) ديوان أبى تمام ٣٣ وهو من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعا :

لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ دَارِ مَاوِيَةِ الْحَقْبِ انْخِلِ الْمَغَانِي لِلَّيْلِ هِيَ أُمُّ نَهَبٍ
والحقب الدهور ، والتحل العطاء بلا عوض ، والمغانى المنازل .

(٦) ديوان أبى تمام ١٠ من قصيدته التي يمدح بها للحصم ويذكر فتح عمورية ، والتي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فالتغور جمع تغر ، وهو واحد الأسنان ، وهو أيضاً البلد الذى على تخوم العدو . ثم قال فى هذه القصيدة :

كم أحرزت قُصْبُ الهنْدِ مُصْلَتَهُ تَهْتَرُ مِنْ قُصْبٍ تَهْتَرُ فِي كَثْبِ
بَيْضٍ إِذَا انْتَضَيْتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالْبَيْضِ أَبْدَانًا مِنَ الْحُجْبِ
فالقُصْبُ : السيوف ، والقُصْبُ : القدود على حكم الاستعارة ، وكذلك البَيْضُ

السيوف ، والبَيْضُ : النساء . وهذا من النادر الذى يتعلّق به أحدٌ وكذلك قَوْلُهُ :
إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسَطَلَ الْحَرْبُ صَدْعُهَا صُدُورَ الْعَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ^(٧)
فلفظ «الصدور» فى هذا البيت واحدٌ والمعنى مختلف . وكذلك قَوْلُهُ :

عَامَى وَعَامُ الْعَيْسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوقَةٍ صَيَّهْدٍ
حَتَّى أَغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَسَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ^(٨)
فالْعِيدُ : فحلٌ من فحول الإبل ، والعِيدُ : اليومُ المعروف من الأيام .
وقد أكثر أبو تمام من التّجنيس فى شعره ، فهينه ما أغرب فيه فأحسن ، كالذى ذكرته ،
ونسته ما أتى به كريهاً مُسْتَقْلًا ، كقوله :

وَيَوْمَ أَرَشَقَ وَالهَيْجَاءُ قَدْ رَشَقَتْ مِنَ الْمَنِيَةِ رَشَقًا وَابِلًا قَصِيفًا^(٩)

(٧) ديوان أبى تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القائم بن عيسى العجل مطلعها :
على مثلها من أربع وملاهب أذليت مصونات الدنوع السواكب
ومعنى جابت ضلعت ، والقسطال الغبار ، وصدعوا شققوا ، والعالى الراح ، والكتائب الجيوش .

(٨) ديوان أبى تمام ٨٢ من قصيدة مطلعها :
أرأيت أى سولف وخدود عنت لنا بين اللوى وبرود
والعيس النوق ، والوديقة شدة الحر ، والمسجورة الموقدة ، والتنوقة الغلاة البعيدة الأطراف ، والصيهود الغلاة
لا ينال ماؤها ، وبَنَاتُ الْعِيدِ النوق .

(٩) ديوان أبى تمام ٧٠٢ من قصيدة فى مدح أبى دلف ، ومطلعها :
أما الرسوم فقد أذكرن ماسلفا فلا تكفن عن شانيك أو يكفا
وأرشق اسم جبل ، والوابيل المطر الكثير .

وكقوله :

بِأَمْضَغِنًا خَالِدًا لَكَ التَّكْلُ إِنْ خَلَدَ حِقْدًا عَلَيْكَ فِي خَلْدِهِ (١٠)

وكقوله :

وَأَهْلُ مُوقَانَ إِذْ مَاقُوا فَلَا وَزَرَ أَنْجَاهُمْ مِنْكَ فِي الْهَيْجَا وَلَا سَنَدُ (١١)

وكقوله :

مَهْلًا بَنَى مَالِكٍ لِأَنْجِلِينَ إِلَى حَيِّ الْأَرَاقِمِ دُولُولُ ابْنَةِ الرَّقَمِ (١٢)

ثم قال فيها :

مِنَ الرُّدَيْيَةِ اللَّائِي إِذَا عَسَلَتْ تَشْمُ بُوَ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشُّمَمِ (١٣)

وكقوله :

قَرْتُ بِقِرَانِ عَيْنِ الدِّينِ وَاشْتَرْتُ بِالْأَشْرَيْنِ عَيْونَ الشَّرِكِ فَاصْطَلِمًا (١٤)

وله من هذا الغث البارد المتكلف شيء كثير لاجابة إلى استقصائه ، بل قد أوردنا منه قليلاً يُستدلُّ به على أمثاله .

(١٠) ديوان أبي تمام ٩٤ من قصيدة مطلعها :

مالكتيب الحمى إلى عقده ما بال جراحاته إلى عقده
والمضغن الحاقده ، والنكل الققد ، والحلد القلب والنفس .

(١١) ديوان أبي تمام ٩٩ من قصيدة مطلعها :

يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا هي الصباة طول الدهر والسهد
ماقوا حرقوا ، والوزر اللجأ ، والهيجاء الحرب .

(١٢) ديوان أبي تمام ٢٦٩ من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق ، ومطلعها :

سلم على الريح من سلمى بلدى سلم عليه وسم من الأيام والقدم
وحى الأرقام بنو تغلب ، والدلولول والرقم من أسماء الداهية .

(١٣) الردينية الرماح ، وعسلت اشتد اهتزازها ، والبو ولد الناقة ، أو جلد يحشى تبنا فيقرب من أمه إذا
فقدته فتشمه فتذر ، والشمم ارتفاع الأنف .

(١٤) ديوان أبي تمام ٣٠٢ من قصيدة في مدح إسحاق بن إبراهيم المصمى مطلعها :

أصغى إلى العين مغترًا فلا جرماً إن النوى أسارت في عقله لما
وقران محل ، واشتترت انشقت ، واصطلم قطع من أصله .

ومن الحسن في هذا الباب قول أبي نواس :
عَبَّاسُ عَبَّاسٍ إِذَا احْتَدَمَ الْوُغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّيْبُ رَيْبٌ^(١٥)
وكذلك قوله :

فَقُلْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ إِنْ كُنْتُ مُذْنِبًا فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْأَخْذِ بِالْفَضْلِ
فَلَا تَجْحَدْنِي وَدَّ عِشْرِينَ حِجَّةً وَلَا تُفْسِدُوا مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَضْلِ^(١٦)
وعلى هذا النهج ورد قول البحتري :

إِذَا الْعَيْنُ رَاحَتْ وَهِيَ عَيْنٌ عَلَى الْجَوَى فَلَيْسَ بِسَرٍ مَأْتِيرُ الْأَضَالِجِ^(١٧)
فالعين : الجاسوس ، والعين : معروفة ، وكذلك ورد قول بعضهم :

وَتَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَوَاكِفَتْ سَاقٍ تُجَابُ قَوْقُ سَاقٍ سَاقًا
فالساق : ساق الشجرة ، والساق : القمري من الطيور .

وعلى هذا الأسلوب جاء قول بعض المتأخرين ، وهو الشاعر المعروف بالعمري في
قصيدة قصد بها التجنيس في كثير من أبياتها ، فمن ذلك ما أورده في مطلعها :

كُوِّرَ زَارِنًا طَيْفَ ذَاتِ الْخَالِ أحيانًا وَنَحْنُ فِي حَفْرِ الْأَجْدَاثِ أحيانًا
ثم قال في أبياتها :

تَقُولُ أَنْتِ امْرُؤُ جَافٍ مِثْلَ مِثْلَةٍ فَقُلْتُ لَاهْوَمْتُ أَجْفَانُ أَجْفَانًا
وكذا قال في آخرها :

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ إِنْسَانًا يَلَاذُّ بِهِ فَلَا بَرَحَتْ لَعِينُ الدَّهْرِ إِنْسَانًا

(١٥) ديوان أبي نواس ٩٦ .

(١٦) ديوان أبي نواس ١١٠ وقبل البيتين :

أَسْلَمْتَنِي يَا جَعْفَرُ بِنَ أَبِي الْفَضْلِ فَنَ لِي إِذَا أَسْلَمْتَنِي يَا أَبَا الْفَضْلِ
وَأُمِّي فَقِي فِي النَّاسِ أَرْجُو مَقَامَهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ وَأَنْتَ أَخُو الْفَضْلِ

وأبو الفضل الربيع بن يونس وزير المنصور ، والفضل في قافية البيت الأول الكرم ، والفضل في الثاني ابن الربيع ، وفي الثالث البهاجة ، وفي الرابع ضد النقص .

(١٧) ديوان البحتري ٤٥/١ من قصيدة في مدح الفتح بن خاقان مطلعها :

أَلَمْتُ وَهَلْ بِلَامِهَا لَكَ نَافِعٌ وَزَارَتْ خِيَالًا وَالْمَيُونُ هَوَاجِعُ
وفي الأصل « الموى » موضع « الجوى » .

ورأيت الغانمي قد ذكر في كتابه باباً وسماه (رد الأعجاز على الصدور) خارجاً
عن باب التجنيس ، وهو ضرب منه ، وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدده
ذكره ها هنا ، فمما أورده الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم :

وَنَشْرَى بِجَمِيلِ الصُّنْدِ حِ دِرْكَراً طَيْبَ النَّشْرِ
وَنَقْرَى بِسُيُوفِ الْهِنْدِ مِ مَنْ أَسْرَفَ فِي النَّقْرِ
وَبَحْرَى فِي شَرَى الْحَمْدِ عَلَى شَاكِلَةِ الْبَحْرِ

وكذلك قول بعضهم في الشيب :

يَا بَيَاضاً أَذْرَى دُمُوعِي حَتَّى عَادَ مِنْهَا سَوَادُ عَيْنِي بَيَاضاً

وكذلك قول البحتري^(١٨) :

وَأَعْرِفِ الزَّمَنَ الْبَهِيمَ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحِتَ مِنْهُ عَلَى أَعْرِ مُحَجَّلٍ
كَأَلْهَيْكَلِ الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ

وليس الأخذ على المعاني في ذلك مناقشة على الأسماء ، وإنما المناقشة على أن
يُنْصَبُ نَفْسُهُ لِإِبْرَادِ عِلْمِ الْبَيَانِ ، وتفصيل أبوابه ، ويكون أحد الأبواب التي ذكرناها
داخلياً في الآخر ، فيذهب عليه ذلك ويتحقق عنه ، وهو أشهر من فلق الصباح .
وربما جهل بعض الناس ، فأدخل في التجنيس ما ليس منه ، نظراً إلى مساواة
اللفظ دون اختلاف المعنى ، فمن ذلك قول أبي تمام^(١٩) :

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدِّي سَيِّقِي رُسُوماً مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ .

وهذا ليس من التجنيس في شيء ، إذ حدث التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف

المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً .

وهذا مما ينبغي أن ينبّه عليه ليعرف .

ومن علماء البيان من جعل له اسماً ساء به وهو (الترديد) أي أن اللفظة الواحدة

(١٨) ديوان البحتري ٢١٧/٢ من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب ، ومطلعها :

أَهْلًا بِاللَّحْمِ الْخِيَالِ الْقَبِيلِ فَصَلَ الَّذِي نَهَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ

(١٩) ديوان أبي تمام ٢٨٨ من قصيدة يمدح بها بعض بني عبد الكريم الطائنين ، ومطلعها :

أَرَامَةُ كُنْتُ مَأْلَفَ كُلِّ رِمٍ لَوْ اسْتَمْتَعْتُ بِالْأَنْسِ الْمَقِيمِ

زِدَدَتْ فِيهِ . وَحَيْثُ تَبَهَّتْ عَلَيْهِ هَاهُنَا فَلَا أَسْتَغْنِي عَنْهُ بِأَبَا أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ فِيهِ .

[ما يشبه بالتجنيس] .

وأما الأقسامُ الستة المشبهة بالتجنيس :

فالقسم الأول منها : أن تكون الحروف متساوية في تركيبها ، مختلفة في وزنها ، فمما جاء من ذلك قولُ النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ كَمَا حَسَنْتَ خَلْقِي حَسِّنْ خَلْقِي » أَلَا تَرَى أَنَّ هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُخْتَلِفَتَانِ فِي الْوِزْنِ : لِأَنَّ تَرْكِيبَ الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ ، وَهِيَ الْخَاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ ، إِلَّا أَنَّهُمَا قَدْ اخْتَلَفَا فِي الْوِزْنِ ، إِذْ وَزَنُ « الْخَلْقِ » فَعْلٌ بِفَتْحِ الْفَاءِ ، وَوَزَنُ « الْخَلْقِ » فَعَلَ بِضَمِّ الْفَاءِ .

ومن هذا القسم قولُ بعضهم « لَا تَنْتَالِ غُرْرُ الْمَعَالِي إِلَّا بِرُكُوبِ الْغُرْرِ وَاهْتِبَالِ الْغُرْرِ » وقال البهتري :

وَقَرَّ الْخَائِنُ الْمَغْرُورُ يَرْجُو أَمَانًا أَيَّ سَاعَةٍ مَا أَمَانٍ
يَهَابُ الْإِنْفِاقَاتِ وَقَدْ تَهَيَّأَ لِلْحِظَّةِ طَرْفُهُ طَرْفُ السَّيِّئِ (٢٠)
وَكَذَلِكَ وَدَدَ قَوْلُ الْآخَرِ :

قَدْ ذُبْتُ بَيْنَ حُشَاةٍ وَذِمَاءٍ مَائِنٍ حَرَّ هَوَى وَحَرَّ هَوَاءٍ
القسم الثاني : من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، وإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس . فمما جاء منه قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ » (٢١) فَإِنَّ هَاتَيْنِ اللَّفْظَتَيْنِ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ ، إِلَّا أَنَّ تَرْكِيبَهُمَا مُخْتَلَفٌ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » (٢٢) .

(٢٠) ديوان البهتري ٩٣/١ من قصيدة يمدح بها المعز بالله ومظلمها :

روديك إن شأنك غير شاني وقصرك لست طاعة من نهاني

وفي الأصل « الخائن » موضع « الخائن » ، ورواية الديوان « للفتة طرفه » موضع « للحظة طرفه » .

(٢١) سورة القيامة : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٢٢) سورة الأنعام : الآية ٢٦ .

وكذلك قوله تعالى : « ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِتَغْيِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ » (٢٣)

وعلى نحو من هذا ورد قول النبي ﷺ : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ » وقال بعضهم : « لَا تُنَالُ الْمَكَارِمُ إِلَّا بِالْمَكَارِهِ »
وقال أبو تَام :
يَمْدُونُ مِنْ أَيْدِي عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ (٢٤)

وقال البحرى :
مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أُغْيِدَ أَجِيدٍ وَمَهْفَهفِ الْكَشْمَحِينَ أَحْوَى أَحْوَرٍ (٢٥)

وكذلك قوله :

شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ تَقْطَعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قَطْلُوعُهَا (٢٦)
القسم الثالث : من المشبه بالتجنيس : وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد ، كقوله تعالى : « وَالتَّسْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ » إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٢٧)

وقوله تعالى : « وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْيِنُونَ صُنْعًا » (٢٨)

(٢٣) سورة غافر: الآية ٤٥.

(٢٤) ديوان أبي تمام ٤٢ من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ، ومطلعها :

عَلِ مَطْلُهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَايِبِ أَدْبَلَتْ مَصُونَاتِ الدَّمْعِ السَّوَاكِبِ

وفى الأصل « قَوَاضٍ » موضع « قَوَاضِبِ » وهو تحريف.

(٢٥) ديوان البحرى ١٩/١ وهو ثلثي أبيات قصيدة فى مدح المتوكل مطلعها :

إِنْ الظُّبَاءِ وَغَدَاةُ سَفْحِ مَجْجَرٍ هَيْجَنَ حَرْجَرٍ وَفَرَطٍ تَذَكَّرَ

(٢٦) ديوان البحرى ٣/١ من قصيدة فى مدح المتوكل ومطلعها :

مَنْ النَّفْسِ فِي أَسْهَاءٍ لَوْ تَسْتَطِيعُهَا بِهَا وَجَدَهَا مِنْ غَادَةِ وُلُوعِهَا

ويقال شجرة بالرمح أى طعنه . وشواجر الأرحام روايتها ، وهى رواية الديوان ، وفى الأصل « شواجن » .
وعلى رواية الديوان لا يكون فى البيت محل شاهد على هذا القسم .

(٢٧) سورة القيامة : الآيات ٢٩ و٣٠ .

(٢٨) سورة الكهف : الآية ١٠٨ .

وكذلك وَرَدَ قوله ﷺ : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » .
 ودخلَ ثَعْلَبُ صاحبَ كتاب « الفصيح » على أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رحمه الله تعالى
 ومجلسه غاص ، فجلسَ إلى جانيه ، ثُمَّ أَقْبَلَ عليه وقال : « أَخَافُ أَنْ أَكُونَ ضَيِّقُ
 عَلَيْكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَضِيقُ مَجْلِسُ بِمَتَحَائِنٍ ، وَلَا تَسْعُ الدُّنْيَا بِأَسْرَها مَتَبَاغِضِينَ » فقالَ له
 أَحْمَدُ : « الصَّدِيقُ لَا يَحْاسِبُ ، وَالْعَدُوُّ لَا يُحْتَسَبُ لَهُ . » وهذا كِلَامٌ حَسَنٌ مِنْ كِلَا
 الرَّجُلَيْنِ . والتَّجَنُّسُ فِي كَلَامِ أَحْمَدَ رحمه الله فِي قَوْلِهِ : « يَحْاسِبُ » وَ « يُحْتَسَبُ
 لَهُ » .

وقد جاءني شيءٌ من ذلك عليه خِفَّةُ الطَّبَعِ لَا ثِقَلُ التَّطَبُّعِ .
 فنه ما ذكرته في فصلٍ من كتابٍ إلى ديوانِ الخلافةِ يتضمَّنُ ذِكرَ الجهادِ فقلتُ :
 « وَخَيْلُ اللَّهِ قَدْ اشْتَاقَتْ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْكَبِي ، وَسُوءُهُ قَدْ تَطَلَّعَتْ أَنْ يُقَالَ لَهَا
 اضْرِبِي ، وَمَوَاطِنُ الْجِهَادِ قَدْ بَعُدَ عَهْدُهَا بِاسْتِسْقَاءِ شَأْيِبِ النَّحُورِ ، وَإِنْبَاتِ رِيعِ
 الدَّبَابِ وَالنَّسُورِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الْعَدُوَّ إِذَا طَلَبَ تَقَمَّصَ ثَوْبَ إِذْلَالِهِ ، وَتَنَصَّلَ مِنْ
 صِحْقِهِ نِصَالِهِ ، وَاعْتَصَمَ بِمَعَاظِلِهِ الَّتِي لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عِقَالِهِ » .
 ومن ذلك ما ذكرته في وصفِ كَرَمٍ ، فقلتُ :
 « وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ حَرَمَهُ مَلَقَى الْجَفَانِ ، وَمُلْتَقَى الْأَجْفَانِ ، فَهُوَ حِمَى لِمَنْ جَنَى عَلَيْهِ
 زَمَانُهُ ، وَجَارٌ لِمَنْ بَعُدَ عَنْهُ جِيرَانُهُ »

ومن ذلك ما ذكرته في فصلٍ من كتابٍ إلى ديوانِ الخلافةِ ، وهو :
 « وَلَقَدْ اسْتَبَانَ الْخَادِمُ مِنْ بَرَكَةِ طَاعَتِهِ مَا يَغْمَى عَنْهُ غَيْرُهُ فَا يَرَاهُ ، وَوَجَدَ مِنْ أَثَرِهِ فِي
 صَلَاحِ دُنْيَاهُ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى صَلَاحِ أَنْعَرَاهُ ، فَهُوَ الْمَرْكَبُ الْمَنْجِيُّ وَالْعَمَلُ الْمَرْجُو لَا
 الْمَرْجَى . وَالْمَعْنَى الْمَرَادُ بِهَدَايَةِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فليَحْذَرِ الَّذِينَ
 يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٢٩)
 ومن ذلك ما ذكرته في أثناءِ كتابٍ إلى بعضِ الإخْوَانِ ، وذلك وَصَفُ بَعْضِ
 الْمُتَنَعِمِينَ ، فقلتُ :

(٢٩) سورة النور : الآية ٦٣ .

« نَحْنُ مِنْ حُسْنِ شَيْمِهِ وَفَوَاضِلِ إِحْسَانِهِ بَيْنَ هِنْدٍ وَهِنْدَةٍ ، وَمِنْ يُمْنِ تَقْيِيَّتِهِ وَأَمَانَةِ غَيْبِهِ بَيْنَ أُمِّ مَعْدٍ وَأَبِي عُيَيْدَةٍ » .

ومن ذلك ما ذكرته في مطلع كتابي إلى بعض الإخوان فقلت :
« الْكُتُبُ وَإِنْ عَدَّهَا قَوْمٌ عَرَضاً مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَتَقَالَّوْهَا حَتَّى قَالُوا هِيَ سَوَادٌ فِي بَيَاضٍ ، فَإِنَّ لَهَا عِنْدَ الْإِخْوَانِ وَجْهًا وَسِيمًا ، وَعَمَلًا كَرِيمًا ، وَهِيَ حَمَائِمُ الْقُلُوبِ إِذَا فَارَقَ حَمِيمٌ حَمِيماً . وَمَنْ أَحْسَنَهَا كِتَابٌ سِيدُنَا ... » .
ثم مضيتُ على هذا النهج إلى آخر الكتاب .

ومن هذا القسم قول أبي تمام :
أَيَّامٌ تُلْمَى عَيْنَهُ تِلْكَ اللَّيْلُ فِيهَا وَتَقْرَأُ لَهُ الْأَقَارُ^(٣٠)
وكذلك قوله :

بَيْضٌ فَهَنْ إِذَا رُمِقْنَ سَوَافِرًا صُورٌ وَهَنْ إِذَا رُمِقْنَ صَوَارًا^(٣١)
وكذلك قوله :
يَذُرُّ أَطَالَتْ فِيكَ بَادِرَةَ النَّوَى وَلَعَا وَشَمْسٌ أُولَعَتْ بِشِمَاسٍ^(٣٢)
وكذلك قوله :

كَادُوا النُّبُوَّةَ وَالْهَدَى فَتَقَطَّعَتْ أَعْنَاقُهُمْ فِي ذَلِكَ الْبُضْمَارِ
جَهَلُوا فَلَمْ يَسْتَكْتَرُوا مِنْ طَاعَةِ مَعْرُوفَةٍ بِعَارَةِ الْأَعْمَارِ^(٣٣)

(٣٠) ديوان أبي تمام ١٤٥ من قصيدة في مدح أبي سعيد الثوري ، ومطلعا :
لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيارُ دِيَارَ خُفِّ الْمَوَى وَتَوَلَّتْ الْأَوَاطارُ
ومعنى تقصر تغلب ، واللب العقل .
(٣١) من القصيدة السابقة ، ومعنى رمقن أطيل النظر إلين ، والسوافر المكشوفات ، والصور قطع بقر الوحش .

(٣٢) ديوان أبي تمام ١٧٣ من قصيدة في مدح أحمد بن المتعم ، ومطلعا :
مَاقٍ وَقَوِّفَتْ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْفِي خِصَامَ الْأَرَبِ الْأَدْرَاسِ
ورواية البديان « خطأ » موضع « ولعا » : « والبادة الخطأ » ، والنوى الفراق ، والشاس المصيان .
(٣٣) ديوان أبي تمام ١٥٤ من قصيدة يمدح فيها للمتعم ويذكر إحراق الأفشين ، ومطلعا :
الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وكذلك قوله :

إِنَّ الرَّمَاحَ إِذَا غَرَسَ بِمَشْهَدٍ فَجَنَى الْعَوَالِي فِي ذَرَاهُ مَعَالِي^(٣٤)

وكذلك قوله :

إِذَا أَحْسَنَ الْأَقْوَامُ أَنَّ يَتَطَاوَلُوا بَلَا نِعْمَةً أَحْسَنَتْ أَنْ تَتَطَوَّلَا^(٣٥)

وكذلك قوله :

أَيُّ رُبْعٍ يَكْذِبُ الدَّهْرَ عَنْهُ وَهُوَ مُلْقَى عَلَى طَرِيقِ اللَّيَالِي
بَيْنَ حَالٍ جَنَتْ عَلَيْهِ وَحَوْلٍ فَهوَ يُنْصَرُّ الْأَحْوَالِ وَالْأَحْوَالِ
شَدَّ مَا اسْتَرْزَلَتْكَ عَنْ دَمْعِكَ الْأُظَى حَتَّى اسْتَهْلَ صَوْبُ الْعَزَالِي
أَيُّ حُسْنٍ فِي الدَّاهِيَيْنِ تَوَلَّى وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُورِ الْجِجَالِ
وَدَلَالٍ مُخْتِمٍ فِي ذُرَا الْخَدِّ سِيمَ وَجِجَلٍ مَعْصَمٍ فِي الْجِجَالِ^(٣٦)

فالبيت الثاني والخامس هما المقصودان بالتمثيل هاهنا ، والأبيات الباقية جاءت تبعاً .

(٣٤) ديوان أبي تمام ٢٦٤ من قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك ، ومطلعهما :
أَلَّتْ أُمُورَ الشَّرْكَ شَرَّ مَالٍ وَأَقْرَبُ بَعْدَ تَحْبُطِ وَصِيَالٍ
والتخبط التكبر ، والصيال التسلط ، والجني الثمر ، والعوالى الرماح ، وذراه ظله .

(٣٥) ديوان أبي تمام ٢٥٢ من قصيدة في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ، مطلعها :
لَهَا نَ عَلَيْهِ أَنْ تَقُولَ وَتَقْمَلَا وَتَذَكَّرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِثْلَكَ تَفَضُّلَا
ورواية الديوان « بلامنة » موضع « بلامنة » .

(٣٦) رويت هذه الأبيات في الديوان (ص ٤٥٨) على النحو الآتي :

شَدَّ مَا اسْتَرْزَلَتْكَ مِنْ رِبْعِكَ الْأُظَى خَنَانٌ حَتَّى اسْتَهْلَ دَمْعَ الْغَزَالِ
أَيُّ حُسْنٍ فِي الدَّاهِيَيْنِ تَوَلَّى وَجَمَالٍ عَلَى ظُهُورِ الْجِجَالِ
وَدَلَالٍ مُخْتِمٍ فِي ذُرَا انْتِهِبِ سِيمَ وَجِجَلٍ مَعْلَبٍ فِي الْحِجَالِ
وَمَهَامٍ مَهَا الْخُدُودِ وَأَجَا لَ ظَبَاءٍ يَسِرُ عَنْ فِي الْأَجَالِ
عَادَكَ الزُّورَ لَيْلَةَ الرَّمْلِ مِنْ رَمْسٍ لَمَّةٌ بَيْنَ الْحَمَى وَيَيْنَ الْمَطَالِ
فَمَ لَهَا زَارَكَ الْخِيَالِ وَلَكِنَّ لَكَ بِالْفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الْخِيَالِ

والأطعان المراد في نساء ، واستهل سكب ، الذي فناء الدار ، والختم جمع خيمة ، والحجل الخلل ،
والحجال جمع حجلة وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والعزالي جمع عزلاء وهو مصب الماء من
الراوية .

ومما جاء من ذلك قولُ عليِّ بنِ جبلة (٣٧) :
 وكم لك من يومٍ رَفَعَتْ بِنَاءَهُ
 يَذَاتِ جُفُونٍ أَوْ يَذَاتِ جَفَانٍ
 وكذلك قول محمد بن وهيب الحميري :
 قَسَمْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ بَأْسًا وَنَائِلًا
 فَأَلَّكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتَر
 وهذا من المليح النادر .

ومن هذا القسم قولُ البُحْتَرِيِّ :
 جَدِيرٌ بَأَن تَنْشَقَّ عَنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ
 ضَبَابَةٌ نَفَعَ تَحْتَهَا الْمَوْتُ نَاقِعُ (٣٨)
 وكذلك قوله :

نَسِمْ الرُّوضِ فِي رِيحِ شَمَالٍ وَصَوَّبُ الْمَوْنِ فِي رَاحِ شَمُولٍ (٣٩)
 وذمُّ أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ إِذَا سَأَلَ الْحَفَّ ، وَإِذَا سُئِلَ سَوَّفَ . يَحْسُدُ عَلَى
 الْفَضْلِ ، وَيَزْهَدُ فِي الْإِفْضَالِ » .

القسم الرابع : من المشبه بالتجنيس : ويسمى (المعكوس) .
 وذلك ضربان : أحدهما عكسُ الألفاظ ، والآخر عكسُ الحروف .
فالأول : كقول بعضهم : « عَادَاتُ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ » وكقول الآخر :
 « شَيْمُ الْأَحْرَارِ أَحْرَارُ الشَّيْمِ » .

ومن هذا النوع مِمَّا وَرَدَ شعراً قولُ الْأَضْبَطِ بْنِ قُرَيْعٍ (٤٠) من شعراء الجاهلية :

(٣٧) علي بن جبلة هو المشهور بالمعكوك ، ولد سنة ١٦٠هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ ، وكان ضريباً مسرفاً في
 المدح مغالياً في معانيه .

(٣٨) ديوان البحتري ٤٦/١ من قصيدة مطلعها :

لَمْتُ وَهَلْ بِلَامِهَا لَكَ نَافِعَ وَزَارَتْ خِيَالَا وَالْمَيُونِ هَوَاجِعَ

(٣٩) ديوان البحتري ٣٠/١ من قصيدة مطلعها :

أَكُنْتُ مَحْنَى يَوْمِ الرَّحِيلِ وَقَدْ لَجْتُ دَعْوَى فِي الْعَمَلِ

(٤٠) هو من بني عوف بن كعب بن سعد ، وهبط الزبرقان بن بدر ، وكان قومه أساموا مجاورته ، فانتقل
 عنهم إلى آخرين ، فأساموا مجاورته ، فانتقل عنهم إلى آخرين ، فأساموا مجاورته ، فرجع إلى قومه ، وقال : بكل
 واد بنو سعد ، قال ابن قتيبة : وهو قديم ، وكان أغار على بني الحارث بن كعب ، فقتل منهم وأسر وجلع - ثم
 بنى أسلم ، وبنت الملوك حول ذلك الأطم مدينة صنعاء

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهُ
ويقطعُ الثوبَ غيرُ لابسِهِ ويلبسُ الثوبَ غيرُ مَنْ قَطَعَهُ^(٤١)
وكذلك وَرَدَ قولُ أبي الطيب المتنبي :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وكذلك قولُ الشريف الرضي مِنْ أبياتٍ يذم فيها الزمان :

أَسَفٌ بِمَنْ يَطِيرُ إِلَى الْمَعَالِي وَطَارَ بِمَنْ يُسِفُ إِلَى الدُّنَايَا
وكذلك قول الآخر :

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلُ تَطْوِي وَتُنَشِّرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقَصَارُهُنَّ مِنَ الْهَمَمِ طَوِيلَةٌ وَطَوَالُهُنَّ مِنَ السُّرُورِ قِصَارُ
وأحسنُ من هذا كله والطفه قولُ ابن الرِّقَاقِ الأندلسي :

غَيَّرَتْنَا يَدُ الزَّمَا نِ فَقَدْ شَبْتُ وَالتَّحَى
فَاسْتَحَالَ الضُّحَى دُجَى وَاسْتَحَالَ الدُّجَى ضُحَى

وهذا الضربُ من التجنيس له حلاوة ، وعليه زَوْنُق ، وقد سَمَّاهُ قَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ
الكَاتِبُ (التبديل) وذلك اسْمٌ مناسبٌ لِمَسْمَاهُ ، لأنَّ مؤلَّفَ الكلامِ يأتي بما كان
مَقْدَمًا في جزء كلامه الأول مؤخَّرًا في الثاني ، وبما كان مؤخَّرًا في الأول مَقْدَمًا في
الثاني ، ومثله قَدَامَةُ بقول بعضهم : « اشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ
شَكَرَكَ »^(٤٢) .

ومن هذا القسم قولُه تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ »^(٤٣) .

(٤١) من أبيات مطلعها :

يا قوم من عاذري من الخدعة واللى والصبح لا يلاح معهُ
وانظر الشعر والشراء ٣٤٣/١ .

(٤٢) ديوان المتنبي ٢٣/٢ من قصيدة في مدح كافور مطلعها :

أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيتنا وهي جنده

(٤٣) كتاب « جواهر الألفاظ » لقدامة بن جعفر : ص ٣٠٤ واسمه عنده « عكس اللفظ » أو « عكس

مانظم من بناء » . (٤٤) سورة آل عمران : الآية ٢٢ .

وكذلك وَرَدَ قول النبي ﷺ : « جَارُ الدَّارِ أَحَقُّ بِدَارِ الْجَارِ » .

وكتب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - كتاباً فقال : « أما بعد ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْرُهُ دَرْكُ مَالِهِ يَكُنْ لِقَوْنِهِ ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَالِهِ يَكُنْ لِيَذْرَكَ ، فَلَا تَكُنْ بِمَا نَلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَرِحَا ، وَلَا بِمَا فَاتَكَ مِنْهَا تَرَحَّأَ ؛ وَلَا تَكُنْ مَنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيُوَخِّرُ التَّوْبَةَ بِطَوْلِ أَمَلٍ ؛ وَكَأَنَّ قَدْ ، وَالسَّلَامَ » .

وروى عن أبي تمام أنه لما قصده عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان ، وامتنحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

« أَهْنُ عَوَادِي يُوسُفُ وَصَوَاحِيهِ ^(٤٥) » .

وأنكر عليه أبو سعيد الضرير وأبو العميثل هذا الابتداء ، وقالوا : « لِمَ لَا يَقُولُ مَا يُفْهَم » فقال : « لِمَ لَا يُفْهَمَانِ مَا يُقَالُ » ؟ ! فاستحسن منه هذا الجواب على الفور . وهو من التجنيس المشار إليه .

وقد جاء في شيء منه .

كقول في فصل من كتاب يتضمن فتحاً ، وهو :

« فِكْمٌ كَانَ فِي افْتِرَاعِ عُذْرَةِ الْحِصْنِ مِنْ افْتِرَاعِ عُذْرَةِ حَصَانٍ ، وَكَمْ حِيزَ بِهِ مِنْ سِنَانٍ لَحْظٍ اسْتَرْقَى لِحْظَ سِنَانٍ » .

وكذلك قول في صدر كتاب إلى ديوان الخلافة وهو :

« الْحَادِثُ يَبْلُغُ خِدْمَتَهُ إِلَى ذَلِكَ الْجَنَابِ الَّذِي تَمْطُرُهُ الشَّفَاهُ قُبْلًا ، وَتُوسِعُهُ الْعُقَاةُ أَمَلًا ، وَتَرَى الْخَوَلَ بِهِ مُلُوكًا وَالْمُلُوكَ خَوَلًا ، وَطَاعَتُهُ هِيَ عَمَلُ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَشِيرَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « يُبَيِّلُكُمْ أَنْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(٤٦) » .

(٤٥) صدر بيت وقامه . فزماً قلتماً أدرك السؤل صاحبه .

وانظر ديوان أبي تمام ٤٣ .

(٤٦) سورة الملك : الآية ٧ .

وكذلك ورد قول أيضاً ، وهو فصل من تقليد وزير ، فقلت :

وقد صدق الله لهجة المثني عليك أن يقول إنك الرجل الذي تُضربُ به الأمثال ،
والمهذب الذي لا يقالُ معه أى الرجال ، وإذا وازرتَ مملكةً فقد حظيتَ منك بشد
أزرها ، وسد ثغرها ، وأصبحت وأنتَ صدرٌ لقلبها ، وقلبٌ لصدرها ، فهي مُزدانةٌ
منك بالفضلِ المتين ، مُعانة بالقوى الأمين .

وأما الضرب الثاني من هذا القسم - وهو عكس الحروف - فهو كقول بعضهم :
أهدبتُ شيئاً يقلُّ لولا أحذوتُهُ الفُعالِ والتبرُّكُ
كُرمي تفاعلتُ فيه لآ رأيتُ مقلوبهُ «يسرك»
وكذلك قول الآخر :

كيف السرور بإقبالِ وآخرهُ إذا تأملتُهُ مقلوبُ «إقبال» (٤٧)
وأجودُ من هذا كله قول الآخر :

جاذبتُها والريحُ تجذبُ عقرَباً من فوقِ حدٍ مثلِ قلبِ العُقرَبِ
وطفقتُ الهمُّ ثغرها فتمنعتُ ونحجبتُ عني بقلبِ «العُقرَبِ»
وإذا قلبَ لفظُ «عُقرَب» صار «برُقعاً» .

وهذا الضربُ نادرُ الاستعمالِ ، لأنه قلٌّ ما يقعُ كلمةٌ تُقلبُ حروفها فيجى معناها
صواباً .

القسم الخامس : من المشبه بالتجنيس ، ويسمى (المجَنَّب) وذلك أن يجمعَ
مؤلفُ الكلامِ بين كلمتين إحداهما كالتَّبعِ للأخرى والجَنِبَةِ لها ، كقول بعضهم :

أبا العباسِ لا تحسبْ بائئى لشيءٍ من حُلَى الأشعارِ عارى
فلى طبعٍ كسلسالٍ معينِ زُلَالٍ من ذُرَا الأحجارِ جارى

وهذا القسمُ عندى فيه نظر ، لأنه يلزم ما لا يلزم أولى منه بالتجنيس . ألا ترى أن
التجنيسَ هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى . وهاتنا لم يتفق إلا جزءٌ من اللفظ ، وهو

(٤٧) مقلوب «إقبال» هو كلمة «إبقاء» .

أقله ، وأمّا الزوم في الكلام المنشور فهو تساوى الحروف التي قبل الفواصل المسجوعة ، وهذا هو كذلك ، لأنَّ العين والراء تساويا في البيت الأول في قوله « الأشعار » و « عار » ، والجهم والراء في البيت الثاني في قوله « الأحجار » و « جار » .

القسم السادس : من المشبه بالتجنيس : وهو ما يساوى وزنه تركيبه ، غير أنَّ حروفه تتقدّم وتأخر ، وذلك كقول أبي تمام .

يَبِضُ الصَّفَائِحُ لَاسُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتَزِنَهْنَ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ ^(٤٨)
فالصفائح والصحائف مما تقدّمت حروفه وتأخرت :

وقد ورد في الكلام المنشور كقوله عليه السلام في فضيلة تلاوة القرآن الكريم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت تُرتل في الدنيا ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تُقرأ » .

فقوله عليه السلام « اقرأ » و « ارتق » من التجنيس المُشار إليه في هذا القسم .

النوع الثالث

في الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد ، وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك نجعل هذا في الألفاظ المنشورة من الأسجاع ، وهو أن تكون كلُّ لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكلِّ لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية .

وهذا لا يُوجد في كتاب الله تعالى ، لما هو عليه من زيادة التكلف .

(٤٨) ديوان أبي تمام ٧ من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية ، ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويبض الصفائح يراد بها السيوف .

فَأَمَّا قَوْل مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْهُ شَيْئًا وَمِثْلُهُ يَقُولُهُ تَعَالَى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ^(١) » فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا وَقَعَ لَهُ ، فَإِنَّ لَفْظَةَ « لَفِي » قَدْ وَرَدَتْ فِي الْفَقَرَتَيْنِ مَعًا ، وَهَذَا يَخَالِفُ شَرْطَ التَّرْصِيعِ الَّذِي شَرَطْنَاهُ ، لَكِنَّهُ قَرِيبٌ مِنْهُ . وَأَمَّا الشَّعْرُ فَإِنِّي كُنْتُ أَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتَزَنُّ عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، لَمَّا فِيهِ مِنْ تَعَمُّقِ الصَّنْعَةِ ، وَتَعَسُّفِ الْكُلْفَةِ ، وَإِذَا جِيءَ بِهِ فِي الشَّعْرِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ مَحْضُ الطَّلَاوَةِ الَّتِي تَكُونُ إِذَا جِيءَ بِهِ فِي الْكَلَامِ الْمَثُورِ ، ثُمَّ إِنِّي عَثَرْتُ عَلَيْهِ فِي شَعْرِ الْمُحَدِّثِينَ ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ جَدًّا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

فَكَارَمٌ أَوَّلِيَّتُهَا مَتَبَرَعًا وَجَرَائِمُ أَلْفِيَّتُهَا مَتَوَرَعًا

فَ « مَكَارِمَ » يَإْزَاءُ « جَرَائِمَ » وَ « أَوَّلِيَّتُهَا » يَإْزَاءُ « أَلْفِيَّتُهَا » وَ « مَتَبَرَعًا » يَإْزَاءُ « مَتَوَرَعًا » .

وَقَدْ أَجَازَ بَعْضُهُمْ أَنَّ يَكُونُ أَحَدُ الْفَاطِظِ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مَخَالِفًا لَمَّا يَقَابِلُهُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي ، وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ، لِخِلَافَتِهِ حَقِيقَةَ التَّرْصِيعِ .

فَمَّا جَاءَ مِنْ هَذَا النَّوعِ مَثُورًا قَوْلُ الْحَرِيرِيِّ فِي مَقَامَاتِهِ « فَهُوَ يَطْبِيعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ » فَإِنَّهُ جَعَلَ الْفَاطِظَ الْفَصْلَ الْأَوَّلَ مَسَاوِيَةً لِلْفَاطِظِ الْفَصْلِ الثَّانِي زَوْنًا وَقَافِيَةً ، فَجَعَلَ « يَطْبِيعُ » يَإْزَاءُ « يَقْرَعُ » وَ « الْأَسْجَاعَ » يَإْزَاءُ « الْأَسْمَاعَ » وَ « جَوَاهِرَ » يَإْزَاءُ « زَوَاجِرَ » وَ « لَفْظِهِ » يَإْزَاءُ « وَعْظِهِ » .

وَمِمَّا جَاءَنِي فِي هَذَا النَّوعِ :

مَازَكْرُهُ فِي جَوَابِ كِتَابِ إِلَى بَعْضِ الْإِخْوَانِ ، وَهُوَ :

« قَدْ أَعْدْتُ الْجَوَابَ ، وَلَمْ أَسْتَعِزْ لَهُ نَظْمًا مَلْفَقًا ، وَلَا جَلْبِثًا إِلَيْهِ حُسْنًا مَنْمَقًا ، بَلْ أَخْرَجْتُهُ عَلَى رِسْلِهِ ، وَغَنَيْتُ بِصِقَالِ حُسْنِهِ عَنْ صِقْلِهِ ، فَجَاءَ كَمَا تَرَاهُ غَيْرَ مَمْشُوطٍ وَلَا مَخْطُوطٍ ، فَهُوَ يَرْفُلُ فِي أَنْوَابِ بَذَلْتِهِ ، وَقَدْ حَوَى الْجَمَالَ بِجُمْلَتِهِ ، وَالْحُسْنَ مَاوَشَّتْهُ فِطْرَةُ التَّصْوِيرِ ، لَا مَا حَشَتْهُ فِكْرَةُ التَّزْوِيرِ » وَالتَّرْصِيعُ فِي قَوْلِي « وَشَتْهُ فِطْرَةُ التَّصْوِيرِ » وَ « حَشَتْهُ فِكْرَةُ التَّزْوِيرِ » .

وكذلك ورد قول في فصل من الكلام يتضمن تثقيف الأولاد :

فقلتُ : « مَنْ قَوْمَ أَوْدَ أَوْلَادِهِ ، ضَرَّمْ كَمَدَ حُسَادِهِ » فهذه الألفاظ متكايفة في نرسيهما ، فـ « قَوْمَ » يازاء « ضَرَّمْ » و « أَوْدَ » يازاء « كَمَدَ » و « أولاده » يازاء « حُسَادِهِ » .

وكذلك قولُ بعضهم في الأمثال المولدة التي لم ترد عن العرب ، وهو : « مَنْ أَطَاعَ غَضَبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ » ، فـ « أطاع » يازاء « أضاع » و « غضبه » يازاء « أدبه » . وقد وردَ هذا الضربُ كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيبُ عبد الرحيم بن نبأثة رحمه الله ، فمن ذلك قوله في أول خطبة : « الحمد لله عاقلة أزمنة الأمور بعزائم أمره ، وحاصدة أئمة الغرور بقواصم مكره ، وموفق عبيده لمغائيم ذكره ، ومحقق مواعيده بقلوازم شكره »

فالألفاظ التي جاءت في الفصلين الأولين متساوية وزناً وقافية ، والتي جاءت في الفصلين الآخرين فيها تتألف في الوزن ، فإن « مواعيد » تتألف وزن « عبيد » ، ولاتتألف قافيتها التي هي الدال .

ومن ذلك قوله أيضاً في جملة خطبة « أولئك الذين أقفلوا فتنجتمهم ورحلوا فأقمتم ، وأبادهم الموت كما علمتم ، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم كما زعمتم ، كلا والله ما أشخصوا لتقرؤا ، ولا نغصوا لئسروا ، ولا بد أن تمرؤا حيث مروا ، فلا تثقوا بخدع الدنيا ولا تغتروا » .

وهذا الكلام فيه أيضاً ما في الذي قبله من صحة الوزن والقافية وصحة القافية دون الوزن .

وكذلك قوله أيضاً في خطبة أخرى : « أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكيم ، وأديموا النحيب على ايضاض اللمم ، وأطيلوا الاعتبار بانتقاص النعم ، وأجبلوا الأفكار في انقراض الأم » .

وأما ما ورد في الشعر على مخالفة بعض الألفاظ بعضاً فكقول ذي الرمة :

كحلاء في بَرَجٍ صَفْرَاءُ فِي دَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ^(٢)

وصدر هذا البيت مرصع ، وعجزه خالٍ من الترصيع ، وعذر الشاعر في ذلك واضح ، لأنه مقيدٌ بالوقوف مع الوزن والقافية ، ألا ترى أن ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ، ولورصع هذا البيت الترصيع الحقيقي لكان يلزمه أن يأتي ألفاظه على حرفين حرفين : أحدهما الباء ، أو كان يُقسم البيت نصفين ويمثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف ، وذلك ممَّا يغسر وقوعه في الشعر .

وأرباب هذه الصناعة قد قسموا الترصيع إلى هذين القسمين المذكورين ، وهذه القسمة لا أراها صواباً ، لأن حقيقة الترصيع موجودة في القسم الأول دون الثاني .

وبما جاء من هذا القسم الثاني قولُ الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ مَهْدَى الطَّرِيقَةِ نَفَاحٌ وَضَرَارٌ^(٣)
وكذلك قولُ الآخر^(٤) :

سُودَ دَوَائِبُهَا يَبُضُّ تَرَائِبُهَا مَحْضُ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ مِنَ الْكَرَمِ

(٢) من قصيدة له مطلعها .

ما بال عينك منها للاء ينسكب كأنه من كل مفرقة سرب
ورواية الديوان « دعج » موضع « بروج » و « نعج » موضع « دعج » .

(٣) من قصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر التي مطلعها :

ماهاج حزتك أم بالين هوزر أم ذرت أم خلت من أهلها الدار
وقد سقط البيت من ديوانها ، واستدركه الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه « أنيس الجلساء » في شرح ديوان الخنساء ص ٨١ ، وقد استشهد به أبو هلال العسكري للترصيع الجيد ، وأتبعه بيت الخنساء الذي يليه :

فعال سامية وراد طامية للمجد ثامية تعينه أمصار

وقال : هذا البيت ردي ، لثبوت بعض ألفاظه من بعض ، وانظر الصانعين ٣٧٨ .

(٤) هو أبو صخر الهذلي .

النوع الرابع في لزوم ما لا يلزم

وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً ، وأبعدها مسلكاً ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه ، فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوى أجزاء الفواصل من الكلام المنشور في قوافيها ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً .

وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روى الأبيات الشعرية .
وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان^(١) في ذلك كتاباً وسماه كتاب « اللزوم »^(٢) ، فأتى فيه بالجيد الذي يُحمد ، والرديء الذي يُذم .
وسأذكر في كتابي هذا في هذا الموضع أمثلة من المنشور والمنظوم يهتدى بها .

فإن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب في فصل يتضمن ذم جبان ، فقلت :
« إذا نزل به خطبُ ملكه الفرق ، وإذا ضلَّ في أمر لم يؤمن إلا إذا أدركه الفرق » .

ومن ذلك ما ذكرته في مبدأ كتاب إلى بعض الإخوان ، فقلت :
« الخادم يهذى من دُعائه وثنائه ما يسلكُ أحدهما سماءَ الآخر أرضاً ، ويصون أحدهما نفساً والآخر عريضاً ، وأعجب ما فيها أنها توأمان ، غير أن هذا مستنحج من ضمير القلب وهذا من نطق اللسان » .
فاللزوم هاهنا في الرأ والصاد .

(١) هو أبو العلاء المعري .

(٢) هذا اختصار لاسم الكتاب ، كما يسميه بعضهم « اللزومات » والحقيقة أن اسمه كما سماه مؤلفه « لزوم ما لا يلزم » قال أبو العلاء في خطبته : وجمعت ذلك كله في كتاب لقبته « لزوم ما لا يلزم » ومعنى هذا القلب أن الغافية تلزم لها لوازم لا يفترق إليها حشو البيت . . . الخ - لزوم ما لا يلزم : ج ١ ص ٣ .

وكذلك ورد قول في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة ، فقلت :

« وَقَدْ عَلِمَ مِنْ شَيْمِ الدِّيَّانِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ يُسَرُّ بِامْتِدَادِ الْأَيْدِي إِلَى بَابِهِ ، وَإِذَا أَعْبَى أَحَدُهَا فِي الْمَسْأَلَةِ نَهَاهُ عَنْ إِغْيَابِهِ ، حَتَّى لَا يَخْلُو حَرَمَهُ الْكَرِيمُ مِنَ الْمَطَافِ ، وَلَا يَدَهُ الْكَرِيمَةَ مِنَ الْإِسْعَافِ » .
فاللزوم هاهنا في لفظي « بابه » و « إغيا به » .

ومن ذلك ما كتبه في جملة كتاب إلى ديوان الخلافة أيضا ، وهو :

« وَمِمَّا شَدَّ بِهِ عَصْدُ الْخَادِمِ مِنَ الْإِنْعَامِ فَإِنَّهُ قُوَّةُ اللَّيْلِ خَوْنَهُ ، وَلَا يَقْوَى تَصَعُّدُ السُّحْبِ إِلَّا بِكَثْرَةِ غَيْثِهِ الَّذِي أُنْزِلَتْهُ ، وَغَيْرُ خَافٍ أَنْ عَيْدَ الدَّوْلَةِ لَهَا كَالْعَمْدِ مِنْ طَرَفِهَا (٣) ، وَمَرْكَزُ الدَّائِرَةِ مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَلَا يُؤَيِّدُ السِّيفُ إِلَّا بِقَائِمِهِ ، وَلَا يَنْهَضُ الْجَنَاحُ إِلَّا بِقَوَائِمِهِ » .
فاللزوم في هذا الموضع في الرأى والفاء في قول « طراف » و « أطراف » .

ومن ذلك ما كتبه في صدر كتاب إلى الملك الأفضل على بن يوسف أهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسائة ، فقلت :

« الْمَمْلُوكُ يَهْنَأُ مَوْلَانَا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الْمُؤَدَّةِ بِاسْتِخْلَاصِهِ وَاسْتِجَابَتِهِ ، وَتَمَكِّنُهُ حَتَّى بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَاسْتَخْرَجَ كَثْرَ آبَائِهِ ، وَلَوْ أَنْصَفَ لَنَا الْأَرْضُ مِنْهُ بِوَابِلِهَا ، وَالْأَمَّةُ بِكَافِلِهَا ، وَخُصُوصاً أَرْضُ مِصْرَ الَّتِي خُصَّتْ بِشَرَفِ سُكْنَاهُ ، وَغَدَّتْ يَنْ بَحْرَيْنِ مِنْ قَبْضِ الْبَحْرِ وَفَيْضِ يُمْنَاهُ » .

وكل هذه الفصول المذكورة من هذه المکتوبات التي أنشأتها لا كلفة على كلمات اللزوم فيها .

وقرأت في كتاب « الأغاني » لأبي الفرج أن لقيط بن زُرارة تزوج بنت قيس بن خالد بن زبي الجديين ، فحظيت عنده ، وحطى عندها ، ثم قتل ، فأمت بعده ، وتزوجت زوجاً غيره ، فكانت كثيراً ما تذكر لقيطاً ، فلأمها على ذلك ، فقالت :

(٣) الطراف البيت من آدم .

« أَنَّهُ خَرَجَ فِي يَوْمٍ دَجَنٌ ، وَقَدْ تَطَيَّبَ وَشَرَبَ فَطَرَدَ الْبَقَرَ فَصَرَغَ مِنْهَا ، ثُمَّ أَتَانِي وَبِهِ نَضْعُ دَمٍ ، فَضَمَنِي ضَمَّةً ، وَشَمَنِي شَمَةً ، فَلَيْتَنِي مِتُّ ثَمَّةً ، فَلَمْ أَرُ مَنْظَرًا كَانَ أَحْسَنَ مِنْ لَقِيْطٍ » .

فَقُولُوا « ضَمَنِي ضَمَّةً ، وَشَمَنِي شَمَةً . فَلَيْتَنِي مِتُّ ثَمَّةً » مِنْ الْكَلَامِ الْخُلُوفِيِّ بِأَبِ
الزُّرُومِ ، وَلَا كَلْفَةَ عَلَيْهِ .

وَهَكَذَا فَلْيَكُنْ ، فَإِنَّ الْكَلْفَةَ وَحْشَةٌ تَذْهَبُ بِرَوْنِقِ الصَّنَعَةِ . وَمَا يَبْنِي لِمُؤَلِّفِ الْكَلَامِ
أَنْ يَسْتَعْمَلَ هَذَا التَّوَعُّجَ حَتَّى يَجِيءَ بِهِ مُتَكَلِّفًا . وَمِثَالُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَمَنْ أَخَذَ مَوْضُوعًا
رَدِيئًا فَأَجَادَ فِيهِ صَنْعَتَهُ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ قَدْ رَاعَى الْفَرْعَ ، وَأَهْمَلَ الْأَصْلَ ،
فَأَضَاعَ جُودَةَ الصَّنَعَةِ فِي رَدَاءَةِ الْمَوْضُوعِ .

وَقَدْ سَلَكَ ذَلِكَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمُعَرِّيُّ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ، فَمَّا جَاءَ مِنْ ذَلِكَ
قَوْلُهُ فِي حَرْفِ التَّاءِ مَعَ الْخَاءِ (٤) .

بِنْتُ عَنْ الدُّنْيَا وَلَا بِنْتُ لِي فِيهَا وَلَا عِرْسٌ وَلَا أُخْتُ
وَقَدْ تَحَمَّلْتُ مِنَ الْوِزْرِ مَا تُعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ الْبُخْتُ (٥)
إِنْ مَدَحُونِي سَاءَ نَبِيْ مَدْحُهُمْ وَخِلْتُ إِنِّي فِي الشَّرِّ سَخْتُ
وَلَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجِدِيدِ كَقَوْلِهِ :

لَا تَطْلُبَنَّ بَالِكَ لَكَ حَاجَةٌ قَلَمُ الْبَلِيغِ بِغَيْرِ جَدٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السَّكَاكِينِ (٦) السَّمَاءَ كِلَاهُمَا هَذَا لَهُ رُمُحٌ وَهَذَا أَعْزَلُ
وَهَذَا بَيْنَ الْإِسْتِمْسَالِ وَبَيْنَ الْكَلْفَةِ .

وَأَمَّا مَا تَكْلِفُ لَهُ تَكَلُّفًا ظَاهِرًا - وَإِنْ أَجَادَ - فَقَوْلُهُ (٧) :

تَنَازُعٌ فِي الدُّنْيَا سِوَاكَ وَمَالُهُ وَلَا لَكَ شَيْءٌ فِي الْحَقِيقَةِ فِيهَا

(٤) لزوم مالا يلزم ١/١٤٠ .

(٥) البخت الإبل الحراسانية المولدة ، من حرية وفالج - والفالج الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من
السند للفحلة .

(٦) السكاك الأعرل والرامح نجمان نيران ، والأعرل لأنه لا سلاح معه ، أو لأنه إذا طلع لا يكون في أيامه
رياح ولا برد ، والرامح نجم يكون قدام الفكة يقدمه كوكب يقولون هو رجمه ، والفكة كوكب مستديرة خلف
السماك الرامح . (٧) لزوم مالا يلزم ٢/٤١٠ .

ولكنها ملكٌ لربِّ مُقدِّرٍ
ولم تحط من ذلك التزاع بطلل
فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها
تداعوا إلى التزر القليل فجالدوا
وما أم صلٍّ أو حيلة ضيغم
تلاقي الوفود القادميةا بفرحة
وما هي إلا شوكة ليس عندها
كما نبتت للطيور والوخش رازم
تناهت عن الإنصاف من ضيم لم يجد

سيلاً إلى غايات متصفيها
فأطبق فأ عنها وكفا ومقلق
ومن ذلك (١٣) :

أرى الدنيا وما وصفت بير
إذا خشيت لشر عجلته
حياة كالجبال ذات مكر
فلا يخدع بحيلتها أريب
أذاقته شها من جناها
إذا أغتت فقيرا أزهقته
وإن رجيت لخير عوقته
ونفس المر صيد أعلقته
وإن هي سورت ونطقته
وصدت فاه عما ذوقته

(٨) الجنوب جمع جنب وهو شق الشيء ، وارتدله تبعه .

(٩) أم صل الحية ، وحيلة الضيغم لئلا الأسد أذى زوجته ، وقوله فاعترفها أى فاعترفها .

(١٠) في الديوان « شاكاة » موضع « شوكة » والشاكاة الكثيرة الشوكة ، والإرطاب مصدر أرطب النخل حان أوان رطبه ، واخترت التمار جناها .

(١١) الرازم البعير لا يقوم بهزلا ، وإنما أنث الضمير والفعل لتأويله بمؤنث أو خبر عن الطير .

(١٢) هذه كلمة تستعملها العرب عند الدعاء بالمكروه والشهامة به والمعنى جعل الله فم الداهية مقابلا لفيك ، وأصل ذلك أن السباع إذا تهاوت صرفت أفواهها بعضها لبعض ، فكأنهم يدعون على من يقال له ذلك أن يكون مكابداً للدواهي .

(١٣) لزوم مالا يلزم ٤٠٠/٢

(١٤) في الديوان « أوهقته » أى جعلت الوقت - وهو الحبل - في عقه .

وَقَدْ وَرَدَ للعرب شيءٌ من ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَلِيلٌ ، فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي آيَاتِ
الْجُمُاسَةِ (١٥) :

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فُؤَادَكَ مَلَهَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا بِلِبَاقَةٍ فَأَدَقَهَا وَأَجَلَهَا
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَاهَا
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلَوَةٍ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُؤَادِ فَسَلَاهَا
وهذا من اللطافة على ما يشهد لنفسه .

ومِمَّا يَجْرِي هذا المَجْرَى قَوْلُ حَجْرٍ بِنِ حَيَّةِ الْعَبَسِيِّ مِنْ شِعْرَاءِ الْجُمُاسَةِ أَيْضاً (١٦) :

وَلَا أَدُومُ قِدْرِي بَعْلِمَا نَصَبَتْ بُخْلًا قَتَمْنَعُ مَا فِيهَا أَثَابِيهَا (١٧)
حَتَّى نَقْصَمَ شَيْئَ بَيْنَ مَا وَسِعَتْ وَلَا يُؤْنِبُ تَحْتَ اللَّيْلِ عَافِيَهَا (١٨)

ومِمَّا وَرَدَ من ذَلِكَ أَيْضاً قَوْلُ طَرْفَةِ بِنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِى :

أَلَمْ تَرِ أَنَّ الْمَالَ يَكْسِبُ أَهْلَهُ فُضُوحًا إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ تَوَاسِيَةٌ
أَرَى كُلَّ مَالٍ لَا عَالَةَ ذَاهِبًا وَأَفْضَلُهُ مَا وَرَثَ الْحَمْدَ كَاسِبَةٌ
وكذلك قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ :

وَعَبِيرٌ لَوْ أَنَّ رَاحِلَتِي وَلَوْ نِي تَرَدَّى الْهَوَاجِسَ وَأَعْتِمَامِي
أَقُولُ لَهَا إِذَا ضَجَرْتُ وَعَصَتْ بِمُورِكَةِ الْوَرَاكِ مَعَ الزَّمَامِ
عَلَامٌ تَلْفُتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَمَامِي

(١٥) مضمي الكلام في هذا الشعر في ص ١٩٠ من هذا الكتاب .

(١٦) ديوان الجُمُاسَةِ ٢٨٩/٢ ، والواقع أَنَّهُ لَا التَّزَامَ فِي هَذَا الشَّعْرِ إِلَّا فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَبَعْدَهُمَا بَيَانُ لَا التَّزَامَ
لِهَا وَمَا :

لَا أَحْرَمَ الْحَبَاةَ الدُّنْيَا إِذَا اقْرَبَتْ وَلَا أَقْوَمَ بِنَا فِي الْحَيِّ أَخْبَرَا
وَلَا أَكْلَمَهَا إِلَّا عِلَاتِيَّةً وَلَا أَخْبَرَهَا إِلَّا أَنَادِيَا

(١٧) رَوَايَةُ الْجُمُاسَةِ « تَنْقِيعُ » مَوْضِعُ « وَضَعُ » . وَالْأَثَافِيُّ الْحَبَاةُ الَّتِي تَوْضَعُ عَلَيْهَا الْقَدَرُ
وَالْمَعْنَى : لَا أَدْعُ قِدْرِي بَعْدَ تَضَجِّجِهَا عَلَى الْأَثَافِيِّ بَعْلًا بِمَا لَهَا ، بَلْ أَنْزَلَهَا عَنْهَا ، وَأَطْعَمَ مِنْهَا الْأَضْيَافَ وَكَانَ
مِنْ عَادَةِ الْبَخِيلِ أَنْ يَتْرَكَ الْقَدْرَ مَنْصُوبَةً عَلَى الْأَثَافِيِّ ، لِيَرَى غَيْرَهُ أَنْ الْقَدْرَ لَمْ تَضْجَعْ .

(١٨) لَا يُؤْنِبُ أَيْ لَا يَلَامُ ، وَالْعَافِيُّ فِي طَالِبِ الْمَعْرُوفِ .

وكذلك قوله أيضاً :

منع الحياة من الرجال ونفعها حدق ثقلها النساء مراض
وكان أئدة الرجال إذا رأوا حدق النساء لثيلها أغراض

وإذا شئت أن تعلم مقادير الكلام ، وكان لك ذوق صحيح فانظر إلى هذا
العربى في كلامه السهل الذى كأنه ماء جار . وانظر إلى ما أوردته لأبي العلاء المعرى ،
فإن أثر الكلفة عليه باذٍ ظاهر .

ومن قصد من العرب قصيدة كله على الزوم كثير عزة ، وهى القصيدة التى أولها .
خيلى هذا ربع عزة فاعفلا قلو صيكم ثم احللا حيث حلت^(١٩)
وهذه القصيدة تريد على عشرين بيتاً ، وهى مع ذلك سهلة لينة ، تكاد يترقرق من
لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة شئ . ولولا خوف الإطالة لأوردتها
بجملتها .

وقد ذكر بعضهم من هذا النوع ما ورد في أبيات الحامسة^(٢٠) وهو :

وكيشة ليست كهذى العيش قد ملئت من ترف وطيش^(٢١)
إذا بدت قلت أمير الجيش من ذاقها يعرف طعم العيش

وهذا ليس من باب الزوم ، لأن الزوم هو أن يلتزم الناظم والنائر مالا يلزمه ،
كقولنا « شرق » و « فرق » مثلاً ، فإنه لو قيل بدلا من ذلك « شرق » و « حتى » لجاز
ذلك .

وفى هذه الأبيات لا يقع الأمر كذلك ، لأنه لو قيل « طيش » و « عرش » لما
جاز . وهذا يقال له الرّدْف فى الشعر وهو الباء والواو قبل حرف الروى ، وإذا جيء

(١٩) رواية لزوم مالا يلزم (١٧/١) « ثم ابكيا حيث حلت » وكذلك فى سر القاصحة (٢١١) قال
الحقاجى : وكان شيخنا - يقصد أبا العلاء - يذهب إلى أن قصيدة كثير التى أولها « خيلى . . . قد لزم اللام فى
جميعها ، فلما سألتنا عن البيت الذى يروى فيها ، وهو

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى وجن اللواقى قلن عزة جنت
قال : هذا البيت ليس من هذه القصيدة .

(٢٠) ديوان الحامسة ٣٧١/٢ . (٢١) رواية الحامسة . « قد ملئت من خرق وطيش » .

بذلك في الشعر وفي الكلام المنشور لا يقال إنه التزام مالا يلزم ، لأنَّ الالتزام مالا يلزم له مندوحة في العُدول إلى غيره ، وهاهنا لا مندوحة .

ومن لطيف ذلك ما يروى لامرأة من البصرة مَجَنَّتْ بِأَبِي نُؤاسَ فَقَالَتْ :
إِنْ حَرَى حَزْبُلُ حَزَائِيهٖ إِذَا قَعَدْتُ قَوْفَهُ نَبَائِيهٖ (٢٣)
كَأَلَا زَنْبِ الْجَارِمِ فَوْقَ الرَّايَةِ

وكذلك وَرَدَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامَ ، وهو (٢٤) :

خَدَمَ الْعُلَا فَجَلَمَتْنِهٖ وَهِيَ الَّتِي
فَإِذَا ارْتَقَى فِي قَلْعَةٍ مِنْ سُودُدٍ
وَعَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ قَوْلُهُ أَيْضاً (٢٥) :

وَلَوْ جَرَّبْنِي لَوَجَدْتَ خَرْقاً
جَدِيراً أَنَّ يَكْرَ الطَّرْفِ شَرْراً
يُصَالِي الْأَكْرَمِينَ وَلَا يُصَادِي
إِلَى بَعْضِ الْمَوَارِدِ وَهُوَ صَادٍ

وله من أبياتٍ تتضمن مرثية (٢٦) :

لَقَدْ فَجَعْتَ عَتَابَهُ وَزُهُيرَهُ
وَمُبْتَدِرَ الْمَعْرُوفِ تَسْرَى هَيَاتَهُ
طَوَاهُ الرَّدَى طُلَى الرَّدَاءِ وَغَيَّبَتْ
طَلَى شَيْعاً كَانَتْ تَرُوحُ وَتَقْتَلِدِي
وَتَغْلِبُهُ (٢٧) أُخْرَى اللَّيَالِي وَوَائِلُهُ
إِلَيْهِمْ وَلَا تَسْرَى إِلَيْهِمْ (٢٨) غَوَائِلُهُ
فَصَائِلُهُ عَنْ قَوْمِهِ وَقَوَائِلُهُ
وَسَائِلُ مَنْ أَعْيَتْ عَلَيْهِ وَسَائِلُهُ

(٢٢) الحزبيل المشرف ، والحزاية الغليظ .

(٢٣) ديوان أبي تمام ٣١٣ من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن المهيم ، ومطلعها :

نُزِرْتُ فَرِيدَ مَدَامِمْ لَمْ تَنْظُمِ وَالْذَمُّ يَجْمَلُ بَعْضُ شَجَرِ الْمَرْمِ

(٢٤) ديوان أبي تمام ٨١ من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي داود ، ويعتذر إليه ومطلعها :

سَقَى عَهْدَ الْحَمَى سَبِيلَ الْمَهَادِ وَرَوْضَ حَاضِرٍ مِنْهُ وَبَادِ

(٢٥) رواية الديوان « ولو كَشَفْتَنِي » والخرق السخي ، ويصادي يمارض .

(٢٦) ديوان أبي تمام ٣٧٧ من قصيدة يريى بها القاسم بن طوق ، ومطلعها :

جَوَى سَاوِرَ الْأَحْشَاءِ وَالْقَلْبِ وَاغْلَهُ وَدَمَعُ يَضْمِ الْعَيْنِ وَالْجَفْنِ هَامَلَهُ

(٢٧) في الأصل « وتعلبه » والصواب عن الديوان ، وفجعت أصيب ، وعتاب وزهير وتغلب ووائل قبائل .

(٢٨) المبتدر المسرع ، الغوائل للمهلكات .

فِيَا عَارِضًا لِلْعُرْفِ أَقْلَعَ مُرْنَهُ وَيَا وَادِيًا لِلْجُودِ جَفَّتْ مَسَابِلُهُ
 أَلَمْ تَرَنِي أَتَزَقْتُ عَيْنِي عَلَى أُنَى مُحَمَّدٍ النَّجْمِ الْمُغِيبِ ^(٢٩) أَقْلَهُ
 وَأَخْضَلْتُهَا فِيهِ كَمَا لَوْ أَتَيْتُهُ طَرِيدَ اللَّيَالِي أَخْضَلْتَنِي ^(٣٠) نَوَافِلَهُ
 وهذا من أحسن ما يبيىء في هذا الباب ، وليس بتكلفٍ كشر أبي العلاء ، فإنَّ
 حُسْنَ هذا مطبوعٌ ، وحُسْنُ ذاك مصنوعٌ .

وكذلك أقول في غير اللزوم من الأنواع المذكورة أولاً ، فإنَّ الألفاظ إذا صدرت
 فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع ، وكانت غير مُستجَلِبَةٍ ولا متكلفة ، جاءت غير
 محتاجة إلى التأنى . ولا شك أن صورة الخِلْقَةِ غير صورة التَخَلُّقِ .
 فإن قيل ما الفرق بين المتكلف من هذه الأنواع وغير المتكلف ؟
 قلت في الجواب :

أما المتكلف فهو الذى يأتي بالفكرة والرؤية ، وذلك أن يُنْصَى الخاطِرُ في طلبه ،
 ويُبْعَثَ على تَبْيِيحه ، واقتصاص أثره وغير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله ، وهو أن
 يكون الشاعر في نظم قصيدته ، أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته ، فَيَبِينَا
 هو كذلك إذ سَحَّ له نوعٌ من هذه الأنواع بالاتفاق ، لا بالسعى والطلب . ألا ترى إلى
 قول أبي نواس ^(٣١) في مثل هذا الموضع :

أَتَزَلُّ الْأُطْلَالَ لَا تَعْبًا بِهَا إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ ذَائِنَةٌ
 وَأَنْتَ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِهَا إِنَّهَا دُنْيَاكَ دَارٌ قَائِنَةٌ
 مِنْ عَقَارٍ مَنْ رَأَاهَا قَالَ لِي صِيدَتِ الشَّمْسُ لَنَا فِي آيِنَةٍ ^(٣٢)
 وعلى هذه السهولة واللطافة وردَ قوله أيضاً :
 كَمْ مِنْ غُلَامٍ ذِي تَحَاسِينٍ أَفْسَدَهُ نَاطِفٌ يَاسِينٍ ^(٣٣)

(٢٩) في الأصل « المشرق »

(٣٠) في الأصل « أخضلتها » و « أخضلتني » . ومعنى أخضلتها بلتها ، والتأفل العطايا .

(٣١) ديوان أبي نواس ٣٥١ .

(٣٢) رواية الديوان « في باطية » والباطية الناجود ، وهو الحمر ولناؤها .

(٣٣) الناطف ضرب من الحلوى يصنع من الجوز واللوز والفسق .

وَهَذَا «بَاسِينٌ» كَانَ يَبِيعُ النَّاطِفَ يَبْخَدَاذَ .

وحكى إبراهيم البَنْدِينِيُّ قَالَ : رَأَيْتُ شَيْخًا ضَعِيفًا يَبِيعُ نَاطِفًا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا شَيْخُ ، أَمَا زِلْتُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ؟ فَقَالَ : مُذْ كُنْتُ ، وَلَكِنْ الْحَالُ كَانَتْ وَاسِعَةً ، وَالسَّلْعَةُ نَافِقَةً ، وَكُنْتُ مِمَّنْ يَشَارُ إِلَى ، حَتَّى قَالَ أَبُو نُوَّاسٍ فِي ، وَأَنْشَدَ هَذَا الْبَيْتَ .
فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ ، مَا أَحَلَّى لَفْظَ أَبِي نُوَّاسٍ فِي لُزُومِهِ ، وَمَا أَخْرَاهُ عَنِ الْكُلْفَةِ !
وَكَذَلِكَ فَتَكُنِ الْأَلْفَاظُ فِي اللَّزُومِ وَغَيْرِهِ .

[مَا يَلْحَقُ بِاللَّزُومِ]

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا صَغُرَتِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ مِنْ فَوَاصِلِ الْكَلَامِ الْمَشْهُورِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُلْحَقٌ بِاللَّزُومِ ، وَيَكُونُ التَّصْغِيرُ عَوَضًا عَنْ تَسَاوِي الْحُرُوفِ الَّتِي قَبْلَ رَوْيِ الْآيَاتِ الشَّعْرِيَّةِ ، وَالْحُرُوفِ الَّتِي قَبْلَ الْفَاصِلَةِ مِنَ النَّثْرِ .

فَإِنَّ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

عَزَّ عَلَى لَيْلَى بِدَى سُدَيْرٍ سُوءُ مَيْتَى لَيْلَةَ الْقُمْرِ (٣٤)
مُقْبَضًا نَفْسِي فِي طُمِيرٍ تَتَهَيَّزُ الرَّعْدَةُ فِي ظَهْمِيرِي
يَهْفُو إِلَى الزُّوَرِ مِنْ صُدَيْرِي ظَمَانٌ فِي رَيْحٍ وَفِي مُطِيرٍ
وَأَزَرَ قُرٌّ لَيْسَ بِالْفَرِيرِ مِنْ لَدُنَّ مَا ظَهَرَ إِلَى سُحِيرٍ
حَتَّى بَدَلْتُ لِي جِهَةً الْقُمْرِ لِأَرْبَعٍ خَلَوْنَ مِنْ شَهِيرٍ

وَهَذَا مِنْ حَمَاسِ الصَّنْعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَاعْرِضْ .

وَأَحْسَنُ مِنْهُ مَا وَرَدَ عَنْ أَبِي نُوَّاسٍ وَعَنْ عَتَانَ جَارِيَةِ النَّطَافِ ، وَلَهُ مَعَهَا حِكَايَاتٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ هَذِهِ ، فَقَالَ أَبُو نُوَّاسٍ (٣٥) :

أَمَا تَرَقَّى لِصَبٍّ بِكَفِّهِ مِنْكَ قُطَيْرَةٌ

(٣٤) رواية لسان العرب (٢١/٦) «سوء ميتى بلد القمير» قال ابن منظور : يجوز أن يريد بدى صدر ،

طصغر وقيل : ذو سدير موضع بيته .

(٣٥) أخبار أبي نواس لابن منظور المصري : ٣٥

فَقَالَتْ عِنَانٌ :

إِنِّي أَنَا تَغْنَى بِهِذَا عَلَيْكَ فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ

فَقَالَ أَبُو نَوَاس :

أَخَافُ إِنْ رُمْتُ هَذَا عَلَى يَدَيَّ مِنْكَ غَيْرَةً
فَالْيَتَانِ الْأَوَّلُ وَالثَانِي مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَالثَّالِثُ جَاءَ تَبَعًا .

وقد ورد في القرآن الكريم شيء من هذا اللزوم ، إِلَّا أَنَّهُ يَسِيرٌ جَدًّا .
فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
عَلَقٍ (٣٦) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَالطُّورِ » وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٣٧) . وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ
تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ « فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّهُ الْمُتُونُ (٣٨) .

وَرَبَّمَا وَقَعَ بَعْضُ الْجَهَّالِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، فَأَدْخَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى
« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ » . فَالْكَلِمَةُ يَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
الْجَحِيمِ (٣٩) . وَهَذَا لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ اللَّزْمِ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ « نَعَمْ » وَ« جَحِمَ » وَالْيَاءُ
هِيَ مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ وَاللَّيْنِ ، فَلَا يُعْتَدُّ بِهَا هَاهُنَا .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ » . فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنضُودٍ (٤٠) .

وَكَذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ
انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ
النَّصِيرِ (٤١) .

(٣٦) سورة العلق : الآيات ١ ، ٢

(٣٧) سورة الطور : الآيات ١ ، ٢

(٣٨) سورة الطور : الآيات ٢٩ و ٣٠

(٣٩) سورة الطور : الآيات ١٧ و ١٨

(٤٠) سورة الواقعة : الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩

(٤١) سورة الأنفال : الآيات ٣٩ و ٤٠

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : « يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا » (٤٢) .
وعلى نحو هذا جاء قوله تعالى : « قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ » (٤٣) ولا تجد أمثال ذلك في القرآن إلا قليلا .

النوع الخامس

في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنشور متساوية في الوزن . وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساويي الألفاظ وزناً .
وللكلام بذلك طلاوة ورواق . وسببه الاعتدال . لأنه مطلوب في جميع الأشياء .

وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان ، وهذا لا يراه فيه لوضوحه .

وهذا النوع من الكلام هو أخو السجع في المعادلة دون المائلة ، لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال ، وهي تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد .

وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع ، ولا تماثل في فواصلها ، فيقال إذاً : كلُّ سجعٍ مُوازنة ، وليس كلُّ موازنةٍ سجعاً .
وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة .

(٤٢) سورة مريم : الآيتان ٤٠ و ٤٦

(٤٣) سورة (ق) : الآيتان ٢٧ و ٢٨

فَمَا جَاءَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ » وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ^(١) » فَالْمُسْتَقِيمُ وَالْمُسْتَقِيمُ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا . فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ^(٢)

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه : « مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ^(٣) » .

وَكَذَلِكَ وَرَدَّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ حَمَّاسٍ : « وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . اللَّهُ لَعِيفٌ بِمَعَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَفُتِقُوا بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ لَا أَعْيُنَ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ^(٤) .

وهذه الآيات جميعها على وزن واحد، فإن شديدا، وقريبا، وبعيدا، وعزيرا، ونصيبا، وألما، وكثيرا، كل ذلك على وزن « فَعِيل » وإن اختلفت حروف المقاطع التي هي فواصلها .

(١) سورة الصافات : الآيات ١١٧ و ١١٨

(٢) سورة مريم : الآيات ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤

(٣) سورة طه : الآيات ١٠٠ و ١٠١

(٤) سورة الشورى : الآيات ١٦ - ٢٢ .

وأمثالُ هذا في القرآن كثير، بل معظمُ آياته جاريةٌ على هذا النهج، حتَّى أنَّه لا تخلو منه سورةٌ من السُّور، ولقد تصفَّحته، فوجدته لا يكادُ يخرجُ مِنْهُ شَيْءٌ عن السَّجْعِ والموازنة.

وأما ما جاء من هذا النوع شعراً فقولُ ربيعة بن ذؤابة^(٥) :

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّثَ عُرُوشَهُمْ بَعْتِيَّةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ^(٦)
بِأَشَدِّهِمْ بَأْسًا عَلَى أَصْحَابِهِ وَأَعَزَّهُمْ فَقَدْ عَلَى الْأَصْحَابِ^(٧)

فالبيت الثاني هو المختصُّ بالموازنة، فإنَّ «بأساً» و «فقدًا» على وزنٍ واحدٍ

النوع السادس

في اختلاف صيغ الألفاظ وانقلابها

وهو من هذه الصناعاتِ بمنزلةٍ عليَّة، ومكانةٍ شريفة، وجلُّ الألفاظِ اللفظيَّةِ منوطَةٌ به، ولقد لقيتُ جماعةً من مدَّعي فنِّ الفصاحة، وفاوضتهم وفاوضوني وسألتهم وسألوني، فما وجدتُ أحداً منهم يُقِرُّ معرفةَ هذا الموضع كما ينبغي. وقد استخرجتُ فيه أشياءً لم أُسبقُ إليها، وسيأتى ذكرُها هاهنا.

أما اختلاف صيغ الألفاظ، فإنَّها إذا نُقِلَتْ مِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ، كتنقلبها مثلاً من وزنٍ من الأوزانِ إلى وزنٍ آخر، وإنْ كانت اللفظةُ واحدةً، أو كتنقلبها من صيغةِ الاسمِ إلى صيغةِ الفعلِ، أو من صيغةِ الفعلِ إلى صيغةِ الاسمِ، أو كتنقلبها من الماضي إلى المستقبل، أو من المستقبل إلى الماضي، أو من الواحدِ إلى الثَّنيةِ أو إلى الجمعِ، أو إلى

(٥) هو ربيعة بن عبيد بن سعد بن جديمة بن مالك بن نصر بن قعين أحد بني أسد، وربيعة هذا هو أبو ذؤاب الأسدي، وقد نسب الشمرى حماسة أبي تمام ٣٥٤/١ لرجل من بني نصر بن قعين.

(٦) معناه إن كانوا فرحوا بقتلك وتبجحوا به فقد هلمت عزمهم بقتل عتية.

(٧) رواية الحماسة (٣٥٦/١) «بأشدَّهم كلباً».

النسب ، أو إلى غير ذلك ، انتقل^(١) قُبْحُهَا صَارَ حُسْنًا ، وحُسْنُهَا صَارَ قُبْحًا .
 فن ذلك لفظة «خود»^(٢) فإنها عبارة عن المرأة الناعمة ، وإذا نُقِلَتْ إلى صيغة
 الفعل قيل «خَوْد»^(٣) على وزن «فَعَلَ» بتشديد العين ، ومعناها أُسْرِعَ ، يُقال : خَوْدَ
 البعير ، إذا أُسْرِعَ ، فهي على صيغة الاسم حسنة راقية ، وقد وردت في النظم والنثر
 كثيراً ، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة ، كقول أبي تمام^(٤) :
 وإلى نبي عبد الكريم تَوَاهَقَتْ رَتَكَ النِّعَامِ رَأَى الظَّلَامَ فَخَوْدَ^(٥)
 وهذا يُقَاسُ عليه أشباهه وأنظَّره ، إلا أن هذه اللفظة التي هي «خود» قد نُقِلَتْ
 عن الحقيقة إلى المجاز ، فخفَّ عنها ذلك القُبْحُ قليلاً ، كقول بعض شعراء الحماسة^(٦) :
 أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوْدَ رَأَيْهَا رُوَيْدُكَ لَمَّا تُشْفِقُ حِينَ مُشْفَقٍ^(٧)
 رُوَيْدُكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غِيَابَهُ هَذَا الْبَارِقِ الْمَتَالِقِ^(٨)
 والرُّأْيُ : النِّعَامُ ، والمرَادُ بِهِ هَاهُنَا أَنَّ نَفْسَهُ قَرَّتْ وَفَزَعَتْ ، وشبه ذلك بإسراع
 النِّعَامِ فِي فِرَارِهِ وَفَزَعِهِ ، وَلَمَّا أُوْرِدَهُ عَلَى حُكْمِ الْمَجَازِ خَفَّ بَعْضُ الْقُبْحِ الَّذِي عَلَى لَفْظَةِ
 «خود» وهذا يُدْرِكُ بِالذُّوقِ الصَّحِيحِ . ولا خَفَاءَ بَمَا يَنْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي إِيْرَادِهَا هَاهُنَا
 وَإِيْرَادِهَا فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ ، فَإِنَّمَا وَرَدَتْ فِي بَيْتِ أَبِي تَمَامٍ قَبِيحَةً سَمِجَةً ، كَمَا وَرَدَتْ
 هَاهُنَا بَيْنَ بَيْنٍ .

(١) جواب «إذا» في قوله «إذا نُقِلَتْ»

(٢) الخود المرأة الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة وهي بفتح الحاء وسكون الواو ، وجمعها خود بضم الخاء .

(٣) التَّخْوِيدُ : سرعة السير .

(٤) ديوان أبي تمام ١٢٥ من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد الكريم ، ومطلعها :

يَادَارُ دَارَ عَلَيْكَ أَرْهَامَ النَّدَى وَاهْتَرِ رَوْضُكَ فِي الثَّرَى فَتَوَدَا

(٥) تَوَاهَقَتْ مدت أعناقها وتسابقت ، الرتك سرعة في مقاربة خطو ، خود اهتر من النشاط .

(٦) ديوان الحماسة ١٤٣/١ وقد نسب هذا الشعر لرجل من بني أسد قاله في يوم الجمعة .

(٧) رواية ديوان الحماسة «مكانك» موضع «رويدك» في البيتين ، وخود أسرع ، والرأى فرخ النعام ،

ويقال للمدحور والمتراع «خود رأله» وهو مثل ، وقوله «لما تشفق حين مشفق» أي لم تخاف وقت مخافة ، والمعنى
 ليس هذا وقت الخوف فاصبري فإنه وقت صبر .

(٨) رواية الحماسة «عاية» موضع «غيابة» والمعارض السحاب ، والمراد هنا الجيش .

ومن هذا النوع لفظة « وَدَعَ » وهى فعلٌ ماضٍ ثَلَاثِيٌّ لَا يُقْلَ بِهَا اللِّسَانُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا تُسْتَعْمَلُ عَلَى صِيغَتِهَا الْمَاضِيَةِ إِلَّا جَاءَتْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنَةٍ ، وَلَكِنَّهَا تُسْتَعْمَلُ مُسْتَقْبَلَةً ، وَعَلَى صِيغَةِ الْأَمْرِ ، فَتَجِيءُ حَسَنَةً .

أَمَّا الْأَمْرُ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : « . . . يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ^(٩) » وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الصِّيْغَةِ ! !

وَأَمَّا كَوْنُهَا مُسْتَقْبَلَةً فَكَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَدْ وَاصَلَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَوَاصَلَ مَعَهُ قَوْمٌ : « لَوْ مَدُّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصَلْنَا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَمَعُّونَ تَعَمُّقَهُمْ » .
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْتَنِي ^(١٠) :

تَشْفُقُكُمْ بِفَتَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ ^(١١)
وَأَمَّا الْمَاضِي مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فَلَمْ يُسْتَعْمَلْ إِلَّا شَاذًا ، وَلَا حُسْنَ لَهُ ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :

أَثَرُوا فَلَمْ يُدْخِلُوا قُبُورَهُمْ شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَلَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

وهذا غيرُ حَسَنِ فِي الْإِسْتِعْمَالِ ، وَلَا عَلَيْهِ مِنَ الطَّلَاوَةِ شَيْءٌ .
وهذه لفظةٌ واحدةٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْ حَالِهَا شَيْءٌ سِوَى أَنَّهَا نُقِلَتْ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ لَا غَيْرُ .

وكذلك لفظة « وَذَرَ » فَإِنَّهَا لَا تُسْتَعْمَلُ مَاضِيَةً ، وَتُسْتَعْمَلُ عَلَى صِيغَةِ الْأَمْرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ^(١٢) » .

(٩) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ سُورَةُ الزَّخْرَفِ : الْآيَةُ ٨٣ « فَلَرَّهْمُ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا » وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ الْأَثِيرِ « فِدْعَهُمْ » لِيَكُونَ شَاهِدًا عَلَى مَا قَدْ هَبَّ إِلَيْهِ ؛ وَهَذَا وَهْمٌ مِنْهُ لِاتِّفَاقِ الْقَطْلَيْنِ فِي الْمَعْنَى .

(١٠) دِيْوَانُ الْمُنْتَنِي ٧٣٠/٢ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَطْلَعُهَا :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَلَعُ إِنْ قَاتَلُوا جِينُوا أَوْ حَلَفُوا شَجِعُوا

(١١) رِوَايَةُ الدِّيْوَانِ « بِفَتَاهَا » مُوَضَّعٌ « بِفَتَاهَا » وَمَعْنَى فَتَاهَا فَارْسُهَا ، وَالْقَنَا الرِّمَاحُ ، السَّلْهَبَةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الْخَيْلِ .

(١٢) سُورَةُ الْحَجَرِ : الْآيَةُ ٣

وتستعمل مستقبله أيضاً كقوله تعالى : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ^(١٣) .

فهي لم تَرُدْ في القرآنِ إِلَّا على هاتين الصيغتين ، وكذلك في فصيح الكلام غير القرآن .

وَأَمَّا إِذَا جَاءَتْ على صيغة الماضي فإنها لا تستعمل ، وهي أقبح من لفظة « وَدَعَ » لأن لفظة « وَدَعَ » قد استعملت ماضية ، وهذه لم تستعمل .

وها هنا فلينبه الخائفون في هذا الفن نظريتهم ، ويعلموا أَنَّ في الزوايا خبايا ، وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال ، وأغرقوا في الاعتبار والكشف وَجَدُوا غرائب وعجائب .

ومن هذا النوع لفظة « الْأَخْدَعُ » فَإِنَّهَا وَرَدَتْ في بيتين من الشعر ، وهي في أحدهما حسنة رائقة ، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة كقول الصمة بن عبد الله ^(١٤) مِنْ شُعْرَاءِ الحِمْيَرِ ^(١٥) :

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجَعْتُ مِنَ الْإِضْغَاءِ لَيْثًا وَأَخْدَعًا ^(١٦)
وكقول أبي تمام ^(١٧) :

يَادْهَرُ قَوْمٌ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خَرْقِكَ ^(١٨)
أَلَا تَرَى أَنَّهُ وَجِدَ لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على السمع ، والكرهية في النفس أضعافاً ما وَجِدَ لها في بيت الصمة بن عبد الله ^(١٩) من الرُّوح والخفة والإيناس والبهجة ؟ وليس سبب ذلك إِلَّا أَنَّهَا جَاءَتْ موحدة في أحدهما مثناة في الآخر ،

(١٣) سورة اللحر : الآيات ٢٦ ، ٢٧ و ٢٨ . (١٤) في الأصل « ابن الصمة عبد الله »

(١٥) ديوان الحماسة ٥٦/٢ .

(١٦) البيت صفحة التقي ، والأخدع عرق فيها ، نصيبها على التمييز ، والإضغاء الليل .

(١٧) ديوانه ٢١٠ من قصيدة يمدح فيها عماد بن الميثم ويسته بيرة ، ومطلها :

قَدْ مَاتَ عَلَى الزَّيْمَانِ مِنْ فَرْقِكَ وَأَكْبَنَ أَهْلَ الْإِحْدَامِ فِي وَرْقِكَ

(١٨) الحرق الحقيق .

(١٩) في الأصل « ابن الصمة عبد الله » وبيت الصمة وبيت أبي تمام تكلم عنهما عبد القاهر الجرجاني بمثل هذا الكلام الذي نقله ابن الأثير - وانظر دلائل الإعجاز ٣٨ ، ٣٩ .

وكانت بحسنة في حالة الأفراد، مستكرمة في حالة الثنية، وإلا فاللفظة واحدة، وإنها اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى.

ومن هذا النوع ألفاظ يُعدّل عن استعمالها من غير دليل يقرم على العدول عنها، ولا يُستفتى في ذلك إلا الذوق السليم، وهذا موضع عجيب، لا يعلم كنه سيره.

فن ذلك لفظه «اللَّب» الذي هو العقل - لا لفظة «اللَّب» الذي تحت القشر - فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة، ولم ترد مفردة، كقوله تعالى: «وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ» (٢٠) و«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّذِكْرَى الْأُولَى الْأَلْبَابِ» (٢١) وأشباه ذلك.

وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق، وخارجها بعيدة، وليست بمُستقلة، ولا مكرهة.

وقد تُستعمل مفردة، بشرط أن تكون مضافة أو مضافاً إليها، أما كونها مضافاً إليها فكقولنا: لا يعلم ذلك إلا ذو لب، وإن في ذلك لعبرة لذي لب وعليه ورد قول جرير:

إِنَّ الْعُمُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ (٢٢) قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُبْحِنَ قَتَلَانَا

يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ يَهُ وَهْنٌ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وأما كونها مضافة فكقول النبي ﷺ في ذكر النساء «ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب لب الحازم من إحدائكن يامعشر النساء».

فإن كانت هذه اللفظة عارية عن الجمع أو الإضافة فإنها لا تأتي حسنة ولا تجد ذليلاً على ذلك إلا مجرد الذوق الصحيح.

وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره وجدت مثل هذه اللفظة قد روي فيها الجمع دون الأفراد كلفظة «كُوب» فإنها وردت في القرآن مجموعة، ولم ترد مفردة، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حال أفرادها فإن الجمع فيها أحسن.

(٢٠) سورة (ص): الآية ٢٩ (٢١) سورة الزمر: الآية ٢١

(٢٢) رواية الشعر والشعراء «مرض» موضع «سور».

لكن قد تَرِدُ مفردة مع ألفاظٍ أخر تندرجُ معهنَّ ، فيكسوها ذلك حسناً ليس لها .
 وذلك كقولِي في جملة أبياتِ أَصْفُ بها الخمر ، وما يجرى معها من آلائِها :
 ثَلَاثَةٌ تُعْطَى الْفَرْحَ كَأْسُ وَكُوبٌ وَقَدْحٌ
 مَا ذُبِحَ نَذْرٌ بِهَا إِلَّا وَلِلَّهِمْ ذَبِغٌ
 فلما وردت لفظة « الكُوبِ » مع الكأس والقَدَح على هذا الأسلوب حسناً ، وكأنه
 جَلَّاهَا في غير لباسِها الذي كان لها إذ جاءت بمفردِها .
 وكذلك وردت لفظة « رَجَا » بِالْقَصْرِ ، « والرجا » الجانبُ ، فإنَّها لم تُستعملْ
 موحَّدةً ، وإنما استعملتْ مجموعة ، كقوله تعالى : « وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ
 رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » (٢٣) .
 فلما وردت هذه اللفظة مجموعةً ألبسها الجمعُ ثوباً من الحُسْنِ لم يكن لها في حالِ
 كونها موحَّدةً .

وقد تُستعملُ موحَّدةً ، بشرطِ الإِضَافَةِ كقولنا « رجا البر » .
 ولربما أخطأ بعضُ الناسِ في هذا الموضع ، وقاسَ عليه ما ليس بِمَقِيسَ ، وذلك
 أَنَّهُ وَقَفَ على ما ذكرته هاهنا واقفُ فقال : وكذلك قد وردت لفظة الصُوفِ في القرآنِ
 الكريم ، ولم تَرِدْ إِلَّا مجموعة كقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
 تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى
 حِينٍ » (٢٤) .

وهذا بخلافِ ماوردتْ عليه في شعر أبي تمام (٢٥) :
 كَانُوا بِرُودٍ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَانُوا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا (٢٦)
 وهذا ليس كالأدبِ أَشْرَفُ إليه ، فَإِنَّ لفظة « الصُّوفِ » لفظة حسنة مفردة
 ومجموعة ، وإنَّا أَزْرَى بها في قولِي أبي تمام أنها جاءت مجازيةً في نسبتِها إلى الزَّمانِ .

(٢٣) سورة الحاقة : الآية ١٧ . (٢٤) سورة النحل : الآية ٨٠

(٢٥) الديوان ٢٠٥ في قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف ، ويعرض بوال ول الثغر ، ومطلعها :

أَطْلَاهُمْ سَلَبَ دِمَاهَا لَمِيقًا وَاسْتَبَدَلَتْ وَحْشَائِينَ عَكُوفًا

(٢٦) البرود الثياب ، تصدعوا تشقروا .

وعلى هذا التَّنْجِجُ وردت لفظة «خبر» و«أخبار»، فإنَّ هذه اللفظة مجموعة أحسن منها مفردة، ولم تَرِدْ في القرآن إلا مجموعة.

وفي ضِدِّ ذلك، ماورد استعماله من الألفاظ مفرداً ولم يَرِدْ مجموعاً كلفظة «الأرض» فإنها لم تَرِدْ في القرآن إلا مفردة، فإذا ذُكرت السماء مجموعة جئ بها مفردة معها في كل موضع من القرآن، ولما أُريدَ أن يُؤْتَى بها مجموعة قيل «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلُهُنَّ» في قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» (٢٧). ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يَرِدْ مجموعاً لفظة «البقعة» قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: «فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنِ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ» (٢٨) والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مُصَافَةً، كقولنا: «بِقَاعِ الْأَرْضِ» أو ماجرى مجراها.

وكذلك لَفْظَةُ «طَيْف» في ذكر طَيْفِ الْخِيَالِ، فإنها لم تستعمل إلا مفردة. وقد استعملها الشعراء قديماً وحديثاً فلم يأتوا بها إلا مفردة، لأنَّ جمعها جمع قبيح، فإذا قيل «طُيُوف» كان من أقبح الألفاظ وأشدّها كراهة على السَّمْعِ.

ويا لله للعجب من هذه اللفظة ومن أختها عِدَّةٌ ووزناً، وهي لفظة «ضَيْف» فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، وهذا ممَّا لا يُعْلَمُ السَّرُّ فيه. والدوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مجراها. وأما جمع المصادر فإنه لا يَجِيءُ حَسَنًا، والإفراد فيه هو الْحَسَنُ، وما جاء في

المصادر مجموعاً قول عنتره:

فَإِنْ بِيْرًا فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يُفْقَدُ فَحَقِّ لَهُ الْفُقُودُ (٢٩)
قوله: «الْفُقُودُ» جمع مصدر من قولنا: فَقَدْتُ، يُفْقَدُ، فَقْدًا. واستعمال مثل هذه اللفظة غير سائغ ولا للزيد، وإن كان جائزاً.

(٢٨) سورة القصص: الآية ٣٠.

(٢٧) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٢٩) شرح ديوان عنتره بن شداد ٤٩ من أبيات في جربة العمري. وقد رماه عنتره. فظن أنه قتله. فلم

يفعل.

ونحنُ في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحُسْنِ لامع الجواز. وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم، فإن صاحب هذه الصناعة يصرفُ الألفاظ بضروب التصريف، فما عُدَّبَ في فيه منها استعمله، وما لفظه فمه تركه. ألا ترى أنه يقال «الأُمَّة» بالضمُّ عبارة عن الجمع الكثير من الناس، ويقال: «الإُمَّة» بالكسر، وهي النعمة، فإن «الأُمَّة» بالضمُّ لفظه حسنة وبالكسر ليست بحسنة واستعمالها قبيح.

ورأيتُ صاحبَ كتاب «الفصيح»^(٣٠) قد ذكرها فيها اختارَه من الألفاظ، الفصيحة، وبأيتٍ شِعْرى ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها؟! وكذلك قد اختار ألفاظاً أخر ليست بفصيحة، ولا لوم عليه، لأنَّ صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير!

وأسرارُ الفصاحة لا تُؤخذ من علماء العربية، وإنما تُؤخذ منهم مسألة نحوية، أو تصرفية، أو نقل كلمة لغوية، وما جرى هذا المجرى. وأما أسرارُ الفصاحة فلها قومٌ مخصوصون بها، وإذا شُدَّ عن صاحب كتاب «الفصيح» ألفاظٌ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصيح فإنَّ هذا منه كثير.

ومما يُذكر في هذا الباب أنه يُقال: «سهم صائب» فإذا جُمع الجمع الحسن الذي يعذب في القم قيل: سهامٌ صواب، وصائب، وصَيَّب. فإذا جُمع الجمع الذي يثبُّ قيل: «سِهَامٌ صُيَّب» على وزن «كُتِبَ» قال أبو نواس^(٣١):

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعْتُ عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةُ
قَتَلْتُ^(٣٢) إِنْسَانَهَا كَيْدِي بِسِهَامٍ لِلرَّدَى صُيَّبِ

(٣٠) هو الإمام أحمد بن محمد بن يحيى المعروف بشطب.

(٣١) ديوانه ٤٠٧ من أبيات أولها:

يباني حالة الخطب حري من ظليكم حري

(٣٢) رواية الديوان «فتت».

فقوله : « سَهَامٌ صُيْبٌ » من اللفظ الذى يَبْنُو عنه السَّمْع ، ويَحْدُ عنه اللِّسَان .
ومثله ورد قول عُوفٍ القَوَافِي (٣٣) من أبياتِ الحِجَاسَةِ :

دَهَبَ الرَّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ
لَمَّا أَتَانِي عَنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ أَمْسَى عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الْأَقْيَادُ (٣٤)

فقوله : « أَقْيَادٌ » فى جمع « قَيْد » ، فما لا يَحْسُنُ استعمالُهُ ، بل الْحَسَنُ أَنْ يُقَالَ فى جمعه « قَيُودٌ » .

وكذلك قولُ مُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ التَّمِيمِيِّ (٣٥) من أبياتِ الحِجَاسَةِ ، وذلك من جُمْلَةِ الأبياتِ المشهورةِ التى أَوَّلُهَا :

بَارِئَةُ الْيَتْرِ قَوْمِي نَيْرٌ صَاغِرَةٌ ضَمَى إِلَيْكَ رِحَالَ الْقَوْمِ وَالْقُرْبَا (٣٦)
فَقَالَ فِيهَا :

مَاذَا تَرَيْنَ : أَتَدْنِيهِمْ لِأَرْحِلُنَا فِى جَانِبِ الْبَيْتِ ؟ أَمْ نَنْبِي لَهُمْ قُبَا ؟
فإنه جمع « قُبَّة » على « قُبْب » ، وذلك من المستبشِرِ الكَرِيهِ ، والأَحْسَنُ المستعملُ هو « قِيَاب » لا « قُبْب » ، وكذلك يَجْرَى الْأَمْرُ فى غيرِ هذا .

ومن المجموع ما يَخْتَلِفُ استعمالُهُ ، وإن كَانَ مُتَّفِقًا فى لَفْظَةٍ واحدةٍ ، كَالْعَيْنِ النَّاظِرَةِ ، وَعَيْنِ النَّاسِ ، وَهُوَ النَّبِيَّةُ فِيهِمْ ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ النَّاظِرَةَ تُجْمَعُ عَلَى « عَيُون » ، وَعَيْنِ النَّاسِ

(٣٣) هو ابن سلوية بن عقبة من بني فرارة بن ذبيان ، وإنما أُضِيفَ إلى القوافي لقوله :

سَاكِلْبُ مِنْ قَدْ كَانَ يَزْهَمُ أَنَّنِي إِذَا قُلْتُ قَوْلًا لَا أَجِيدُ الْقَوَايَا

وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية من ساكني الكوفة ، وبيته من البيوتات المتقدمة فى العرب ، وكانت أخته متزوجة عيينة بن أساء الفزارى فطلقها ، فلما حبس الحاجاج عيينة وقيده قال عوف هذه الأبيات .

(٣٤) رواية البيت فى الحِجَاسَةِ (٩٧/١) وفى الأصل :

لَمَّا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ أَمْسَتْ عَلَيْهِ يَظْهَرُ أَقْيَادُ

(٣٥) هو من بطن يقال لهم بنو ربيع من سعد بن زيد مناة بن تميم ، وهو شاعر إسلامي مقل من شعراء الدولة الأموية . عاصر جريراً والفرزدق ، فأخملاً ذكره ، وكان شريفاً جواداً ، قتله مصعب بن الزبير فى ولايته . والأبيات فى ديوان الحِجَاسَةِ ٢٤٢/٢ .

(٣٦) فى الأصل « رجال » موضع « رجال » وهو تصحيف ، والصاغرة الذليلة ، والقرب جمع قراب وهو كالجراب يوضع فيه السيف بغمده ، يأمر زوجته بأن تضم إليها رجال القوم وأسلحتهم حفظاً لها ، لأنهم تزولوا عنده ، فهم فى أمان لا يحتاجون إلى السلاح .

تجمع على « أعيان » ، وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان لا إلى جائز الوضع اللغوي .
وقد شدّد هذا الموضع عن أبي الطّيب المتنّى في قوله (٣٧) :

والقوم في أعيانهم خزر والخيل في أعيانها قبل (٣٨)

فجمع العين الناطرة على « أعيان » ، وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا نجد له على
اللسان حلاوة ، وإن كان جائزاً .

ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذا النوع وأمثلة أشياء كثيرة ، وكشفت عن
رموز وأسرار تخفى على كثير من متعاطي هذا الفن ، لكن في الذي أشرت إليه متبّه
لأهلي الفطنة والذكاء أن يحملوه على أشباهه وأنظاره .

وأعجب من ذلك كلّ أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظ ، فتارة تجد مفردة
حسناً ، وتارة تجد جمعه حسناً ، وتارة تجدهما جميعاً حسنين .

فالأول نحو « حبرور » وهو قرخ الحبارى ، فإن هذه اللفظة يحسن مفردها
لإجموعها ، لأن جمعها على « حبارير » ، وكذلك « طنبور » و « طنابير » و « عرقوب »
و « عراقيب » .

وأما الثاني فنحو « بهلول » و « بهاليل » (٣٩) و « لهموم » و « ولهايم » (٤٠) وهذا
ضد الأول .

وأما الثالث فنحو « جمهور » و « جاهير » و « عرجون » و « عراجين » .
فانظر إلى الوزن الواحد كيف يختلف في أحواله مفرداً ومجموعاً؟ وهذا من أعجب
ما يجيء في هذا الباب .

وهكذا قد جاءت ألفاظ على وزن واحد ثلاثية مسكنة الوسط ، وجميعها حسن في
الاستعمال ، وإذا أردنا أن ننقل وسطها حسن منها شيء دون شيء .

(٣٧) ديوانه ٣٠٧/٣ من قصيدة في مدح عضد الدولة ، ومطلعها :

أثلك فإنا أيها الظليل نبكى وقرزم تحتنا الإبل

(٣٨) الخزر ضيق العين ، والقبل إقبال إحدى العينين على الأخرى ، وذلك تفعله الخيل لئلا تنفصها .

(٣٩) البهلول الضحك والسيد الجامع لكل خير .

(٤٠) الهموم الناقة الغزيرة ، وألجج الواسع ، وجهاز المرأة - والسحابة الغزيرة القطر ، والعدد الكثير .

والجيش العظيم ، والكثير الخير .

فمن ذلك لفظة الثُلُثُ ، والرُّبُعُ ... إلى العُشْرِ ، فَإِنَّ الْجَمِيعَ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ ، وَإِذَا نَقَلْنَا أَوْسَاطَهَا ، فَقَلْنَا : ثُلُثٌ وَرُبُعٌ وَخُمْسٌ ... وكذلك إلى عَشْرٍ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْ ذَلِكَ جَمِيعُهُ ثَلَاثَةٌ ، وَهِيَ الثُّلُثُ وَالْخُمْسُ وَالسُّدُسُ ، وَالْبَاقِي وَهُوَ : الرَّبْعُ ، وَالسَّبْعُ ، وَالْثُمْنُ ، وَالْتِسْعُ ، وَالْعَشْرُ ، لَيْسَ كَالأَوَّلِ فِي حُسْنِهِ ، هَذَا وَالْجَمِيعُ عَلَى وَزْنٍ وَاحِدٍ ، وَصِيفَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالْجَمِيعُ حَسَنٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ قَبْلَ أَنْ يَثْقُلَ وَسْطُهُ ، وَلَمَّا ثَقُلَ صَارَ بَعْضُهُ حَسَنًا ، وَبَعْضُهُ غَيْرَ حَسَنٍ .

وكذلك نجد الأمر في أسماءِ الفاعلين ، كالثلاثيِّ منها نحو « فَعَلَ » بفتح الفاء والعين ، « وَفَعِلَ » بفتح الفاء وكسر العين ، « وَفَعَّلَ » بفتح الفاء وضم العين ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَوْزَانَ الثَّلَاثَةَ لَهَا أَسْمَاءُ فَاعِلِينَ .

أَمَّا « فَعَلَ » - بفتح الفاء والعين - فليس له إِلا اسمٌ واحدٌ أيضاً ، وهو « فَاعِلٌ » لا غيرٌ ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ اخْتِلَافٌ .

وكذلك « فَعِلَ » - بفتح الفاء وضم العين - فليس له إِلا اسمٌ واحدٌ أيضاً ، وهو « فَعِيلٌ » ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ اخْتِلَافٌ إِلا مَا شُدَّ .

لكن « فَعِلَ » - بفتح الفاء وكسر العين - يَقَعُ فِي اسْمِ فَاعِلِهِ الْاِخْتِلَافُ اسْتِحْسَانًا وَاسْتِقْبَاحًا ، لِأَنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ أَوْزَانٍ ، نَحْوُ « فَاعِلٌ » وَ « فَعِلَ » وَ « فَعَّلَانِ » ، نَقُولُ مِنْهُ « حَمِيدٌ » فَهُوَ « حَامِدٌ » وَ « حَمِيدٌ » وَ « حَمَلْدَانٌ » .

وقد جاءَ عَلَى وَزْنِهِ « فَرِحَ » نقول منه : فَرِحَ زَيْدٌ ، فَهُوَ فَرِحٌ ، وَهُوَ الْأَحْسَنُ . وَلَا نَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ « فَارِحَ » وَلَا « فَرَحَانٌ » ، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا ، لَكِنْ « فَرَحَانٌ » أَحْسَنُ مِنْ « فَارِحَ » .

وقد وردتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَمْ تَسْتَعْمَلْ إِلَّا عَلَى « فَرِحَ » لَا غَيْرَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « كُلُّ حِرْزٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » ^(٤١) .
وكَقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » ^(٤٢) .

(٤١) سورة الروم : الآية ٣٢ .

(٤٢) سورة القصص : الآية ٧٦ .

وقد جاءت هذه اللفظة في شعر بعض شعراء الحماسة^(٤٣) في باب المرائي :
 فَمَا أَنَا مِنْ حَزَنٍ ، وَإِنْ جَلَّ جَارِعٌ وَلَا يَسْرُورٌ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
 وهذا غير حسن ، وإن جاز استعماله .
 وعلى نحو منه يقال « غَضِبَ » وهو « غَضَبَان » ولا يقال « غَضِيبٌ » وإن كان
 جائزاً .

وقد تقدم القول أنا في تأليف الكلام بصدد استعمال الحسن والأحسن ، لا بصدد
 استعمال الجائز وغير الجائز .

ومما يجرى هذا المجرى قولنا « فَعَلَ » و « افْعَلْ » فإن لفظة « فَعَلَ » لها موضع
 تستعمل فيه . ألا ترى أنك تقول : « قَعَدْتُ إِلَى فُلَانٍ أَحَدَهُ » ولا تقول : « اقْعَدْتُ
 إِلَيْهِ » وكذلك تقول : « اقْعَدْتُ غَارِبَ الْجَمَلِ » ، ولا تقول : « قَعَدْتُ عَلَى غَارِبِ
 الْجَمَلِ » ، وإن جاز ذلك ، لكن الأول أحسن .

وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فإنه لا يمكن أن يُقَامَ عليه دليل .
 وأما « فعل » و « افْعُولُ » فإننا نقول : « أَعْشَبَ الْمَكَانُ » ، فإذا كثر عُشْبُهُ قلنا :
 « اَعْشَوْشَ » ، فلفظة « افْعُولُ » للتكثير .

على أني استقرت هذه اللفظة في كثير من الألفاظ ، فوجدتها عذبة طيبة ، على
 تكرار حروفها ، كقولنا : اخْشَوْشَ الْمَكَانُ ، وأَعْرَوْرَقَتِ الْعَيْنُ ، واحْلَوْلَى الصَّمَمُ ،
 وأشباهها .

وأما « فَعْلَةٌ » نحو هُمَزَةٌ ، وَلَمَزَةٌ ، وَجُمَةٌ ، وَنُومَةٌ ، وَلَكِنَّةٌ ، وَلَحْنَةٌ ، وأشباه ذلك ،
 فالغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

وهذا أخذته بالاستقراء وفي اللغة مواضع كثيرة هكذا لا يمكن استقصاؤها .
 فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ .

• • •

(٤٣) هو أشجع بن عمرو السلمي ، واليت من أبيات أولها :

مضى ابن سيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيه ماحد

(٤٤) رواية الحماسة (٣٦٢/١) . فَمَا أَنَا مِنْ رُزْمٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعٌ •

وعليك أن تتفقد أمثال هذه المواضع ، لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها ، فكثيراً ما يقعُ فحول الشعراء والخطباء في مثلها ، ومؤلفُ الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به ألفاظٌ عَرَضَها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحداً وحده ، وما يجد الحسن منها مجموعاً جمعه ، وكذلك يجرى الحكمُ فيما سوى ذلك من الألفاظ .

النوع السابع

في المعاطلة اللفظية

والمعاطلة: معاطلتان : لفظية ، ومعنوية .

أما المعنوية فسأني ذكرها في باب (التقديم والتأخير) من المقالة الثانية ، فليؤخذ من هناك .

وأما المعاطلة اللفظية ، فهي ^(١) المخصوصة بالذكر هاهنا في باب صناعة الألفاظ ، وحقيقتها مأخوذة من قولهم « تعاطلت الجرادتان » إذا ركبت إحداها الأخرى ، فسمي الكلام المترابك في ألفاظه أو في معانيه (المعاطلة) مأخوذاً من ذلك ، وهو اسم لائقٌ بمُسماه .

ووصفَ عمرُ بنُ الخطاب - رضي الله عنه - زهيرَ بنَ أبي سلمى ، فقال : « كان لا يعاظمُ بينَ الكلام » .

وقد اختلفَ علماء البيان في حقيقة المعاطلة ، فقال قدامة بنُ جعفر الكاتب ^(٢)

(١) في الأصل « هي » .

(٢) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي ، كان نصرانياً وأسلم على يد المكتن بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، وعمن يشار إليه في علم المنطق ، وقيل هو أول من وضع الحساب ، وله تصانيف كثيرة منها كتاب نقد الشعر ، وكتاب الخراج وصناعة الكتابة ، وتوفى قدامة سنة ٣٣٧ هـ . وللذكر يدعى طبانة دراسة مفصلة في حياة قدامة ونقده طبعت تحت عنوان « قدامة بن جعفر والتقد الأدبي » .

التعاضلُ في الكلام هو أنْ يُدْخَلَ بعضُ الكلامِ فيما ليس من جنسِهِ ، ولا أُعْرِفُ ذلك إلا فاحِشَ الاستعارة^(٣) كقول أُوَيْسَ ابْنِ حَجَرٍ :

وَذَاتُ هِذِمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوَلَّيَا جَدْعًا^(٤)
نَسَمَى الْعَصِي «تَوَلَّيَا» ، والتَوَلَّى وَلَدُ الْحَارِ .

هذا ما ذَكَرَهُ قَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ، وهو خطأ ، إذ لو كان مَازَهَبٌ إِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ المَعَاظِلَةِ دُخُولَ الكلامِ فيما ليس من جنسِهِ ، وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هَذِهِ ، بَلْ حَقِيقَتُهَا مَتَقَدِّمٌ ، وهو التَّرَاكُبُ ، من قولهم : تعاضلتِ الجرادتان : إذا رَكِبَتْ إحداهما الأخرى .

وهذا المثالُ - الَّذِي مَثَّلَ بِهِ قَدَامَةُ - لَآتِرَاكُبٌ ، فِي الْفَاضِلَةِ وَلَا فِي مَعَانِيهِ .
وَأَمَّا غَيْرُ قَدَامَةَ فَإِنَّهُ مُخَالَفُهُ فِيما ذَهَبَ إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْسِمِ المَعَاظِلَةَ إِلَى لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ ، وَلَكِنَّهُ ضَرَبَ لَهَا مِثَالًا ، كقول الفرزدق :

وَمَامِئُهُ فِي النَّائِسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَتَّى أَبُوهُ يُقَارِبُهُ^(٥)

وهذا من القسمِ المعنوي ، لِأَمِنْ الْقِسْمِ اللَّفْظِيِّ ، أَلَا تَرَى إِلَى تَرَاكُبِ مَعَانِيهِ بِتَقْدِيمِ مَا كَانَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ ، وَتَأْخِيرِ مَا كَانَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ ، لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي مَعْنَاهُ « وَمَامِئُهُ فِي النَّائِسِ حَتَّى يُقَارِبُهُ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ أَبُوهُ » ؟ وَسَيَجِيءُ شَرْحُ ذَلِكَ مُسْتَوْفَى بِإِيَّاهُ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَدْ حَقَّقْتُ الْقَوْلَ فِي بَيَانِ الْمَعَاظِلَةِ ، وَالْكَشْفُ عَنْ حَقِيقَتِهَا فَإِنِّي أَتَّبِعُ ذَلِكَ بِتَقْسِيمِ

(٣) جعل قدامَةُ (المَعَاظِلَةَ) مِنْ عِيُوبِ اللَّفْظِ ، قَالَ : وَهِيَ الَّتِي وَصَفَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ زَهْرًا بِمُجَانِبَتِهِ لَهَا أَيْضًا ، فَقَالَ : وَكَانَ لَا يَعْاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ ، وَسَأَلَتْ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ (الْمَعَاظِلَةِ) فَقَالَ : مِدَاخِلَةُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ ، يَقَالُ : تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ ، وَعَاظَلَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ ، إِذَا رَكِبَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لِحَالِ أَنْ يَنْكَرَ مِدَاخِلَةَ بَعْضِ الْكَلَامِ فِيما يَشْبَهُهُ أَوْ فِيما كَانَ مِنْ جِنْسِهِ ، وَبَقِيَ التَّكْرِيرُ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُهُ فِيما لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ ، وَمَا هُوَ غَيْرُ لَاقٍ بِهِ ، وَمَا أَعْرَفُ ذَلِكَ إِلَّا فاحِشَ الاستعارة . . . [انظر نقد الشعر ١٠٣ - طبعة بريول ، ليدن] ، وانظر « قدامَةُ بن جعفر والنقد الأدبي ٢٠٤ - ٢١٥ من الطبعة الثانية » .

(٤) الهدم الثوب البالي أو المرقع ، والنواشر جمع ناضرة . وهى عصب فى الذراع ، تصمت تسكت ولدها ، والجذع السيق الغشاء . والبيت من قصيدة لأوس فى رثاء فضالة بن كعدة ومطلعا :

أَيْنَمَا النَّفْسُ أَجْمَلُ جِزْءًا إِنَّ الَّذِي تَحْدِرِينَ قَدْ وَقَعَا

(٥) ديوان الفرزدق ١٠٨/١ مدح إبراهيم بن هشام الخزومى خال هشام بن عبد الملك .

القسم اللفظي منها الذي أنا بصدد ذكره هاهنا فأقول : لاني تأملت بالاستقراء من الأشعار القديمة ومحدثها ، ومن النظر في حقيقتها نفسها ، فوجدتها تنقسم إلى خمسة أقسام :

الأول منها : [ما يختص بالأدوات]

يختص بأدوات الكلام نحو من ، وإلى ، وعن ، وعلى ، وأشباهها ، فإن منها ما يسهل النطق به إذا ورد مع أخواته ، ومنها ما لا يسهل ، بل يزد ثقيلاً على اللسان ، ولكل موضع يخصه من السبك .
فما جاء منه قول أبي تمام :

إلى خالد راحت بنا أرحية مراقفها من عن كراكرها نكب^(٦)
فقوله : « من عن كراكرها » من الكلام المتعاطل الذي يثقل النطق به .

على أنه قد وردت هاتان اللفظتان وهما « من » و « عن » في موضع آخر ، فلم يثقل النطق بهما ، كقول القائل : « من عن يمين الطريق » ، والسبب في ذلك أنها وردتا في بيت أبي تمام مضافتين إلى لفظة « الكراكر » فثقلت منها ، وجعلتها مكروهتين كما ترى ، وإلا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة^(٧) ، فكانتا خفيفتين ، كقوله :
ولقد أراني للرماح دريئة من عن يعنى مرة وأمأمي^(٨)

والأصل في ذلك راجع إلى السبك ، فإذا سبكت هاتان اللفظتان أو ما يجري مجراها مع ألفاظ تسهل منها لم يكن بها من ثقل كما جاءتا في بيت قطري ، وإذا سبكتا مع ألفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت أبي تمام .

(٦) ديوان أبي تمام ٣٠ من قصيدة في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعها :
لقد أخذت من دار ماوية الحقب أغل المغاني لليل هي أم نهب
والأرحية ناقة منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل كريم ، كراكرها - جمع كركرة - رعى صدرها وخواصرها ،
نكب - جمع نكباء - مائلة .

(٧) هو قطري بن الفجاءة المازني ، من زعماء الحوارج الشراء والخطباء ، قضى مدة طويلة في حروب مع الأمويين ، حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩ هـ .

(٨) الدريئة الحلقة يتلم الطعن والرمي عليها ، والبيت من قصيدة مطلعها :
لا يركن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحام^{٣٠٧}

ومن هذا القسم قولُ أبي تمامٍ أيضاً :
 كأنه لاجتماع الروح فيه له في كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ رُوحٌ^(٩)
 فقوله « في » بعدَ قوله « فيه له » ممّا لأبحسنُ وروده .

وكذلك وردَ قولُ أبي الطيّب المتنبّي :
 وتُسَعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سُبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ^(١٠)
 فقوله « لها منها عليها » من الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ الثَّقِيلِ .
 وكذلك قولُه :

تَبَيَّنْتُ وَفُودَهُمْ تَسْرَى إِلَيْهِ وَجَدَّوَاهُ الَّتِي سَأَلُوا اغْتِفَارُ
 فَخَلَفَهُمْ بَرْدُ الْبَيْضِ عَنْهُمْ وَهَامُهُمْ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارُ^(١١)
 وقوله « وهامُهُمْ لَهُ مَعَهُمْ » مما يثقلُ النطقُ به ، « يتعنثرُ اللسانُ فيه » ، لكنّه أقربُ حالاً
 من الأول .

ومن الأحسنِ في هذا الموضع قول أبي تمام :
 دَارَ أَجَلُ الْهَوَى عَنْ أَنْ أَلِمَّ بِهَا فِي الرُّكْبِ الْأَوْعَيْنِ مِنْ مَنَاحِجِهَا^(١٢)

(٩) ديوان أبي تمام ٧١ من قصيدة في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري . وأولها :
 قل للأُمير لقد قللتني نعماً فت التناء بها ما هبت الريح
 وفي الديوان « في اجتماع » موضع « لاجتماع » . والجارحة العضو .
 (١٠) ديوان المتنبّي ٢٧٠/١ من قصيدة أولها :
 عواذِلُ ذاتِ الحِجَالِ فِي حِوَاكِيهِ وَإِنْ ضَجِيعُ الْحُودِ بَنَى لِلْجَدِ
 والغمرة الشدة . والسبوح الفرس الشديد الجري .

(١١) ديوان المتنبّي ١٠٠/٢ من قصيدة قالها لما أوقع سيف الدولة بني عقيل وتشير وبني العجلان وبني
 كلاب ، حين عاثوا في عمله ، وخالفوا عليه . ويذكر إيفاضهم بين يديه . وظفره بهم . وأولها :
 طَوَالَ قَنَسَا تَطَاعَنَاهَا قِصَارُ وَقَطْرِكَ فِي نَدَى وَوُغَى بِحَارِ
 ومعنى البيت : أنهم وفدوا عليه لم يطلبوا منه شيئاً سوى العفو عنهم . وأنه استبقاهم يرد سيوفه عنهم . وجعل
 رءوسهم معهم عارية متى شاء أخلاها .

(١٢) ديوان أبي تمام ٧٢ من قصيدة في مدح الفضل بن صالح الهاشمي مطلقها :
 أهدى الدمع إلى دار وما صحها للمنازل سهم من سوافحها
 وما صحها دارها . وسوافحها سواكها . وألم أنزل . ومناعها عطايها .

فقوله : « عَنْ أَنْ » في هذا البيت من الخفيف الحسن الذي لا بأس به .

القسم الثاني من المعاطلة اللفظية :

تختص بتكرير الحروف ، وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ولا بتكرير المعاني - مما يأتي ذكره في باب التكرير في المقالة الثانية - وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المتشور أو المنظوم ، فيقول حيثنطق به ، فن ذلك قول بعضهم :

وَقَبْرٌ حَرْبٌ بِمَكَانٍ قَفْرٍ . وَلَيْسَ قُورٌ قَبْرٌ حَرْبٌ قَبْرٌ (١٣)

فهذه القافات والراءات كأنها في تنابُعها سلسلة ، ولا خفاء بما في ذلك من النقل ، وكذا ورد قول الحريري في مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا وَعَافَ عَافِي الْعُوفِ عِرْفَانَهُ (١٤)

فقوله « وعاف عافى العوف عرفانه » من التكرير المشار إليه .

وكذلك ورد قوله أيضاً في رسالته اللتين صاغها على حرفي السين (١٥) والشين (١٦) ، فإنه أتى في إحدهما بالسين في كل لفظة من ألفاظها ، وأتى في الأخرى بالشين في كل لفظة من ألفاظها ، فجاءتا كأنهما رقي العقارب ، أو خذروقة العزائم ، وما أعلم كيف خفي ما فيها من القبح على مثل الحريري مع معرفته بالجميل والردي من الكلام ؟ ويحكى عن بعض الوعاظ أنه قال في جملة كلام أوردته : « جَنَى جَنَاتٍ وَجَنَاتٍ الْحَبِيبِ » فصاح رجل من الحاضرين في المجلس ، وماد وتغاشى ، فقال له رجل كان إلى جانبه : ما الذي سمعت حتى حدث بك هذا ؟ فقال : « سمعتُ جِيمًا في جِيم ، في جِيمٍ فصِحتُ » ١١ ،

(١٣) ذكروا أنه من شعر الجن ، وأنه لا يتبأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يسمع ، وذكروا أن جنيا صاح على حرب بن أمية فأت في فلاة ، ويسمى نوع هذا الجن هاظا .
(١٤) مقامات الحريري ٣٦٥ من المقامة التقلبية . وأزور مال وأعرض . وعاف استغفر . والعاف طالب العطاء .

(١٥) الرسالة السينية : مقامات الحريري ٦٠٣ . (١٦) الرسالة الشينية : مقامات الحريري ٦٠٧

وهذا من أفتح عُيُوب الألفاظ .

ومما جاء منه قولُ أبى الطيب المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

• أترأها لكثرة العشاق (١٧) •

كيف تَرْنَى التي كُلَّ جَفْنٍ رَأَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَأَى (١٨)

وهذا وأمثاله إِنَّمَا يَعْزِضُ لِقَائِهِ فِي تَوْبَةِ الصَّرَعِ التي تنوبُ في بعض الأيام !

ومن هذا القسم قولُ الشاعر المعروف بكُشَاجِم (١٩) في قصيدته التي مطلعها :

• دَاوِ خُمَارِي بِكَأْسِ خُمَرٍ •

وَالزَّهْرُ وَالْقَطَرُ فِي رُبَاهَا مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرٍ

حَدَاقَتْ كَفُّ كُلِّ رِيحٍ حَلَّ بِهَا خِطُّ كُلِّ قَطَرٍ

وهذا البيتُ يحتاجُ الناطقُ به إلى بِرْكَارٍ يَضُمُهُ في شدقه ، حتى يدبره له .

وعلى هذا الأسلوبِ وردَ قولُ بعضهم ، وهو البيتُ المشهورُ الذي يتذاكرُ الناسُ :

مَلَيْتُ مِطَالًا مَوْلُودٌ مُقْدَى مَلِيحٍ مَانِعٍ مِنِّي مُرَادِي

وهذه المياتُ كأنها عُقْدٌ متصلةٌ بعضها ببعض .

وكان بعضُ أهلِ الأدبِ من أهلِ مصرنا هذا يستعملُ هذا القِسْمَ في ألفاظه

كثيراً في كلامه نثراً ونظماً ، وذلك لعدم معرفته بسلوكِ الطريق . وأنا أذكرُ نبذةً مِنْ

ذلك كقوله في وصف رجلٍ سخى : « أَنْتَ الْمَدِيحُ ، كَبِدَا تَرْبِيحُ ، وَالْمَلِيحُ إِنْ تَجَهَّمَ

الْمَلِيحُ بِالتَّكْلِيحِ ، عِنْدَ سَائِلٍ تُلُوحُ ، بَلْ يَقُوقُ إِذْ يَرُوقُ مَرَأَى لُوحُ ، يَامَغْبُوقَ كَأَيْسَ

الْحَمْدِ يَامُصْبُوحُ ، ضَاقَ عَنِ نَدَاكَ اللُّوحُ ، وَبِبَابِكَ الْمَفْتُوحُ تَسْتَرِيحُ ، وَتَرِيحُ ذَا

التَّزْيِيحِ ، وَتَرْفُهُ الطَّلِيحُ •

(١٧) وحيز البيت : • تحسب الدمع خلقة في اللآلئ •

وهي في مدح أبي المثنى الحسين بن علي بن حمدان .

(١٨) ديوان المتنبي ٣٦٢/٢ - راءها : رآها . والمعنى هذه المهيوبة لا ترحم باكياً . وكيف ترجمه وهي ترى

كل جفن من النظر إلا جفنها غير راق بالكاء . يريد غير منقطع من البكاء . فهي لا ترحم أحداً . لأنها تحسب الدمع في أجنان العشاق خلقة .

(١٩) كشاجم هو محمود بن الحسين الكاتب الشاعر . أحد وصافى الطبيعة . وكان من خدام سيف الدولة .

توفي سنة ٣٢٠ هـ .

فانظر إلى حرف الحاء . كيف قد لَزِمَتْ في كلِّ لفظةٍ من هذه الألفاظِ . فجاء كما
براه من الثقل والثبات ؟

واعلم أنَّ العرب الذين هم الأصلُ في هذه اللغة قد عدَّلُوا عن تكرير الحروف في
كثير من كلامهم . وذلك أنَّه إذا تكرر الحرفُ عندهم ادَّعَمُوهُ استحساناً ، فقالوا في
« جَعَلَ لَكَ » . « جَعَلْتُكَ » وفي « تَضَرَّبْتُ » « تَضَرَّبْتُ » . وكذلك قالوا « استعد
فلانٌ للأمر » . إذا تأهَّب له . والأصلُ فيه « اسْتَعَدَّ » ، و « استتب الأمر » إذا تهيأ .
والأصلُ فيه « اسْتَبَّ » . وأشبه ذلك كثيرٌ في كلامهم ، حتى أنهم لشدة كراهتهم
لتكرير الحروف أبدلُوا أحد الحرفين المكررين حرفاً آخر غيره ، فقالوا : « أُمِلْتُ
الكتاب » . والأصلُ فيه « أُمِلْتُ » . فأبدلُوا اللامَ ياء ، طلباً للخفة ، وفراراً من الثقل
وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنُّك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها
بعضاً ؟ .

القسم الثالث من المعاملة :

أن تردَّ ألفاظٌ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضاً .
فما يختلف بين ماضٍ ومُستقبل . ومنها ما لا يختلف .
فالأول : كقول القاضى الأرجاني^(٢٠) في أبياتٍ يَصِفُ فيها الشمعة . وفيها معنى
هُوَلُهُ مُبْتَدِع . ولم يُسَمَّعْ من غيره . وذلك أنَّه قال عن لسان الشَّمع : إِنَّهُ أَلَفَ الْعَسَل
وَهُوَ أَخُوهُ الَّذِي رُبِيَ مَعَهُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ . وَإِنَّ النَّارَ فَرَّقَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَأَنَّهُ نَذَرَ أَنْ يُقْتَلَ
نَفْسَهُ بِالنَّارِ أَيْضاً مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَسَاءَ الْعِبَارَةَ . فقال :
بِالنَّارِ فَرَّقَتْ الْحَوَادِثُ بَيْنَنَا وَبِهَا نَذَرْتُ أَعُوذُ أَقْتُلُ رُوحِي

(٢٠) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني . الملقب ناصح الدين ، وكان قاضى تستر وعسكر
مكرم . وله شعر رائق في نهاية الحسن . ذكره العبد الكاتب في الجريدة . فقال : كان الأرجاني في عنوان
عمره بالمدرسة النظامية بأصبهان . وشعره من آخر عهد نظام الملك منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة إلى آخر عهده
وهو سنة أربع وأربعين وخمسمائة ولم يزل نائب القاضى بعسكر مكرم وهو مجل مكرم . وشعره كثير . والذي
جمع منه لا يكون عشرة .

فَقَوْلُهُ : « نَذَرْتُ أَعُوذُ [أَقْتُلُ] » من المعاطلة إليها .

وَأَمَّا مَا يَرُدُّ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ مِنَ الصَّيْغَةِ الْفَعْلِيَّةِ ، فَكَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِ :
أَقُلْ أَتَيْلُ أَقْطِيعُ أَحْيِلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدْ زِدْهَشْ بِشْ تَفْضُلْ أَذِنْ سَرَّ صِلْ (٢١)
فهذه ألفاظٌ جاءت على صيغةٍ واحدةٍ ، وهى صيغة الأمر ، كأنه قال : « افعل ،
افعل ... هكذا إلى آخر البيت » وهذا تكريرٌ للصيغة ، وإن لم يكن تكريراً للحروف .
إلا أنه أخوه ، ولا أقولُ ابن عمه .

وهذه ألفاظٌ متراكبةٌ متداخلةٌ ، ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالا كما قالَ عَبْدُ
السَّلامِ بن رَغَبان (٢٢) :

فَسَدَّ النَّاسُ فَاطْلَبَ الرِّزْقَ بِالسَّيِّئِ خَبٍ وَالْأَفْعُ شَدِيدَ الْهَزَالِ
أَحْلُ وَامْرَزُ وَضُرَّ وَانْفَعُ وَلِنْ وَآخَذَ شُنْ وَأَبْرَزُ ثُمَّ انْتَلَبَ لِلْمَعَالِي
أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمَّا عَظَفَ هَاهُنَا بِالْوَاوِ لَمْ تَرَكَبِ الْأَلْفَاظُ كِتْرَاكِهَا فِي بَيْتِ أَبِي الطَّيِّبِ
الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهُ ؟

فإن قيل : إنك جعلتَ ما كانَ وَاَرِدَاً على صيغةٍ واحدةٍ على سبيل التكرارِ مُعَاظِلَةً .
وقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ » (٢٣) ، وَلَوْ
كَانَ مُعَاظِلَةً لَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِثْلُهُ ؟ !

فالجوابُ عن ذلك أَنِّي أَقُولُ : هذه الآيةُ ليست كالَّذِي أَنْكَرْتَهُ . فإن هذا الموضعَ
يُنْظَرُ فِيهِ إِلَى الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ، فَإِذَا كَثُرَ كَانَ تَعَاظِلًا ، لِتَرَاكِيبِهِ وَثِقَلِهِ عَلَى النُّطْقِ ، وَقَدْ

(٢١) ديوان المتنبى ٨٥/٣ من قصيدة مطلّهما :

أَجَابَ دَعْمَى وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ دَعَا ظِلَاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ وَالْإِبِلِ
وقَدْ أَمَرَ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَمْرًا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ « أَقُلْ » مِنَ الْإِقَالَةِ ، يُقَالُ أَقْلْتُهُ مِنْ عَثْرَتِهِ ، وَ « أَتَيْلُ » مِنَ الْإِتَالَةِ ،
وَهُ أَقْطَعُ » مِنَ الْإِقْطَاعِ ، وَهُ أَحْمِلُ » مِنْ قَوْلِهِمْ : حَمَلْتُهُ عَلَى فَرَسٍ . وَقَوْلُهُ « عَلَّ » مِنَ الْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ . وَ « سَلَّ »
مِنْ السَّلَوِ . وَهُ أَعِدْ » مِنَ الْإِعَادَةِ . وَ « زِدْ » مِنَ الزِّيَادَةِ . وَ « هَشْ » مِنْ قَوْلِهِمْ : هَشْتُ إِلَى كَذَا . وَهُ الْتَهْلُ
نَحْوُ الشَّيْءِ . وَهُ بِشْ » مِنَ الْبِشَاشَةِ وَهِيَ الطَّلَاقَةُ . وَ « تَفْضُلْ » مِنَ الْإِفْضَالِ . وَ « أَذِنْ » مِنَ الدُّنُو . وَهُ سَرَّ » مِنَ
السَّرُورِ . وَ « سَلَّ » مِنَ الصَّلَةِ . وَهُي الْمَطْيَةُ .

(٢٢) هو المعروف بديك الجنب الحمصي .

(٢٣) سورة التوبة : الآية ٥ .

عرفتك ان مايفصل بين صيغته بواو العطف يكون أقل ثقلاً ممّا لايفصل . والذي أنكرته من ذلك هو أن تأتى ألفاظاً مكررة على صيغة واحدة ، كأنها عطف متصلة ، فحينئذ يُنقل النطق بها . ويكره موقعها من السمع . كبيت أبي الطيب المتنى .

وأما هذه الآية المشار إليها فإنها خارجة عن هذا الحكم .

الآن ترى أنها لما وردت ألفاظها على صيغة واحدة فُرق بينها بواو العطف ثم مع التفريق بينها بواو العطف لم يرد التكرير فيها إلا بين ثنتين . وهما « خذوهم » و « اخصروهم » .

وأما الصيغة الأولى فإنها أضيف إليها كلام آخر ، فقيل : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ولم يقل : اقتلوا المشركين وخذوهم . ثم لما جاءت الصيغة الرابعة أضيف إليها كلام آخر أيضاً . فقيل « واقعدوا لهم كل مرصد » .

لاجرم أن الآية جاءت غير ثقيلة على النطق مع توارد صيغة الأمر فيها أربع مرار . وهذه رموز ينبغي أن يُنبّه لها في استعمال الألفاظ إذا جاءت هكذا .

القسم الرابع من المعاطلة :

وهو الذى يتضمن مضافات كثيرة ، كقولهم : « سرج فرس غلام زيد » وإن زيد على ذلك قيل : « ليد سرج فرس غلام زيد » وهذا أشد قبّحاً وأثقل على اللسان وعليه ورد قول ابن بابك^(٢٤) الشاعر فى مفتتح قصيدته له :

حَمَامَةٌ جَرَعًا حَوْمَةَ الْجَنْدَلِ اسْجَمِي فَأَنْتِ بَمَرَأَى مِنْ سَعَادٍ وَمَسْمَعٍ

القسم الخامس من المعاطلة :

أن ترد صفات متعددة على نحو واحد ، كقول أبي تمام فى قصيدته التى مطلعها :

• مَا لِكَيْتِبِ الْحِمَى إِلَى عَقْدِهِ^(٢٥) •

^(٢٤) هو أبو القاسم عبد الصمد بن بابك . ذكره الثعالى فى البيتة ٢٧٤/٣ فى جملة الشعراء الطائرين على صاحب من الآفاق . وقال فى نعت : شاعر شعاره إحسان السبك . واحكام الرصف ، وابداع الوصف . يشبه كلامه مرة فى الجزالة والفساحة كلام الملقين من الشعراء المتضمنين ، ويناسب تارة فى الرشاقة والملاحة قول المهيد بن المهدى والمولدين .

(٢٥) ديوان أبي تمام ٩١ . وهو مطلع قصيدة فى مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني . وعجز البيت : =

فقال يصف جملاً :

سَأَحْرِقُ الْخَرْقَ بِابْنِ خَرْقَاءَ كَالْهَبِ سَقِ إِذَا مَا اسْتَحَمَ مِنْ نَجْدِهِ (٢٦)
مُقَابِلَ فِي الْجَبِيلِ صُلْبُ الْقَرَا لَوْحُكُ مِنْ عَجَبِهِ إِلَى كَنْدِهِ (٢٧)
تَسَايِكَ نَهْدِهِ مُدَاخِلِهِ مَلْمُومِهِ مُحْزَلِّهِ أَجْدِهِ (٢٨)
فَالْيَبِيتُ الثَّالِثُ مِنَ الْمَعَاظِلِ الَّتِي قَلَعُ الْأَسَانِ دُونَ إِبْرَادِهَا .

وكذلك قَالَ من هذه القصيدة يصفُ رُمَحًا :

وَمَرٌّ تَهْفُو ذَوَابِتُهُ عَلَى أَسْمَرٍ مَتْنٍ يَوْمَ الْوَعَى جَسِدُهُ (٢٩)
مَارِنِهِ لَدُنْهِ مُتَقَفِهِ عِرَاضِهِ فِي الْأَكْفِ مُطْرَدُهُ (٣٠)
وهذا كالأول في قبحه وثقله ، فَقَاتَلَهُ ، اللَّهُ ! مَا أَمِنَ شِعْرَهُ ! وما أَسْخَفَهُ في

بعض الأحوال !

وعلى هذا جاءَهُ من هذه القصيدة أيضاً يَصِفُ الممدوح :

إِلَيْكَ عَنْ سَيْلٍ عَارِضٍ خُضِلَ الدُّ شَوْ بَوْبٍ يَأْتِي الْجِمَامُ مِنْ نَضْدِهِ (٣١)
مُسْفِهِ نُورِهِ مُسَحِّحِهِ وَأَيْلَهُ مُسْتَهْلَهُ جَرْدِهِ (٣٢)
ولو لم يكن لأبي تمامٍ من القبيح الشنيع إلا هذه الأبيات لحطَّت من قَدْرِهِ .

• ما بال جرعائه إلى جرده •

- والكيب نل الرمل ، والعقد الرمل المنعقد ، والجرعاء الوعر يطوره رمل ، والجرده سهل بلا نبات .
(٢٦) الحرق الغلاة ، الحرقاء الناقة ، الحيق ذكر النعام ، النجد العرق .
(٢٧) الجبيل المنفرد المجدول ، القرا الظهر ، المعجب أصل الذنب ، الكند مجتمع الكتفين .
(٢٨) تاسمه حليته ، نهده ثديه ، محزله مرتفع سيره ، أجده فقار ظهره .
(٢٩) تهفو تحنق ، الذوابة ضفيرة الشعر المرسلة ، الجسد المصبوغ بالجسد وهو الزعفران .
(٣٠) المارن الصلب اللين ، اللدن اللين ، المثقف المقوم ، عراضه صفحته ، مطرده بقال : رمح مطرد الأنابيب ، أى متناسقها .
(٣١) العارض السحاب ، الحفضل التندى ، الشؤبوب المطر ، الجمام الموت ، النضد المتراكم .
(٣٢) السف القريب من الأرض ، الثر الكثير للماء ، السحج السائل من فوق ، الوابل الشديد ، المسهل التلألؤ .

(٣٣) ديوانه ١٨٩/٢ من قصيدة في مدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسي ، ومطلعا :

أَطْيَبُ الْوَحْشِ نَوَلاً ظِلِيَةِ الْأَنْسِ لَا غِدَوْتَ مَجْدَ فِي الْهَوَى تَعَسَ

وعلى هذا ورد قول أبي الطيب المتنبي (٣٣) :

دَانٍ ، بَعِيدٌ ، مُحِبٌّ ، مُبْغِضٌ ، بَهْجٌ أَغْرٌ ، حُلُوٌّ ، مُعِيرٌ ، لَيْنٌ ، شَرَسٌ (٣٤)

نَدْبٌ ، أُمِيٌّ ، غَرِيٌّ ، وَافٍ ، أَخِي ثَقَّةٌ

جَعَدٌ سَرِيٌّ ، نَوِيٌّ ، نَدْبٌ ، رِضِيٌّ ، نُدُسٌ (٣٥)

وهذا كأنه سلسلة بلا شك ، وقليل ما يوجد في أشعار الشعراء ، ولم أجده كثيراً إلا في شعر الفرزدق ، وتلك معاملة معنوية ، وسيأتي بيانها في بابها ، وهذه معاملة لفظية ، وهي توجد في شعر أبي الطيب كثيراً .

النوع الثامن

في المتافرة بين الألفاظ في السبك

وهذا النوع لم يحقق أحد من علماء البيان القول فيه ، وغاية ما يقال إنه يشبهى ألا تكون الألفاظ متافرة عن مواضعها ، ثم يكتفى بهذا القول ، من غير بيان ولا تفصيل ، حتى أنه قد خلط هذا النوع بالمعاملة . وكل منها نوع مفرد برأسه ، له حقيقة تخصه ، إلا أنها قد اشتبهت على علماء البيان ، فكيف على جاهل لا يعلم ؟ !
وقد بينت هذا النوع ، وفصلته عن المماثلة ، وضربت له أمثلة يستدل بها على أخواتها ، وما يجري مجراها .

(٣٤) البيج الفرح ، والشرس هنا الصعب ، ومعنى البيت : هو قريب من يقصده ، بعيد عن ينازعه ، يحب للفضل وأهله ، مبغض للنقص وأهله ، يبيح بالقصاص ، حلو لأوليائه ، مر على أعدائه ، لين حسن الخلق على الأولياء : شرس صعب على الأعداء . يريد أنه جامع لهذه الأوصاف . كلنا قال أبو الفتح بن جني ، ونقله الواحدى حرفاً حرفاً ، وانظر البيهقي في شرح الديوان .

(٣٥) تد جواد ، يريد ندى الكف ، والألى الذى يأبى الدنيا ، غرأى مغرأ يفعل الجميل جمده ماض في الأمر ، والسرى الشريف . بأنه أى ذو نية وهى العقل ، والتدب السريع في الأمر إذا تدب إليه ، والندس العارف بالأمور البحوث عنها ، وهو يقسم الدال وكسرها .

وجملة الأمر أن مدار سبك الألفاظ على هذا النوع والذي قبله دون غيرها من تلك الأنواع المذكورة ، لأن هذين النوعين أصلاً سبك الألفاظ ، وما عداها فرغ عليها وإذا لم يكن النائر أو الناظم عارفاً بهما فإن مقاتله تبدو كثيراً .
وحقيقة هذا النوع الذي هو (المنافرة) أن يذكر لفظ أو ألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر .

وعلى هذا فإن الفرق بينه وبين المعاملة أن المعاملة هي التراكب والتداخل إما في الألفاظ أو في المعاني ، على ما أشرت إليه ، وهذا النوع لا تراكب فيه ، وإنما هو إيراد ألفاظ غير لائقة بموضعها الذي ترد فيه .

وهو ينقسم قسمين :

أحدهما : يوجد في اللفظة الواحدة ، والآخر : في الألفاظ المتعددة .
فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فإنه إذا ورد في الكلام أمكن تبديله بغيره مما هو في معناه ، سواء كان ذلك الكلام نثراً أو نظماً .

وأما الذي يوجد في الألفاظ المتعددة فإنه لا يمكن تبديله بغيره في الشعر ، بل يمكن ذلك في النثر خاصة ، لأنه يفسر في الشعر من أجل الوزن .

فما جاء من القسم الأول قول أبي الطيب المتنبي :

فلا يُبرم الأمر الذي هو حائلٌ ولا يُحلل الأمر الذي هو يُبرم^(١)

فلفظة « حائل » نافرة عن موضعها ، وكانت له مندوحة عنها ، لأنه لو استعمل

عوضاً عنها لفظة « ناقص » ، فقال :

فلا يُبرم الأمر الذي هو ناقصٌ ولا يُنقص الأمر الذي هو يُبرم

لجاءت اللفظة قارة في مكانها ، غير قلقية ولا نافرة .

وبلغني عن أبي العلاء بن سليمان المعري أنه كان يتعصب لأبي الطيب ، حتى أنه

(١) ديوان المتنبي ٨٥/٤ من قصيدة في مدح عمر بن سليمان الشراي . ومطالعها :

نرى عظاماً بالين والصد أعظم وتتهم الواشين والدمع منهم

رواية النيران : « ولا يبرم » موضع « فلا يبرم » و « يبرم » موضع « يبرم » .

قال يسميه « الشاعر » ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول : ليس في شعره
لفظة يُمكنُ أن يقومَ عنها ما هو في معناها ، فيجىء حسناً مثلها !
فياليت شِعْرى أما وَقَفَ على هذا البيت المشار إليه ؟ لكنَّ للهوى كما يُقال أَعْمَى ،
وكان أبو العلاء أَعْمَى العين خِلْقَةً ، وأَعْمَاهَا عَصِيَّةٌ ، فاجتمع له العمى من جهتين .
وهذه اللفظة التي هي « حَالِلٌ » وما يَجْرى مجراها قبيحة الاستعمال ، وهي فكُ
الإدغام في الفعل الثلاثي ، ونقله إلى اسم الفاعل ، وعلى هذا فلا يحسن أن يقال : بلَّ
الثوب ، فهو بالل ، ولا سَلَّ السَّيْفَ ، فهو سَالِلٌ ، ولا أَنْ يقال : هم بالأمز ، فهو
هَامِمٌ ، ولا خَطَّ الكتابَ ، فهو خَاطِطٌ ، ولا حَنَّ إلى كذا ، فهو حَايِنٌ ! !
وهذا لو عَرَضَ على مَنْ لا ذوقَ له لَأَذْرَكَ وفَهَمَهُ ، فكيف مَنْ له ذوقٌ صحيحٌ
كأنبي الطيب ؟ لكن لا بُدَّ لكلِّ جَوَادٍ من كِبَوَةٍ .

وأنشد بعض الأدباء بيتاً لِإِدْعِيل^(٢) ، وهو :
شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ في الحوائج إِنَّهُ يَصُونَكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ
فَقُلْتُ له : عَجَبُ هذا البيت حَسَنٌ ، وأما صَدْرُهُ فقيبح ، لأنه سَبَكَ قَلْعاً نَافِراً ،
وتلك الفاء التي في قوله : « شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ » كأنها رُكْبَةُ البعير ، وهي في زيادتها
كزيادة الكرش !

فقال : لهذه الفاء في كتاب الله أشباه ، كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ
. وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »^(٤) .

فقلتُ له : بين هذه الفاء وتلك الفاء فرقٌ ظاهرٌ يُدْرِكُ بالعلم أولاً ، وبالذوق
ثانياً .

(٢) هو دعلج بن علي بن رزين ، يمى من خزاعة ، نشأ بالكوفة متعصباً لقومه على العلانية ، هجاء ،
خيث اللسان ، لا يسلم منه كبير ولا صغير حتى الخلفاء . فعاش مكروهاً مرهوباً حتى توفي سنة ٢٤٦ هـ ، وشعره
من النوع المطبوع ذى الأسلوب القوى ، لتأثره بترعة الجريئة في وجه الدولة ، وبتمصبة للطالبيين ، وبميله إلى
الإرهاب والتخريف ، وينقلب على شعره الهجاء والمديح .

(٣) الموازنة ٥٩ والصناعتين ٢١٣ وقيل هذا البيت :

وإن امرأ أسدى إلى بشافح إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

(٤) سورة المدثر : الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤

أما العلم : فإنَّ الفاء في « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » هي الفاء العاطفة .
فإنَّها واردة بعد « قُمْ فَأَنْذِرْ » وهي مثل قولك « اَمْشِ فَاسْرِعْ » ، و « قُلْ فَأُبْلِغْ »
وليست الفاء التي في « شَفِّيعَكَ فَاشْكُرْ » كهذه الفاء ، لأن تلك زائدة ، لا موضع
لها ، ولو جاءت في السورة كما جاءت في قول دِعْبِل - وَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ -
لا يندئى الكلام ، فقيل : رَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . لكنها لما جاءت بعد « قُمْ فَأَنْذِرْ »
حَسُنَ ذكرها فيما يأتي بعدها من « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » .
وأما الذوق : فإنه ينبو عن الفاء الواردة في قول دِعْبِل ، وَيَسْتَقِلُّهَا وَلَا يَوْجُدُ
ذلك في الفاء الواردة في السورة .

فلمَّا سَمِعَ ما ذكرته أذعن بالتسليم .
ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظاماً كان أو نثراً لا يفتن لها إلا الراسخ في
علم الفصاحة والبلاغة !

ومن هذا القسم وصل همزة القطع ، وهو محسوب من جائزات الشعر التي لا
تجوز في الكلام المنثور ، وكذلك قطع همزة الوصل ، لكن وصل همزة القطع أقيح ،
لأنه أثقل على اللسان

فجاء ورد من ذلك قول أبي تمام (٥) :
قَرَانِي اللَّهُمَّ وَالْوَدَّ كَأَنَّمَا أَفَادَ الْغَنَى مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي (٦)
فَأُصْبِحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ مِنْ أَجَلِهِ يَأْعْظَامُ مَوْلُودَ وَرَأْفَةِ وَالِدِ (٧)
فقوله « من أجله » وصل همزة القطع .

(٥) ديوان أبي تمام ١١٧ من قصيدة في مدح محمد بن الميثم ، ومطلعا :
قفوا جددوا من عهدكم بالمهاد وإن هي لم تسمع لنشدان ناشد

(٦) قرأني أضافني ، والله المطايا .

(٧) رواية الديوان « لأجله » وعليها لا يكون في البيت موضع شاهد .

(٨) ديوان المتنبي ١١١/٢ من قصيدة مطلقها :

طوال قتاً تطاعها قصار وعطرك في ندى ووغى بحار

وعليه وَرَدَ قول أبي الطيب المتنبي :

يُوسِطُهُ الْمَقَاوِزَ كُلُّ يَوْمٍ طَلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الْإِنْتِظَارَ ^(٨)

فقوله « لا الانتظار » كلامٌ نافر عن موضعه .

ومن هذا القسم أن يُفَرَّقَ بين الموصوفِ والصفةِ بضميرٍ من تقدّم ذكره ، كقولِ
البُحْتَرِيِّ :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ ^(٩)

تقديره « من قلبي المتعلق بها » فلما فصل بين الموصوفِ الذي هو « قلبي » والصفة
التي هي « المتعلق » بالضمير الذي هو « بها » قُبِحَ ذلك ، ولو كان قال « من قلبِها »
متعلق « لزال ذلك القُبْحُ » ، وذهبت تلك الهجئة .

ومن هذا القسم أيضاً أن تُرَادَّ الألفُ واللام في اسم الفاعلي ، ويقام الضميرُ فيه
مقام المفعولِ ؛ كقول أبي تمام :

فَلَوْ عَابَتْهُمْ وَالزَّائِرِينَ لَمَا مَزَتْ الْبُعِيدَ مِنَ الْحَمِيمِ ^(١٠)

فقوله « الزائري » اسم فاعل ، وقوله « هم » الذي هو الضمير في موضع المفعول
تقديره « الزائرين أرضهم » ، وأودارهم » ، أو « الزائرين إياهم » فاستعمالُ هذا مع
الألف واللام قبيح جداً ، وإذا حُدِّثْنَا زَالَ ذَلِكَ الْقُبْحُ . وقد استعملها الشعراءُ
المتقدمون كثيراً .

= وقال أبو الفتح بن جني : قلت لأبي الطيب عند قراءتي عليه : كسر اللام من « الانتظار » جيد لكونها
وسكون النون . وقال علي بن حمزة : سألت أبا الطيب عن فتح اللام ، فقال :

اجتمع ساكنان ، فحركت اللام بحركة ما قبلها ، وهي اللام من (لا) . ومعنى البيت : إنما يتزلزله المفاوز
طلب أعدائه ، لا انتظار من يلحقه ويغافه ، وذلك أن الحائض يتزلزله المفاوز خوفاً من يلحقه ، وهذا يتزلزلها طلباً
لمن يهرب منه إليها .

(٩) مطلع قصيدة في مدح الفتح بن حاتان ، ديوان البحري ٤٨١ .

(١٠) ديوان أبي تمام ٢٨٩ من قصيدة في مدح بعض بني عبد الكريم الطائيين ومطلعها :

أرأمة كنت مألّف كل ريم لو استمتعت بالأنس القميم

ورواية الديوان : « فلو عابته مع زائريهم » وعليها لا يكون في البيت موضع شاهد .

وبما جاء من القسم الثاني - الذي يَوجَدُ في الألفاظِ المتعددة - قولُ أبي الطيب أيضاً :

لَاخْلَقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفُ بِكَ رَأَى نَفْسَكَ كَلَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِيهَا^(١١)
فإنَّ عَجْزَ هَذَا الْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هَذَا فِي الْأَشْعَارِ كَثِيرٌ .

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع

القسم الأول

من كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر »

ويليه بعونه تعالى القسم الثاني

وأوله

المقالة الثانية : في الصناعة المعنوية

(١١) ديوان المتنبي ٢٣٢/١ من قصيدة في مدح أبي أيوب أحمد بن عمران ، ومطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موضوعاتها

ورواية الديوان « لاخلاق أسمع » و « راء » مقلوب « رأى » كما يقال « ناء » و « نأى » ومعنى البيت : لأحد

أسمع منك إلا رجلاً رأك فمرك ، فلم يسألك بأن تهب له نفسك .

فهرس

القسم الأول

من كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر »

- تصدير ٢٦ .
- الحاجة الى نشر الكتاب
- عقلية ابن الأثير وثقافته
- مصادر الكتاب
- أثر عصر ابن الأثير وفنه في المثل السائر
- منهج ابن الأثير في البحث البياني
- النقد والبلاغة في المثل السائر .

ترجمة ابن الأثير ٢٧-٢٩ .

كتاب المثل السائر

- ١ - مقدمة الكتاب ٣٣-٣٦ .
- أهمية علم البيان - كلمة في كتب السابقين
- اشادته بكتاى الموازنة وسر الفصاحة
- منهج البحث .
- ٢ - مقدمة الكتاب ٣٧-١٦٢ .
- الفصل الأول: في موضوع علم البيان ٣٧ .
- الفصل الثاني: في آلات علم البيان وأدواته ٣٨ .
- النوع الأول: معرفة علم العربية من النحر والتصريف ٤٩ .
- النوع الثاني: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ٥٠ .
- النوع الثالث: معرفة أيام العرب وأمثالهم ٥٣ .
- النوع الرابع: الاطلاع على المنظوم والمثثور ٥٩ .
- النوع الخامس . معرفة الأحكام السلطانية ٥٩ .

٦٠	النوع السادس : حفظ القرآن الكريم
٦١	النوع السابع : حفظ الأخبار النبوية
٦١	النوع الثامن : معرفة علمي العروض والقوافي
٦٢	الفصل الثالث : في الحكم على المعاني
٧٠	الفصل الرابع : في الترجيح بين المعاني
٧٨	الفصل الخامس : في جوامع الكلم
٨١	الفصل السادس : في الحكمة التي هي ضالة المؤمن
٨٤	الفصل السابع : في الحقيقة والمجاز
٩٠	الفصل الثامن : في فصاحة والبلاغة
٩٦	الفصل التاسع : في أركان الكتابة
١٠٠	الفصل العاشر : في الطريق إلى تعلم الكتابة
١٠٣	حل الآيات الشعرية
١٣٤	حل آيات القرآن الكريم
١٤٩	حل الأخبار النبوية

المقالة الأولى

في الصناعة اللفظية

في القسم الأول : في اللفظة المفردة

١٦٣	ما يحتاج إليه صاحب الصناعة في تأليفه
١٦٤	التفاوت بين الألفاظ
١٧١	تباعد مخارج الحروف وتقاربها
١٧٥	الرجوع من الألفاظ
١٨٦	تقسيم الألفاظ إلى جزلة ورفيقة
١٩٦	المبتدل من الألفاظ
٢٠١	الألفاظ المشتركة
٢٠٤	عدد حروف الكلمة
٢٠٦	خفة الحركات

في القسم الثاني : في الألفاظ المركبة

٢٠٩	أنواع تأليف الألفاظ
٢١٠	النوع الأول : للمسجع
٢١٠	اختلاف الآراء في المسجع - المسجع في القرآن

٢١١ السجع في الحديث النبوي
٢١٢ ذم سجع الكهان
٢١٤ السجع الجيد
٢٥٥ أقسام السجع من حيث تساوى القصول
٢٥٧ أقسام من حيث الطول والقصر : السجعالقصر...
٢٥٧ السجع الطويل
٢٥٨ التصريح في الشعر
٢٦٢ النوع الثاني : في التجنيس .
٢٦٣ حقيقة التجنيس...
٢٦٨ ما يشبه بالتجنيس..
٢٧٧ النوع الثالث : في التصريح .
٢٨١ النوع الرابع : في لزوم ما لا يلزم
٢٨٩ ما يلحق بالزوم
٢٩١ النوع الخامس : في الموازنة .
٢٦٣ النوع السادس : في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها ..
٣٠٥ النوع السابع : في المعاطلة اللفظية
٣٠٥ رأى قدامه في المعاطلة..
٣٠٦ - رأى آخر..
 - أقسام المعاطلة :
٣٠٧ (١) ما يختص بالأدوات
٣٠٩ (٢) ما يختص بتكرير الحروف
٣١١ (٣) ورود صيغ الفعل متتابعة
٣١٣ (٤) ما يتضمن مضافات كثيرة
٣١٣ (٥) ورود الصفات المتعددة على نحو واحد..
٣١٥ النوع الثامن : في المنافرة بين الألفاظ في السبك
٣١٦ المنافرة في اللفظ المفرد...
٣١٨ المنافرة في الألفاظ المتعددة
٣١٩ استنراكات القسم الأول...
٣٢١ فهرس الكتاب...



Bibliotheca Alexandrina



0447504